الإله تموز Tammuz

في المصادر العربية الإسلامية

الدكتور جمال تموم

قسم الآثار

جامعة دمشق

المقدمة:

عَبَد الإنسان الخصوبة في الطبيعة منذ عصور ما قبل التاريخ لأنها كانت في نظره المسؤولة عن نشوء الحياة واستمرارها، وطابقها مع الأم التي تنجب وتعطي، وعبّر عن ذلك من خلال صنع مجسمات طينية للإلهة الأم ذات صدر ضخم وأعضاء أنثوية بارزة، وذلك للتعبير عن موضع الخصب في المرأة والأم.

ومع بداية العصور التاريخية، أي بعد اختراع الكتابة، بدأت آلهة الخصب المذكر بالظهور، وأشهرها الإله تموز الذي أُطلق اسمه على الشهر الرابع في التقويم الرافدي، والمستخدم حتى الآن في التقويم السائد في بلاد الشام والعراق اسماً للشهر السابع فيه.

وهو موروث ثقافي يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد حيث كانت أشهر الأسماء المعمول بها حالياً في المنطقتين المذكورتين مستخدمة من قبل الأكاديين ومن بعدهم البابليين والآشوريين والآراميين والعبريين.

يظهر ملكان باسم تموز في قائمة الملوك الــسومرية Sumerian king list، وهـــي قائمة بأسماء حكّام سومر القديمة مع عدد سنوات حكمهم، هناك ست عــشرة نــسخة مكتشفة منها، كلها كُتبت باللغة السومرية، وبعضها يُظهر تأثيراً أكادياً واضحاً، يبــدو أنها وُضعت في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد (عصر ســلالة أور الثالثــة ٢١١٢-٢٠٠٤ ق.م)(١)، وهما:

١- "دوموزيد Dumuzid مدينة باد تيبيرا Bad-tibira، الراعي "سيباد Sipad بالسومرية، ريعو re,u بالأكادية" الذي حكم ستة وثلاثين ألف ســنة، وهــو الملك الخامس والأخير قبل الطوفان"، علماً أن هذه المدينة الذي يعني اسمها "قلعة النحاسين، جدار عمال النحاس" كانت مدينة سومرية قديمــة تــذكرها قائمة الملوك السومرية مدينة قبل الطوفان انتقلت إليها الملكية بعــد ســقوط مدينة إريدو، وعرفها الأكاديون باسم Du-gurgurri ويعرف موقعها الحالي باسم تل المدينة الواقع بين الشطرة وتل سنكرة (مدينة لارسا القديمــة) فــي جنوبي العراق. نشير هنا إلى أن الطوفان ما هو إلا فيضان نهــري دجلــة والفرات الذي يبدو أنه كان مدمراً كاسحاً في ذلك الزمن الموغل في القــدم الذي لا يمكن تحديده حالياً، ونظراً لشدته والآثار المدمرة في حياة الــسكان في ذلك الوقت، اعتُبر حداً فاصلاً بين زمنين جرى التأريخ بناءً عليه. وتذكر قائمة الملوك السومرية أن خمس مدن وثمانية ملوك حكموا قبــل الطوفــان، وتعطي أرقاماً خيالية لسنوات حكمهم.

٢- دوموزيد Dumuzid "السمَّاك، صياد السمك" الذي كانــت مدينتــه كــوارا Kuara، حكم مائة سنة (نحو ٢٦٠٠ق.م)، وهو الملك الرابع الأســطوري لأوروك من سلالة أوروك الأولى، حكم بين لوجــال بانــدا Lugalbanda وجلجامش Gilgamesh. علماً أن ســلالة أوروك الأولــى حكمــت بعــد "الطوفان".

كانت مدينة كوارا، بحسب الميثولوجيا السومرية، مسقط رأس الإله مردوك بن الإله إنكي، ويُعرف موقعها الحالي باسم تل اللحم على الضفة الغربية من مصب نهر الفرات على بعد نحو ٣٠ كم إلى الجنوب الشرقي من أور في محافظة ذي قار.

وبما أنه لا توجد وثائق مكتوبة قبل العام ٣٠٠٠ ق.م، فإننا نعتقد أن تموز كان أساساً أحد ملوك مدينة أوروك السومرية في بداية الألف الثالث قبل الميلاد، وقد أُلِّه بعد وفاته نتيجة ورعه وتقواه، وأصبح أهم آلهة الخصب في بلاد الرافدين، وأُطلق اسمه على أحد أشهر السنة تخليداً لذكراه وتيمناً به. كما أن علاقته مع الإلهة إنانا/ عشتار إلهة الحب والحرب والخصب معروفة من خلال الأسطورة التي تتحدث عن تلك الإلهة وغرامياتها ومغامراتها والتي عنوانها: "نزولا إنانا/ عشتار إلى العالم السفلي"، والتي تخبرنا أن "إنانا/ عشتار" هي التي أرسلت تموز إلى العالم السفلي (عالم الأموات) بدلاً عنها[٢]. وهناك أسطورة أخرى على شكل مناظرة كلامية بين تموز "الراعي"، و"إنكميدو Enkimdu، الفلاح من أجل الفوز بقلب "إنانا"، التي فضّلت في النهاية الزواج من "تموز" بدلاً من "إنكميدو".

ولما أنه كان إلهاً للخصب فقد كان يمثل قوة الحياة المتجددة في الطبيعة فصل الربيع، واسمه مأخوذ من اللغة الأكادية "تمُّوزي Tammuzi" المشتق بدوره من اللغة السومرية المبكرة "دَمو – زيد Damu-zid"، الذي أصبح بالسومرية النموذجية "دُومو– زيد Dumu-zid"، أو "دُوموزي Dumuzi"، والذي أصبح يعني "الابن الصالح، الابن البار، الابن الحقيقي".

ومع أنه ذو طبيعة رعوية فلقبه الشائع "الراعي، وأمه الإلهة "دُوتُّور Duttur" إلهة الغنم وحامية القطعان السومرية، وأبوه إنكي "Enki إله الأرض والحكمة والماء العذب"، إلا أنه بعد انتشار عبادته إلى بلاد آشور في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، تغيرت طبيعته من الطبيعة الرعوية إلى الطبيعة الزراعية حيث عُرف كإله

زراعي، ويُنظر إليه في بعض النصوص الآشورية (وفيما بعد عند الصابئة في العصور الوسطى) على أنه القوة الكامنة في القمح يموت عندما يُطحن القمح.

أماكن عبادة الإله تموز:

تركزت عبادة تموز في بلاد الرافدين في مهرجانين سنويين، الأول هو الاحتفال بزواجه من الإلهة إنانا/ عشتار، الذي عُرف باسم الزواج المقدس Sacred Marriage، والذي كان يتم في بداية السنة الجديدة في شهر نيسان(٣)، وهو تجسيد لعودة الحياة إلى الطبيعة، ويتم التعبير عن ذلك بالغناء والرقص، وكان يمثّل الإله تموز في هذا الاحتفال الملك، والإلهة إنانا كبيرة الكاهنات، وذلك لتحريض الطبيعة على إعطاء الخصب والحياة للكائنات الحية. أما المهرجان الثاني فكان يتم في شهر تموز، أشد أشهر بلاد الرافدين حرارة في الأول والثاني والتاسع والسادس عشر منه، عندما تموت النباتات والأعشاب وتيبس الحقول نتيجة ارتفاع درجة حرارة الجو، ولا يجد تموز مرعى لأغنامه فيموت، فتحزن الطبيعة، وتنوح عليه أخته غيشتينانّا Geštinananna (إلهة سومرية اسمها يعني كرمة السماء) وحتى خرافه وكلبه.

فتموز هو الإله الذي يموت ويُبعث حياً بشكل دوري حتى تتجدد الحياة بعودة الخصوبة إلى الطبيعة، ويتزامن موته أو نزوله إلى العالم السفلي، أي عالم الأموات، مع قدوم فصل الصيف وارتفاع حرارة الجو بشكل كبير، وحدوث الجفاف في الطبيعة. أما عودته إلى الحياة، وخروجه من العالم السفلي، وقيامته من عالم الأموات، فتتم في بداية فصل الربيع بعد فصل الأمطار والرعود والبروق، والدلالة على ذلك تكون بعودة الخصب إلى النباتات والحيوانات واكتساء الطبيعة حلة خضراء. إن هذه الدورة المتكررة كل عام هي أساس الحياة في الكون، وتوقفها يعني توقف الحياة بكل أشكالها، "وموت الإله وقيامته هما ضمان لدوام هذا النظام المتوقفة عليه حياة البشر على الأرض"(٤).

ويمكننا القول إن الاحتفال بعيد الربيع وعودة الخصب إلى الطبيعة قديم قدم الإنسان، ولاسيما في المناطق الزراعية كمناطق الشرق القديم (بلاد الرافدين وسورية ووادي النيل والأناضول وإيران).

ومن الأساطير الأخرى عن تموز الأسطورة المعروفة باسم "حلم تموز"، التي تتحدث عن رؤية تموز حلماً يتنبأ بموته، وكيف تحقق الحلم على الرغم من محاولة تموز الهروب منه.

عُرفت أسطورة تموز في حضارات الشرق القديم بأسماء أخرى، فهناك أسطورة أوزيرس Osiris عند المصريين القدماء، وأسطورة بعل Baal عند الأوجاريتيين، وأسطورة أدونيس Adonis عند الفينيقيين، التي انتقلت إلى الإغريق أيضاً. وجرى الاحتفال بأعياد أدونيس في أثينة منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل، وهناك لقب أطلق على الإله بعل في أوجاريت هو "نعمان"، أي "الجميل" الذي ما يزال مستخدماً حتى اليوم في عبارة "شقائق النعمان"، وهي ورود برية تتفتح في الربيع أوراقها حمراء ترمز، بحسب المعتقدات القديمة، إلى دم الإله القتيل.

ونقرأ عن الاحتفال بأعياد أدونيس في مدينة جبيل الساحلية ما يلي:

" كانوا إذا قدم الخريف يحتفلون بأعياد يدعونها جنازة أدونيس، ففي تلك الأيام كنت ترى نساءهم يلبسن الحداد ويذهبن إلى نهر إبراهيم المخصص لذكر أدونيس فيجلسن على ضفتيه باكيات معولات يرثين موت الإله ومحاسن الطبيعة التي يعبر عنها. وكان البعض منهن يسبغن ذيولهن ويسدلن شعورهن ويسرن في شوارع جبيل يلطمن وجوههن ويولولن على تموز- أدونيس ويغنين الأغاني الشجية المبكية. أما إذا انتهى فصل الشتاء وفرحت الدنيا بقدوم الربيع وانقشاع الغيوم عن الشمس فكانوا يقيمون لذلك مواسم تنبئ بفرط سرورهم ونمط فرحهم"[٥]. وارتبطت بهذه الاحتفالات طقوس

متطرفة سيئة استمرت حتى ألغاها الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير (نحو ٢٧٢-٣٣٧م).

كان نهر أدونيس ينبع من نبع أفقا حيث بني هناك معبد الإلهة عشتارت منذ الألف الرابع قبل الميلاد، ما تزال آثاره باقية حتى اليوم، يصب هذا النهر جنوب جبيل، وبقي النهر يحمل اسم أدونيس حتى القرن الخامس الميلادي عندما سُمي "نهر إبراهيم" نسبة إلى القديس إبراهيم القورشي أحد تلامذة مار مارون الذي جاء إلى منطقة عكار – جبيل في القرن الخامس الميلادي للتبشير بالمارونية.

كان لون مياه نهر أدونيس يتلون بالأحمر في فصل الخريف نتيجة سقوط الأمطار الغزيرة وانجراف التربة من ضفاف النهر. وكان الاعتقاد السائد آنذاك أن مياه النهر تتلون بالأحمر نتيجة مقتل أدونيس من قبل خنزير بري في القفار المحيطة بنبع أفقا.

ونجد في العهد القديم إشارات إلى البكاء على تموز في القدس (أورشليم): (حزقيال ٨:١٤): "فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمال وإذا هناك نسوةٌ جالساتٌ يبكين على تموز".

"وأُفيضُ على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات فينظرن إلى الذي طعنوه وينوحون عليه كنائحٍ على وحيد له ويكونون في مرارة عليه كمن في مرارة على بكره"، في ذلك اليوم يعظم النَّوح في أورشليم وكنوح هَدَدْ رمُّون في بقعة مجدُّون" (زكريا ١١:١٢).

إن هدد رمُّون هذا ما هو إلا شبيه تموز وبعل، فهدد Hadad كبير الآلهة الآرامية الذي كانت عبادته منتشرة في جميع المناطق السورية في الألف الأول قبل الميلاد، وكان معبده الرئيس في دمشق مكان الجامع الأموي الحالي، أما "رمُّون" فهو هدد ويعني "الرعد".

وبقيت إشاعات عبادة تموز حتى ظهور المسيحية، فيسوع لُقِّب بالراعي الصالح وأتباعه بالخراف، وتبرز واضحة في مبدأ "موت المسيح وقيامته" فداءً للبشر، فهو يشبه بذلك تموز وبعل وأدونيس(٦).

وهذا ما نجد تعبيراً واضحاً عنه في إنجيل يوحنا، الإصحاح السادس: "من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير، لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق، من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه" ٥٦-٥٧.

وتم اختيار بداية شهر نيسان موعداً للاحتفال بعيد بعث السيد المسيح من الموت (عيد الفصح، عيد القيامة أي عودة السيد المسيح إلى الحياة بعد صلبه)، علماً أن السيد المسيح توفي، كما اعتقد الآباء والأولون، في الخامس والعشرين من آذار، وقام من الموت بعد ثلاثة أيام، فهو يتطابق بذلك مع الوقت الذي يحدث فيه الانقلاب الربيعي في الطبيعة، ويوافق بداية السنة الجديدة بحسب التقويم السومري – البابلي(٧).

وبحسب بعض العلماء بُنيت كنيسة المهد في بيت لحم فوق مغارة كانت أصلاً مزاراً لتموز– أدونيس، ويخبرنا القديس جيروم Saint Jerome (٣٤٧-٤٢٠ م)، صاحب ترجمة "الفولجاتا Vulgatus" (الشعبية) المشهورة للعهد القديم إلى اللغة اللاتينية، الذي توفي في بيت لحم في العام ٤٢٠ م، أن المغارة المقدسة كانت في زمن ما سابق مكرسة من قبل الوثنيين لعبادة أدونيس. وهناك علماء معاصرون يفترضون أن عبادة أدونيس – تموز وجدت في المغارة سابقاً، واستخدمها المسيحيون لإلههم.

وتبنى الفرس الأخمينيون الاحتفال بعيد الربيع (أي عودة تموز إلى الحياة) بعد احتلالهم بابل في العام ٥٣٩ ق. م. مع تبنيهم الكثير من الإنجازات الحضارية الرافدية، ومنها التقويم البابلي الذي يبدأ في شهر نيسان، أي مع بداية فصل الربيع. وسموا الاحتفال بتلك البداية" نوروز Nowruz" أي "اليوم الجديد".

الإله تموز عند المسلمين:

واعترف العباسيون بعيد النوروز (عيد الربيع) وأصبح الاحتفال به أمراً شائعاً ومقبولاً في دولتهم(٨).

وقد عرف العرب المسلمون تموز وكتبوا عنه في بعض مصادرهم التاريخيـة، فهـذا ابن وحشية (القرن ١٠م) يقول عنه في كتابه "الفلاحة النبطية"، الذي يعد أحد أشـهر الكتب الزراعية القديمة: "أن تموز عاش في بلاد بابل قبل قدوم الكلدانيين، وينتمي إلى قبيلة رافدية قديمة تدعى Ganban".

ويضيف فيقول: "إن الصابئة في حران وبلاد بابل ما زالوا يحتفلون باختفاء تموز فـي شهر تموز، لكن أصول هذه العبادة اختفت".

من الجدير بالذكر أن ابن وحشية عاش في القرن الثالث الهجـري/ القـرن العاشـر الميلادي، وضع مجموعة كبيرة من المؤلفات في السحر والطلاسم والكيمياء، وكان له دور في فك رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية، إلا أن أشهر مؤلفاتـه هـو كتابـه "الفلاحة النبطية"، الذي يتحدث فيه عن الزراعة في بلاد الرافدين، معتمداً فـي ذلـك على مصادر بابلية قديمة، ويرجع تاريخ الكتاب إلى نحو ٢٩١هـ/٩٠٤م.

يتحدث ابن وحشية عن أعياد تموز في كتاب "الفلاحة النبطية" المنسوب إليـه قـائلاً: (ص ٢٩٦-٢٩٨)(٩).

"وقد ادعى أهل زمان ينبوشاذ أن جميع سكاين الآلهة والأصنام ناحت علـى ينبوشـاذ بعد موته، كما ناحت المليكة والسكاين كلها على تمـوزي، وأن الأصـنام، زعمـوا، اجتمعت من جميع أقطار الأرض إلى بيت الأشكول ببابل فقصدوا كلهم هيكل الشمس إلى صنم الذهب الأعظم المعلق بين السماء والأرض خاصة، وأن صنم الشمس قـام وسط الهيكل وقامت أصنام الأرض كلها حوله، أولها مما يلي أصنام الشمس في جميع

البلدان، ثم أصنام القمر، ثم أصنام المريخ، ثم أصنام عطارد، ثم أصنام المشتري، ثم أصنام الزهرة، ثم أصنام زحل، فجعل صنم الشمس ينوح على تموزي والأصنام تبكي، وصنم الشمس يعدّد على تموزي ويذكر شرح قصته والأصنام تبكي كلها منذ غروب الشمس إلى طلوعها آخر تلك الليلة، ثم طارت الأصنام راجعة إلى بلدانها، وأن صنم تهامة المسمى نسراً، عيناه تدمعان وتجريان الدهر كله وإلى الأبد منذ تلك الليلة التي ناح فيها على تموزي مع صنم الشمس، لاما يختص به هذا الصنم في تلك القصة التي كانت لتموز، وأن هذا الصنم المسمى نسراً هو الذي أفاد العرب الكهانة حتى أخبروا بالغيب وفسروا المنامات قبل شرح أصحابها لها، قال فكذلك ناحت الأصنام على ينبوشاذ ليلة في إقليم بابل متفرقين في هياكلهم كلهم، ليلة تامة إلى الغداة، وإنه سال آخر تلك الليلة سيل عظيم ببرق ورعد عظيم شديد وزلزلة عظيمة كانت من حدّ حلوان إلى شط دجلة عند بلاد بناوذرنا من الجانب الشرقي من دجلة، وأن الأصنام رجعن إلى مواضعها في حال السيل لأنهم كانوا انزعجوا عن مواضعهم قليلاً... فهذه أحاديث قد دونوها، يتلونها في الهياكل بعقب الصلوات ويبكون ينوحون من ذلك كثيراً، وإني إذا حضرت مع الناس في الهيكل خاصة في عيد تموز الذي يكون في شهره، وتلو قصته وبكوا فإني أبكي معهم دائماً مساعدة لهم ورقة مني لبكايهم، لا إيماناً مني بما يذكرون من ذلك، فأما ينبوشاذ فإني أومن بقصته، فإذا تلوها وبكوا بكيت معهم بكاء خلاف بكائي على تموزي، والعلة في هذا أن عهد ينبوشاذ إلى زماننا هذا أقرب من عهد تموز، فخبره أثبت وأصح، وقد يجوز أن يكون بعض قصة تموز صحيحة، لكن لبعد زمانه من زماننا شككت في بعض خبره.

قال أبو بكر بن وحشية: إن هذا الشهر المسمى تموز هو، فيما ذكر النبط، بحسب ما وجدت في كتبهم، اسم رجل كانت له قصة عجيبة طويلة، وقتل، زعموا، قتلات قبيحة بعضها بعقب بعض، وإن شهورهم هذه كل واحد منها اسم رجل فاضل عالم كان في القديم من النبط اللذين كانوا سكان إقليم بابل قبل الكلدانيين، وذاك أن تموز هذا ليس

من الكسدانيين ولا الكنعانيين ولا العبرانيين والجرامقة، وإنما هو من الحساسن الأولين... والصابئيون كلهم في زماننا من البابليين والحرنانيين (أهل حرّان) جميعاً إلى وقتنا هذا ينوحون ويبكون على تموز في الشهر المسمى تموز في عيد لهم فيه منسوب إلى تموز، ويعددون تعديداً عظيماً، وخاصة النساء فإنهن يقمن هاهنا وبحران جميعاً، فينوحون ويبكون على تموز ويهذون في أمره هذياناً طويلاً، إلا أني تبينت أنه ليس عند أحد من الفريقين خبر صحيح لتموز ولا ما العلة في نوحهم عليه، فلما نقلت هذا الكتاب مرّ بي فيه أن تموز رجل كانت له قصة وأنه قتل قتلة قبيحة فقط، ولا زيادة على هذا من أمره، ولي عندهم علم من أمره أكثر من أن يقولوا: "هكذا وجدنا أسلافنا ينوحون ويبكون في هذا العيد المنسوب إلى تموزي"، وأنا أقول أن هذا "ذكران يعملونه" لتموز كان في القديم وبقي إلى الآن ودرس خبره لبعد زمانه، فليس يعلم أحد من هؤلاء في زماننا هذا ما كانت قصته ولمَ ناحوا عليه، وللنصارى ذكران يعملونه لرجل يسمى جورجيس، يزعمون أنه قتل قتلات عدة قبيحة، ثم يعيش، زعموا، بعقب كل قتلة منها، ثم يقتل أيضاً ثانية ثم يعيش، وكذلك ثالثة ومراراً، ثم إنه مات في آخرها في قصة يطول شرحها، وهي مدونة في كتاب في أيدي النصارى، وهم يعملون له ذكراناً يسمونه ذكران جورجيس، فقصة تموز هذا الذي قدمنا ذكره مثل قصة جورجيس سواء، فلا أدري [أ] وقع إلى النصارى قصة تموز التي كانت قديماً، فأبدلوا مكانها اسم جورجيس كذلك، ثم ساقوا القصة المعمول بتموز أنها لجورجيس، وخالفوا الصابيين في الوقت، لأن الصابيين يعملون ذكران تموز أول يوم من شهر تموز، والنصارى يعملونه لجورجيس في آخر نيسان، أو قبل آخره قليلاً، فقد وقفنا الآن أن قصة جورجيس في تعذيبه وقتل الملوك له مراراً هي قصة تموز بعينها، لكن النصارى سرقوها من الصابيين وجعلوا جورجيس أحد حواري المسيح، وأنه دعا ملكاً من الملوك إلى دين النصرانية، فعذبه ذلك الملك بتلك القتلات التي قتله.

والذي عندي أنا، بمقدار علمي، أن القصتين جميعاً كذباً ومحال لا يجوز أن يكونا حقاً.

فهذا ما وجدته في كتاب الفلاحة من أمره، ثم وقع لي بعد ذلك كتاب من كتب النبط فيه شرح قصة تموز، وأنه دعا ملكاً إلى عبادة السبعة والاثني عشر، وأن الملك قتله وعاش بعد القتلة له، ثم قتل قتلات بعد ذلك قبيحة في كلها يعيش، ثم مات في آخرها، فإذا هي قصة جورجيس التي في أيدي النصارى سواء هي هي. فالصابيون يقيمون لتموز ذكراناً هو عندهم عيد تموز، والنصارى يقيمون لجورجيس ذكراناً هو عندهم عيد جورجيس وتذكرة له".

كيف قتله ربه وطحن عظامه في الرحا، ثم ذرّاها في الريح. ولا تأكل النساء شيئاً مطحوناً في رحا، بل تأكلنه حنطة مبلولة وحمصاً وتمراً وزبيباً وما أشبه ذلك. وفي سبعة وشهرين منه يعمل الرجال سر الشمال للجن والشياطين والآلهة، ويعملون طرموساً كثيراً، من دقيق وبطم وزبيب مَيْس وجوز مقشر، كما يعمل الرعاة، ويذبحون تسعة خرفان لهامان الرئيس أبي الآلهة وقرباناً لنمريا.

وبقي تموز حياً في التقليدين المسيحي والإسلامي بأسماء أخرى مثل قصة جرجس والخضر (١١).

ويمكن أن نجد استمرار عادات الندب والنواح والبكاء على الإله الميت في طقوس احتفالات ذكرى عاشوراء التي تقام لإحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب في العاشر من محرم من العام ٦١ هـ، وفي احتفالات يوم الجمعة الحزينة في الكنائس الشرقية.

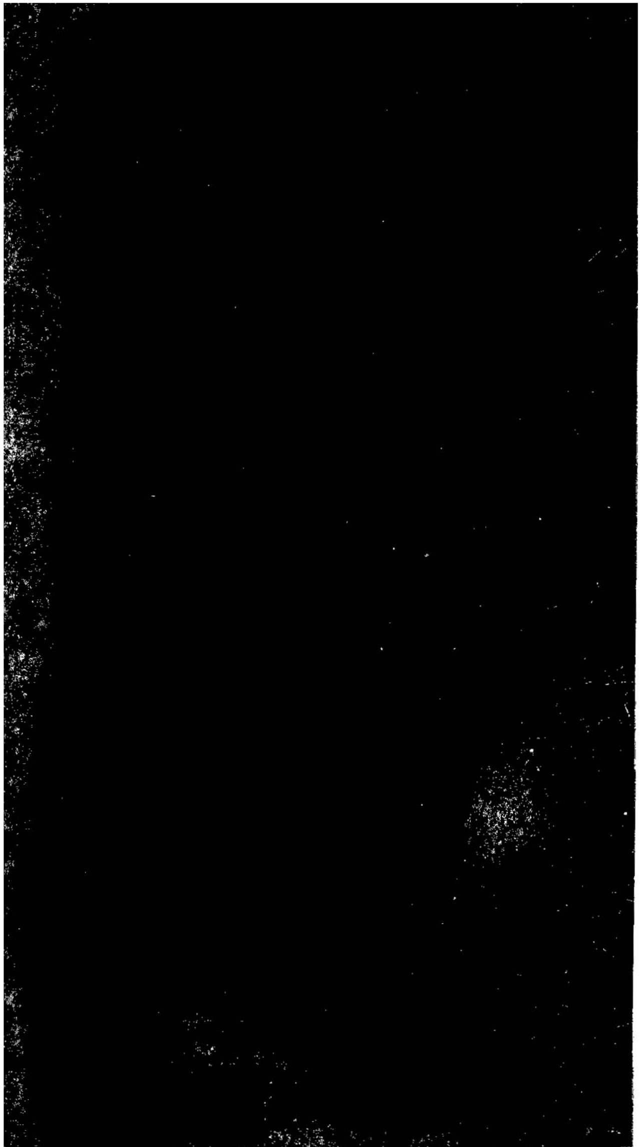
وتبدأ السنة الأيزيدية في أول أربعاء من شهر نيسان، ويسمى عيد رأس السنة (سه رسال).

ويحتفل الأكراد حالياً بعيد النوروز باعتباره ذكرى انتصار "كاوه" الحداد على الملك الطاغية "الضحاك"، وهي قصة تموز الإله الذي يحرر البشر من طغيان برد الشتاء وعواصفه وقحطه.

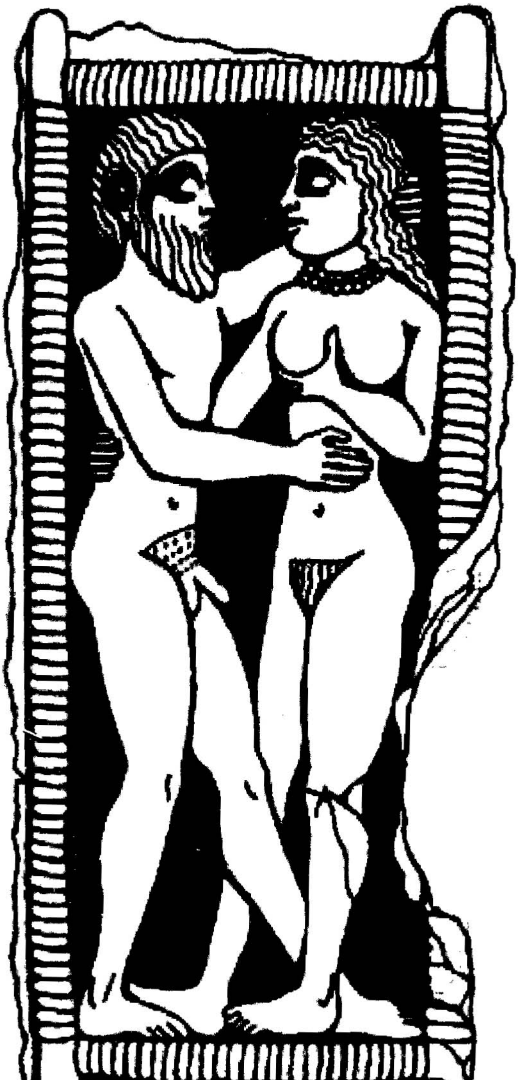
ويحتفل العراقيون حتى اليوم في بعض مناطقهم بعيد الربيع باسم "يوم المحيا"، أي عودة الحياة والربيع بعد برد الشتاء وقسوته. ويحتفل به الصابئة يوماً مقدساً، ويتم حالياً الاحتفال بعودة الربيع والخصب إلى الطبيعة في بعض المناطق السورية واللبنانية في شهر نيسان باسم عيد الزهور الذي يأتي في الرابع من نيسان بحسب التقويم الشرقي (اليولياني)، السابع عشر من نيسان بحسب التقويم الغريغوري.

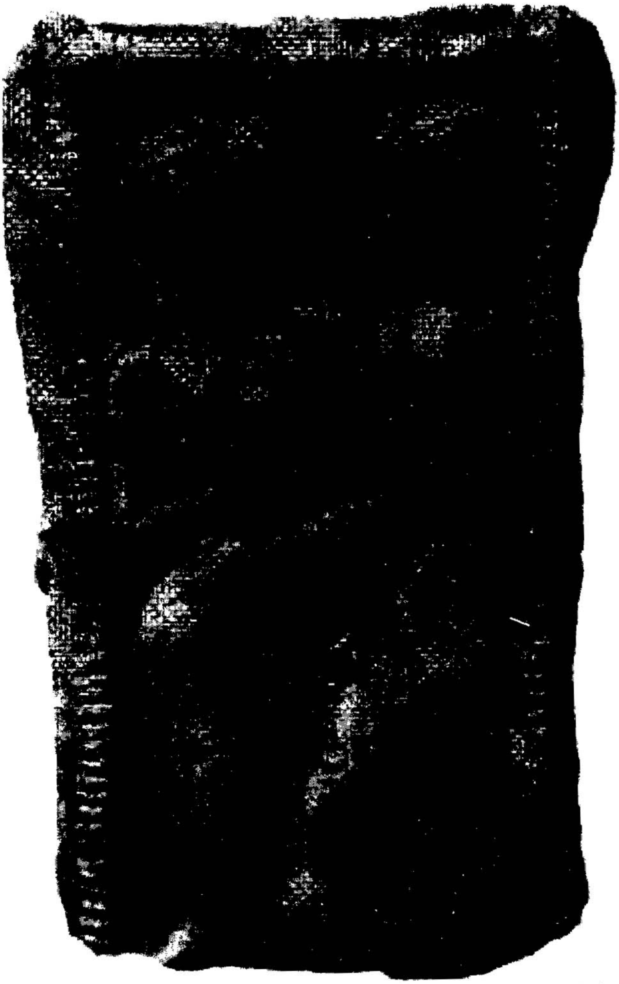


طبعة خاتم أسطواني يظهر تموز فيها بين رأسين من الماعز وهما يأكلان من نبتة يمسك بأغصانها



إنانا وتموز

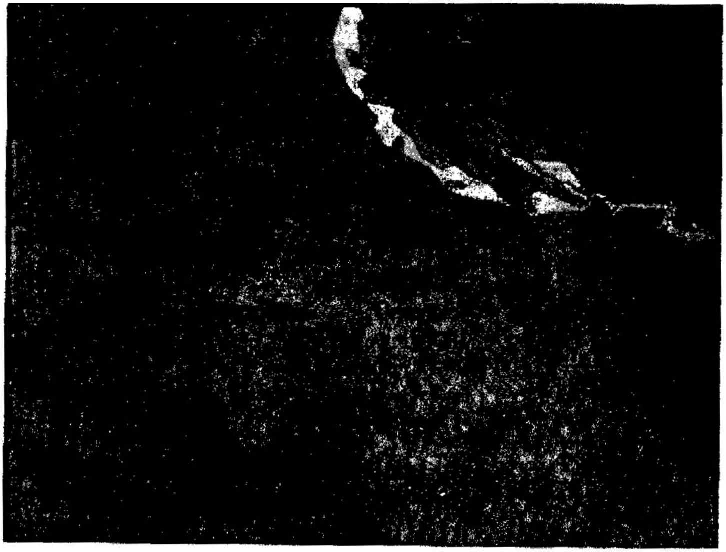




إنانا وتموز



إنانا وتموز



ممالك المدن السومرية الباكرة (النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد) .

الهوامش

(1) Jacobsen, Th., The Sumerian King List, Oriental Institute، Assyriological Studies I 1, Ijniversity of Chicago Press1939 .Wikipedia, the free encyclopedia.

(٢) انظر، علي، فاضل عبد الواحد، **عشتار ومأساة تموز**، الطبعة الثانية، بغداد ١٩٨٦، سومر أسطورة وملحمة، بغداد ٢٠٠٠، ص ١٠٣ وما بعدها.

(٣) انظر عن: طقوس الزواج المقدس بالتفصيل : س. ن. كريمر، إينانا ودوموزي، **طقوس الجنس المقدس عند السومريين**، ترجمة نهاد خياطة، دمشق ١٩٩٣.

(٤) مقدسي، فايز، **الأصول الكنعانية للمسيحية**، دمشق ١٩٩٦، ص ١٠٠.

(٥) المرجع السابق، ص ١٠١.

(٦) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٧) نفس المرجع، ص ٥٦.

(٨) البيروني، أبو الريحان، **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، نسخة مصورة عن نسخة لايبزيج ١٩٢٣، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص ٣٢.

(٩) **الفلاحة النبطية**، الترجمة المنحولة إلى ابن وحشية أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني، القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي، تحقيق توفيق فهد، الجزء الأول، دمشق ١٩٩٣، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية القديمة بدمشق)، ص ٢٩٦-٢٩٨.

(١٠) **كتاب الفهرست للنديم** أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق المعروف بالوراق، تحقيق رضا، تجدد، طهران ١٩٧١، ص ٣٨٧.

(١١) القديس جرجس (جورجيس) Saint Georgios (نحو ٢٧٥/٢٨١- ٢٣ نيسان ٣٠٣): من أكثر القديسين شهرة عند المسيحيين، تختلط قصته الحقيقة بالأساطير والحكايات الشعبية، نستقي معظم الأخبار عنه من "**تاريخ**" يوسيبيوس القيصري.

عاصر القديس جرجس الإمبراطور الروماني ديوقلتيان Diocletian (٢٨٤-٣٠٥ م) ودخل في خدمته كضابط في الحرس الإمبراطوري، اعتنق والده الذي جاء من كبادوكيا في آسية الصغرى المسيحية، وكذلك أمه التي تنتمي إلى مدينة اللد في فلسطين. رفض القديس جرجس التخلي عن ديانته المسيحية لا بل تحدى الإمبراطور الذي سام المسيحيين سوء العذاب، والذي أعدمه بعد رفضه العودة إلى الديانة القديمة. نُسجت عنه فيما بعد أساطير وقصص متعددة تناقلها حتى المؤرخون العرب المسلمون كالطبري والثعالبي (قصص الأنبياء) الذي ذكر أن ديوقلتيان قتل جرجس ثلاث مرات وذرى رماده، إلا أن الله أحياه ليبشر بالدين الحق. لكنه مات في المرة الرابعة. أشهر الأساطير عنه أسطورة التنين، يحتفل المسيحيون بذكرى استشهاده في ٢٣ نيسان من كل عام، ومن المصادفات الغريبة أن الصليبيين ادعوا أن القديس جرجس ساعدهم في "فتح أنطاكية" وأصبح شفيع ملكة بريطانيا وحاميها بعد انتهاء الحروب الصليبية، واكتسب شعبية كبيرة في البلقان وروسيا، وقد ساوى معظم سكان الوطن العربي بين مار جرجس والخضر. ويتم الاحتفال بعيده في السادس من أيار من كل عام ولاسيما من قبل أتباع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية.

ويوجد الكثير من المساجد والمزارات والبلدات التي تحمل اسم الخضر في بلاد الشام والعراق، وأكثرها شهرة في بلدة الخضر الواقعة بالقرب من مدينة القدس في فلسطين التي تجري فيها أكبر الاحتفالات بعيد الخضر/ القديس مار جرجس، كما أن اسم "خضر" من الأسماء الشائعة بعيد الخضر، والمحببة عند المسيحيين والمسلمين، ويدل على الخصوبة والحيوية.

المؤثرات الدينية في الفن في الفترة الممتدة من بداية عصر الإحياء السومري إلى نهاية العصر البابلي القديم في بلاد الرافدين ٢١٤٤-١٥٨٠ ق.م

الدكتور حسان عبد الحق

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة دمشق

تمهيد

كان للعامل الديني دور هام ومؤثر في الحضارات القديمة، ففي فترات ما قبل التاريخ التي كانت بعيدة كل البعد عن التمدن ظهرت بعض المعتقدات الدينية التي تبرز أهمية دور العقيدة في حياة الناس. وعبر إنسان تلك المرحلة عن معتقداته الدينية بفنونه المختلفة (الدمى الطينية الإنسانية التي تمثل الربة الأم، والدمى الحيوانية[١]). وشهد الفن تطوراً ملحوظاً في فترة فجر الحضارة خاصة في المرحلة المتأخرة من عصر أوروك (٣٣٠٠-٣١٠٠ ق.م)، و في عصر حضارة جمدة نصر (٣١٠٠-٢٩٠٠ ق.م)، وفي العصور التاريخية التي سبقت الفترة التي سندرسها (عصر السلالات الباكرة الأول ٢٩٠٠-٢٧٥٠ والثاني ٢٧٥٠-٢٦٥٠ والثالث ٢٦٥٠-٢٣٥٠، وفي العصر الأكادي٢٣٥٠ -٢١٥٩). ومن أهم الفنون التي خدمت الحياة

الدينية في هذه الفترات فن النحت الذي قدم الكثير من التماثيل لكهنة ومتعبدين، والأنصاب التي صورت الملك والإله، واللوحات النذرية التي أظهرت طقوس التقدمات للآلهة. وكان للأختام التي ظهرت لأسباب اقتصادية، دورها الفاعل في تصوير الإله من خلال النقوش الدينية. ولا يمكن أن ننسى الرسوم الجدارية التي ظهرت في فترات مبكرة، واستمرت حتى فترات متأخرة، وقدمت لنا معلومات هامة عن الملك والإله. وكان الطين من المواد الأولية الهامة التي استخدمها الفنان الرافدي لتصوير بعض المشاهد الدينية، أو لصناعة بعض الدمى الطينية التي تمثل بعض الآلهة.

سيحاول هذا البحث دراسة المؤثرات الدينية على هذه الفنون، ومعرفة الأسباب التي أدت إلى تكريس الفن لخدمة الحياة الدينية، وإجراء بعض المقارنات لتحديد الاختلافات والتشابهات فيما بينها خاصة فيما يتعلق بتأثرها بالحياة الدينية، فقد تتشابه قطعتان فنيتان بتصويرهما للملك والإله في آن معاً، لكنهما قد تختلفان ببعض الرموز التي تظهر في المشهد.

أسباب تأثر الفن الرافدي بالمعتقدات الدينية

كما أشرنا سابقاً تعددت الفنون التي صورت الحياة الدينية، و مهما اختلفت في طريقة تصويرها لهذه الحياة، إلا أنها كانت تشترك مع بعضها البعض في فكرة الإيمان بالآلهة وفكرة المجتمع المتدين الذي تتحكم به هذه الآلهة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما أسباب تأثر المجتمعات القديمة بهذه الآلهة إلى الحد الذي دفعها إلى تصويرها بفنونها المختلفة بشكل يظهر احترام وتقدير الإنسان الرافدي لهذه الآلهة؟ كان الإنسان في العصور القديمة فطناً، متأملاً لكل شيء حوله (السماء والأرض والطبيعة وما يجري فيها من رياح وأمطار ورعود ونمو نباتات وغير ذلك من الظواهر الطبيعية)، ومن خلال تأمله لكل ذلك وصل إلى قناعة مفادها

أن هذا العالم يخضع لإرادة إلهية تتحكم به. لهذا السبب قام بعبادة الكثير من الآلهة التي اختلفت في وظائفها، وأهميتها، واسمها، فهناك إله الحب وإله الحرب وإله الخصب وإله الشمس...الخ. ونظراً لأهمية هذه الآلهة، ولكي يتمكن الإنسان الرافدي من استيعابها قام بإعطائها أشكالاً إنسانية، وحيوانية من خلال تجسيدها بشتى أنواع الفنون. وبحسب المعتقدات القديمة امتلكت هذه الآلهة مشاعر إنسانية، وهي تأكل، وتشرب، وتتزوج، وتنجب، فمنها المذكر ومنها المؤنث، لكنها على عكس الإنسان لا تموت فهي باقية و خالدة[٢].

وكان خوف الإنسان الرافدي من قوى الطبيعة (سيول وفيضانات وأعاصير وحيوانات مفترسة) سبباً في تقديسه للعديد من الآلهة التي–حسب اعتقاده– تحميه من هذه المخاطر. وقام بتصوير هذه الآلهة على هيئات مختلفة في فنونه التي عرفها[٣].

لمحة عامة عن الفن الرافدي في الفترة الممتدة من عصر الإحياء السومري إلى نهاية العصر البابلي القديم

هذا البحث يعالج فترتين مهمتين في تاريخ بلاد الرافدين (عصر الإحياء السومري ٢١٤٤-٢٠٠٤ ق.م، والعصر البابلي القديم ٢٠٠٤- ١٥٨٠ ق.م) و يتناول أكثر من منطقة جغرافية (جنوبي بلاد الرافدين وشماله)، ولا شك أن الاختلاف في المكان والزمان وفي هوية الفنان سيُحدث اختلافاً في الفن الذي كان يصور الآلهة. وعلى الرغم من الاختلافات الفنية بين هذا العصر أو ذاك إلا أنه يوجد تشابهات بين الفنون وتأثيرات أتت من العصور الأقدم لتؤثر في فنون الفترات الأحدث. وتناولت الفنون في الحقب التي سندرسها مواضيع دينية وأسطورية وملكية.

ظهرت الكثير من الفنون في العصر السومري الحديث وقدمت خدمات كثيرة للدين، لكن الكائنات التي تم تجسيدها والأفكار التي تم التعبير عنها لا تعود برمتها إلى هذا العصر، بل كانت هناك تأثيرات سومرية قديمة (عصر السلالات الباكرة) وأكادية،

و يمكن ضرب عدة أمثلة على ذلك. نُقش على سطح إناء يعود إلى جوديا (Gudéa) عدة صور، ومن بينها صورة تمثل تنينين مريشين يعودان إلى الحضارة السومرية القديمة (فترة السلالات الباكرة) ويرمزان للإله مردوخ[4] (Marduk). ويظهر التأثير السومري القديم في النحت النافر، فعلى الرغم من الاختلاف بين مسلتي جوديا وأورنامو (Ur-Nammu) في الموضوعات المقدمة، هناك تشابه بينهما في الشكل المستطيل والقمة الهلالية وتقسيم سطحيهما إلى عدة حقول. وتعود هذه التقنية إلى العصر السومري القديم (مسلة العقبان). لا تظهر هذه التقنية في نصب الشريعة (العصر البابلي القديم) الذي كان يتألف من مشهد واحد. وبالنسبة للأختام، حافظت على الموضوع الذي ظهر في العصر الأكادي (تقديم متعبد إلى إله عن طريق إله وسيط)، واستمر هذا الموضوع في العصر البابلي القديم مع وجود بعض التغيرات (انظر فقرة الأختام).

وأثرت الفنون الأكادية في فنون أخرى من العصر البابلي القديم، فبحسب مورتكات[5] تجسد لوحة التنصيب في قصر ماري (Mari) مشهد الفاتح (ملك ماري) الذي تحميه الربة عشتار (Ishtar)، وهذا الموضوع ينتمي إلى العصر الأكادي. وفي أواخر عصر حمورابي (Hammourabi) طرأ تغير على الفن، وظهرت سمات جديدة لم تُعرف سابقاً. ويتجلى ذلك في معالجة المنظور في الفن ذي البعدين. فعندما يصور الفنان أحد الآلهة في مشهد جانبي يظهر تاجه ذو القرون في مشهد جانبي أيضاً (تاج الإله شماش في نصب الشريعة). بحسب الدراسات الحديثة لقصر ماري تعود لوحة الصالة ١٣٢ إلى بداية العصر البابلي القديم (انظر اللوحات الجدارية من هذا البحث). تُظهر هذه اللوحة في أحد حقولها ملك ماري يسكب الماء المقدس أمام الإله، ويظهر نفس الموضوع على ختم يعود إلى نفس العصر (انظر الأختام من هذا البحث)، ويتشابه كلا المشهدين مع مشهد الحقل الثاني من مسلة أورنامو الذي يسكب

هو الآخر الماء المقدس أمام الإله، وفي ذلك دليل واضح لتأثر الفن في العصر البابلي القديم بالموضوعات الفنية التي ظهرت في عصر الإحياء السومري.

الفنون الرافدية التي صورت الآلهة و الحياة الدينية

تعددت الفنون التي صورت الآلهة الرافدية القديمة، والتي تركت لنا مئات القطع الفنية التي اختلفت في حجمها، وفي طريقة معالجتها للمواضيع الدينية، وفي المكان الذي كانت توضع فيه، وفي الوظيفة التي كانت تؤديها.

الأختام و طبعاتها

الختم هو عبارة عن قطعة حجرية كانت في بداية الأمر تأخذ شكلاً مسطحاً ثم تطورت في فترة أوروك المتأخرة (٣٣٠٠-٣١٠٠ ق.م) لتأخذ شكلاً اسطوانياً، وكان ينقش على سطحها بعض الكتابات، وبعض المشاهد الدينية، والإنسانية، والحيوانية، والحربية. وظهرت الأختام الأسطوانية بسبب حدوث عمليات تبادل تجاري بين مختلف المناطق. فكان من الضروري إيجاد وسيلة لتحديد الملكية. لذلك تم اختراع الختم الأسطواني الذي كان يُختم به على الجرار الطينية قبل أن تجفف، و بهذه العملية يُحدد صاحبها من خلال طبعة الختم التي تظهر على الجرة[٦].

وما يهم في هذا البحث إظهار النقوش الدينية التي تبرز لنا تأثير الدين على الفن. في عصر الإحياء السومري نُقشت رسومات مختلفة على الأختام ذات موضوعات مختلفة، ومن بينها المواضيع الدينية. وتشبه هذه المواضيع تلك التي تناولتها الأنصاب العائدة إلى نفس الفترة الزمنية: الملك أو الحاكم المتعبد الذي يقف أمام الإله ليباركه ومن خلفه إله شفيع[٧]. وهذا النوع من المواضيع ظهر سابقاً في العصر الأكادي واستمر في عصر الإحياء السومري[٨]. ومن الأمثلة على ذلك خاتم جوديا (**الشكل١**) الذي يصور هذا الحاكم حليق الرأس وهو يسير وراء الإله نينجيزيدا (Ningizida) الذي يمسك برسغه وكأنه يشده بالقوة باتجاه إله جالس على

كرسي، له مكانة رفيعة ومرموقة، والهدف من وراء ذلك الحصول على مباركة هذا الإله وطاعته.

وتقدم ماري بعض الأختام التي تعود إلى نهاية الألف الثالث ق.م (فترة الشاكاناكو=Shakkanakku)، ومن هذه الأختام ختم خادم الملك إيدين إيلوم (Iddin-Ilum) (٢٠٦٩ ق.م[٩]) (**الشكل٢**). وكأغلب الأختام التي ظهرت في هذه الفترة فإن الموضوع الرئيسي لهذا الختم هو تقديم شخص (خادم الملك) للإله ليحصل على الدعم والمباركة: على اليمين توجد ربة تجلس على عرشها، وعلى رأسها تاج مؤلف من عدة صفوف من القرون، وترتدي ثوباً مكشكشاً، وتمسك بيدها سكيناً ملساء ومقوسة. ويقف أمامها خادم الملك حاسر الرأس، وحليق الذقن، ويرتدي ثوباً، ويرتكز بيده اليسرى على عصا، ويده اليمنى مرفوعة إلى الأعلى وكأنه يؤدي قسماً، وتقف خلفه الربة الشفيعة لاما (Lama) رافعة يديها إلى الأعلى.

وفيما يتعلق بالعصر البابلي القديم، حافظت الأختام على المواضيع التي سادت في العصور السابقة كتقديم الملك إلى الإله وظهوره بمظهر المتعبد للحصول على الدعم والرعاية من الإله. لكنهم في نفس الوقت أدخلوا بعض التجديدات، ولعل أهمها تصوير الآلهة على شكل رموز كالأسد وأبي الهول والتنين الأسد[١٠].

ومن الأمثلة على ذلك طبعات الأختام التي عثر عليها المنقبون في قصر تل أسمر. وتنسب هذه الطبعات إلى ملوك إشنونا وخدمهم الذين كانوا يُديرون بعض الأعمال نيابة عنهم[١١]. وسنحاول هنا عرض أحد الأختام الذي يعود إلى بداية القرن التاسع عشر ق.م. إنه ختم الملك أوزورواسو (Usurwassu) (**الشكل٣**): في الجهة اليمنى من المشهد يوجد إله ملتحٍ يجلس على كرسي، ويضع على رأسه تاجاً مؤلفاً من عدة قرون، وعلى يمين الإله في أعلى المشهد توجد رموز (النجمة والهلال) التي ترمز على الأغلب إلى الإله نانا (Nana) إله القمر. وعلى يسار الإله وفي الأسفل يجثم غزالان بشكل متعاكس، يدوس الإله على أحدهما. ويقف الملك أوزورواسو أمام

الإله، ويصب الماء المقدس في وعاء تخرج منه نبتة، يقع بينه وبين الإله. وخلف الملك تقف ربة حامية، تلبس تاجاً مؤلفاً من عدة قرون، وتضع في عنقها عقداً، وترتدي ثوباً مكشكشاً كثوب الإله، وترفع يديها إلى الأعلى. وتشغل القسم الأيسر من المشهد كتابة مسمارية. لكن المساحة التي تشغلها أصغر من المساحة التي يشغلها المشهد. كالكثير من المشاهد التي تعود إلى نفس الفترة يتشابه موضوع هذا الختم بخطوطه العامة مع الأختام الأخرى التي تعود إلى عصر الإحياء السومري (تقديم الملك الطاعة للإله للحصول على المباركة والتأييد وكان يتم ذلك من خلال إله شفيع يقف وراء الملك). لكن هناك اختلافات في التفاصيل التي تتعلق بهوية الإله الداعم للملك، والإله الحامي، وهيئة هؤلاء، والأثواب التي يرتدونها، والأشياء التي يحملها الإله الذي تُقدم له الطاعة.

الأنصاب

النصب هو قطعة حجرية منحوتة ظهرت في بداية الأمر عند السومريين في عصر السلالات الباكرة في جنوبي العراق، وبحسب المشاهد التي جُسدت على المسلات، كان الهدف منها تخليد انتصارات الملوك والحوادث المهمة في حياتهم، غير أن أحد الباحثين يرى أن الهدف الرئيسي منها هو تصوير الصلوات المقدمة للآلهة[١٢].

ومن أهم الأمثلة على الأنصاب التي تعود إلى هذه الفترة نصب أورنامو (**الشكل ٤**) الذي يُظهر في حقوله الخمسة دور أورنامو في بناء المعابد وحفر الأقنية[١٣]. ويقدم هذا النصب عدة رموز ترمز إلى الإله نانا (إله القمر): النجمة والهلال في أعلى النصب، وتحتهما في نفس الحقل يظهر هذا الإله على هيئة إنسان جالس على كرسي، ويقف أمامه أورنامو. أما الحقل الثاني من النصب يقدم مشهداً يظهر أيضاً العلاقة بين الملك والإله: الإله نانا كان يجلس على كرسي ويعطي أورنامو العصا والحلقة (رمز السلطة)، ويقف خلف أورنامو إله حامٍ. وفي الحقل

الثالث يظهر أورنامو حاملاً على ظهره وكتفه أدوات البناء ويسير خلف إله لم يبق منه إلا الرأس. وبالنسبة للحقل الرابع لم يبق من مشهده إلا سلم يرمز للبناء، أما مشهد الحقل الخامس فمفقود نهائياً.

ومن خلال عرض مشاهد نصب أورنامو نلاحظ أن الملك لم يكن مؤلَهاً بل كان تابعاً للآلهة، وكانت هذه الآلهة هي التي تمنحه السلطة (الإله نانا) وهي التي تحميه (الإله الثاني الذي يقف خلف أورنامو في الحقل الثاني)، وفي نفس الوقت كانت تقدم المساعدة له في أعماله العمرانية (الإله الذي كان يسير خلفه أورنامو في الحقل الثالث). وربما يتبادر إلى ذهن البعض سؤال: لماذا تتعدد الآلهة في مشاهد هذه القطعة الفنية بشكل يدفع للاعتقاد بأن كل أعمال الملك لا يمكن أن تتم إلا بموافقة وبمباركة الآلهة؟ أعتقد أن عدم تأليه أورنامو كان من أهم الأسباب التي دفعته لإظهار عدد كبير من الآلهة للظهور في نصبه. فالملك المؤله لم يكن بحاجة لأن يشرك عدداً كبيراً من الآلهة في أعماله، فهو ملك وإله. ومن جهة أخرى، قد يكون من أسباب تعدد الآلهة في المشاهد تخصص كل إله في قضية معينة تخص الملك، فهناك من يمنحه السلطة، و توجد آلهة تحميه، وأخرى تساعده في مشاريعه العمرانية.

وبإلقاء نظرة على مشاهد هذا النصب نلاحظ أن الإله نانا كان أكثر أهمية من الآلهة الأخرى التي ظهرت في عدد من مشاهده. وتكمن أهميته في منحه السلطة لأورنامو، وكما هو معروف الإله الذي يمنح السلطة يكون على الأغلب أكثر أهمية من الآلهة الأخرى لأنه لولا السلطة التي حصل عليها الملك من الإله لما استطاع أن يقوم بأعماله الأخرى التي قد يساعده فيها آلهة أخرى تكون أقل أهمية من الإله المانح للسلطة.

ويقدم عصر الإحياء السومري قطعة فنية أخرى تعود إلى جوديا. إنها كسرة من نصب (**الشكل٥**)، تتشابه مع نصب أورنامو في بعض النقاط وتختلف عنه في نقاط أخرى. ولعل أهم نقاط التشابه تبعية جوديا للآلهة وخضوعه لهم كما هو الحال

في نصب أورنامو، فبحسب هذا المشهد يقف جوديا خلف إلهين، الأول غير معروف، والثاني نينجيزيدا (الإله الحامي لجوديا)، يُمسك جوديا بيده اليسرى[١٤]. ومن أهم الاختلافات بين النصبين طريقة تعاطي الملكين مع الآلهة، فبينما كان أورنامو يقف أمام نانا الجالس على كرسي وجهاً لوجه ومن خلفه إله شفيع كان جوديا يقف خلف الإلهين اللذين ربما كانا يريدان تقديمه لإله آخر.

لم تختفِ الأنصاب في العصر البابلي القديم، لا بل استمر هذا الفن مخلداً أعمال الملوك التي اختلفت عن أعمال أسلافهم في العصر السابق، ففي هذه الفترة ظهر نصب الشريعة (**الشكل٦**) الذي يصور حمورابي البابلي على أنه مشرِّع وليس بانياً للمعابد أو حافراً للأقنية. ومن جهة أخرى كان يتألف من مشهد واحد على عكس نصب أورنامو الذي كان مقسماً إلى حقول. نُحت هذا النصب من الحجر البازلتي الأسود بارتفاع ٢،٢٥ م، ويبلغ محيطه عند القاعدة ١،٩٠ م، ويتميز بقمته الهلالية وشكله المستطيل. ونُقش في قسمه السفلي بعض الكتابات التي تتعلق بعدد كبير من المواد القانونية التي استخدمها حمورابي لتنظيم المجتمع.

ويتضمن هذا النصب في قسمه العلوي نحتاً نافراً يبرز حمورابي بلحيته الطويلة وبلباسه الطويل واقفاً بخشوع أمام الإله شماش (Shamash)، إله الشمس والحق والعدالة، رافعاً يده اليمنى وكأنه يؤدي قسماً. أما الإله شماش فكان يجلس على كرسي واضعاً على رأسه تاجاً إلهياً مزيناً بأربعة صفوف من القرون، ويتميز بلحيته الطويلة وثوبه المزخرف، ويقدم رموز السلطة (العصا والحلقة) لحمورابي.

ويقدم العصر البابلي القديم قطعة فنية أخرى تصور حمورابي، إنها قطعة مكسورة من نصب، تحوي نقشاً نافراً لحمورابي بارتفاع ١٥،٢ سم (**الشكل٧**)، ونُقشت عليها بعض الكتابات السومرية التي تؤكد أن هذا النصب قدمه أحد موظفي حمورابي لإحدى الربات لحماية سيده حمورابي. ويظهر حمورابي في كسرة النصب

هذه بصورة شبيهة لتلك التي ظهر عليها في نصب الشريعة، خاصة فيما يتعلق بالحركة التعبدية التي يقوم بها: رفع اليد اليمنى إلى الأعلى و كأنه يؤدي قسماً.

اللوحات الجدارية

تنقسم اللوحات الجدارية إلى نوعين: الرسوم الجدارية التي أبدعها الرسامون، والنحت النافر على الطين الذي جسده النحاتون، ويختلف هذا الفن عن الرسوم الجدارية اختلافاً كبيراً خاصة فيما يتعلق بالمادة الأولية، والتقنيات المستخدمة فيه، ويشترك معه في بعض الرموز.

اللوحات الجدارية المرسومة هي عبارة عن رسومات استخدمت فيها بعض التقنيات المعمارية لتكون جزءاً من الجدار الذي توضع عليه. فهي غير قابلة للحركة، ولا يمكن نقلها من جدار إلى آخر كما هو الحال في اللوحات الجدارية التي نستخدمها في أيامنا هذه. وقدمت الرسوم الجدارية مواضيع مختلفة، واستخدمت فيها رموز مختلفة (حيوان، ونبات، وآلهة، وملوك) لإيصال الأفكار التي كان أصحاب هذه اللوحات يريدون التعبير عنها.

ويقدم قصر ماري الملكي أمثلة هامة على الرسم الجداري الذي ظهر في هذا العصر. ومن الأمثلة عليها اللوحة الجدارية التي كانت تزين أحد جدران الصالة ١٣٢ (**الشكل٨**) التي كانت تقع على الواجهة الجنوبية للساحة ١٣١. ولم تكن هذه اللوحة موضوعة في مكانها الأصلي عندما اكتشفها اندريه بارو، بل كانت على شكل قطع مكسرة[١٥]، تتناثر على أرض الصالة. والسبب في ذلك الدمار الذي تعرض له القصر من قبل حمورابي البابلي. وهناك خلاف حول تاريخ هذه اللوحة، فبحسب بياتريس بيير[١٦] يُرجح انتماء هذه اللوحة إلى فترة الملك يسمخ أدو بينما الدراسات الحديثة أثبتت أن هذه القطعة الفنية تعود إلى ٢٠٠٠ ق.م أو بعد بقليل[١٧].

تمكن الفرنسيون من الوصول إلى شكل تقريبي للوحة بالاعتماد على القطع التي عثروا عليها، حيث تم نسخ هذه اللوحة على مادة السيلوفان[١٨]، لكنها لا تتطابق مع اللوحة الأصلية بشكل مؤكد. وتتضمن هذه اللوحة عدة حقول تقدم مشاهد دينية، ففي الأعلى يوجد حقل لم يبقَ منه إلا جزء بسيط في الوسط، و يوجد تحته حقل آخر يحوي مشهداً يتعلق ببعض التقدمات إلى الربة عشتار، يليه مشهد آخر يسمى مشهد التضحية وسكب الماء المقدس، وفي الأسفل يوجد الحقل الأخير الذي لا يضم إلا جزءاً صغيراً من المشهد، والذي فُقد الجزء الأكبر منه.

وستحاول هذه الدراسة وصف الأجزاء المتبقية منها. الحقل الثاني من اللوحة يضم مشهداً يصور الربة عشتار مع آلهة أخرى وهم يؤدون بعض الطقوس الدينية. ويجسد هذا المشهد الربة عشتار جالسةً على كرسي، وتضع على رأسها تاجاً مزيناً بأربعة صفوف من القرون، ويخرج من كتفها الأيسر ثلاثة أسلحة تُثبت أن هذه الربة هي عشتار، فهي آلهة الحرب كما هو معروف. وبحسب المشهد تمد الربة عشتار إحدى يديها باتجاه ربة تقف أمامها وجهاً لوجه، وهي أقل أهمية منها. وتقدم هذه الربة إلى عشتار وعاءً صغيراً يشبه القدح، ومن فوق القدح تظهر شمس ساطعة. وخلف الربة عشتار توجد إلهة أخرى لا ترقى إلى مكانة عشتار، وتضع على رأسها تاجاً مزيناً بالقرون[١٩]. ويوجد خلف هذه الربة كائن أسطوري خرافي، ربما يرمز لآلهة معينة. ويحوي هذا الحقل مشهداً آخراً يشغل القسم الأيمن منه، لا توجد صلة بينه وبين المشهد الذي تحدثنا عنه. ويتضمن هذا المشهد ربة أخرى تدير ظهرها للربة التي تقف أمام عشتار، وتضع على رأسها تاجاً مؤلفاً من صف واحد من القرون وتمد إحدى يديها إلى الأمام، و يوجد أمامها آلهة أخرى أو أشخاص، لا يمكن أن نتعرف عليهم بسبب فقدان أجزاء كبيرة من هذا المشهد[٢٠]. وفي أقصى اليمين من الحقل الثاني يوجد كائن أسطوري مجنح برأس إنسان ملتحٍ و بجسد حيوان.

وفي الحقل الذي يلي الحقل السابق يوجد مشهد يختلف عن المشاهد السابقة. في أسفل النصف الأيسر من هذا الحقل يوجد رسومات ترمز إلى جبل. وفوق هذا الجبل (في أقصى الجهة اليسرى) يظهر ثور يمضي باتجاه اليسار، وخلف هذا الثور توجد بقية هذا الجبل الذي يأخذ شكل عرش ويجلس عليه الإله سين (Sin) إله القمر[٢١]. يضع هذا الإله على رأسه تاجاً منبسطا يخرج منه قرنان، وفوق التاج يوجد قرص مدور، وفوق القرص يوجد هلال. ويتشابه هذا التاج مع تاج آخر ظهر على كسرة من نصب أورنامو[٢٢]. ويدل ذلك على تأثر الفن في العصر البابلي القديم بالفن الذي ساد في عصر الانبعاث السومري، ولا غرابة في ذلك لأن هذه اللوحة وُضعت هنا بعد انتهاء حكم سلالة أور الثالثة بسنوات قليلة، وعلى ذلك من غير المستبعد أن يؤثر الفن السومري بفن هذا العصر. وأمام إله القمر يوجد مذبح، ووُضع فوق هذا المذبح وعاء أشبه بالمزهرية، يخرج منه نبات. وعلى مقربة من المذبح يوجد وعاءان آخران، ويقف أمامهما رجل كبير بالسن بلحية بيضاء، ويضع على رأسه قلنسوة، ويحمل بيده قدحاً يسكب منه الماء فوق المذبح وداخل الوعاءين. وربما كان هذا الشخص أحد ملوك ماري لأن تقليد سكب الماء المقدس يتعلق بالملوك. وخلف هذا الملك تقف ربة حامية، ترفع ذراعيها للأعلى، ويخرج من رأسها قرنان (رمز الألوهية). وخلف هذه الربة يقف شخص ملتحٍ، يضع إزاراً، وتوجد على رأسه قلنسوة، ويحمل بيده اليمنى مزهرية ذات عنق طويل، وصولجاناً بيده اليسرى. وبحسب جان كلود مرجرون[٢٣] ربما كان هذا الشخص الإله مارتو (Martu) أو أدد (Adad) إله العاصفة، أو أنه ابن الملك، أو خادمه، لأن الصولجان الذي بيده يرمز إلى العظمة الملكية، وكان يشارك في طقس التضحية المقدسة التي يرمز لها الثور الموجود في أقصى الحقل الأيسر. هذا الشخص هو على الأغلب إنسان وليس إلهاً، لأنه بالإضافة لكونه يحمل صولجاناً يرمز إلى العظمة الملكية، كان يضع على رأسه قلنسوة شبيهة بقلنسوة الملك، فهو يتبع له أو يمت له بصلة. وبالنسبة لهوية هذا

الشخص فهو على الأرجح ابن الملك لأنه كان يحمل الصولجان وهو أحد رموز العظمة الملكية، ومن المستبعد إعطاؤه إلى الخادم. من جهة أخرى، وجود شخصين يوجد بينهما فارق كبير بالسن (الملك ذو اللحية البيضاء والشاب ذو اللحية السوداء) يعطي إشارة واضحة على أن هذا المشهد يصور الأب وابنه. وقد يكون الهدف من وراء ذلك إبراز الأمير الصغير على المسرح السياسي من خلال المشهد الديني ليكون ملك المستقبل. وخلف هذا الشخص في أعلى المشهد توجد مزهرية صغيرة يتدفق منها الماء من أعلى المشهد إلى أسفله.

ومن أشهر اللوحات الجدارية في قصر ماري لوحة التنصيب (**الشكل٩**) التي عثرت البعثة الفرنسية على أجزائها المكسرة في الساحة ١٠٦ حيث كانت في الأصل تزين الجدار الجنوبي لهذه الساحة. يبلغ طول هذه اللوحة ٢،٥٠ م بارتفاع ١،٦٥ م، وهي محاطة بزخرفة شبيهة بالإطار الذي يحيط بالسجادة[٢٤]. تعود هذه اللوحة إلى القرن الثامن عشر ق.م[٢٥].

تضم هذه اللوحة الجدارية مشهدين جانبين من الجهة اليمنى والجهة اليسرى، يحيطان بمشهدين يقعان في مركز اللوحة. المشهدان الجانبيان متشابهان، يصور كل منهما الربة لاما (Lama) (الربة الحامية) في وضعية الوقوف وهي تدير نفسها باتجاه مركز اللوحة و ترفع يديها إلى الأعلى ثم تظهر شجرة نخيل مثمرة، ويصعد عليها رجلان يريدان الحصول على الثمار، وفوق النخلة يوجد طائر يفرد جناحيه ثم تظهر لنا بعض الحيوانات الأسطورية، وفي نهاية كلا المشهدين يوجد شجرة زينة[٢٦]. وبالنسبة للمشهدين اللذين يقعان في مركز اللوحة، يتموضع أحدهما فوق الآخر، المشهد العلوي يُظهر اللقاء بين ملك ماري والربة عشتار. وبحسب المشهد يقف الملك ومن خلفه الربة إما (الإلهة الحامية)، وتقف الربة عشتار مقابل الملك تقدم له العصا والحلقة (رموز السلطة)، وتوجد خلفها ربتان أخريان. وفي المشهد السفلي توجد ربتان

متقابلتان (آلهة الماء[٢٧])، تحمل كل منهما وعاءً كالمزهرية، يخرج منه الماء كأنه ينبوع، ويتدفق باتجاه الأعلى ثم ينزل باتجاه الأسفل.

ووضعت لوحة أخرى ذات موضوع ديني على الجدار الجنوبي للساحة ١٠٦، إنها اللوحة التي تصور موكب التضحية المقدسة. وبحسب الأجزاء المتبقية من هذه اللوحة يمكن القول أنها تتألف من مشهدين. في المشهد الأول يظهر كاهن، كان يقود ثوراً مزيناً ليضحي به. وأما المشهد الثاني، فلا توجد منه إلا قطعة واحدة، يصور مجموعة من الرجال يسيرون وراء رجل أكبر حجماً منهم، على الأغلب هذا الرجل هو الملك[٢٨] الذي لا يظهر إلا القسم الأوسط من جسده. وبإلقاء نظرة على هذه اللوحة ووصف مشاهدها يتبين لنا أنها ما هي إلا قطعة من لوحة كبيرة، ضاع قسم كبير منها. لهذا السبب لا يمكن تقديم وصف مفصل لمشاهدها.

ومن خلال عرض هذه اللوحات نلاحظ أن بعض المشاهد ركزت على اللقاء بين الملك و الآلهة (المشهد العلوي من لوحة التنصيب، والحقل الثالث من لوحة الصالة ١٣٢). بينما ركزت مشاهد أخرى على الآلهة نفسها دون إعطاء الملك أي حيز (الحقل الثاني من لوحة الصالة ١٣٢، والمشهد السفلي من لوح التنصيب). وتشترك اللوحات في موضوع التضحية المقدسة الذي يُبرز الثورَ كرمز أساسي في هذا الطقس الديني.

ويقدم العصر البابلي القديم نوعاً آخر من اللوحات الجدارية، وخير مثال على ذلك لوحة برني (**الشكل ١٠**) التي يبلغ ارتفاعها ٥٠ سم، وقد صُنعت من الطين المشوي لتكسب صلابة، وهي تحوي نحتاً نافراً لآلهة مجنحة على هيئة امرأة عارية تحمل بيديها العصا والحلقة (رموز السلطة)، وتقف على أسدين رابضين بقدميها اللذين صُورا على شكل مخالب، وعلى يمينها ويسارها توجد بومتان، وتضع على رأسها تاج الإلوهية. إن هذه الربة هي ليليت (Lilit) جنية الليل وربة الموت[٢٩]. وبحسب التقاليد الرافدية كانت العصا والحلقة ترمزان إلى السلطة التي يحصل عليها الملك بتفويض

ودعم من الإله. لكن الملفت للنظر أن هذه اللوحة لا تصور الملك الذي كان من المفترض أن يتسلم هذه الرموز من الربة ليليت.

على الرغم من الاختلاف في التقنية المستخدمة في تصميم اللوحات الجدارية (الرسوم الملونة واللوحات الطينية) إلا أنها تتشابه مع بعضها البعض في المواضيع التي تشترك في بعض الرموز كالعصا والحلقة التي تحملها الآلهة والتي تُمنح إلى الملك كرموز للسلطة، وتشترك أيضاً في تصويرها للأسد كحيوان مقدس يرمز للقوة.

التماثيل الكبيرة للآلهة

يُعد تمثال ربة الينبوع (La déesse aux Eaux Jaillissantes) (**الشكل ١١**) أحد أهم وأجمل القطع الفنية المنحوتة التي تعود إلى العصر البابلي القديم. عُثر على هذا التمثال في القسم الرسمي من قصر ماري الملكي. أثبت وجود هذا التمثال هنا أن القسم الرسمي في قصر ماري كان يلعب دوراً دينياً لاسيما الصالة ٦٤[٣٠].

نُحت التمثال من الحجر الكلسي الأبيض بارتفاع ١،٤٢ م[٣١]، ويُظهر ربة الينبوع التي لم تكن من الآلهة ذات المكانة الرفيعة جداً في ماري، وما يدل على ذلك تاجها الذي كان يتألف من زوج واحد من القرون فقط. وترتدي هذه الربة ثوباً نُقشت عليه عدد من الأسماك، وبعض الخطوط التي ربما كانت ترمز للأنهار. وتضع على رأسها قبعة أو قلنسوة، وتتدلى على كتفيها جديلتان، ويزين رقبتها عقد مؤلف من حبات صغيرة، وتمسك بيديها إناءً صغيراً.

ويتصل هذا الإناء بثقب داخل التمثال، ويتصل هذا الثقب بقناة داخلية تربط بين الإناء وبين قاعدة التمثال. إن هذه الترتيبات تدفع للاعتقاد بأن ربة الينبوع كانت مزودة بتقنية تُدخل إليها الماء من الأسفل لتمر بالقناة الداخلية وصولاً إلى الوعاء الذي يتحول إلى ما يشبه النبع الذي يتدفق منه الماء، وهذا يرمز إلى الخصوبة والحياة. وبحسب الدراسات الحديثة[٣٢] لقصر ماري تبين أن تمثال ربة الينبوع كان موضوعاً

على منصة الصالة ٦٤ في القسم الرسمي لهذا القصر كرمز للخصوبة والحياة ولم تقم هذه الربة بوظيفتها الحقيقية (التزود بالماء من أنبوب يتصل بأسفل التمثال ومروره عبر قناة داخلية ووصوله إلى الإناء الذي تحمله الربة بيديها كرمز لاستمرار الخصوبة والحياة) والدليل على ذلك خلو الصالة ٦٤ من الترتيبات التي تتعلق بجريان الماء المتدفق من إناء الربة.

التماثيل الصغيرة للآلهة (الدمى الطينية)

تقدم ماري الكثير من الدمى الطينية الصغيرة التي تجسد بعض الآلهة التي كانت تُعبد من قبل الفئات الدنيا في مجتمع ماري (**الشكل١٢**). وهذا يدل على أن الآلهة تنوعت في المجتمع الرافدي، فمنها الملكي الذي كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالملوك والطبقة العليا في المجتمع، ومنها أيضاً الشعبي الذي يدل على وجود المعتقدات الشعبية. وما يثبت أن هذه الدمى كانت ترمز للمعتقدات الشعبية التي يتبناها الفقراء والبسطاء، العثور عليها داخل قصر ماري في الأماكن التي كان يقطنها العبيد الذين يخدمون الملك وعائلته[٣٣].

وقد عثر المنقبون على الكثير من هذه الدمى التي تصور الكثير من الآلهة، ولعل أهمها الدمى التي تجسد بعض الآلهة الملتحية التي تضع على رأسها تاجاً مؤلفاً من خمسة قرون، وترتدي ثوباً يغطي أحد الكتفين، وتضع اليدين على الصدر إظهاراً للورع والتقوى، وغالباً ما تقف هذه الآلهة على جبل. ويوجد أيضاً قطع صغيرة تصور نساءً عاريات، ربما ترمز هذه الدمى لبعض الإلهات. وهناك قطع طينية صغيرة، يوجد على سطحها نحت نافر لزوج من الآلهة، يقفان على جبل، وبينهما سارية، في أعلاها نجمة، وترتكز هذه السارية على ظهر أسد (**الشكل E-12**).

عُثر في قصر ماري الشرقي على عدد من القطع الفنية التي تشابه–من حيث تقنية الصناعة– تلك القطع التي أشرنا إليها، والتي عُثر عليها في قصر ماري الملكي.

ومن هذه القطع تلك القطعة التي تصور الربة عشتار واقفة بين شخصين على جبل وتضع رجلها على أسد، وتحمل عصا وجعبة سهام، وتضع على رأسها تاجاً مؤلفاً من عدة صفوف من القرون (**الشكل ١٣**)، ما يدل على مكانتها الرفيعة في ماري مقارنة بالآلهة الأخرى. وكما أسلفنا، يحيط بها من كل جهة شخص، يمسك بيده بلطة، ويدل ذلك على أن المشهد الذي نتحدث عنه هو مشهد حربي (البلطة وأسلحة عشتار تؤكد هذا) امتزج بمشهد ديني الذي رمزت إليه الربة عشتار في كونها أحد أهم آلهة ماري.

وتقدم ماري قطعة فنية أخرى تتشابه من حيث الحجم مع الدمى الصغيرة، لكنها تختلف من حيث تقنية الصناعة، والمادة الأولية التي صُنعت منها، والفن الذي تنتمي إليه عن هذه الدمى التي تنتمي إلى الفن الشعبي في ماري. وتتكون هذه القطعة من لوح حجري صغير بارتفاع ١٣،٥ سم، وعليه نحت نافر للربة الحامية لاما[٣٤]التي تتجه إلى اليسار، وتضع على رأسها تاجاً مؤلفاً من أربعة قرون، وهذه إشارة واضحة لمكانتها المرموقة في مجتمع ماري (**الشكل ١٤**).

ككل الآلهة الحامية التي تظهر في مختلف الفنون القديمة، ترفع الربة لاما يديها الاثنتين إلى الأعلى لمنح البركة أو الحصول على الشفاعة لدعم ملك من الملوك أو من يخدمه أو من ينوب عنه. وبالنظر إلى هذه القطعة الفنية نجد أن من أبدعها أظهر كتلة صغيرة بين اليد اليسرى وأسفل الوجه، يعتقد أحد الباحثين أن هذه الكتلة هي زهرة تستنشق الربة منها العطر[٣٥]. من الصعب تبني هذه الفرضية لأن هذه الكتلة لا تأخذ الشكل الحقيقي للزهرة. وما يؤكد مكانة هذه الإلهة في مجتمع ماري بقايا صفائح الفضة التي كانت تغطي بعض الأماكن منها وخاصة على الأطراف[٣٦].

إذا نظرنا إلى اللوح الحجري الذي صُورت عليه هذه الربة نلاحظ أن حوافه غير منتظمة، وهذا يدل على الأغلب أن هذه القطعة ربما تكون كسرة من لوحة حجرية كبيرة، تُجسد موضوعاً معيناً.

التماثيل الإنسانية

تحدثنا في الفقرات السابقة عن القطع الفنية التي صورت العديد من الآلهة التي ترمز إلى بعض الطقوس الدينية التي كانت منتشرة في بلاد الرافدين. وتجسد هذه المشاهد الآلهة منفردة في بعض الأحيان. وفي أحيان أخرى يشترك الإله مع الإنسان في مشهد من المشاهد لإيصال فكرة معينة من خلال تأدية بعض الطقوس.

وفي هذه الدراسة سيتم عرض بعض التماثيل الإنسانية التي لا تمت من الناحية الفنية إلى الآلهة بصلة (لا يظهر معها إله في المشهد)، لكنها من الناحية العقدية والفكرية تلازم الآلهة وترتبط بها ارتباطاً ووثيقاً.

وخير مثال على هذه القطع الفنية تماثيل جوديا حاكم لاجاش التي عُثر عليها في موقع تللو في نهاية القرن التاسع عشر. وتصور هذه التماثيل جوديا بحجم قريب من الحجم الطبيعي، واقفاً أو جالساً، ونُقشت على بعضها بعض الكتابات التي تتحدث عن أعمال هذا الحاكم. وتعد هذه الأعمال- من الناحية التقنية- استمراراً لفن النحت الأكادي، لاسيما فيما يتعلق بالمظهر الخارجي والمقاييس واللباس[٣٧].

وعلى خلاف الكثير من القطع الفنية التي تصور الآلهة والملوك ملتحين، تماثيل جوديا تظهر هذا الحاكم حليق الذقن، ويرتدي ثوباً طويلاً، ويكشف عن كتفه الأيمن ويده اليمنى، ويضم يديه المعقودتين إلى صدره إظهاراً للورع والتقوى (**الشكل ١٥**). تم تصوير جوديا على هذه الهيئة لأسباب دينية: الهدف من عقد اليدين وضمهما إلى الصدر إظهار الورع والتقوى في حضرة الإله. من جهة أخرى، الثياب التي يلبسها جوديا هي ثياب الرهبان البسيطة، لا مزينة ولا مطرزة[٣٨]. فإن دلَّ ذلك على شيء فإنه يدل على تدين هذا الحاكم واحترامه للإله الذي هو في حضرته. وانعكس ذلك على الفن الذي صور رجل السياسة على أنه الزاهد المتعبد ليرضي الإله الذي يحمي المملكة.

وعلى مقربة من المنصة ٦٦ في قاعة العرش في قصر ماري الملكي عثر أندريه بارو على تمثال إشتوب إلوم (Ishtup-Ilum) (٢١٢٣-٢١١٢ ق.م[٣٩])، أحد حكام ماري الذين ينتمون إلى سلالة الشاكاناكو. ارتفاع التمثال ١،٥٢ م، منحوت من البازلت الداكن[٤٠]، يُظهر إشتوب إلوم وهو يضع على رأسه قلنسوة، ويرتدي ثوباً طويلاً، مطرزاً من أطرافه السفلية، يغطي الكتف الأيسر فقط، لكن الكتف الأيمن بقي مكشوفاً كما هو الحال في تمثال جوديا. ولكن على عكس جوديا الذي ظهر حليق الذقن في تمثاله، حاكم ماري يظهر ملتحياً ولديه شوارب. وأهم ما يميز هذا التمثال بالنسبة للحياة الدينية ضم اليدين إلى الصدر إظهاراً للورع والتقوى. إن التشابه مع تمثال جوديا يؤكد تأثر الفن في ماري بالفن الأكادي الذي ظهرت تأثيراته على عصر جوديا[٤١].

وعثر في بابل على تمثال لبوزور إشتار (Puzur-Eshtar) (٢٠٣٢-٢٠٠٧ ق.م) أحد حكام ماري في عصر الشاكاناكو، ارتفاعه يقدر ب١،٧٥ م[٤٢]. وعلى عكس جوديا حليق الذقن، يظهر بوزور إشتار في هذا التمثال باللحية الطويلة المجعدة والشوارب كما هو الحال في تمثال إشتوب إلوم. لكنه يلتقي مع تمثال جوديا بكشف الكتف الأيمن، وهذا ما لاحظناه في تمثال إشتوب إلوم. وهذا يعني أن الثلاثة يشتركون في نفس السمة. الحركة التعبدية التي يقوم بها بوزور إشتار هي نفسها التي ظهرت في التماثيل السابقة: ضم اليدين إلى الصدر إظهاراً للورع والتقوى. على عكس جوديا وإشتوب إيلوم، كان يخرج من رأس بوزور إشتار زوج من القرون[٤٣]، ويدل ذلك على تأليهه. كان هذا التقليد منتشراً في بلاد الرافدين في بعض الحقب التاريخية. ففي العصر الأكادي[٤٤]، وعصر سلالة أور الثالثة[٤٥] التي ينتمي إليها هذا التمثال، كان بعض الملوك الرافديون يؤلهون أنفسهم. وانعكس ذلك على الفن الرافدي كما نلاحظ، وعلى العمارة الرافدية حيث شيدت المعابد لعبادة الملوك المؤلهين من أمثال الملك

السومري شو سين الذي شيد له حكام تل أسمر الأموريون معبداً ملتصقا بقصرهم، مخصصاً لعبادته[٤٦].

مقارنة بين المشاهد الدينية التي صُورت بالأعمال الفنية

اختلفت وتشابهت المشاهد الدينية في الكثير من النقاط. سأحاول من خلال هذه الدراسة تحديد بعض هذه نقاط لكي أتمكن من تقديم الصورة الحقيقة للمشهد الديني الرافدي في الفترة التي تناولتها.

الآلهة التي ظهرت في المشاهد المختلفة ومكانتها في نفوس الرافديين

من خلال معالجة مختلف الفنون التي تأثرت بالحياة الدينية في بلاد الرافدين، لوحظ أن الآلهة لم يكن لها نفس القدر من الأهمية، والمكانة في المجتمعات التي تنتمي إليها. فهناك آلهة تميزت بمكانتها الرفيعة، وتربعت على عرش الألوهية، ومن أهم هذه الآلهة تلك التي ظهرت في نقوش الأختام (ختم جوديا، وختم خادم إيدين إيالوم، وختم الملك أوزورواسو)، أو التي صورتها فنون أخرى (الإله نانا في نصب أورنامو، والإله شماش في نصب الشريعة، والربة عشتار في لوحة الصالة ١٣٢ وفي لوحة التنصيب في قصر ماري، والربة ليليت في لوحة برني).

وفي بعض الأحيان جسد الفنان الرافدي هذه الآلهة وهي تقدم رموز السلطة للملك (نصب أورنامو، ونصب الشريعة، ولوحة التنصيب في قصر ماري الملكي)، وهذه إشارة واضحة لموقع وأهمية هذه الآلهة في المجتمعات الرافدية. فمن يُنصب الملوك من الآلهة لاشك أنه كان يتربع على العرش الإلهي الرافدي. وفي أحيان أخرى لم تكن الآلهة الرئيسية في المشهد تحمل العصا والحلقة لتقدمها للملك (ختم جوديا، وختم أوزورواسو، ولوحة الصالة ١٣٢ في قصر ماري)، لأن دورها في المشهد مختلف تماماً عن دور الآلهة التي تنصب الملوك. ففي هذه المرة اكتفى الإله بقبول طاعة الملك الذي يقف أمامه دون منحه أي شيء (ختم جوديا، وختم أوزورواسو،

الحقل الثالث من لوحة الصالة ١٣٢)، أو أن الإله كان مشغولاً بتأدية بعض الطقوس مع آلهة أخرى دون أن يكون للملك أي وجود في المشهد (الحقل الثاني من لوحة الصالة ١٣٢ الذي يمثل عشتار).

وهناك إله آخر له أهميته، لكنه لم يرق إلى مكانة الإله السابق، إنه الإله الحامي الذي كان يلازم الملك في مختلف المشاهد، ويطلب من الإله الكبير الذي كان يجلس على كرسي (سيد المشهد) الشفاعة للملك (الإله نينجيزيدا في ختم جوديا وفي كسرة النصب الذي يعود إليه، والربة لاما والربة إما في لوحة التنصيب، والإله الحامي في الحقل الثالث من لوحة الصالة ١٣٢، والربة الحامية في ختم الملك أوزورواسو، والإله الحامي في نصب أورنامو) أو لخادم الملك (الإله الشفيع في ختم خادم إيدين إيلوم). وبحسب القطع الفنية التي تحدثنا عنها، قد تظهر الربة الحامية منفردة في قطعة فنية لا تمثل الملك، وخير مثال على ذلك القطعة الحجرية الصغيرة التي تجسد الربة الحامية لاما.

إن وجود الإله الحامي أو الشفيع في العديد من مشاهد الفنون الرافدية لم يأت عبثاً أو صدفةً، لا بل كان لهذا الإله مكانته في التقاليد الرافدية القديمة، وبحسب النصوص المسمارية أطلق على هذا النوع من الآلهة اسم اللماسو، ويشير هذا المصطلح إلى الأرواح الحامية، والتي تعمل على حماية الممتلكات، والأرواح، والصحة للبشر، ولهذا الغرض شُيدت المعابد المخصصة لتقديس هذه الآلهة، وانعكس ذلك أيضاً على الفنون القديمة حيث تم تمثيلها على هيئة إنسان[٤٧].

وأظهرت الفنون الرافدية آلهة أخرى ذات مكانة أقل أهمية من المكانة التي احتلتها الآلهة السابقة في الهرم الإلهي الرافدي. ويمكن تحديد موقع هذه الآلهة في المجتمع الرافدي وأهميتها من خلال الدور الذي كانت تلعبه والذي تم تصويره في مختلف الفنون القديمة. ومن خلال دراسة نصب أورنامو تبين أنه يصور إلهاً أقل

رفعةً من الإله الذي كان يمنح رموز السلطة للملك ومن الإله الشفيع. ويظهر هذا الإله في الحقل الثالث من النصب وهو يقدم المساعدة لأورنامو في أعماله العمرانية.

ويمكن معرفة مكانة الآلهة في المجتمعات الرافدية من خلال التاج الذي تضعه على رأسها[٤٨]، فكما هو معروف الإله الكبير (سيد المشهد) والإله الشفيع كانا يضعان على رأسهما تاجاً مؤلفاً من عدة صفوف من القرون، وفي ذلك إشارة واضحة لمكانتهما الرفيعة. ويتكرر ذلك عند آلهة أخرى مثل الربتين اللتين ظهرتا في المشهد السفلي من لوحة التنصيب، فبحسب اللوحة التي تصورهما يظهر أنهما كانتا تضعان على رأسهما تاجاً مؤلفاً من أكثر من صف من القرون. بينما هناك إلهات أخريات لا يخرج من رؤوسهن إلا زوج واحد من القرون كربة الينبوع، والربات اللواتي يظهرن في الحقل الثاني والثالث من لوحة الصالة ١٣٢ في قصر ماري.

وكنا قد أشرنا سابقاً (فقرة التماثيل الصغيرة للآلهة) إلى أن الفن الشعبي أنتج الكثير من القطع الفنية البسيطة (القطع الطينية التي تحوي نحتاً نافراً لبعض الآلهة)، والتي كانت تعبر عن المعتقدات الشعبية التي يتبناها البسطاء والفقراء. وعلى الرغم من أن الفقراء هم الذين يتبنون المعتقدات الشعبية التي رُمز إليها من خلال بعض الآلهة (النساء العاريات) التي لا تصنف مع آلهة الملوك، إلا أن الديانة الشعبية صورت في بعض الأحيان آلهة ذات مكانة رفيعة في المجتمع الرافدي، وتعبد من قبل الملوك كالربة عشتار، ونتساءل هنا لماذا ظهرت الآلهة الملكية في فنون المعتقدات الشعبية؟ ألا يتناقض ذلك مع فكرة أن لكل مجتمع آلهته؟ أنا لا أعتقد أن في ذلك تناقضاً لأن الربة عشتار عندما ظهرت في بعض المشاهد (لوحة الصالة ١٣٢، ولوحة التنصيب) صورها الفنان الرافدي بطريقة تُظهر عليها الوقار، ويتجلى ذلك في حجمها، وفي الطقس الذي كانت تؤديه، وفي جلوسها على عرشها أحياناً، أو وقوفها أمام الملك أحياناً أخرى، وإحاطتها بعدد من الآلهة، كل ذلك يشير إلى مكانة هذه الربة في نفوس الطبقة العليا في المجتمع. وعلى النقيض من ذلك، القطعة الطينية الصغيرة

في الفن الشعبي لم تظهر عشتار على هذه الهيئة من الوقـار والعظمـة، هـذا يـدفع للاعتقاد إلى أن الهدف من صنع الدمى الطينية التي تمثل الآلهة الملكية هـو إرضـاء للملوك والتودد لهم دون أن يكون لهذه الآلهة دور فعال تلعبه في هذا لمجتمع الفقير.

وضعية الآلهة في المشهد

بشكل عام ارتبطت الوضعية التي ظهر عليها الإله في المشهد بمكانة هذا الإله في المجتمع الذي كان يُعبد فيه. وكما أشرنا في الفقرة السابقة، كانت المشاهد تجـسد عدداً من الآلهة، وأهم هذه الآلهة الإله الذي يتقدم إليه الملوك، أو ذاك الإله الذي كان يقوم ببعض الطقوس وإلى جانبه الكثير من الآلهة. وفي أغلب الأحيان كان الإله سـيد المشهد يجلس على كرسي (الإلهان اللذان يظهران في ختم جوديا و ختم أوزورواسو، والربة التي تظهر في ختم خادم إيدين إيلوم، والإله نانا في نصب أورنـامو، و الإلـه شماش في نصب الشريعة، و الربة عشتار والإله سين في لوحة الصالة ١٣٢). وفـي أحيان أخرى، صور الفنان الرافدي الإله الأكبر في وضعية الوقوف (الربة عشتار في لوحة التنصيب، والربة ليليت في لوحة برني). ليس غريباً أن تُصور الربة ليليت فـي وضعية الوقوف لأن القطعة الفنية التي تمثلها لا تصور أي شخصية ملكية إلى جانبها، وعلى ذلك ليس من الضروري تصويرها في وضعية الجلوس، فالملك الذي كان يقف أمام الإله الذي يجلس على كرسي بهدف الحصول على رموز الـسلطة، أو لإظهـار الطاعة، لم يكن موجوداً في هذه اللوحة. إذاً لم يكن ضرورياً إتباع نفس الطريقة فـي التصوير، والتي أشرت إليها سابقاً (المشاهد التي تمثل الإله والملك). ولكـن الملفـت للنظر أن لوحة التنصيب، وعلى خلاف القطع الفنية المشابهة لها من حيث الموضوع، تُظهر الربة عشتار في وضعية الوقوف وليس الجلوس أمام ملك ماري بهدف تنصيبه ملكاً على ماري مقدمةً له العصا والحلقة (رموز السلطة). ويمكن أن نتساءل هنا: هل أصبح ملك ماري يساوي الآلهة الكبرى في مجتمعه؟ لا أعتقد ذلك لأنه لو ساوى نفسه

بالآلهة لما رأينا عشتار تنصبه. على الأغلب أراد الملك أن يصور نفسه على هذه الهيئة ليظهر عظمته الملكية أمام شعبه وأمام زوار قصره، وليشعر الآخرين أنه له حظوة ومكانة عند عشتار[٤٩].

وبالنسبة للآلهة الأخرى التي تظهر إلى جانب الإله الكبير في مختلف المشاهد كالإله الحامي، أو تلك الآلهة التي تليه من حيث المكانة والتي تظهر في نصب أورنامو، وفي كسرة النصب الذي يعود إلى جوديا، وفي مختلف الأختام التي أشرنا إليها سابقاً، أو الآلهة التي كانت تظهر في بعض الطقوس كالربات اللواتي يظهرن مع الربة عشتار في الحقل الثاني من لوحة الصالة ١٣٢، والربتين اللتين تظهران في المشهد السفلي من لوحة تنصيب ملك ماري، كل هذه الآلهة صُورت في وضعية الوقوف. إن هذا الأمر طبيعي، ولا غرابة فيه حسب التقاليد الرافدية، لأن الجلوس على كرسي أشبه بالعرش كان من حق الإله الأكبر الذي يُعد الأهم في المشهد، والذي كان ينصب الملوك، ويقبل طاعتهم.

الحركات التعبدية

من خلال الدراسة السابقة لمختلف القطع الفنية التي تحدثت عنها سابقاً، يتبين أن الحركات التعبدية لم تكن مقتصرة على البشر من ملوك وغيرهم، لا بل أن الآلهة كانت تقوم هي الأخرى بهذه الحركات التعبدية التي تنبع من العقيدة الرافدية القديمة. وأهم حركة تعبدية قامت بها الآلهة، والتي تظهر في مختلف الفنون الرافدية رفع إحدى اليدين أو الاثنتين معاً إلى الأعلى (ختم جوديا، وختم خادم إيددين إيلوم، وخاتم أوزوروواسو، ونصب أورنامو، وكسرة النصب الذي يعود إلى جوديا، ولوحة الصالة ١٣٢، ولوحة التنصيب). والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا كانت الآلهة تقوم بهذه الحركات التعبدية؟ وما تفسيرها؟ بالنسبة للإله الحامي أو الشفيع، على الأغلب كان يؤدي قسماً معيناً أمام الإله الأكبر الذي يجلس على عرشه، أو أنه يهدف من هذه

الحركة طلب الشفاعة والحماية للملك من الإله الأكبر. وبذلك يكون الملك قد حصل على رضا هذا الإله الذي سيجلب السعادة له ولشعبه. والملفت للنظر أن هذه الحركة التصقت أيضاً ببعض الآلهة التي لا تصنف مع الآلهة الحامية كالربتين اللتين تقفان أمام و خلف عشتار في الحقل الثاني من لوحة الصالة ١٣٢. هذا المشهد كما أشرنا سابقاً يتعلق ببعض التقدمات للربة عشتار. ربما يشير رفع اليدين هنا أيضاً إلى قَسَمٍ تؤديه هاتان الربتان، أو للحصول على البركة، أو إظهاراً للولاء والطاعة، ومبايعة عشتار والاعتراف بها كربة لها مكانتها المرموقة في مجتمع ماري.

ولم تكن الحركات التعبدية مقتصرة على الآلهة فقط، بل كان للبشر نصيب منها، ويظهر ذلك جلياً في بعض التماثيل التي تمثل عدداً من الملوك (جوديا، وإشتوب إيلوم، وبوزور إشتار)، والتي تبرز لنا خشوع الملك الذي يقف بحضرة الإله من خلال يديه المضمومتين إلى صدره إظهاراً للورع والتقوى. ويمكن تحديد حركات تعبدية بشرية أخرى. فمن خلال تأمل ختم خادم إيدين إيلوم، ونصب الشريعة، وكسرة النصب التي تعود إلى حمورابي، ولوحة التنصيب، لاحظنا أن الملك أو خادم الملك اللذين يقفان أمام الإله، دائماً يرفعان يديهما اليمنى إلى الأعلى، وربما الهدف من وراء ذلك تأدية فروض الطاعة لهذا الإله الذي سيضفي الشرعية على الملك في الحكم من خلال تقديم العصا والحلقة له (رموز السلطة)، أو الحصول على مباركته في أي عمل يقوم به الشخص الذي يتقدم إليه (ختم خادم إيدين إيلوم).

الرموز الرئيسية التي تشكل المشاهد الدينية

وبحسب ما ورد سابقاً، أغلب المشاهد كانت تتمحور حول الآلهة التي كانت المحرك الأساسي للمجتمعات القديمة، فهي بحسب المعتقدات القديمة تتحكم بالكون، ومن الواجب التقرب إليها لتجلب الخير للبشرية. وعلى الرغم من أهمية هذه الآلهة، لا يمكن القول أن المشهد الديني كان دينياً بحتاً، بل تخلله بعض الرموز الأخرى،

ويتجلى ذلك بظهور الملك في بعض المشاهد لتأدية بعض الطقوس، كسكب الماء المقدس أمام الإله (ختم أوزورواسو، ونصب أورنامو، والحقل الثالث من لوحة الصالة ١٣٢) أو وقوفه أمام الإله ليستلم رموز السلطة أو ليظهر الولاء (كسرة نصب أورنامو، ولوحة التنصيب، و نصب الشريعة، وكسرة نصب حمورابي).

وهناك رموز أخرى تتمثل بالماء والنبات والحيوان. الماء كما هو معروف كان يرمز إلى الخصوبة والحياة، و كان هذا الرمز يلازم بعض الآلهة في العديد من المشاهد (ربة الينبوع، والربتان اللتان تظهران في المشهد السفلي من لوحة التنصيب)، و يلازم الملوك أحياناً الذين يسكبون الماء المقدس في وعاء تخرج منه نبتة أمام الإله (نصب أورنامو، الحقل الثالث من لوحة الصالة ١٣٢). وتظهر الرموز النباتية كثيراً في المشاهد الدينية، وأكثر ما يجذب الانتباه هنا لوحة التنصيب، والتي تصور أشجار النخيل[٥٠]، وأشجار الزينة. وتظهر النباتات أيضاً في طقوس سكب الماء المقدس أمام الإله. وبالنسبة للحيوانات، صور الفنان الرافدي الطيور في بعض المشاهد كالطير الذي يفرد جناحيه فوق النخلة في لوحة التنصيب. وربما يرمز هذا الطير إلى الخير والخصوبة لأن اللوحة كانت تحوي، إضافة إلى الطير، الكثير من الرموز التي تشير إلى ذلك (الماء، والأسماك). وعلى خلاف الطير الذي يرمز إلى الخصوبة، هناك طيور ترمز إلى الشؤم، ويبرز ذلك بشكل جلي في لوحة برني التي تضم بومتين. وليس غريباً أن نرى هاتين البومتين هنا لأن اللوحة تصور ربة الموت، والموت هو من المصائب التي تصيب الإنسان، وقد يكون طائر البوم من الرموز التي ترمز إليه. وضمت المشاهد الدينية بعض الحيوانات الأليفة (الغزالان في ختم أوزورواسو، والثوران اللذان يظهران في لوحة التضحية المقدسة، وفي الحقل الثالث من لوحة الصالة ١٣٢)، وأخرى مفترسة (الأسود في لوحة برني، وفي لوحة التنصيب)، وعلى الأغلب الحيوانات الأليفة ترمز إلى التضحية المقدسة والتقدمات التي تقدم للآلهة ضمن طقوس معينة. وفيما يتعلق بالحيوانات القوية كالأسد فإنها ترمز للقوة، ويدل ذلك على

قوة الإله وعظمته[٥١]. وتُظهر بعض القطع الفنية حيوانات أسطورية مجنحة (المشاهد الجانبية من لوحة التنصيب)، ترمز هذه الكائنات الأسطورية إلى بعض الآلهة. وفي قطع فنية أخرى (الحقل الثاني من لوحة الصالة ١٣٢) ظهر كائن أسطوري مجنح بجسد حيوان وبرأس إنسان ملتحٍ، يرمز هو الآخر إلى أحد الآلهة، والدليل على ذلك خروج قرني الألوهية من رأسه.

الخاتمة

تبين من خلال الدراسة السابقة أن الفن كان ملازماً للدين في العصور القديمة في بلاد الرافدين. ولا أكون مبالغاً إذا قلت أن الفن لعب دوراً إعلامياً مهماً بالنسبة للدين، واستطاع القدماء من خلاله نشر فكرهم الديني بين الناس على اختلاف الطبقات الاجتماعية التي ينتمون إليها. فبتجسيد الإله على شكل إنسان في أغلب الأحيان، أو على شكل حيوان أحياناً أخرى، استطاع الفنان الرافدي إيصال الأفكار الدينية إلى الناس: الإله كان قريباً من الناس ومرئياً من خلال الفنون التي صورته، ويمكن التعرف عليه واستيعابه بسهولة. لا يمكن لنا أن نقول إن هذا الفن أو ذاك خدم الحياة الدينية أكثر من الفنون الأخرى، لأن الحياة الدينية التي يرمز إليها الإله شغلت حيزاً كبيراً في كل الفنون. لكن وعلى الرغم من تساويها في خدمة الحياة الدينية، إلا أنه كان لبعض القطع الفنية دور أكبر في التعريف ببعض الآلهة، وخير مثال على ذلك لوحة التنصيب في قصر ماري، والتي كانت موضوعة على أحد جدران الساحة ١٠٦، يراها كل شخص يدخل إلى قاعة العرش لمقابلة الملك، وبذلك يكون قد تعرف على عشتار، التي تنصب الملك، وعلى غيرها من الآلهة. وبهذه الطريقة كان يذيع صيت الآلهة في مختلف المناطق، وتنتشر الأفكار التي ترمز إليها. وفي النهاية، يمكن القول أن الفن قدم معلومات قيمة عن الآلهة الرافدية، فكان من المصادر الهامة التي ساعدتنا على التعرف على الآلهة القديمة وتسلسلها في الهرم الإلهي الرافدي.

الصور والأشكال



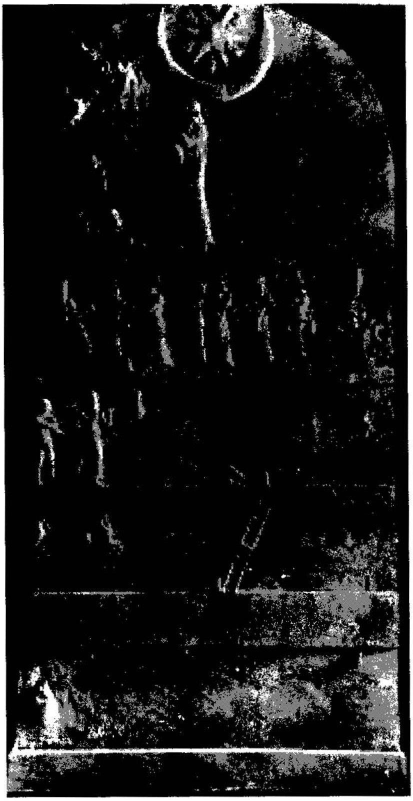
(الشكل ١) مشهد تمثيلي لختم يعود إلى جوديا. سلمان (عبد اللطيف)، الدرس الرابع، الشكل ٢٤.



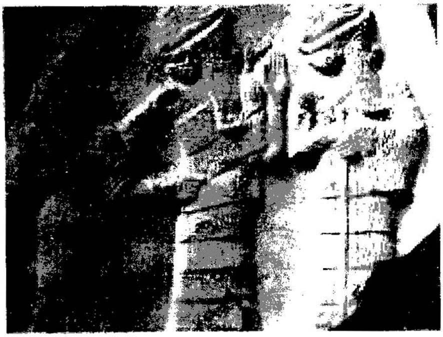
(الشكل ٢) ختم خادم الملك إيددين إيلوم. Margueron (Jean-Claude), 2004, fig.412



(الشكل ٣) ختم الملك أوزوروواسو. Reichel (Clemens Daniel)،٢٠٠١, fig.27 (a)



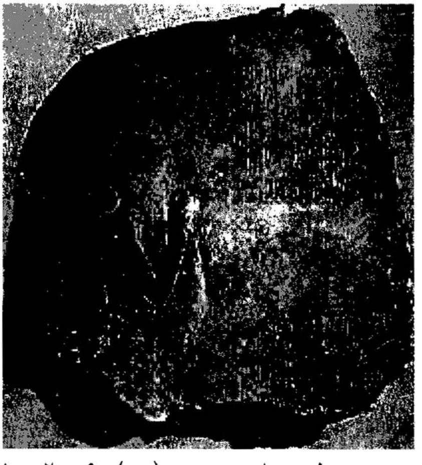
(الشكل٤) نصب أورنامو. مرعي (عيد)، ٢٠٠٩-٢٠١٠، الشكل ٧٢.



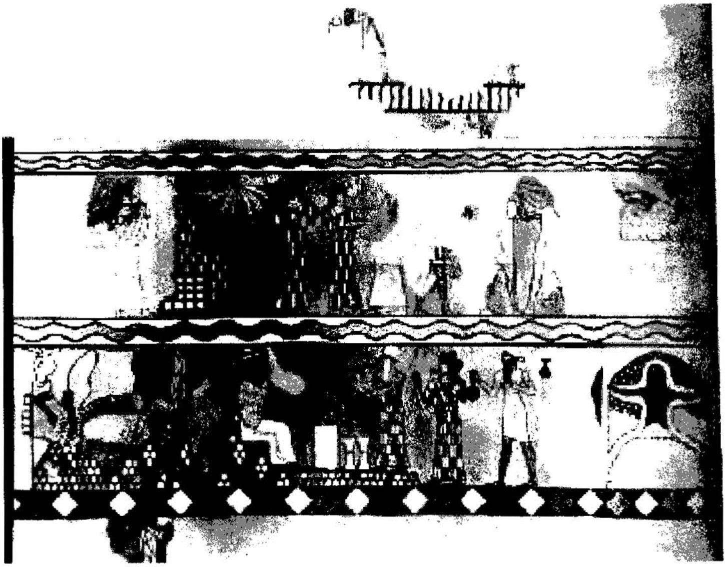
(الشكل٥) كسرة من نصب يعود لجوديا. مرعي (عيد)، ٢٠٠٩-٢٠١٠، الشكل ٧٤.



(الشكل٦) نصب الشريعة لحمورابي. سلمان (عبد اللطيف)، الدرس الرابع، الشكل ٣٨.



(الشكل٧) كسرة من نصب لحمورابي. مرعي (عيد)، ٢٠٠٩-٢٠١٠، الشكل ٨٤.



(الشكل٨) لوحة الصالة ١٣٢ في قصر ماري. Margueron (Jean-Claude), 2004, fig. 398



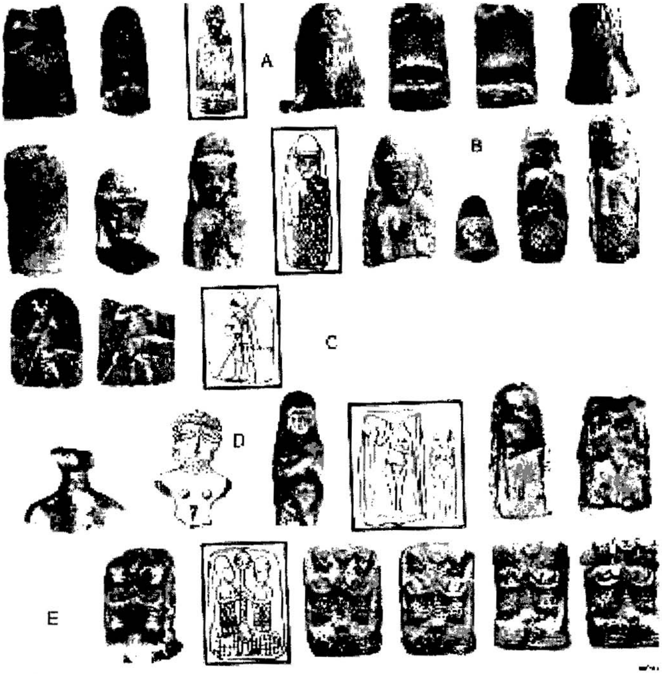
(الشكل٩) لوحة التنصيب في قصر ماري. Margueron (Jean-Claude), 2004, fig. 497



(الشكل١٠) لوحة برني التي تظهر الربة ليليت. مرعي (عيد)، ٢٠٠٩-٢٠١٠، الشكل. ٨٩.



(الشكل١١) ربة الينبوع..Margueron (Jean-Claude), 2004, pl. 67



(الشكل١٢) الدمى التي تمثل الديانة الشعبية في ماري. Margueron (Jean-Claude), 2004, fig. 473



(الشكل١٣) الربة عشتار تقف بين شخصين و تضع رجلها على أسد. Margueron (Jean-Claude), 2004, fig. 504 (2).



(الشكل ١٤) الربة الحامية لاما. Margueron (Jean-Claude), 2004, fig. 503



(الشكل ١٥) تمثال لجوديا في وضعية الوقوف. سلمان (عبد اللطيف)، الدرس الرابع، الشكل ٢٠.

الهوامش

(١) كوفان (جاك)، **ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام**، ترجمة سلطان محيسن، دار دمشق، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٨، ص٧٨- ٧٩.

(٢) قابلو (جباغ) – سمير (عماد)، **تاريخ الوطن العربي القديم** (بلاد الرافدين، سورية، مصر)- جامعة دمشق- ٢٠٠٧-٢٠٠٨، ص ١٥٣.

(٣) مصطفى (إسراء)، **منحوتات الحيوانات المركبة في بلاد الرافدين و وادي النيل** (نماذج منتخبة)، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد١١، العدد ٢، جامعة الموصل، ٢٠١١، ص ٤٥٠.

(٤) مورتكات (أنطون)، **الفن في العراق القديم**، ترجمة و تعليق عيسى سلمان و سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٧٠، ص ٢٢١، الشكل ١٨٧.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٣٦.

6 Beyer (Dominique) « Scellements de portes du palais de Mari », M.A.R.I. 4, 1985, p. 383, et Abdulhak (Hassan) L'architecture royale en Mésopotamie à la fin du Bronze Ancien et au Bronze Moyen (de la période de la Troisièm Dynastie d'Ur à l'époque paléobabylonienne), volume I, thèse de doctorat d'archéologie, Lyon, 2010, p. 334.

(٧) سلمان (عبد اللطيف)، **تاريخ الفن والتصميم١**، الدرس الرابع، فنون بلاد ما بين النهرين العصر السومري الثاني، الجامعة الدولية الخاصة للعلوم والتكنولوجيا، ص٧٨.

(٨) مورتكات، المرجع السابق، ص ٢٣٣.

9 Margueron, op. cit, p. 328.

(١٠) مرعي (عيد)، **آثار الوطن العربي القديم** (الجزيرة العربية و بلاد الرافدين)، جامعة دمشق، ٢٠٠٩-٢٠١٠، ص ٢٠٥.

11 Reichel (Clemens Daniel) Political Changes and Cultural Continuity in the Palace of the Rulers at Eshnunna Ttell Asmar) from the Ur III

Period to the Isin-Larsa Period (C.A 2070 -1850 B.C.), volume I, Chicago, Illinois, 2001, p. 254-274.

(١٢) مورتكات، المرجع السابق، ص ٢٢٤ .

(١٣) المرجع نفسه، ص٢٨.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٢٢٥.

15 Parrot (André) Mission archéologiques de Mari, volume II le palais, tome I Archeticture, Institut Français d'Archéologie de Beyrouth. Bibliothèque Archéologique et Historique, tome LXVIII, Paris, Libraire orientaliste, 1958, p. 64.

16 Pierre (Béatrice) Décor peint à Mari et au Proche-Orient, M.A.R.I., 1987, p. 552.

17 Margueron, op. cit., p. 407.

18 Parrot, op. cit., p. 64.

19 Margueron, op. cit., p. 408.

20 Idem, p. 408-409.

21 Idem, p. 409.

(٢٢) مورتكات، المرجع السابق، ص ٢٤٢.

23 Margueron, op. cit., p. 409.

24 Idem, p. 508.

(٢٥) مورتكات، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

26 Margueron, op. cit., p. 508.

(٢٧) مورتكات، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٢٣٨.

(٢٩) مرعي، المرجع السابق، ص ٢٠١.

30 Al-Khalesi (Yassin) The court of the Palms: a functional interpretation of the Mari palace, Bibliotheca Mesopotamica, Vol. 8, Undena publication, Malibui, 1978, p. 24 et Abdulhak, op. cit., p. 160.

31 Margueron, op. cit.,p. 513.

32 Idem, p.513.

33 Idem, p. 490.

34 Idem, p.513.

35 Idem, p. 513.

36 Idem ,p. 514.

(٣٧) مورتكات، المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٣٨) سلمان، المرجع السابق، ص ٧٦.

39 Margueron, op. cit., p.328, 411.
40 Idem, p. 411.

(٤١) مورتكات، المرجع السابق، ص ٢١٣.

42 Margueron, op. cit., p.413.

(٤٣) خروج قرنين من رأس بوزور إشتار يعكس تأثيراً فنياً و دينياً أكادياً، انظر مورتكات،المرجع السابق، ص ٢١٦.

44 Roaf (Micheal). Atlas de la Mésopotamie et du Proche-Orient ancien, traduit de l'anglais par Philipe Talon, 1991, p.82.

45Garelli (Paul)-(Durand) Jean-Marie-(Gonnet)Hatice-(Breniquet) Catherine, Le Proche-Orient Asiatique, Tome 1, Des origines aux invasions des peuples de la mer, Nouvelle Clio, PUF, Paris, 2001, p. 74.

46 Abdulhak (Hassan) L'architecture royale en Mésopotamie à la fin du Bronze Ancien et au Bronze Moyen (de la période de la Troisièm Dynastie d'Ur à l'époque paléobabylonienne), volume I, thèse de doctorat d'archéologie, Lyon, 2010, p. 46.

47 Al-Khalesi, op. cit., p.12.

(٤٩) القرون التي تخرج من الرأس ترمز إلى الألوهية، ويمكن تحديد مكانة الإله من خلال عدد القرون، انظر مصطفى، المرجع السابق، ص ٤٥٥.

49 الذي يؤكد هذه الفرضية المكان الذي وضعت فيه لوحة التنصيب (الساحة ١٠٦)، والذي يعد أكبر جزء في القسم الرسمي في قصر ماري، وكانت تقام فيه بعض الاحتفالات الدينية، أعتقد أن هذا السبب دفعه لأن يصور نفسه على هذه الهيئة ليظهر مكانته الرفيعة في أعين ضيوفه الذين كانوا يحضرون.هذه الاحتفالات. Durand (Jean. Marie). « L'organisation de l'espace dans le palais de Mari », le système palatialen orient, en Grèce et à Rome, Actes du colloque de Strasbourg 19-22 juin 1985. Université des Sciences Humaines de Strasbourg, p.55 et Abdulhak, op. cit., 1987, p. 156.

50Abdulhak, op. cit., p.132. حول رمزية النخيل في المشهد انظر

51Battini (Laura).– Une inscription sur brique d'EnannatumI : un nouveau regard sur les lions gardiens des portes en Mésopotamie. Anthropozoologica 44(1), 2009, p.189.

المراجع

المراجع العربية

١ – **سلمان (عبد اللطيف)**، تاريخ الفن و التصميم١، الدرس الرابع، فنون بلاد ما بين النهرين العصر السومري الثاني، الجامعة الدولية الخاصة للعلوم و التكنولوجيا.

٢ – **قابلو (جباغ) – سمير (عماد)**، تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الرافدين، سورية، مصر)– جامعة دمشق– ٢٠٠٧–٢٠٠٨.

٣ – **كوفان (جاك)**، ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ترجمة سلطان محيسن، دار مشق، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٨.

٤ – **مرعي (عيد)**، آثار الوطن العربي القديم (الجزيرة العربية و بلاد الرافدين)، جامعة دمشق، ٢٠٠٩–٢٠١٠.

٥ – **مصطفى (إسراء)**، منحوتات الحيوانات المركبة في بلاد الرافدين و وادي النيل (نماذج منتخبة)، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد١١، العدد ٢، جامعة الموصل، ٢٠١١.

٦ – **مورتكات (أنطون)**، الفن في العراق القديم، ترجمة و تعليق عيسى سلمان و سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٧٠.

المراجع الأجنبية

1- **Abdulhak (Hassan)** L'architecture royale en Mésopotamie à la fin du Bronze Ancien et au Bronze Moyen (de la période de la Troisièm Dynastie d'Ur à l'époque paléobabylonienne), volume I, thèse de doctorat d'archéologie, Lyon, 2010.

2- **Al-Khalesi (Yassin)** The court of the Palms: a functional interpretation of the Mari palace, Bibliotheca Mesopotamica, Vol. 8, Undena publication, Malibui, 1978.

3- **Battini (Laura)** Une inscription sur brique d'EnannatumI : un nouveau regard sur les lions gardiens des portes en Mésopotamie. Anthropozoologica 44(1): 2009.

4- Beyer (Dominique) « Scellements de portes du palais de Mari », M.A.R.I. 4, 1985.

5- Durand (Jean Mari) « L'organisation de l'espace dans le palais de Mari », le système palatial en orient, en Grèce et à Rome, Actes du colloque de Strasbourg 19-22 juin 1985. Université des Sciences Humaines de Strasbourg, 1987.

6- Garelli (Paul) - (Durand) Jean-Marie - (Gonnet) Hatice - (Breniquet) Catherine, Le Proche-Orient Asiatique, Tome 1, Des origines aux invasions des peuples de la mer, Nouvelle Clio, PUF, Paris, 2001.

7- **Margueron (Jean-Claude)** Mari - Métropole de l'Euphrate. Editions Picard et ERC, Paris, 2004.

8- Parrot (André) Mission archéologiques de Mari, volume II le palais, tome I Archeticture, Institut Français d'Archéologie de Beyrouth. Bibliothèque Archéologique et Historique, tome LXVIII, Paris, Libraire orientaliste, 1958.

9- Pierre (Béatrice), Décor peint à Mari et au Proche-Orient, M.A.R.I., 1987.

10- Reichel (Clemens Daniel) Political Changes and Cultural Continuity in the Palace of the Rulers at Eshnunna Ttell Asmar) from the Ur III Period to the Isin-Larsa Period (C.A 2070 -1850 B.C.), volume I, Chicago, Illinois, 2001.

11- Roaf (Micheal). Atlas de la Mésopotamie et du Proche-Orient ancien, traduit de l'anglais par Philipe Talon, 1991.

نصوص المعاهدات والعلاقات الدولية في محفوظات إبلا

الدكتور عماد سمير

جامعة دمشق

يهدف هذا البحث إلى التعريف بمجموعة من نصوص المعاهدات والعلاقات الخارجية في محفوظات إبلا، موضوعها علاقات مملكة إبلا السياسية مع الممالك المجاورة ومع المجموعات القبلية، وذلك في إطار صراعها مع مملكة ماري في زمن المحفوظات (القرن الرابع والعشرين ق.م). فقد كانت ماري أقوى مملكة نافست إبلا ونازعتها السيادة على مناطق شمال سورية والفرات الأوسط. وحاول كل طرف منهما الحصول على مراكز نفوذ جديدة على حساب الطرف الآخر إما بالتحالف أو بالحرب.

تتألف هذه المجموعة من واحد وعشرين نصاً تتضمن معاهدات ورسائل وتقارير مختلفة نُشِرت عام ٢٠٠٣ في المجلد الثالث عشر من سلسلة ARET(١) = (Archivi Reali Di Ebla, Testi) "محفوظات إبلا الملكية: نصوص") بعنوان: " Testi di cancellaria. I rapporti con le città" "نصوص السفارات: العلاقات مع المدن"، حيث قام العالم اللغوي الإيطالي بيليو فرونزارولي (Pelio Fronzaroli) بترجمة هذه النصوص وأرفقها بدراسات وتعليقات لغوية وتاريخية وفهارس.

تعد هذه النصوص مصدراً مهماً للدراسات المتعلقة بتاريخ إبلا وامتداد نفوذها وعلاقاتها السياسية مع الممالك المجاورة والمجموعات القبلية وتوثق، كما ذكرنا آنفا، التنافس الذي كان قائماً مع مملكة ماري. كذلك فإن هذه النصوص، والتي استخدمت اللغة الإبلوية بكثرة في كتابتها، تقدم للباحثين المهتمين بدراسة لغة إبلا المادة النصّية اللازمة لمعرفة بنية هذه اللغة وقواعدها وتصنيفها.

حاولت في هذا البحث ترجمة بعض هذه النصوص إلى العربية وتلخيص محتوى بعضها الآخر، وذلك بالعودة مباشرة إلى النص الأصلي. وقد رتبتها بما يتفق مع ترتيبها في المجلد الثالث عشر من سلسلة ARET وذلك لتسهيل العودة إلى أصولها وصور ألواحها في المجلد المذكور.

حول تأريخ النصوص:

عُثر على النصوص موضوع البحث ضمن غرفة المحفوظات الرئيسية (L. 2769) في القصر الملكي في إبلا على طول الجدارين الشمالي والشرقي لغرفة المحفوظات، وتغطي من الناحية الزمنية حقبة المحفوظات (نحو ٢٤٠٠ ق.م) التي تقدر بنحو خمسين عاماً انتهت بدمار إبلا وحرق القصر الملكي ربما على أيدي حكام ماري أو أكاد. أي أن هذه النصوص تعود لعصر ملوك إبلا الثلاثة في زمن المحفوظات وهم[٢]: **إغريش خلب** (تؤرخ معاهدة إبلا مع أبارسال في عصره: النص رقم ٥)، وكان تير وزيره. والملك **إركب دامو** (تؤرخ معظم النصوص في عصره). في البداية كان أرّوكوم وزيره، ثم تسلّم إبريوم مهام الإدارة، والملك **إشأر دامو** آخر ملوك إبلا في عصر المحفوظات وقد بقي إبريوم وزيراً له لفترة قصيرة ثم خلفه ابنه إبي زيكير (تؤرخ النصوص: ٩،١٣،١٤ في عصره)، الذي بقي في منصبه حتى دمار القصر الملكي.

مصادر النصوص

إن مصادر نصوص المعاهدات والعلاقات الخارجية متنوعة فبعض نسخها الأصلية كتب في مدينة إبلا والبعض الآخر وصل إلى إبلا من الخارج، منها رسائل من مدن أخرى حملها رسل هذه المدن إلى إبلا ومنها نسخ عن وثائق حصل عليها التجار أو المبعوثون التابعون لإبلا وجلبوها معهم إلى مدينتهم: فهناك نصان من مدينة ماري (تل الحريري) (النصان ١ و٢)، ونص واحد من مانوّات (Manuwat) (النص رقم ١٠) ونص واحد من إبعل Ib'al (رقم ١١)، وهناك نصان كتبا اعتماداً على وثائق صادرة عن مناطق أخرى: من إبعل (النص ١٣) ومن حدّوḪaddu (النص رقم ١٩). وهناك نص واحد يجمع عدداً من الوثائق الخارجية المتعددة المصادر (رقم ١٤).

صياغة النصوص:

١- **المعاهدات:** لا يمكن الحديث عن نمط واحد اتبعه الكتبة في صياغة نصوص الاتفاقيات فنجد مثلا أن بنود الاتفاقيات أدرجت أحيانا مباشرة من دون مقدمة (النص رقم ٦)، أو كتبت بصيغة رسالة (النصان ١٠-١٢). وأحيانا وضع لِلوح الاتفاقية عنوان محدد كما هو الحال في النصين ٢٠-٢١ حيث عُنون كل منهما بعبارة "لوح تقديم الزيت"، إلا أن هذه العبارة وضعت في كولوفون النص رقم ٢١ وليس في بدايته. أما بنود معاهدة إبلا مع أبارسال (النص رقم ٥) فقد سردت بنص واحد طويل سُبِق بتسجيل مجموعتين من المدن التابعة لملك إبلا وينتهي النص بعبارات اللعنة على الذي ينقض العهد. ويورد تنظيمان ملكيان (النصان ٧-٨) متعلقان بإقطاع أراضي بعض بنود اتفاق تم بين إبلا وإيمار. ووردت بنود اتفاق في نص واحد شعائري من دون مقدمة محفوظ بنسختين (١٦-١٧). وهناك تمرين مدرسي يورد بعض بنود معاهدة بين إبلا وأرميArmi (١٨).

٢- **الرسائل:** أما الرسائل فقد صيغت وفقا لنمط واحد حيث تبدأ كل رسالة بعبارة: *en-ma* "هكذا (يقول)" ثم يليها اسم المرسِل ثم اسم المرسَل إليه، ثم نص الرسالة وتنتهي بخاتمة. هناك رسالتان ملكيتان من هذا النوع (النصان: ٢ و٤) ورسالة من موظف (النص رقم ٣).

٣- **ملفات العلاقات الخارجية:** وتعد بمثابة أضابير تخص العلاقات الدولية لمدن وقبائل معينة، الهدف منها إطلاع الرسل والمبعوثين في إبلا على العلاقات الخارجية للممالك المحيطة بهم، منها النص رقم ١ الذي يتعلق بملك ماري الذي كان عليه القيام بزيارة المعبد وتقديم الهدايا قبل الانطلاق برحلة أو حملة، والنص رقم ١١ الذي يسجل الرسائل التي تبادلها زعماء قبائل إبعل مع ملك منوّات (Manuwat). أما النص رقم ١٣ فيروي تفاصيل حملة قام بها ابن يكّاه–ليم(dumu-nita *I-ga-li-im*) الذي أصبح زعيماً من زعماء إبعل وذلك بالتحالف مع ماري على حساب إبلا. ويسرد النص رقم ١٤ أحداث رحلات وتنقّلات لتجار في منطقة دو (Du^{ki}) الواقعة تحت نفوذ مملكة ماري وأحيانا تحت نفوذ ناجار (تل براك). ويروي النص رقم ١٥ أحداث رحلات تجارية لتجار من إبلا في مناطق خاضعة لنفوذ مملكة ماري، أما النص رقم ١٩ فيورد تفاصيل عقد التحالف ما بين ماري وحدّو (بالمقطعية À'-du). وعلى أي حال فإن هذه النصوص لم تخضع لنمط واحد في الصياغة إلا أن ثلاثة منها فقط (١٣-١٤-١٥) حملت عنوان:dub lú *ù-šu-rí* أي " "لوح التعليم (الخاص بـ) ....."

وفيما يلي ترجمة وعرض لمحتوى هذه النصوص:

النص رقم (١)

وهو نص طويل صادر عن مدينة ماري ويخصّ جانباً من العلاقات الخارجية لمملكة ماري وعلاقة ملكها بالمعبد وبالقبائل. يتألف النص من اثني عشر عموداً على الوجـه

وأحد عشر عموداً في الخلف وأبعاده ١٤٠×١٤٩× ٣٣ مم. إلا أن هناك أجزاء مفقودة من النص على الوجه الخلفي.

يذكر النص في بدايته (المقطع الأول) أنه يتوجّب على ملك ماري (الذي لم يذكر اسمه في النص) وقبل انطلاقه في حملة عسكرية (أو رحلة) أن يذهب إلى المعبد وأن يقدم الشعير المغربل، وذلك بهدف الحصول على التأييد والدعم الإلهي من الأفعى (مجموعة كواكب) ومن إله الشمس. كذلك ينبغي على الملك أن يحضر أوعية الجعة والزيت، لكنه لم يفعل (المقطع الثاني).

يحضر حنّا–داجان *En-na-*^{d}*Da-gan* (وهو صاحب التقرير المشهور، انظر النص رقم ٤) أمام الملك (المقطع ٣) فيأمره الملك بالتوجه إلى المعبد (المقطع ٦). إلا أن حنّا–داجان يشير على الملك بعدم تقديم الشعير قائلا:

(8) *me-ne-iš* šu-mu-‹‹tak$_4$›› *na-da-ma* sikil *na-ba-na-a* ^{lu}šu-mu-‹‹tak$_4$››

"ولماذا عليك تقديم (الشعير) بحرص؟ أنا لن أقدم (الشعير) النقي الذي غربلنا".

يصغي الملك لمشورته ويوافقه الرأي (المقطع رقم ٩)، وعندما وصل ومعه حنّا–داجان إلى المعبد لم يكونا قد طحنا وغربلا الشعير المطلوب (المقطع ١١). وعندما دخلا على الكاهن والكاهنة لطلب الوحي (المقطع ١٣) لم يقدما المنسوجات الكتانية ولا الشعير النقي (المقطع ١٤) وسجدا أمام الكاهن (*a-bi*$_2$ dingir-dingir-dingir) وأمام الكاهنة(ama dinigir-dingir-dingir) (المقطع ١٥). لقد أنّبتهما الكاهنة وطلبت منهما تقديم فدية لأنهما لم يحضرا الهدايا والتقدمات المطلوبة من الطعام والشراب (المقاطع ١٠-٢٠). بناء على ذلك أمر الملك مستشاره حنّا–داجان بجلب الأضحية إلى المعبد من أجل طقس التطهير، وفقط عند إحضارها يكون له أن يحضر من جديد أمام الكاهن (المقاطع من ٢١–٢٦). بعد ذلك سألت الكاهنة الملك: "لماذا أتيت إلى هنا؟" (المقطع

٢٨) فيجيبها بأنه إنما يريد أن يستخيرها ويستخير الكاهن فيما يخص علاقته برجال القبيلة قائلا:

(31)*"me-li-ga-A ma-(l)a-ki ba-a a-na-za-ab ne-sa-a ba-a (l)a a-za-ab"*

"أرشداني (في) قراري: أهنا أنتظر الناس، (أم) هنا لا أنتظر(هم)؟".

بدأت الكاهنة باستقراء الوحي للملك وكان جوابها أنّ عليه انتظار سماع كلمات الكاهن الذي سينقل كلمات الوحي. ثم تبيّن الكاهنة للملك أنّ الآلهة لا تأمر بإهماله تبديل الناس (المقطع ٣٩). أما الكاهن فيؤكد للملك أن عليه إطاعة الوحي والسير في تنفيذ قراراته (المقطع ٤٣) ولن يُسمح له القيام بأي تحرك قبل أن يجلب الشعير المغربل إلى المعبد (٤٧). إلا أن الكاهنة تخبر الكاهن أن على رجال العشيرة (*li-im li-im*) أن يفعلوا ذلك (مقطع ٤٩). يقرر الملك بالمقابل أن يغيّر قراره (بتبديل الناس؟) ولكن بشرط أن يقوم الناس بأداء قسم الولاء والتحالف مرفقين ذلك بتقديم ضريبة من الفضة (مقاطع ٤٨–٥٥). وفعلا يقوم الأعيان بأداء القسم وإرسال الفضة (55-54). ويقوم الملك في نهاية النص برحلته (المقطع ٦٥).

يتبين من النص أن حنّا داجان كان مستشارا مقرباً لملك ماري إلى جانب دوره كقائد عسكري وربما كانت مكانته توازي مكانة موظفي (وزراء) إبلا الكبار (أرّوكوم، إبريوم، إبي زيكير) . لذلك يرجح أن يكون نيزي (*Nizi*) هو ملك ماري المذكور بلقبه في النص دون اسمه، وذلك في عصر إغريش خلب ملك إبلا. وقد تمكّن من تسلم العرش بعد نيزي ربما لأنه كان ينتمي للأسرة الحاكمة في ماري وحصل على جزية دفعتها له إبلا وسجلت في نصوص إبلا كهدية[٣].

يبدو أن النص الأصلي كتب في ماري ثم نسخ من قبل الكتبة في إبلا حيث يشار في النص إلى ملك ماري بالصيغة السومرية إن (EN) المستخدمة في إبلا أما في ماري فكان يشار إلى الملك بلقب لوجال (LUGAL)، وهو اللقب الذي استخدم في هذا النص

فقط لمرة واحدة (المقطع ٣٨). في حين أن هناك دلائل بعضها لغوي وبعضها الآخر كتابي تظهر أن النص الأصلي إنما دُوِّن في مدينة ماري.

النص رقم (٢)

ويضمّ رسالة موجهة من إركب–دامو ملك إبلا إلى ملك كابلول (Kablul)[٤] وذلك بمناسبة عقد التحالف بين المملكتين وقد أرّخت الرسالة بالعام الذي تم فيه الاحتفال بتقديم القرابين عند مسلة الملك المتوفى إغريش–خلب *Ig-rí-iš-Ḫa-lab*×، لذلك يرجح أنها كتبت في بداية عصر الملك إركب–دامو *Ir-kab-Da-mu*.

تبعاً لهذا النص كان على ملك كابلول البرهنة على ولائه لملك إبلا بتقديم الجزية المسجلة في النص وذلك بعد أداء القسم.

بالنسبة لمدينة كابلول فقد ذكرت في معاهدة إبلا مع أبارسال والتي تؤرخ في عصر الملك إغريش خلب والموظف الكبير (الوزير تير*Tir*) وكانت تابعة لإبلا. إلا أنها أصبحت مستقلة بعد ذلك، ووفقاً لهذا النص كان على ملكها الآن أداء القسم وتقديم جزية مناسبة دليل ولائه لملك إبلا.

وفيما يلي نص هذه الرسالة:

	العمود	السطر		الترجمة
			(1)	**(1)**
الوجه	I	1	*[en]-ma*	هكذا (قال)
		2.	*[Ìr]-kab-Da-mu*	إركب–دامو
		3.	en	ملك
		4.	*[I b] -la^{ki}*	إبلا
		5.	*[’a_5]-na*	إلى
	II	1.	en	ملك
		2.	*[Ka]b-lu_5-ul*	كابلول
			(2)	**(2)**
		3.	in u_4	في يوم
		4.	nam-ku_5	القسم

		5.	[1 GIŠ]-[šu$_4$] [kù-gi]	جفنة واحدة من الذهب
	III	1.	[GÁ×LÁ] ‹n› gín DILMUN	بقيمة....... مثقال دلموني
		2.	dam-[gàr]	التاجر
		3.	en	إلى ملك
		4.	*Ib-la*^{ki}	إبلا
		5.	ì-na-sum	أعطى.
			(3)	**(٣)**
الخلف	I	1.	1 níg-bànda NU$_{11}$-za	مزهرية واحدة مغطاة
		2.	kù-gi šà bar$_6$:kù	بورق الذهب وداخلها مصنوع من الفضة
		3.	GÁ×LÁ ‹n› gín-[DILMUN]	بقيمة .... مثقال دلموني
		4.	[.......]	[التاجر]
	II	1.	[ì]-na-sum	أعطى.
			(4)	**(4)**
		2.	DIŠ mu	(في) سنة
		3.	nídba	تقديم الهبات
		4.	na-[rú]	عند مسلة
		5.	*Ig*-[*rí-iš*]-[*Ḫa*]-*lab*$_×$	إغريش-خلب
		6	[en]	ملك
	III	1.	[*ib*]-‹*la*›^{ki}	إبلا،
		2.	[*ìr*]-*kab*-[*A*]*r*	إركب-حار
		3.	mu-túm	(هذه التحف) كجزية
		4.	[1] [mu]	لسنة واحدة
		5.	[ì-na-sum]	أعطى.

ن المحتمل أن إركب-حار المذكور في نهاية النص هو نفسه ملك كابلول وربما كان اسم التاجر الذي قدم هذه الأعطيات بتكليف من ملك كابلول.

النص رقم (٣)

ويضم الرسالة المشهورة والتي وجهها أحد الموظفين الكبار في إبلا إلى موظف آخر في خمازي *Hamazi*[٥]، والتي تؤرخ في عصر الملك إركب–دامو (*Irkab-Damu*) الذي ذكر بالاسم في نص الرسالة. وهي شاهد على محاولة ملك إبلا إقامة تحالف مع ملك خمازي بهدف احتواء نفوذ مملكة ماري المتصاعد.

لا يمكن حتى الآن تحديد موقع خمازي بدقة، تلك المملكة التي ورد ذكرها مرارا في النصوص المسمارية في بلاد الرافدين ويعتقد، بناء على ذلك، أنها كانت عاصمة منطقة سوبارتو إلى الشرق من نهر دجلة.

وفيما يلي ترجمة هذه الرسالة:

(١) هكذا (قال) إبّوبو، المشرف على بيت الملك، لناظر بوابة (القصر):

(٢) أنت حليفـ(ـي= أخي) وأنا حليفـ(ـك = أخوك).

(٣) أياً كانت الرغبة الخارجة من فم التحالف (= الأخوة) أنا سوف ألبّيـ(ـها) وأنت لبيت الرغبة (التي يمليها التحالف).

(٤) لقد أرسلتَ بغالاً جيدة.

(٥) أنت حليفـ(ـي) وأنا حليفـ(ـك) .

(٦) عشر (قطع أثاث) من خشب البقس (و)عجلتين من خشب البقس أعطى إبّوبو إلى ناظر البوابة.

(٧) إركب–دامو ملك إبلا حليف (= أخ) لزيزي ملك خمازي.

(٨) زيزي ملك خمازي حليف (= أخ) لإركب دامو ملك إبلا.

(٩) وهكذا (قال) تيرا–إل الكاتب:

(١٠) أعطيتُ (هذا) اللوح إلى ناظر بوابة زيزي.

يلاحظ في هذا النص وفي نصوص العلاقات الدولية بشكل عام استخدام الجــذر "أخ" للدلالة على التحالف وقد ورد في النصوص بالصيغ التالية:

–تُأخَّو وتعني "أنت تحالف" وكتبت بالشكل *du-a-ḫu* (النص ١٩: المقطع ٢٨).

–أُخوَّتُم وتعني "التحالف، الأخوة" وكتبت بالشكل *u₂-ḫu-wa-du* (النص ١٩: ٣١).

النص رقم (٤)

وهو التقرير المشهور الذي أرسله حنّا–داجان (*Ḥenna-Dagan*) ملك ماري إلى ملــك إبلا وقد درس هذه النص مسبقا لعدة مرات[٦].

يبدو أن حنّا داجان ملك ماري قام بإرسال هذا التقرير إلى ملك إبلا (الذي لــم يــذكر اسمه في النص ولكن من المرجح أن يكون الملك إركب–دامو الذي يــؤرخ التقريــر على الأغلب في بداية حكمه) ليؤكد تفوق مدينة ماري على إبلا والــذي تعــزز فــي عصر ملك ماري إبلول–إيل Ib-lul-Il وقد اضطرت بعده إبلا إلى دفع جزية كبيــرة لملك ماري. فالهدف هو إخافة ملك إبلا لذلك يــسجل هــذه التقريــر سلــسلة مــن الانتصارات التي حققها ملوك ماري في منطقة الفرات الأوسط كان آخــرهم الملــك إبلول–إيل الذي وصل إلى منطقة كركميش ناشراً الرعب والدمار[٧].

أما مناسبة إعداد التقرير فقد ذكرت في المقطع الثالث والعشرين من النص وهي:

"*ma-da-a in* ì-giš kalam-*tim* kalam-*tim* šu-du$_8$"

"بمناسبة (تقديم) الزيت من البلاد التي خضعت (لماري)".

النص رقم (٥)

وهو نص معاهدة إيلا مع أبارسال (Abarsal)[٨] والتي تؤرخ في عصر الملك إغريش–خلب وقد نشرت هذه المعاهدة كذلك عدة مرات قبل الآن[٩].

يمكن تقسيم النص إلى الفقرات التالية:

(١) مقدمة وتضم قائمة بالمدن والحصون الواقعة تحت سيطرة ملك إيلا وتلك الواقعة تحت سيطرة ملك أبارسال (المقاطع ١–١٩).

(٢) بنود خاصة بالعقوبات القضائية المترتبة على هؤلاء الذين يهينون الملك أو الآلهة أو البلد. فإن كان الفاعل من كبار الموظفين فينبغي على كل طرف تسليم الموظف التابع إلى الطرف الآخر وعليه معاقبة الموظف التابع له بالموت. الموظفون من الدرجات الدنيا لهم أن يفدوا أنفسهم فدية مادية (٥٠ رأساً من الغنم). وبالنسبة لآمري الحصون فتصادر أملاكهم. وبالنتيجة فان النزاع يرد إلى ملك إيلا للفصل فيه (٢٠–٢٨).

(٣) بنود خاصة بالإمداد بالماء للقوافل ولمربي الأبقار من قبل ملك أباراسال (٢٩–٣٢).

(٤) بنود خاصة بإرسال المبالغ المحصّلة من العمليات التجارية. المرجع الرئيسي في ذلك الوزير تير *Tir*. وفي حال غيابه يكون الملك نفسه هو المرجع. في حال

كانت العملية التجارية محدودة فيرسل التعويض إلى الموظفين الفرعيين (٣٣-٣٥).

(٥) بنود تتعلق بالمسافرين الغرباء في المناطق الخاضعة لأبارسال ووجوب إعلام إبلا بنياتهم العدائية تجاهها (٣٦-٤١).

(٦) بنود تتعلق بممارسة التجارة. بموجبها تكون التجارة النهرية من حق إبلا. وهي التي تسمح لأبارسال باستخدام موانئ الفرات. و ضمنت البنود حرية الحركة والتنقل للتجار من كلا الطرفين (٤٢-٤٥).

(٧) بنود تتعلق بالطقوس الدينية التي ينبغي على أبارسال أداءها سنويا لآلهة إبلا (٤٦).

(٨) بنود تتعلق بفدية الدم وبطقس التطهير وذلك في حالة القتل غير المتعمّد (٤٧-٤٩).

(٩) بنود خاصة بالاحتيال في المعاملات التجارية وبثمن فدية شخص بشروط ذليلة وبالجزية المتوجّب على القرى دفعها (٥٠-٥٦).

(١٠) بنود خاصة بالمواطنين الإبلاويين المقيمين في المناطق الخاضعة لأبارسال (٥٧-٦٣).

(١١) بنود خاصة بفدية الرجل العامل بخدمة الملك (المقطع رقم ١ على الوجه الخلفي).

(١٢) بنود خاصة ببضائع التجار الإبلاويين الذين يموتون في المناطق الخاضعة لأبارسال (٢-٤ على الوجه الخلفي)

(١٣) لعنات ضد أعداء إبلا: "كل الذين يعملون بنيّة سيئة فلير إله الشمس والإله حدد والإله كاكّاب عملهم وليبددوا كلماتهم. وعن قوافلهم التي تخرج في رحلة فليمنع ماء الشرب والمأوى (المقطع رقم 5 على الوجه الخلفي).

النص رقم (٦)

كتب النص على لوح صغير نسبياً (أبعاده ٨٩×٥٥×٣٠ مم) يتألف من خمس كسرات وهناك أجزاء كبيرة مفقودة.

يضم النص بعض فقرات معاهدة عقدها ملك إبلا مع ينحر–خلب (*En-ar-Ḫa-lab$_x$*) ملك مدينة بورمان (*Burman*) التي يعتقد أنها تقع في مناطق أعالي الفرات[١٠]. تضمن المعاهدة لملك بورمان حق اللجوء والاحتماء وطلب المساعدة من ملك إبلا في حال تمرد أو عصيان ابنه ضده. يبدو من خلال النص أن ملك بورمان كان قد تزوّج من أميرة إبلوية وهو ما يشير إلى استخدام الزواج السياسي للمحافظة على ولاء المدن الأخرى. يبدو كذلك أن إبلا حاولت أن تبقى محايدة في الصراع القائم بين الأب وابنه. وفيما يلي ترجمة للفقرات المهمة في النص:

(المقطع رقم ١): "إذا قام طوبي–دامو (*Du-bi$_2$-Da-mu*) بقتل (حرفياً *a-da-ba-aḫ* "يذبح") أناس تابعين لينحر–خلب ليومين أو ثلاثة أيام، فإن لأبي طوبي–دامو أن يهرب إلى ملك إبلا وسيكون ملك بورمان هناك بين حلفائه."

(المقطع رقم ٢): "وإذا قام ينخر–خلب بقتل أعوان طوبي–دامو، على الأب أن يترك المتمردين أن يفرّوا إلى ملك إبلا.

(المقطع رقم ٣): "أي شخص كان هاربا من جهة ينخر-خلب وإن كان أبوه فانه يجد ملاذاً عند ملك إبلا.

(المقطع رقم ٣ على الوجه الخلفي) "وبما يخص الاحتفاظ بأخت ملك إبلا، فإنه على ينخر-خلب أن يجهز ما يطلبه ملك إبلا.

(المقطع رقم ٤ على الوجه الخلفي) ....من الناس المقيمين لديه، ينحر-خلب لا يقتل أحدا من دون موافقة ملك إبلا.

النص رقم (٧)

يخصّ هذا النص والنص الذي يليه (رقم ٨) تمليك تيشاليم (*Ti-še*$_3$*-Li-im*) ملكة إيمار أراضٍ من مناطق إربيش (*ìr-péš*[ki]) وجورّبال (*gú-ra-bal*[ki]) وذلك من قبل إركب دامو ملك إبلا. وهذان النصان هما جزء من مجموعة من النصوص تشكل ملفاً واحداً يخصّ تيشاليم ويتضمّن حسابات أقطاعات، وإحصاء لمواش وممتلكات أخرى وقوائم بأسماء أشخاص(١١).

يرد اسم تيشاليم ملكة إيمار في عدد من الرقم التي تؤرخ بعصري ملكي إبلا إركب-دامو وإشار-دامو. ويعتقد أنها تنتمي للأسرة الحاكمة في إبلا، وقد تزوجت من ملك إيمار روصي-دامو وأصبحت ملكة هناك وفيما بعد أصبحت أُماً للملك في إيمار(١٢).

يسرد النص بعض البنود الاتفاق الذي تم بين الطرفين (إيمار وإبلا) فيما يخص هذه الأراضي والناس المقيمين عليها. وفيما يلي ترجمة لفقراته:

(١) كل الأراضي المشتراة في إربيش وجورّبال والتي أعطى إركب دامو إلى تيشاليم، أصبحت ملكا لتيشاليم.

(٢) وبالتالي (واعتباراً من هذا اليوم) فقد أُعطيت (هذه الأراضي) وفقا للاتفاق.

(٣) إذا تعهد مالك الأرض بتوريد مؤن الناس فعليه أن يفعل ذلك.

(٤) ومن ثم، وفيما يتعلق بالناس من إيمار المرتبطين بتيشاليم فقد منحوا درجة عليا من الملك (و) لهم أن يقيموا في إيمار[١٣].

(٥) ومن ثم وفيما يتعلق بالقرى التي بيد تيشاليم، فان مبعوث الملك التاجر يمكنه مغادرتـــ(ـــها).

(٦) ومن ثم، وفيما يتعلق بالقرى التي بيد الملك، فإن مبعوث تيشاليم التاجر يمكنه مغادرتـــ(ـــها).

(٧) إذاً الملك منح الأراضي، (و) أجاز نقل الناس (التي عليها إلى) يدي تيشاليم.

هذا ويشير المقطعان الخامس والسادس إلى ضمان حرية تنقل التجار بين إبلا وإيمار.

النص رقم (٨)

TM.75.G.1986+3221+4544

وهو كسابقه يعد من نصوص التنظيمات الملكية، فهو يؤكد تمليك تيشاليم لمناطق في إربيش وجورّبال ويضع بعض المواد التنظيمية المتعلقة بهذا التمليك وبأوضاع الناس المقيمين في بعض القرى التابعة لتيشاليم أو لملك إيمار روصي دامو:

(١) كل الأراضي المشتراة في إربيش وجورّبال التي أعطى إركب–دامو إلى تيشاليم أصبحت ملكا ليشاليم.

(٢) ومن ثم إذا أعطت تيشاليم الثمن إلى [الملك] فلإيمار حق الانتفاع (بالأراضي التي) أصبحت ملكا لتيشاليم.

(٣) ومن (ثم) فإن (الأراضي) المكتسبة من قبل إيمار [بمناسبة] الأضحية؟ (في) جورّبال ......أصبحت ملكا ليشاليم.

(٤) وبالنسبة شأن خَبرا (*Hab*$_2$*-ra*$_2$^{ki}) وشأن ..مو (×-×-*mu*^{ki})، التلة التابعة لخرازو (*Ḫu-ra-zu*^{ki}) فقد سُلّم القرار إلى تيشاليم .

(٥) أناس تيشاليم المقيمين في زابيخادو وكذلك أناس الملك في زابخادو لهم حق الانتفاع بالأراضي.

(٦) وأخو–نعِم، بسبب ذهابه، (عليه) أن يُسكن الناس في [زابخاد]و، في بيوته وفي أراضيه.

(٧) من درداو (*Dar-da-u*$_3$^{ki}) تخرج كاهنة الإلهة إشخارا ..... حِملَ؟ كل ما يملك.

(٨) وبالتالي (في منطقة....؟) التابعة لتثني (*Daš-ne*) سوف يقيم روصي–دامو.

(٩) هكذا (قال) الملك:

(١٠) الناس التابعين لتيشاليم والمقيمين في قرى الملك يبقون بأمان.

(١١) والناس التابعين لروصي-دامو (ملك إيمار) والمقيمين في قرى تيشاليم يبقون (هناك) طالما كان ذلك ملائما لهم (بالإبلوية *Šikinsuma*).

النص رقم (٩)

ويضم مجموعة من الوثائق المتعلقة بالمدن الواقعة إلى الشمال من مدينة حما ('À-ma^{ki})[١٤]. ويؤكد سيطرة المدينة على المقاطعات الواقعة بجوارها. ويؤرخ هذا النص بناء على دراسة الإشارات المسمارية المستخدمة في كتابته بنهاية عصر ملك إبلا إركب–دامو وبداية عصر الملك إشأر–دامو.

يتألف النص من ثلاثة أقسام:

القسم الأول (المقاطع رقم ١–٤) يتعلق بتقسيم الغنائم التي تم الاستيلاء عليها بعد السيطرة على مدينة شيدارين (*Si-da-ri$_2$-in*^{ki}) منها أعداد كبيرة من رؤوس الأغنام والأبقار وجرار الزيت.

أما القسم الثاني (المقاطع ٥–٢٥) فيتعلق بتسجيل مجموعة من الحصص السنوية التي أرسلت ثلاثة موظفين هم طوبي (*Du-bi$_2$*) ووانا (*Wa-na*) وروصي–بو (*Ru$_{12}$-zi-Bu$_3$*) بمناسبات متعددة منها ما ورد في زمن الحصاد (المقطع ١٥) أو بمناسبة السفر والتجول في منطقة حما (المقاطع ١٦–١٧) أو في حالة ضعف المحاصيل (المقاطع ١٨–١٩). ذكر طوبي في بعض النصوص بين السادة (lugal-lugal)[١٥] الذين قاموا بتوريدات كبيرة إلى القصر الملكي في إبلا. وقد عُرِّف في هذا النص بأنه عمدة (ugula) حما وأباتوم (في المقطع الثاني عشر من النص) وذلك نتيجة لمشاركته في الحملة التي قادها الوزير إبريوم ضد شيدارين. أما وانا فهو معروف من خلال النصوص الإدارية بأنه المشرف على إسطبلات الوزير إبريوم[١٦] (ugula bir$_3$-BAR×AN). أما روصي–بو فلم يذكر خارج هذا النص لذلك يصعب تحديد وظيفته بدقة.

وفي القسم الثالث (٢٦-٦٣) سردت نصوص أربع رسائل أرسلت من حما وأباتوم. وفيما يلي ترجمة هذه الرسائل:

الرسالة الأولى (المقاطع ٢٦-٢٨): وهي رسالة من قرى حما وأباتوم وتبين أن منازل الموظفين الثلاثة من إبلا قد أصبحت جاهزة.

(٢٦) هكذا (قالت) قرى حما وأباتوم:

(٢٧) بالقرب منا تم بناء منازل طوبي ووانا وروصي-بو.

(٢٨) البومة والحمامة تتأوهان بقوة عند بيتكم.

الرسالة الثانية (المقاطع ٢٩-٣٥): رسالة من قرى حما. وتتضمن دعوة كل من وانا وروصي-بو بمناسبة عودتها وتصف الإعدادات المتخذة للحفل المرتقب:

(٢٩) هكذا (قالت) قرى حما:

(٣٠) لعلهم يعلمون الآن بعودة وانا وروصي-بو

(٣١) وستستقبلهم الحمامة الصغيرة.

(٣٢) ومن أجل الطعام البومة والحمامة ستجهزان نفسيهما.

(٣٣) وسوف يذبح سكان الخيام الأغنام بوفرة

(٣٤) وستكون الخراف متوفرة

(٣٥) وسوف نجهز المخيم بشكل منفصل.

الرسالة الثالثة (٣٦-٥٧): وهي رسالة من عمدة حما وتتحدث عن حروب إبريوم والاتفاق ما بين طوبي وحما.

(٣٦) هكذا (قال عمدة) حما:

(٣٧) ها أنا أتفقد العمل في القطاع

(٣٨) لماذا أرسلنا إمداداتنا إلى ماني؟

(٣٩) وإلى أباتيمو وماني (التابعة لــ) إكدورا باتجاه مدينتها في منطقة إبلا وضعنا المخيم؟

(٤٠) بسبب الخشب اللازم لــ(صنع) اللبن احتجزنا

(٤١) (إلا) أننا دفعنا (ثمنها)

(٤٢) وفدينا أنفسنا.

(٤٣) الآن [....](ضد) إبلا لن تقوم بحملة.

(٤٤) الآن وبسبب جزية (ملكي) مانوّات قام الملوك الثلاثة بحملة(١٧).

(٤٥) بيتنا عاد إلى طوبي

(٤٦) [و] حمل الخبر [بموت] ملك (شيدارين إلى) طوبي وهو الذي (كُلّف بالتوجه) إلى شيدارين من قبل إبريوم (من أجل) الحصول على إمداداتنا من مخازن حبوبنا.

(٤٧) [وعندما ذهب] في الحملة ضد خالشوم(*Ḫal-sum*^{ki})، أرمي سيطرت على لمّي (*Lam-mi*^{ki}).

(٤٨) و(عندما) غيرت قوتّان (*Gu*$_2$*-da-an*^{ki}) عهدها (قسمها) [....] فتح أباراريجا (*A*$_3$*-ba-ra-ri*$_2$*-a-ga*^{ki}).

(٤٩) والناس الخاصين ببوابتها فدوا أنفسهم بتقسيم البضائع بين قطاعين

(٥٠) الناس من إرإب (*Ir-i-ib*$_2$^{ki}) ذهبوا إلى صابروم (*Za-ba-rum*$_2$).

(٥١) وأعلنوا من هناك ولاءهم

(٥٢) والمال المتوفر من مور وأونوبو حملناه إلى جينأو (*Gi-NE-ù*^{ki}).

(٥٣) والناس (من) إبلا كانوا يرغبون بالإقامة في جينأو (*Gi-NE-ù*^{ki})، وهم الذين كانوا في نيشا (*NE-sa*^{ki}).

(٥٤) ولم يسمحوا لطوبي بالإقامة بينما كانت محاصرة،

(٥٥) ولم يرغبوا بتسليم رجالها.

(٥٦) وفتحها.

(٥٧) وأسر سكانها.

الرسالة الرابعة (٥٨-٣٦): وهي رسالة من حاكم حما تتضمن وعداً بأن بيته (ويقصد مدينته) سوف يعطي نحاساً وسوف يتقاسم الخمر والعسل والإمدادات للحملة العسكرية وسيمضي بيته دائما في احترام (ملك إبلا).

النص رقم (١٠)

ويضمّ رسالة موجهة من حنّا-دامو (بالمقطعية *En-na-Da-mu*) ملك منوّا[١٨] (*Ma-nu-wa-ad*) إلى ملك مدينة ماري يؤكد فيها تحالفه معه ويذكره بالمبادئ التي تحالف الطرفان على أساسها. وقد ورد اسم حنّا-دامو ملك منوّات في وثائق إدارية من إبلا مؤرخة بعصر الملك إركب-دامو وهذا ما يرجح تأريخ الرسالة في بداية عصر هذا الملك، وذلك عندما كانت ماري مازالت تمارس نفوذاً قوياً على مناطق الفرات الواقعة إلى الشمال منها.

لم يحدد موقع منوّات حتى الآن ولكن الشواهد النصية ترجح وقوعها على الفرات في منطقة ليست بعيدة عن ماري (انظر الخارطة).

يتألف النص من أربعة أقسام: القسم الأول (المقطع 1-3) يؤكد فيه ملك منوّات التزامه بأداء قسم التحالف. القسم الثاني (المقاطع 4-8) ناقص بشكل كبير. وكان يضم على ما يبدو بعض الفقرات التي تراعي مصالح مانوّات حيث توجب تقديم الأضاحي لآلهة مانوّات. أما القسم الثالث (المقاطع ٩-١٤) فهو تام ويضم فقرات تصب في مصلحة ماري منها:

المقطع ١٠: "(إذا) خازوان (*Ḫa-zu-wa-an*^{ki}) وككميوم ونيرار تحركوا ليوم أو يومين باتجاه دابنات (*Da-bi$_2$-na-at*^{ki}) سوف أرسل (الخبر) بسرعة إلى حصون رحق". يبيّن هذا المقطع أن ملك منوّات قد تعهد بمراقبة تحركات المدن المتحالفة مع إبلا في منطقة الفرات وتعهد بإيصال أخبار هذه التحركات بأقصى سرعة.

المقطع ١٢: "إذا طلبت ماري من منوّات نزول الحاضرين بالقرب منا إلى شوران(١٩) (*Šu-ra-nu*^{ki}) **فأنا سوف أهبُّ"**، ويقصد بذلك أنّ منوّات سوف تقدم لماري الدعم العسكري عند طلبها ذلك. أما القسم الأخير (المقطع ١٥) فيحدد تبعية الحصون الواقعة على المناطق الحدودية بين الطرفين: **"مناطق منوّات هي لملك منوّات، حصون رحق**(٢٠) **(*Ra-'à-ag*^{ki}) تكون لملك ماري"**.

النص رقم (١١)

جمعت في هذا النص وثائق تتناول العلاقات ما بين قبائل إبعل ومنوّات وبعض حلفاء إبلا. أولى هذه الوثائق (المقاطع ١-٤) رسالة من شيوخ إبعل(٢١) (بالمقطعية *Ib-al$_6$*^{ki}) إلى ملك منّوات. يلاحظ أن هذه الرسالة لم تبدأ بالكلمة ***en-ma*** "هكذا" وهي الكلمة التي عادة ما تفتتح بها الرسائل، ويلاحظ أيضا استخدام اللّقب السومري ماخ-ماخ (maḫ-maḫ) للدلالة على شيوخ إبعل (المقطع ١). وعادة ما يطلق عليهم في النصوص الإدارية اللقب السومري إن (en) وأحيانا لقب أوغولا (ugula).

يذكر شيوخ عشائر إبعل في رسالتهم (المقاطع 2-4) خبر ذهـاب أربعـة أشـخاص وثلاثة ملوك من بينهم ملك إبلا لتقديم هبات الزيت التي سلمت إلى أمراء إبعل الـذين بدورهم قدموها في شوران.

أما الوثيقة الثانية فهي قائمة اسمية (المقطع رقم ٥) لرسل أربعة مـدن انطلقـوا فـي رحلة أولى (1 du).

الوثيقة الثالثة هي رسالة أخرى (المقاطع ٦-٧) موجهة من ملك مانوّات إلى مبعـوث يكّاه-ليم (*I-ga-Li-im*) وهو أحد شيوخ إبعل الستة المعروفين في نصوص إبلا. إلا أن النص في هذا الموضع غير كامل ويصعب فهمه.

الوثيقة الرابعة تضم بيان رسول يكّاه-ليم بخصوص رحلة ثانية وثالثـة (المقطـع ٨-١٠):

(٨) بيان (eme-*ma*) مبعوث يكّاه-ليم:

(٩) بالتأكيد (بمناسبة) القسم وضع ملك مانوّات فأساً نحاسياً وفأساً أنـا و(هـذه) الفؤوس هي للإله حدّا: الرحلة <الثانية>.

(١٠) إلا أن ملك إبلا لم يضع فأساً نحاسياً ولم يرسل ملك منوّات نيـادولو (*NI-a-du-lu*)، ولم يرسل أتي-أمو (*A-ti-A-mu*) أداتي (*A-da-a-ti*): الرحلة الثالثة.

يبدو من هذه الفقرة أن منوّات وإبعل كانتا في هذا العصر من حلفاء إبلا.

أما المقاطع الأخيرة من النص (المقاطع ١١-١٨) فتورد محاورة بين رسول مـانوّات وعمدة كارامو[٢٢] (*Ga*$_2$*-ra-mu*^{ki}) وذلك بخصوص انضمام فرع قبلي ربما من إبعـل للتحالف مع إبلا وقد أشير إليه في النص بعبارة دامو (Damu) وهي مشتقة مـن "دم" وتعني "عائلة".

(١١) هكذا (قال) أبي–أسو (A-bi_2-a-su) مبعوث ملك منوّات إلى حن–شادو عمدة كارامو:

(١٢) لقد أقسم كل من الملك (أي ملك منوّات) و (الناس من) دامو (لملك إبلا).

(١٣) هكذا (أجاب) حن–شادو:

(١٤) لماذا أنت هنا؟ أموظف إبعل أنت؟

(١٥) (فـــ)أوضح أبي–أسو (قائلا):

(١٦) (لقد قدّم) ملك إبعل الموافقة (إلى) الناس من دامو.

(١٧) (فـــ) أجاب حن–شادو:

(١٨) لماذا؟ إن فأسيك (اللذين قدمت إلى) إلهك (من أجل) الناس (من) دامو ليسا بجيدين.

يؤرخ هذا النص في عصر الملك إشار–دامو آخر ملوك إبلا حيث كانت إبلا متحالفة مع قبائل إبعل وهو أحدث من النص ١٣ الذي يؤرخ في بداية عصر إشار–دامو وتحديدا سنة وفاة الملك إركب–دامو. وفي ذلك الحين كانت إبعل متحالفة مع مملكة ماري (انظر النص رقم ١٣).

النص رقم (١٢)

صيغ هذا النص على شكل رسالة سجّل فيها خبر التعاهد وتبادل القسم بين شخص ذو منصب رفيع واسمه يريق–إيل (*I-rí-ig*-NI) مع عمدة مورو (ru_{12}:Mu^{ki}) الذي لم يذكر اسمه في النص. ويذكر النص العقوبات المترتبة على من يقوم بالحنث باليمين. وهذا

النص هو دليل على استخدام القسم nam-ku5 (قسم التحالف) لضمان ولاء الموظفين الكبار إلى جانب استخدامه عند التحالف بين المدن والمجموعات القبلية.

يؤرخ هذا النص في نهاية عصر الوزير أرّوكوم وبداية عصر الوزير إبريوم الذي يظهر في النص كقاض بين الطرفين في حال الحنث باليمين.

يبدأ النص بالمقدمة المعهودة في الرسائل: *en-ma I-rí-ig*-NI *si-in ru*$_{12}$:*Mu*^{ki} "هكذا (قال) يريق-إيل إلى مورو". ثم يسمي الأشخاص الذين ذهبوا لأداء القسم، ويوكل هؤلاء إبريوم للفصل بينهم في حال الحنث باليمين:

(3) *su-ma* inim ḫul *al*$_6$ *I-ri*$_2$*-ig*-NI *ru*$_{12}$:*Mu*^{ki} du$_{11}$ *wa* nam-ku$_5$ *I-ri*$_2$*-ig*-NI *wa* ***ru***$_{12}$:*Mu*^{ki} *aš*$_2$*-da-ma Ib-ri*$_2$*-um ni-si* ḫul šu-mu-‹‹tak$_4$››

"إذا نطقت مورو بكلمة سوء نحو إيريق-إيل، عندما يكونا قد أقسما، في هذه الحالة فإن إبريوم يفصل في أمر الحنث باليمين"

ويبيّن النص العقوبات المترتّبة على ذلك حيث ينبغي على مورو دفع فضتها وثيرانها وأغنامها وبغالها لإيريق-إيل وفي المقابل فإن إيريق-إيل يفقد نحاسه وثيرانه وأغنامه وبغاله وأولاده وتكون كلها لمورو.

النص رقم (١٣)

عُنْون النص في المقطع الأول بعبارة: "لوح التعليم الخاص بإبعل" (dub *ù-su- Ib-al*$_6$^{ki} *rí*). وهو يشترك مع النصين الرابع عشر والخامس عشر بنفس العنوان: " dub *ù-su- rí*". يبدو أن هذه الألواح إنما كتبت لغرض إعداد وإطلاع الرسل والتجار على تعقيدات العلاقات الدولية في عصرهم مما يفيدهم في حياتهم العملية.

يورد النص تفاصيل فتوحات عسكرية لأمير من إبعل هو ابن يكّاه-ليم قام بها وأخوته بالاشتراك مع مملكة ماري، مستغلا فترة من الضعف مرت بها إبلا ليقوم بضم مناطق كانت خاضعة لها. ويظهر النص التحالف الذي كان قائما بين إبعل وماري وذلك قبل أن تتحالف إبعل مع إبلا كما هو مبين في النص الحادي عشر.

يؤرخ هذا النص بنهاية عصر إركب-دامو وبدية عصر إشأر-دامو كما هو موضح في متنه **(المقطع الثاني): "DIŠ mu ug$_7$ en *Ìr-kab-da-mu*" (سنة وفاة إركب-دامو).**

يذكر النص (في المقطع الثاني) أن ابن يكّاه-ليم قد أصبح زعيماً أو ملكا EN على المناطق التي خضعت له (المقطع الثاني: سنة وفاة إركب دامو، أصبح ابن يكّاه ليم بن إنجار ملكاً).

أما مراحل الحملة فيمكن تلخيصها بما يلي:

بعد أن يسجل النص قيام ابن يكّاه ليم بتقديم الزيت المعطر (المقطع رقم ٤) مباركة للتحالف، يذكر حدث اجتماع ابن يكّاه ليم وأخوته للمشاركة بالحملة العسكرية المنطلقة من ماري (المقطع ٥) ثم توجههم لحصار شادابان وأثناء ذلك استولوا على مكان اسمه دامات وعلى خراف ملكها واحتجزوها في إلويّوم (المقطع ٦). ويذكر في المقطع (٧) أن خبر اتفاق زعماء إبعل الثلاثة وهم أيكّاه ليم وأبا-إيل وابن بوغادا وذلك أمام الإله كاميش في مكان اسمه شتابان. وهناك نظّموا أمر تموين الحملة المؤلفة من ثلاثمائة جندي بالشعير (المقطع ٨)، ثم استولوا على خارباتوم (تل رفعت) واسروا حراس البوابة (المقطع ٩) واستولوا على البوابة (المقطع ١٠) وجمعوا الحراب عندها (المقطع ١٣). ثم صعدوا الجبل (المقطع ١٢)، وعندما استولوا على كرامان (في

حوض العاصي) تقابل (جيش) إبلا (بجيش) ماري (المقطع ١٣). وسار الإبلويون جهة ماري وأرسلوا الرسل (للإشراف على) صيانة قنوات الماء (المقطع ١٤). ولكن جيش إبعل استولى، على ما يبدو، على مخازن المؤن (المقطع ١٥). ولم يرسل حلفاء إبلا: نيرار ومانوّات وكاكام (*Gakam*) المعونة (المقطع ١٦). واستولى رجال إبعل على الماء (المقطع ١٧)، وأحكموا سيطرتهم على كرامان (المقطع ١٨). وأرسلوا إلى ماري المؤن التي كانت في كرامان وتتألف من وفير العسل والشعير والناس ومؤن منطقة أبسو (Ab_2-zu[ki]) وكلها أصبحت بعهدة رجل من ماري اسمه بن–ليم (*Bi-ne-li-im*) (المقطع ١٩). وبقية غنائم أبسو مثل الأخشاب ورؤوس الرماح والعسل والخمر وهي المذكورة في المقطع الأخير من النص (المقطع ٢٠) فلا نعلم مصيرها لأن النص يتوقف فجأة عند هذه النقطة وتركت بقية أعمدته على الوجه الخلفي فارغة.

النص رقم (١٤)

يحمل هذا النص العنوان التالي :"dub lú *ù-šu-rí* DU[ki]" (لوح التعليم الخاص بـــــ"دو") ويضم بذلك وثائق تتعلق بمنطقة "دو"[٢٣]، منها أخبار رحلات تجارية من وإلى هـــذه المنطقة المؤلفة من مجموعة من القرى تديرها حكومات منفصلة. يرجح أنهـــا كانـــت قريبة من توتول (تل البيعة) وكانت عرضة لنفوذ كل من مملكتي ماري وناجار (تـــل براك).

يظهر في النص (المقطع رقم 40) إشأر–دامو، وهو آخر ملوك إبـــلا فـــي عـــصر المحفوظات، سوية مع إبريوم وهذا ما يدعو إلى تأريخ النص في بداية عـــصر هـــذا الملك.

يتكون النص من 23 كسرة وقد فقدت منه أجزاء كثيرة مما لا يسمح بترجمته كاملا.

يصف النص في البداية (المقاطع ٢-٨) رحلة مجموعة من التجار من منطقة باتين *Ba-ti-in*[ki] (مكان ما إلى الشمال من مدينة حلب) ذهبوا في رحلة تجارية وكان عليهم الاستقرار في منطقة ما بهدف الحصول على جرار جديدة من الزيت. وعندما وصلوا (إلى المكان المقصود وقد فقد الجزء من النص حيث حدد اسم هذا المكان) شاركوا بمراسم دفن شخص اسمه آشوم *A-sum* (ربما كان تاجرا من بورمان) ولم يتسلموا إلا ست جرار من الزيت من أصل تسع.

كان على هؤلاء التجار بعد ذلك التوجه من باتين إلى مكان اسمه إمّاران *Im-ma-ra-an*[ki] (المقاطع ٩-١٣) وهناك احتجزوا وسلموا إلى شخص اسمه يبقيدوم *Ib-gi-tum* من ماري ودفعوا له مقابل حريتهم عشر وزنات من الفضة فأطلقهم. ليتلقوا بعد ذلك بتاجر من نابراراتو *Nap-ra-ra-du*[ki] (المقاطع ١٤-١٧) حيث سلموه بعضا من جرار الزيت وتسلّموا منه عشرين رأسا من الغنم.

ويروي النص (المقاطع ١٨-٢٢) بعد ذلك تفاصيل عن مشاركة تجار من إبلا في مراسم دفن آشوم في مدينة شخص اسمه داكادو *Da-ga-du*. ثم عن تجارة رجل من إبلا أراد شراء ثيران في سوق إمّاران (المقاطع ٢٣-٢٧) ولكنه لم يجد فاشترى عوضاً عن ذلك حملان صغيرة ما زالت بحاجة للرضاعة فسلمها لرجل من إن-نه[كي] EN-NE[ki] ليقوم برعايتها.

هناك مقاطع (33-35) تشير إلى شخص من إبلا احتجز من قبل أحد الماريين في منطقة نابراراتو وتم الاستيلاء على أمواله.

أما المقاطع (36-41) فتورد محاورة بين رجل من إيمار اسمه تورتي (*Dur-ti*) وعمدة (أوغولا) منطقة أخرى. ولكن أجزاء كبيرة من النص مفقودة في هذا القسم مما يجعل فهم كل ما ورد في المحاورة من الصعوبة بمكان. يبدو أن الشخص القادم من إيمار كان منحازاً لإبلا في حين أن العمدة يطلب تعويضات من إبلا. يبدو أن العمدة

كان مسؤولاً عن قرية تابعة لإيمار يطلب تعويضا عن استخدام المراعي في سهول إيمار من جانب رعاة تابعين لإبلا:

(37) *en-ma* ugula uru^{ki} (38) níg-sa$_{10}$ Murgu^{ki} *Ì-mar*^{ki} *àš-da Ib-la*^{ki} še

"**هكذا قال مراقب (أو عمدة) المدينة: إن ثمن (رعي أغنام) إبلا في مروج إيمار ينبغي أن يكون حبوبا**". (ARET XIII, P. 147).

وتسرد المقاطع (52–59) وقائع انطلاق سبعة من التجار من مدينة نابراراتو (Napraratu) إلى قيدَش[٢٤] (*Gi-daš*) الواقعة في منطقة إبلا ثم احتجازهم وإجبارهم على دفع فدية لماري من أجل تحريرهم.

وتورد المقاطع (60–63) نص حوار بين رجل من ناجار وغانية اسمها مانيا (*Ma-ne-a*). الرجل من ناجار يستجوب الغانية حول علاقة نابراراتو بإبلا فتجيب مؤكدة وجود تحالف ما بين الطرفين قائلة:

(62) *en-ma Nap-ra-ra-du*^{ki} (63) *Si-mi-a-Am* al$_6$-tuš *Ma-rí*^{ki} *I-ti* al$_6$-tuš *Ib-la*^{ki} aga-kár *ša-da-ga bù-ne-iš ......Nap-ra-ra-du*^{ki} *si-mi-a-Am*

"**(62) هكذا (قال) نابراراتو: (63) (عندما) أغار شيمع–عم الذي كان في مقيما في ماري على يديّن من إبلا فوق جبالك، نابراراتو وقفت ضد شيمع–عم**".

أما المقاطع الأخيرة (٦٤–٦٧) فتخبرنا عن إرسال إبريوم لمبعوث إلى نابرارتو لتسليم حاكمها الشخصَ الذي شتم الإله حدد شرط أن يؤدي حاكم نابراراتو القسم، حينذاك يمكنه أن يطلق هذا الشخص في وسط مدينته.

النص رقم (١٥)

عُنونَ هذا النص أيضا بعبارة "dub *ù-šu-rí Ma-rí*^{ki}" (لوح التعليم الخاص بماري)، ويؤرخ النص بزمن الوزير الإبلوي إبي–زيكير حيث ورد اسمه في النص (المقاطع 53–55).

يسجّل النص في المقدمة (المقطع رقم ١) الحصص التي خصصتها ماري لقوافل تجار إبلا الذين ينطلقون من ماري إلى إبلا أو من ماري إلى كيش. ثم يجمع في بقية مقاطعه تقارير عن رحلات لتجار من إبلا إلى مناطق مختلفة، منها رحلة التاجر بوزوري *Puzur₄-rí* (المقطع 5) الذي توجه أولا إلى مدينة عين[٢٥] (المقطع 3) ثم إلى شاراب (*Sar-ra-bù*ki) (المقاطع 4–8)، ورحلة المستشار بيلسا–إيل (Bilza-Il) إلى ماري (المقاطع 9–17) والتاجر يشيروم (*Yiširum*) إلى ماري (المقاطع 18–36)، وأخيرا رحلة الموظف مان–حيو (Man-Ḫayyu) إلى توتول (37–55).

يتضح من النص أنه كان على تجار إبلا الحصول على إذن من موظفي ماري يمكنهم من ممارسة نشاطاتهم في المناطق الخاضعة لنفوذهم. مع ذلك فإن هؤلاء التجار كانت لديهم الشجاعة للقيام بمثل ذلك دون الحصول على الإذن المطلوب وهذا ما أشار إليه النص مرارا بعبارة "nu inim" أي "بلا إذن" (المقاطع: ١١، ١٣، ٢٢).

النصان (١٦)-(١٧)

وهما نسختان متطابقتان ومختصرتان عن نص أصلي مفقود[٢٦]. والدليل على ذلك أن كل الفقرات في النص تبدأ بعبارة سو–ما *su-ma* "إذا" باستثناء المقطع الأول الذي يبدأ مباشرة بذكر اسم مدينة أرمي[٢٧] (*Armi*ki).

يتعلق النص بشعيرة دينية يجب أن تقام في زمن الحرب. حيث يشير النص إلى غرض أو شيء يجب أن يرفع عالياً ويقدم إليه الطعام، يكون هذا الغرض إما مفرداً أو مزدوجاً، ولكنه على الأغلب مزدوج وقد أشير إليه في النص بعبارة AN.AN.DU (وتقرأ أيضا dan-gub ويقبلها في الأكادية *angubbûm*). من المرجح أن يكون هذا الشيء راية مقدسة حامية تُستدعى أو يُتضرع إليها عند القتال.

يسرد النص شروط تنفيذ شعيرة رفع الأنغوبو من قبل رجال أرمي المنطلقين للحرب:

يصف **المقطع الأول** فترة من السلم كان رجال أرمي حينها موجودين في إبلا وأقاموا دون قتال لذلك لم يرفعوا "الأنغوبو". **في المقطع الثاني** وصف للطقس الديني وقت الحرب حيث يرفعون صور "الأنغوبو" ويقدمون لها الهبات (2): "*su-ma* šu-ra 1 ^{d}an-gub íl *wa* šuku 4" والترجمة هي: "**فإذا حدث القتال يرفعون "أنغوبو" واحد ويقدمون له الوجبة لأربع مرات**" ويمضي النص في شرح نقاط أخرى وحالات خاصة تتطلب رفع "الأنغوبو" وتقديم الأعطيات لها. **أما المقطع الأخير** في النص (5) فيبدو أنه لا علاقة له بما سبقه وهو يتعلق بتقديم الزيت عند طلب إبي زيكير الوزير ذلك وهو الطقس الذي يجيز العهد بين الحلفاء في كل المنطقة.

النص رقم (١٨)

وهو نص صغير(٢٩)، ربما مدرسي، يضم بعض بنود معاهدة عقدت ما بين إبلا وأرمي.

يقرر المقطع الأول من النص تجديد تقديمات الزيت السنوية على حلفاء إبلا ومن بينهم مدينة أرمي، وكذلك تقديم الطعام لآلهة إبلا (المقطع الثاني). فإذا لم يقوموا بتقديم ذلك إلى أبي البلاد (أي الإله حدد) فإن الرب (أبا البلاد) سوف يقتلهم (*A-bí* kalam-*tim*^{ki} kalam-*tim*^{ki} *wa* ug$_7$-*sù ba'-al*$_6$). أما **المقطع الأخير** فيقرر أنّ على أرمي أن ترسل ما هو مفروض عليها للمشاركة في حملة عسكرية إلى ناجار:

"šu-du$_8$ máš-*gú-nu* mè *si-in* du-du *Na-gàr*^{ki} uru^{ki} šu ba$_4$-ti"

"عليكم تسليم إمداداتكم الخاصة بالحملة المتوجهة (نحو) ناجار إلى المدينة (أي إبلا)".

النص رقم (١٩)

يسجل هذا النص المفاوضات التي تم بين مبعوث ماري وملك حدّو (بالمقطعيـــة -$'A_3$-du^{ki}) والتي سبقت التحالف بينهما، حيث يحاول مبعوث ملك ماري الـــتأثير على حدّو لتتخلى عن تحالفها مع إبلا وتتحالف مع ماري.

يؤكد ملك حدّو في البداية تحالفه مع إبلا ولكن بعد ذلك يشتكي من مهاجمة إبلا لإلـــلا ($Il\text{-}la^{ki}$) المتحالفة معه. ويبدو في نهاية النص أن مبعوث ملك ماري استطاع التـــأثير على ملك حدّو الذي أصبح يفضل التحالف مع ماري.

وبالفعل فإن معاهدة إبلا مع أبارسال(٣٠)، والتي تؤرخ بفترة ســـابقة، تؤكـــد أن حـــدّو كانت واقعة تحت نفوذ إبلا. ويبدو أنها قد انتقلت الآن لتتحالف مع ماري.

يظهر **في المقطع الأول** مبعوث ماري وأسمه شوّا–ما–وابـــار (*su-wa-ma-wa-ba-ar*) في منطقة حدودية هي إللا ($Il\text{-}la^{ki}$) ويتوجه إلى حدّو وهناك يقابـــل شخـــصين همـــا سارابو $Sa\text{-}ra\text{-}bu_3$ من حدّو وزارّم ($Zar\text{-}rum_2$) التابع لساربو وهذان يـــسألاه: "لمـــاذا أنت مسافر إلى هنا" (*mi-na* du-du) فيجيب: "أنا مسافر من أجل الأخوة (التحـــالف)" (*en-ma*-sù šeš-*sù-ma*). ويذهب أحدهم ليخبر ملك حدّو الذي يرسل بعثة مؤلفة مـــن ثلاثة أشخاص يلتقون شوّا–ما–وابار في منطقة خوبادو (المقطع 11). ويقولـــون لـــه (المقطع 13): "خبزا (و) جعة (و) ثيران وخراف جيدة كانت مخصصة لملك إبلا هي الآن لك". وفي المقطعين 15 و 16 يخاطب ملك حدّو مبعوث ملك ماري قائلا:

"*an-na wa Ib-la*^{ki} ì-giš GIŠ-sur$_{\times}$ *wa* nam-ku$_5$ GIŠ-sur$_{\times}$ gaba ^{d}KU-*ra wa* gaba ^{d}*'À-da* an-gál"

"أنا وإبلا مرتبطين (بعهد) الزيت وقد أقسمنا على العهد أمام الإله كورا والإله حدّا".

ولكن يبدو أن إبلا قد قامت بنقض هذا العهد بمهاجمتها لمدينة إلا الحليفة لحدّو وقامت بقلع مزروعاتها من الحبوب وساقت خرفانها وثيرانها وقتلت رجالها (المقطع 26). وهنا يسأل مبعوث مدينة ماري ملك حدّو:

(28) *mi-ne-iš du-a-ḫa Ib-la*$_{ki}$ (29) *Ib-la*$_{ki}$ dè:a dam *ba-ru*$_{12}$*-a*

"لماذا تتحالف مع إبلا؟! إبلا كاذبة كامرأة".

فيجيب ملك حدّو:

(31) *ú-ḫu-wa-du Ib-la*^{ki} nu sa$_4$ (32) *ap ù-ḫu-wa-du Ma-ri*^{ki} sa$_6$ *ne-si-in*

"إن التحالف (الأخوة) مع إبلا ليس جيداً. (على العكس من ذلك) فإن التحالف (الأخوة) مع ماري جيد، نحن موافقون (على التحالف معها).

النص رقم (٢٠)

يورد النص بنود معاهدة عقدت بين إبلا والمارتو بهدف دعم ملك إبلا في حملته العسكرية إلى مناطق البدو الأموريين والوقوف بوجه العمليات العدائية التي تنطلق من هناك بدعم وتحريض من مملكة ماري:

المقطع الأول: يضم عنوان النص وهو:

"dub nídba ì-giš *Mar-tu*^{ki} *wa Ib-la*^{ki}"

"نص تقديم الزيت من قبل مارتو وإبلا".

المقاطع من الثاني حتى السادس: تنظم هذه الفقرات شؤون المراعي التابعة لإبلا وشروط استخدامها من قبل المارتو:

(2)"1 mu-*ma* nídba ì-giš udu-udu *mar-tu*^{ki} en *Eb-la* á-gá-II "

"في كل عام وفي موسم تقديم الزيت يقتسم ملك إبلا أغنام المارتو".

(6) "*Ma-ti-lum bù-su-ma* en *Ib-la*^{ki} du_{11}-ga *Mar-tu*^{ki} ú-šim"

" يقرر ماتي-إيلوم من أجل أملاك ملك إبلا (من الخراف) على المارتو مناطق الرعي".

المقطعان السابع والثامن يقرران وجوب إيصال المعلومات إلى إبلا بخصوص التحركات المعادية ويبّين النص أن إخفاءها يعد نكساً للعهد:

(8) "*su-wa-ma* nu šu mu-tak_4 a-è ì-giš"

"إذا لم ينقلوا (المعلومات) فإن هذا (يعد) خروجا على عهد (الزيت)"

المقطع 9-10-11 تقرر وجوب إرسال المساعدات لحملة ملك إبلا العسكرية وفي حال عدم قيام المارتو بذلك فإنه يعد أيضاً خروجاً على العهد.

(9) níg-kas_4 en *Ib-la*^{ki} al_6-du_{11}-ga-*sù* KU.TU mè *Ib-la*^{ki} KU.TU mè-*sù* KU.TU ì-giš *Ib-la*^{ki} KU.TU ì-giš-*sù*

"فيما يتعلق ببعثات ملك إبلا، وطبقا لأمره، رجال حملة إبلا العسكرية (يكونون مماثلين تماما لـ) رجال حملته (= المارتو) العسكرية" (أي أن على المارتو أن يضعوا رجالهم تحت تصرف ملك إبلا أثناء حملته العسكرية تماماً كأن تكون هذه الحملة حملتهم).

(10) *Ib-ma-lik* KU.TU mè *Ib-la*^{ki} *si-in Mar-tu*^{ki} kéš-da-*sù* ì-na-sum

" يعطي (المارتو) لإبملك الرجال من أجل حملة إبلا العسكرية باتجاه المارتو كقواته".

المقاطع من الثاني عشر حتى السادس عشر تقرر على المارتو أموراً متفرقة منها: عدم استلام الثمار المخصصة لملك إبلا. وأمراً يتعلق بتسليم رجال من ماري. وكذلك تسليم بغال ملك إبلا المفقودة وفي حال عدم قيامهم بذلك فإنهم ينكسون العهد، حيث تتكرر في كل مرة العبارة:

"nu ì-na-sum-*sù* a-è ì-giš" (.....إذا لم يعطه (فهذا يعد) مناقضا للعهد).

المقطع الثامن عشر: يقرر وجوب إمداد إبلا بالطعام والشراب ربما أثناء التصادم العسكري بين إبلا وماري في المناطق القريبة من مناطق المارتو.

وينتهي النص في **المقطع التاسع عشر** بإيراد قائمة بأسماء خمسة من مبعوثي المارتو.

النص رقم (٢١)

يضم اللوح نص معاهدة عقدت بين إبلا ودو-لو[٣١] (*Du-lu*ki). وتظهر بنود الاتفاق تبعية دولو لإبلا حيث تصبّ كلّ البنود في مصلحتها:

المقطع الأول: قائمة بالبضائع التي يتوجب على دولو إيرادها إلى إبلا وفقا للمعاهدة وهي: مينا ونصف من الفضة، ثور سمين، وخروف سمين.

المقطعان الثاني والثالث يقرران على دولو أن ترسل تيساً جبلياً كأعطية وإذا لم ترسله فعليها أن ترسل ما يساويه.

أما المقطعان الرابع والخامس فيسجلان كميّات الطعام المتوجّب على دولو إرسالها إلى إبلا منها: نصف إنتاجها من العسل (làl) وكميات من الحبوب وجرة من النبيذ. وكذلك فإن أخشابها من التربنتين والصنوبر ستكون من حق إبلا.

أما **المقطعان السادس والسابع** فيبينان وجوب مشاركة دولو في الحملات العسكرية الخاصة بإبلا.

المقاطع من الثامن حتى العاشر تقرر على دولو المشاركة بتقديم الأضاحي في الطقوس السنوية.

أما **المقطع الحادي عشر** فيبيّن وجوب إعلام إبلا بالتحركات العدائية ضدها.

وفي المقطع الثاني عشر والأخير وضع **عنوان النص** وهو: نص تقديم الزيت الخاص بدولو وإبلا بمناسبة عقد التحالف بينهما (dub nídba ì-giš *Du-lu*ki *Ib-la*ki GIŠ-ŠUR×).

الخاتمة:

كان هذا البحث محاولة لعرض مضمون نصوص العلاقات الخارجية لمملكة إبلا إلا أن أهمية هذه النصوص تتطلب أبحاثا أخرى تتناول جوانب أخرى أهمها الجانب

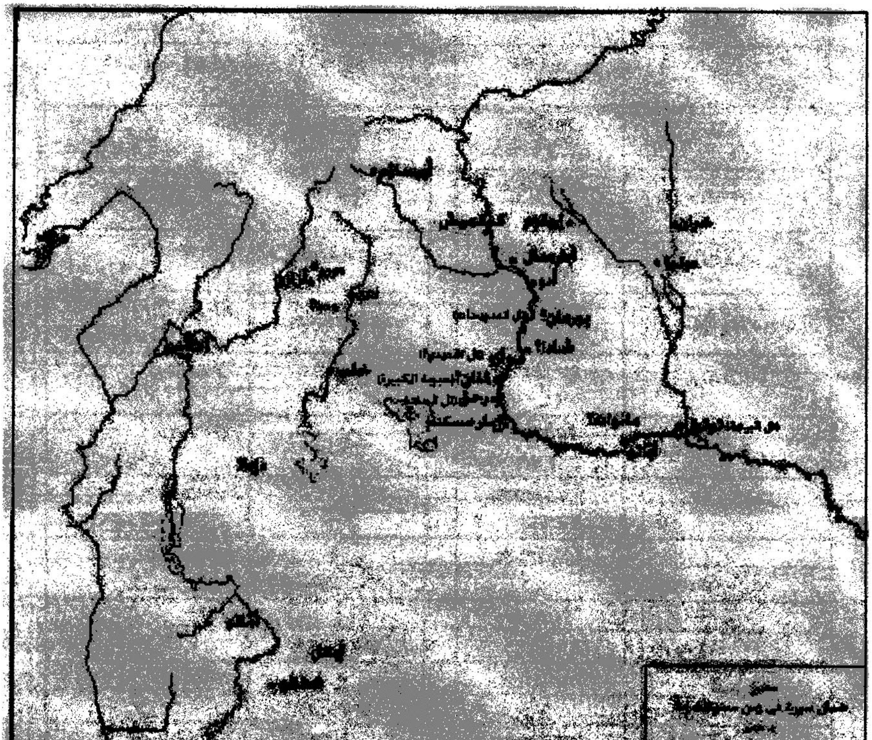
اللغوي لهذه النصوص وذلك لأنها كتبت بنسبة كبيرة من المفردات والجمل الإبلوية التي تساعدنا على فهم لغة ولهجات شمال سورية في عصر إبلا وبيان ارتباطها الوثيق باللغة العربية. لقد أفرد فرونزارولي قائمة خاصة بالتفسيرات المحتملة للعديد من هذه المفردات في نهاية المجلد الثالث عشر من سلسلة ARET (الصفحات 314-317). وفيما يلي قائمة ببعضها مترجماً إلى العربية:

الكلمة كما وردت مصرفة في النصوص	الترجمة	تركيب المفردات ومصادر الأفعال	اللفظ
a-ba-ad	هرب	*ʾabātum*	أباتوم
a-bù	أب	*ʾabum*	أبُم
a-ti	حتى	*ʾadi*	أدِ
á-lu	خيمة	*ʾahlum*	أهلُم
a_5-ḫi-ri	الأخير	*ʾaḫirum*	أخِرُم
du-a-ḫa	أخي (تحالف)	*ʾaḫḫuwum*	أخُوُم
a_5-na	إلى	*ʾana*	أنا
an-na	أنا	*ʾanʾa*	أنأ
an-da	أنت	*ʾanta*	أنتَ
an-da-nu	أنتم	*ʾantanu*	أنتَنُ
ab-dar	فدية	*ʾapṭarum*	أبطَرُم
ar-ḫi-iš	بسرعة	*ʾarḫiš*	أرخِش

أشتَ	ʾašta	هنا، بالقرب من	áš-da
أشتِ	ʾašti	هنا، بالقرب من	áš-ti
إنْ	ʾin	في	in
إركِسُم	ʾirkisum	رابط	ir-ki-iš
أخواتُم	ʾuḫuwātum	الأخوة (التحالف)	ù-ḫu-wa-du
أومَ	ʾūma	أو	ù-ma
أورُم	ʾūrum	نور	ù-ra-a
عل	ʿal	أعلى، أمام	al_6
بَعلُم	baʿlum	سيد، بعل	ba-lu
بعلوتُم	baʿlūtum	سيدة، بعلة	ba-lu-tum
بغتانُ	bagatānu	غارقة مياغتة	ba-ḫa-da-mim
بَلِ	Bali	بدون، بلا	ba-li
بونو	būnū	وجه	bù-ne
ذُ	du	ذو	ša
جملُم	gamālum	تجمّل	ga-ma-lum
هلاكُم	halākum	ذهب	à-a-ki
حِطّم	ḫiṭṭum	حنطة	i-tum
كلُّم	kalum	الكل	ga-lum

كَوانُم	*kawānum*	ثبت	*du-gi*$_4$
كُبارُم	*kubārum*	مقياس للحبوب	*gú-bar*
كُسيتُم	*kusītum*	كساء، عباءة	*gu-zi*-TÚG
لمادُم	*lamādum*	علَّم	*lu-ma-du*
مناوُم	*munāwum*	يعد، يحسب	*ma-na-i*
مَواتُم	*mawātum*	مات	*i-mu*
مِئت	*mi'at*	مئة	*mi-at*
نَشُم	*našum*	أناس، أشخاص	*na-se*$_{11}$
بَتاحُم	*patāḫum*	فتح	*i-ba-ti-à-an*
بطارُم	*paṭārum*	افتدى، حرر	*dib-da-ru*$_{12}$
قَبارُم	*qabārum*	دفن	*da-ga-bir*$_5$
شَألُم	*ša'ālum*	سأل	*sa-a-li-iš*
شَحرُم	*šaḫrum*	أول	*sa-ri-in*
شَلامُم	*šalāmum*	سلم	*i-si-a-ma*
شَبارُم	*šapārum*	أرسل	*ne-sa-bar*
شِتُّم	*šittum*	ستة	*si-dè*
ثَنيُم	*ṯanīyum*	ثاني	*sa-ne*
طَباخُم	*ṭabāḫum*	ذبح	*a-da-ba-aḫ*

طائم	*ṭābum*	جيد	*da-bù-du*
طحانم	*ṭaḥānum*	طحن	*a-da-i-in*
وبالم	*wabālum*	حمل	*nu-da-hi-an*
وزانم	*wazānum*	وزن	*wa-zi-in*
يداعم	*yadā' um*	عرف	*ù-sa-ti-an*



الحواشي

(١) أصدرت البعثة الإيطالية المنقبة في تل مرديخ من هذه السلسلة اثني عشر مجلداً نشر آخرها عام ٢٠٠٨: ١- **المجلد الأول** (ARET I) باللغة الإيطالية ودرست قيه نصوص إدارية تتعلق بتوزيع المنسوجات / ٢- **المجلد الثاني** (ARET II) بالألمانية ودرست فيه نصوص إدارية متعددة المواضيع ٣- **المجلد الثالث** (ARET III) بالإيطالية. نشر فيه ما مجموعه كسرة من النصوص الإدارية متعددة المواضيع.٤- **المجلد الرابع** (ARET IV) بالإيطالية. ويضم نصوصا إدارية خاصة بتوزيع المنسوجات. ٥- **المجلد الخامس** (ARET V) بالألمانية. ويضم نصوص التراتيل والتعاويذ وما شابه. ٦- **المجلد السابع** (ARET VII) باللغة الإيطالية. نشرت فيه نصوص إدارية خاصة بتسجيل المعادن والمنسوجات. ٧- **المجلد الثامن** (ARET VIII) بالإنجليزية، ويضم نصوصاً إدارية تتعلق بشكل رئيسي بالمنسوجات. ٨- **المجلد التاسع** (ARET IX) بالإيطالية. ويضم نصوصا إدارية تتعلق بالمنتجات الغذائية: خبز، زيت، حبوب، جعة... ٩- **المجلد الحادي عشر** (ARET XI) بالإيطالية. ويضم نصوصاً شعائرية خاصة بالجلوس على العرش. ١٠- **المجلد الثاني عشر** (ARET XII) بالإيطالية، ويضم مجموعة كبيرة من كسرات الألواح الإدارية (١٤١٧ كسرة) متعددة المواضيع. ١١- **المجلد الثالث عشر** (ARET XIII): بالإيطالية ويضم نصوص العلاقات الخارجية لإبلا (رسائل ومعاهدات وتقارير). ١٢- **المجلد الخامس عشر** (ARET XV) بالإيطالية ويضم ألواحاً إدارية خاصة بتوزيع المنسوجات من عصر الوزير أرّوكوم (*Arrukum*).

(٢) اعتمادا على ما نشر حتى الآن من نصوص إبلا أصبح من الممكن وضع جدول زمني يبيّن تتابع ملوك إبلا المذكورين في النصوص وتسلسل وزرائهم وتعاصرهم مع ملوك ماري وبعض ملوك مدن عراقية قديمة. والجدول التالي يظهر ذلك:

	ماري	أكّاد	لاغاش	أوروك	إبلا	
					الوزراء	الملوك
	إيشتوب					كون دامو
						أدوب دامو
	إيبلول إيل					
2400 ق.م			إنتيمينا		دارميا/تير	إغريش خلب
	نيزي					
	حنا داجان		إناناتوم الثاني		أرّوكوم	إركب دامو
	إكون		إن إن تارزي		إبريوم	
2350 ق.م	خيدار		لوجالاندا			إشار دامو
	إشغي		أوروأنمجينا	لوجال-	إبي زيكير	
		شروكين				

(٣) A. Archi, M. G. Biga, *A Victory over Mari and the fall of Ebla*, in: Journal of Cuneiform Studies 55 (2003), p. 2.

(٤) كابلول: مدينة يعتقد أنها تقع إلى الشمال الشرقي من إبلا، انظر:

M. Bonechi, *I nomi geografici dei testi di Ebla*, RGTC 12/1, Beiheft zum TAVO, Reihe B. p. 138.

(٥) نشرت هذه الرسالة مسبقا في:

- G. Pettinato, *RBI (Rivista Biblica. Associazione Biblica Italiana)* 25 (1977),

انظر كذلك: مرعي، عيد، إبلا تاريخ وحضارة أقدم مملكة في سورية، ١٩٩٦، ص. ٢٥ وص. ١١٦/٥٤ مع مراجع.

(٦) B. Kienast, *Der Feldzugsbericht des Ennadagan in literaturhistorischer Sicht*, OA 19 (1980), 247-261. Id., *Zum Feldzugsbericht des Ennadagan*, OA 23 (1984), 19-32.

L. Viganò, *Enna-Dagan's Letter to the* en *of Ebla*, LA 38 (1988), 227-246.

- D.O. Edzard, *Neue Erwägungen zum Brief des Enna-Dagan von Mari (TM 97. 75.G. 2367)*, SEb 4 (1981), 89-

(٧) A. Archi, M. G. Biga, Ibid. p. 1-44.

(٨) أبارسال: من المرجح أنها كانت تقع في المنطقة الواقعة أعالي الفرات (تل أحمر؟). غير أن بعض الباحثين يرى أنها تقع إلى الشرق من إبلا إما في منطقة الخابور وربما على الفرات في المنطقة الواقعة بين إيمار وماري، أو بين إيمار وتوتول ومنهم من يعتقد أنها تقع في تل خويرة قرب الرقة: انظر M. Bonechi المرجع السابق ص. ٨-١٠.

وقد قرأ جيوفاني بتيناتو اسم الموقع خطأ بالشكل A-sùr معتقدا أنه ينطبق على مدينة "آشور" انظر:

-Giovanni Pettinato, *La Citt`a Sepolta, I misteri di Ebla*, Milano 1999, p. 286.

(٩) للاطلاع على الترجمة الكاملة لنص المعاهدة باللغة العربية وعلى الدراسات التي نشرت عن المعاهدة انظر: اسماعيل، فاروق، معاهدة إبلا، مجلة التراث العربي، العدد ١١٠، حزيران ٢٠٠٨.

[1] Bonechi, Subartu IV, 1 (1998), P. 234.

(١٠) جمعت هذه النصوص من قبل M. Bonechi في في مقالته :

Lexique et idéologie royal à l'époque proto-syrienne (*Les dossiers de la reine d'Imar et de la ville de Halka), MARI* 8, 1997, pp. 523-528

(١١) M. G. Biga, F. Pomponio, *Elements for a Chronological Division of the Administrative Documentation of Ebla, JCS,* Vol. 42, No. 2, (1990), p. 199:42.

(١٢) يؤكد الملك في هذا المقطع والمقطع السابق له أن السيطرة على الأشخاص المقيمين في الأراضي المقطعة إلى تيشاليم قد انتقلت إلى تيشاليم نفسها.

(١٣) حما منطقة تقع إلى الشمال أو الشمال الشرقي من إبلا وهي غير مدينة حماه على العاصي. وقد ميزت نصوص إبلا في الكتابة بين المدينتين: *ʔ`A-ma*[ki] (حما) و *ʔ`A-ma-du*[ki] (حمادو)

(14) A. Archi, *The "Lords", LUGAL-LUGAL, of Ebla, A Prosopographic Study*, Vicino Oriente 12 (2000), pp. 19-58.

(١٥) ARET I, p. 257: *wa-na*

(١٦) يقصد بالملوك الثلاثة في هذا المقطع ملوك مدن ككميوم وخاسّووان (Hassuwan) ونيرار وهي من المدن التي كانت متحالفة مع إبلا ((44) ARET XIII, p. 112) (حول ككميوم :مرعي، عيد، إبلا تاريخ وحضارة أقدم مملكة في سورية، ١٩٩٦، ٤٣/١١٥)

(١٧) منوّات: وفقا لمحفوظات إبلا كانت مركزاً تجارياً ومحطة على طريق القوافل. من المحتمل أنها كانت تقع في المنطقة ما بين إبلا وإيمار. انظر :

M. Bonechi, *I nomi geografici dei testi di Ebla*, RGTC 12/1, Beiheft zum TAVO, Reihe B. p. 233.

شوران: على الأرجح في وادي الفرات وكان فيها معبد للإله حدد حيث كان ملك إبلا يجتمع بحلفائه لأداء

(١٨) القسم. انظر:

ARET XIII, p. 120. ARES II, 444.

(١٩) من المعتقد أن تكون على الفرات بالقرب من إيمار M. Bonechi, *I nomi geografici dei testi di Ebla*, RGTC 12/1, Beiheft zum TAVO, Reihe B. p. 274.

(٢٠) إبعل من المراكز القبلية الواقعة على الأرجح في المنطقة إلى الشرق من حمص غير البعيدة عن قطنة (تل المشرفة) على الطريق الذي يصل وسط سورية بالفرات مرورا بتدمر: M. Bonechi, ibid, pp. 187-188

(٢١) كارامو: ربما في منطقة أعالي الفرات شمال سورية (M. Bonechi, ibid, 152)

(٢٢) ARES II, 200-2001.

(٢٣) تظهر مقارنة نصوص إبلا وجود موضعين يحملان اسم (*Gi-daš*) ويقدر أن أحدهما يقع إلى الشمال من إبلا والآخر إلى الشمال الشرقي منها. ولكن لا يمكن مطابقتهما مع قادش: M. Bonechi, ibid, p.154 والتسمية مشتقة من الجذر قدش "مقدس، طاهر".

(٢٤) نشر النص الأول من قبل إدسارد (D.O. Edzard) عام 1981 في ARET II 34, PP. 87-88 أما النص الثاني فقد نشر من قبل فرونزاولي في MisEb 2, pp. 1-26.

(٢٥) تقع أرمي في مكان ما إلى الشمال الغربي من إبلا أي في منطقة الأمانو (الأمانوس)، انظر ARES II, p. 168.

(٢٦) نشر بتّيناتو G. Pettinato دراسة أولية لهذا النص في (MEE 3, 66).

(٢٧) ARET XIII, 5 (17): *'A₃-du*[ki] *in* šu en *Ib-la*[ki]

(٢٨) دو-لو تقع على الأرجح شمال إبلا في منطقة البليخ وليست بعيدة عن حرّان. أما قراءة الإشارات بالشكل *gub-lu* ومطابقتها بجبيل فقد ثبت خطؤها. للمزيد انظر:

M. Bonechi, *I nomi geografici dei testi di Ebla*, RGTC 12/1, Beiheft zum TAVO, Reihe B. p. 112.

الأخلامو في وثائق الشرق العربي القديم

الأستاذ الدكتور جباغ قابلو
قسم التاريخ كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة دمشق

تظهر في الوثائق العائدة للدول التي قامت في منطقة المشرق العربي القديم بعض التسميات التي يقف الباحثون عندها محاولين تبيان دلالاتها العرقية أو القبلية، منها على سبيل المثال تسمية السوتو والخابيرو والأخلامو٠ونحن في هذا البحث سنتوقف عند الأخلامو محاولين تتبع أخبارهم في الوثائق التي بين أيدينا من أقدم ظهور لهذا الاسم في هذه الوثائق إلى اختفائه منها، ومن ثم سنحاول توضيح أصل هذه التسمية ومعناها والعلاقة التي ربطت بين الأخلامو والآراميين، باعتبار أن هذين الاسمين يردان سوية في النصوص العائدة للملك الآشوري تيجلات بلاصر الأول (١١١٥ - ١٠٧٥ ق٠م)٠

وقبل الخوض في الوثائق نود أن نتوقف قليلا لتبيان معنى الاسم واشتقاقه٠

فلقد ذهب الباحثون الذين تعرضوا لهذه المسألة مذاهب شتى، فالبعض قال بإمكان تفسير الاسم من الجذر اللغوي "خ ل م "بمعنى الصديق أو الرفيق، وبما هذا الاسم لا يرد في الوثائق التي بين أيدينا إلا بصيغة الجمع أي أخلام وبالتالي فإن هذه الكلمة تعني "الأصدقاء أو الرفاق" أو بمعنى آخر تعني " الحلفاء أو المتحدين"[١]٠

وهناك من بحث معنى الاسم في المعجم العربي، حيث نجد في لسان العرب أن الجذر خ ل م يعني "مرابض الغنم"، لذا فان هذا المعنى قد يكون معبِّراً عن حياة البداوة التي كانت تعيشها قبائل الأخلامو عندما بدأ اسمها بالظهور في وثائق الدول المجاورة لمناطق انتشارها[٢]. وعلى ذلك يكون هذا الاسم هو الاسم الذي أطلقه الغير عليها، وهذا أمر شائع، وبالتالي فإننا لا نعرف الاسم الذي كانوا هم يطلقونه على أنفسهم في ظل انعدام وثائق كتابية خاصة بهم تعود إليهم بحوزتنا. وهناك رأي ثالث في هذا المجال أيضا مفاده أن التسمية مشتقة من الجذر ح ل م والذي يدل على القوة والبأس وما يقابلهما في العربية مثل الأناة والعقل، فأولو الأحلام والنهى هم ذوو الألباب والعقول، وبالتالي فالأحلامو يمكن أن يكونوا شيوخ الآراميين وحلماؤهم[٣]. والجذر غ ل م يعني "الشباب" ومن ثم فان الأخلامو أو "الأغلام" هم الفئة المحاربة من مجموع القبائل الآرامية[٤]. ونحن نميل إلى الأخذ باشتقاق الاسم من خ ل م بمعنى مرابض الغنم، وذلك للسبب الذي أوردناه أعلاه، وهو مطابقته لحياة البداوة التي كانت تعيشها هذه القبائل في الوقت الذي بدأ فيه اسمها يتردد في الوثائق، ولا نرى ضرورة للبحث عن تبدل صوتي ممكن لصوت الخاء إلى الحاء أو إلى الغين كما يقترح البعض من الباحثين.

أولاً: الأخلامو في الوثائق غير الآشورية:

إن أول ذكر للأخلامو يأتينا من محفوظات ماري في النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م، وذلك من خلال سياقين مختلفين عن بعضهما نسبياً. ففي السياق الأول يرد ذكر شخص كان يعمل على ما يبدو في خدمة الأخلامو، وكان هذا الرجل يعمل في عصر الزيتون، وقد حضر إلى ماري للعمل فيها (رجل من رقوم، عاصر الزيتون، الذي هو في خدمة الأخلامو و...) (ARM, XX11/11, 1983,262,COL 1).
وأما السياق الآخر فيرد أثناء تعداد أسماء مجموعة من الأشخاص حمل أحدهم اسم أخلامو (ناسبي – داجان، أخلامو، ياسيت – أبوم، ايدين – تابوبو،...)

(ARM , XX11/ 1, 1983 , COL 111). إن هذين النصين من نصوص ماري، يقدمان لنا تصورين مختلفين للأخلامو، فالنص الأول يشير إلى جماعة، ربما قبيلة تحمل اسم الأخلامو، كانت موجودة في منطقة الفرات الأوسط، وكان أفرادها يعملون كحرفيين وتجار في مدينة ماري وغيرها من المراكز الحضرية التي كانت قائمة في مناطق انتشارها. أما النص الثاني فهو يشير إلى شخص اسمه أخلامو، وهذا أمر نلحظه حتى في أيامنا الحالية، حيث نقابل بعض الأشخاص الذين يحملون أسماء مأخوذة من أسماء قبائل معينة.

إن وجود الأخلامو لم يكن مقتصرا على مناطق الفرات الأوسط، بل تعداه إلى الجنوب الرافدي، وهذا ما نستدل عليه من الوثائق التي عثر عليها في منطقة سيبار– أمنانوم وتعود على ما يبدو إلى عهد الملك البابلي عمي صدوقا (١٦٤٦ – ١٦٢٦ ق.م)، أما ملكية هذه الوثائق فتعود إلى شخص اسمه أور – أوتو وتسمى الآن في المؤلفات العلمية أرشيف أور – أوتو، وفي أحد وثائق هذا الأرشيف يرد اسم الأخلامو كموكلين بإحضار الشعير إلى المدينة (علاوة على ذلك، الأخلامو لم يجلبوا الشعير إلى مخازن المدينة....، وعندما يحضر الأخلامو الشعير سوف أجمعه " أشتريه" منهم)[٥]. تكمن أهمية هذا النص في كونه يعطي الدليل على تواجد الأخلامو في بلاد الرافدين قبل العصر البابلي الوسيط ليس على شكل أفراد يحملون اسم أخلامو كما مر معنا مثلا من خلال محفوظات ماري، وإنما على شكل جماعات كبيرة تؤدي أعمالا هامة في المنطقة.

ويعزز هذا الأمر الرسائل المنسوبة إلى حاكم دلمون (غالباً البحرين الحالية) والموجهة إلى الملك الكاشي بورنابورياش الثاني (١٣٥٩ – ١٣٣٣ ق.م) أو خليفته كوريجالزو الثاني (١٣٣٢ – ١٣٠٨ ق.م) عبر حاكم نيبور (نفر الحالية) حيث كان كلا الحاكمين خاضعين لسلطة الملك الكاشي، وقد عثر على هذه الرسائل في مدينة

نيبور، بمعنى أنها ربما لم تصل إلى وجهتها الأصلية. والذي يهمنا من هذه الرسائل رسالتان ورد فيهما اسم الأخلامو، وسنورد فيما يلي ترجمة لبعض مقاطع هاتين الرسالتين. تقول الرسالة الأولى (قل لالليليا هذا ما يقوله ايلي – ايباشيرا أخوك إليك، إليك تحيتي، لتحرس حياتك اينزاك وميسكيلاك أرباب دلمون. إن ايلتانو الذي سيصل إليك قد قابلته (أنا) وكذلك فإن المرأة السوتية قد عبرت البحر وسوف تصل...، وحولي الأخلامو قد حملوا التمر وليس معي القوة التي أتمكن بها أن أحمي أي مدينة حتى لا تنتهب...) [٧]. وأما الرسالة الثانية فهي مرسلة من نفس الشخص الذي أرسل الرسالة الأولى وموجهة إلى نفس الجهة أيضا ومضمونها (قل للاليليا هذا ما قاله ايلي ايباشيرا أخوك، إليك مني الدعاء بالرخاء وهلا تحمي حياتك الأرباب اينزاك وميسكيلاك أرباب دلمون. إن الأخلامو قد تحدثوا معي بلهجة العنف والنهب فقط ولم يحدثوني في استرضاء ومصالحة. إن سيدي خولني أن أسألهم ولكنهم لم يصيخوا)[٨]. لقد عثر على هاتين الرسالتين كما أشرنا آنفاً في مدينة نيبور وهما محفوظتان الآن في متحف الشرق القديم في استانبول في تركيا، ويعتقد كورنوال الذي درس هاتين الرسالتين أن الشخص الذي أرسلتا إليه هو نفسه انليل كيديني حاكم نيبور في ذلك الوقت وأن الاسم الذي يرد فيهما (ايلليليا) هو اسم التحبب له، وأنهما قد دونتا في دلمون (البحرين) بدليل المعلومات الواردة فيهما ويظهر أن ايلتانو الذي ذكرته الرسالة الأولى كان تاجراً أو مبعوثاً إلى دلمون من قبل والي نيبور.

وننتقل الآن إلى سورية، وإلى فترة زمنية قريبة نسبياً، حيث عثر على مجموعة من الوثائق أثناء عمليات التنقيب الأثري التي جرت في موقع أيمار (مسكنة) على الفرات، وكان من بينها نص يأتي على ذكر الأخلامو "...، ما إن قدم الأخلاميان من بلاد سوحي حتى قالا ما يلي : لقد غزا حاكم إقليم بلاد سوحي بعرباته وجنوده بلاد قطنة بقوة.. "[٩]. وتعزز هذه الوثيقة معلوماتنا السابقة عن تواجد الأخلامو في

منطقة الفرات الأوسط، وتؤكد استمرار هذا التواجد خلال فترة النصف الثاني من الألف الثاني ق٠م٠

ويبدو أن أهمية الأخلامو ودورهم قد بدأ بالتزايد خلال هذه الفترة بدليل ورود اسمهم في وثائق من خارج المنطقة السورية الرافدية، أو في مراسلات بين دول مختلفة، الأمر الذي سنعرض له الآن٠

فمن بين الرسائل التي تضمنها أرشيف العمارنة، هناك رسالة وجهها أحد الملوك الكاشيين في بابل إلى مصر، وفي هذه الرسالة يرد ذكر الأخلامو مرتين، ولكن الرسالة مشوهة إلى حد كبير، بحيث يصبح من الصعب تحقيق السياق الذي ورد فيه الاسم (EA 200, 8 – 10)٠ ولكن من الممكن إجراء مقارنة مع رسالة أخرى من رسائل العمارنة وهي الرسالة (EA 9)، والتي بعث بها الملك الكاشي بورنابورياش الثاني ١٣٤٩ – ١٣٢٣ ق٠م، إلى أمنحوتب الرابع أخناتون، يذكِّره فيها كيف أن والده كوريجالزو قد رفض عرض الكنعانيين بالتحالف معه لطرد المصريين من مناطقهم والحلول محلهم، ولذلك فإن ما يدور الحديث عنه في الرسالة التي يذكر فيها اسم الأخلامو، ربما كان في نفس الإطار من الأحداث التي تتحدث عنها الرسالة رقم /٩/٠

وهناك ذكر هام آخر للأخلامو، يرد في رسالة عثر عليها ضمن الأرشيف الحثي وتعود إلى عهد الملك خاتوشيلي الثالث (١٢٧٥ – ١٢٥٠ ق٠م)، وتشهد هذه الرسالة على مدى ازدياد نشاط الأخلامو في البادية السورية٠والرسالة هي رد على مراسلات سابقة كانت قد جرت بين هذا الملك والملك الكاشي قدشمان انليل الثاني، ومن خلال الرد يفهم بأن الملك الحثي كان قد وجّه رسالة إلى الملك الكاشي يستفسر منه عن السبب الذي دفع بالملك الكاشي إلى وقف إرسال رسله ومبعوثيه إلى العاصمة الحثية كما كان يفعل في السابق، وكان رد الملك الكاشي بأن الطريق بين المملكتين أصبحت خطرة وغير آمنة بسبب قبائل الأخلامو، وهذا ما استدعى استغراب واستنكار الملك

الحثي الذي لم يقتنع بهذه الحجة على ما يبدو فأرسل إلى الملك الكاشي يقول (هكذا (يقول) أخي (قدشمان انليل) فيما يتعلق بكتابه لأخيه (أي خاتوشيلي). هكذا أنا توقفت عن (إرسال) رسلي،٣٧ الأخلامو أصبحوا أعداء (Ah-la-mu – na-ak-ru) لذلك توقفت أنا (عن إرسال) رسلي؟ ماذا يعني هذا؟ (٨) أنت أخي (حقا) بسبب الأخلامو توقفت (عن إرسال) رسلك؟ هل مملكة أخي (أصبحت) صغيرة (أو ضعيفة) إلى هذا الحد؟• (KBO,1 10 , الأسطر ٣٦ – ٣٨، الوجه الأمامي)• وفي مكان آخر من نفس الرسالة وفي السطر ٤٣ يذكر اسم الأخلامو مرة أخرى ولكن في سياق غير مفهوم•[١٠]

إذا من وجهة نظر الملك الكاشي فإن الأخلامو أصبحوا أعداء لدولته، ولذلك توقف عن إرسال رسله إلى العاصمة الحثية خاتوشا، ولكن إلى حد يمكن اعتبار هذا الكلام صحيحاً؟ أي إلى حد كان الأخلامو قادرين على تهديد الطريق الواصل بين الدولتين الكاشية في بابل والحثية في آسية الصغرى، والمار عبر البادية السورية والشمال السوري؟ من الصعب تصور أن الأخلامو كانوا قادرين على فعل شيء كهذا بصورة جدية، لذلك فمن المحتمل أن يكون الملك الكاشي يقوم بمناورة سياسية، فهو لم يرد أن يوتر علاقاته مع الأشوريين جيرانه في الشمال، خصوصاً وأن قوتهم في تصاعد، على حساب علاقاته مع الحثيين البعيدين عن حدود دولته، والذين ربما كان من الصعب عليهم مد يد العون له في حال تعرضه للخطر الأشوري، لذلك نراه يتذرع بالأخلامو، الأمر الذي لم يقنع الملك الحثي، الذي أرسل مستهزئا ومتسائلا، هل أصبحت مملكة أخي صغيرة، بحيث لا تقوى على هؤلاء الأخلامو•

ثانياً: الأخلامو في الوثائق الآشورية حتى عهد تـيجلات بلاصـر الأول (١١١٥ – ١٠٧٥ ق٠م):

يبدأ ذكر الأخلامو في الوثائق الأشورية، بدءا من عصر الدولة الوسطى، وتحديدا من عهد الملك أددنيراري الأول (١٣٠٧ – ١٢٧٠ ق٠م) وذلك في سياقين، حيث يـذكر في الأول منهما أن والده أريك دين ايلو (١٣١٧ – ١٣٠٧ ق٠م) قد حارب (الأخلامو والسوتو على حدود الدولة الأشورية وردهم عنها) وأما السياق الثـاني فيـذكر فيـه حروبه هو ضد هذه القبائل، حيث يقول أنه (قضى علـى معـسكر الخيـام التـابع للأخلامو والسوتيين وغيرهما من القبائل التي كانت تعيش في المنطقة مع كل بلادهم والذين كانوا في حلف مع بلاد كاتموخ [١١].

ويمكن الاستنتاج من هذا النص بأن الأخلامو كانوا يضعون قوتهم تحت تصرف مـن يطلبها من الدول المجاورة لمناطق انتشارهم، وهذه المناطق كانت، وكمـا نلاحـظ، واسعة جدا تمتد من جنوبي بلاد الرافدين إلى أقصى شمالها٠

إن الهزيمة التي تعرض لها الأخلامو مع حلفائهم من السوتو والكاتموخيين على يد أدد نيراري الأول، لم تنل من عزيمتهم. إذ سرعان ما نجدهم يتحالفون مـع عـدو آخـر للآشوريين ألا وهم الحثيون، ففي كتابة تعود إلى عهد الملك الأشوري شلمناصر الأول (١٢٧٤ – ١٢٤٣ ق٠م) يذكر أنه انتصر على الملك الحوري الميتاني شاتاوازا (أنـا شققت طريقي بالقوة على الطرق الصعبة والممرات الضيقة شاتاوازا ملك خانيغالبات، جيش الحثيين والأخلامو معه حاصروني "هو"٠٠٠ قطع كـل الممـرات والطـرق المؤدية إلى أماكن الماء ٠جيشي، الذي عانى من العطش والإرهاق، تقـدم بـشكل شجاع إلى حشودهم٠٠٠، أنا اشتبكت معهم وألحقت بهم الهزيمة وقتلـت أعـدادا لا حصر لها منهم،٠٠٠، جيش الحثيين والأخلامو، حلفاؤه أنا قتلـت كالأغنـام٠٠٠)[١٢]

وهنا نستذكر ما ذكرناه آنفا من سخرية الملك الحثي خاتوشيلي الثالث من الملك الكاشي الذي امتنع عن إرسال رسله إلى خاتوشا بسبب الأخلامو، فخلفاء الملك الحثي الآن يتحالفون مع هؤلاء الأخلامو في مواجهة الآشوريين.

ويتجدد ذكر الأخلامو في عهد الملك توكولتي نينورتا الأول (١٢٤٣ – ١٢٠٧ ق.م) ولكن في سياق مختلف يشير إلى تسمية جغرافية (أراضي ماري، خانا، رابيقو وجبال الأخلامو،...، أنا أخضعت...)[١٣] ولكن يبقى تحديد هذه الجبال أمراً غير واضح، وإن كان يعتقد أنها جبال بشري في منطقة البادية السورية، وذلك بالاستناد لسياق المناطق التي يرد ذكرها في هذا النص. إن تسمية هذه الجبال، بجبال الأخلامو يشير إلى استيطان مكثف وقديم لهذه القبائل في تلك المنطقة، حتى أنها صارت تدعى باسمها.وينقطع ذكر الأخلامو بعد ذلك من النصوص الآشورية حتى عهد الملك آشور ريش ايشي (١١٣٠ – ١١١٥ ق.م) ، ومن المعلوم أن الدولة الأشورية الوسطى مرت بمرحلة من الضعف بعد وفاة الملك توكولتي نينورتا الأول، وتوقفت عن القيام بحملات عسكرية خارج حدودها ولم تعاود القيام بمثل هذه الحملات إلا في عهد الملك آشور ريش ايشي، وهنا نجد أيضا أن الأخلامو كانوا من القوى المعادية للدولة الآشورية والتي اضطر هذا الملك لمواجهتها، حيث نراه يذكر في إحدى كتاباته (الذي أباد حشود الأخلامو الكبيرة، الذي حطم قواهم " فرقهم العسكرية ") [١٤].

الأخلامو في عهد الملك تيجلات بلاصر الأول (١١١٥–١٠٧٥ ق.م):

من المعلوم أن الملك الأشوري تيجلات بلاصر الأول، يعد آخر الملوك الكبار المحاربين في الدولة الأشورية الوسطى. فالحروب التي خاضها غطت تقريبا منطقة الشرق القديم كلها، ففي الجنوب حارب ضد البابليين، وضم الجنوب البابلي إلى الشمال الآشوري، وفي الأناضول سادت حالة من عدم الاستقرار نتجت عن انهيار الإمبراطورية الحثية نتيجة هجوم شعوب البحر على أراضيها، وقيام مجموعة من

الدويلات الصغيرة على أنقاضها، إن هذا الحال كان يشكل خطرا على الحدود الشمالية للدولة الأشورية، لذلك نرى تيجلات بلاصر الأول يسارع إلى توجيه جيوشه إلى هناك، ويحقق حسب كتاباته انتصارات كبيرة، كان أهمها الانتصار الذي حققه على القبائل الكاسكية. أما سورية، فكان لها اهتمام خاص بها من قبل تيجلات بلاصر الأول، الأمر الذي تشهد عليه كثرة النصوص التي تتحدث عن حروبه في المنطقة السورية، والمنجزات التي حققها فيها. وكما يظهر من نصوص هذا الملك، أن العدو الرئيسي للأشوريين في المنطقة السورية كانت قبائل (الأخلامو – الآراميين).وربما يكون الدليل على ذلك أن هذه القبائل توصف للمرة الأولى في النصوص الأشورية بأنها " أعداء الإله آشور"(٥)، وبالتالي كأعداء لكل الآشوريين. وسنعرض فيما يلي لبعض النصوص الآشورية العائدة لهذا الملك والتي يرد فيها ذكر للأخلامو.

ففي الكتابة المعروفة باسم " النقش على الموشور "يرد ما يلي: "...، بمساعدة الإله آشور سيدي، أخذت جنودي والعربات. (إلى) الصحراء أنا وصلت. إلى (قلب) مركز الأخلامو الآراميين، أعداء الإله آشور سيدي، أنا توجهت. (البلاد) من سوحي حتى مدينة كركميش في بلاد خاتي، في يوم واحد دمرت. جنودهم أنا قتلت، غنائمهم وثرواتهم وممتلكاتهم بكميات كبيرة أن نقلت ، ومتتبعا بقايا الجيش (الجنود) الذين من الخوف من أسلحة الإله آشور (سيدي)، هربوا واجتازوا نهر الفرات. أنا خلفهم بمراكب من الجلد عبرت نهر الفرات. ستة من مدنهم التي عند سفوح جبل بشري أنا استوليت عليها، أحرقتها بالنار، حولتها إلى رماد، ونقلت ثرواتهم إلى مدينتي آشور"(٦). وفي كتابة أخرى تعود لنفس الملك، وقد دونت على جدران القصر الملكي في مدينة آشور، نقرأ ما يلي: "٢٨ مرة، نهر الفرات، باتجاه بلاد الحثيين، خلف الأخلامو الآراميين، مرتين في كل عام، أنا عبرت. من سفوح (جبال) لبنان، تدمر في أمورو، عناة في سوحي، حتى رابيقو في كاردونياش، أنا أنجزت القضاء عليهم.

غنائمهم وثرواتهم أنا نقلت إلى مدينتي آشور" (١٧). وفي موضع آخر يقول "أخضعت الأخلامو الآراميين على طول نهر الفرات، وتطلب ذلك ما لا يقل عن ثمانية وعشرين عبورا لذلك النهر"(١٨). وهناك نصوص أخرى عديدة تعود لعهد هذا الملك، وكلها تدور في نفس الإطار، أي أنه هزم الأخلامو الآراميين بعد أن عبر نهر الفرات على إثرهم ثمان وعشرين مرة، مرتين في كل عام ولذلك فلا داعي لتكرارها هنا (١٩).

إن النصوص العائدة لهذا الملك تسمح لنا بالقول إن الأخلامو في عهده كانوا يسيطرون على أجزاء واسعة من وسط وشمالي سورية الطبيعية، بالإضافة لسيطرتهم على ضفتي نهر الفرات

ثالثاً: الأخلامو في الوثائق الآشورية بعد تيجلات بلاصر الأول:

من المعلوم أن الدولة الآشورية مرت بمرحلة من الضعف الشديد بعد وفاة الملك تيجلات بلاصر الأول، حيث تعاقب على عرشها عدد من الملوك الضعاف الذين لم يتوقفوا عن القيام بحملات عسكرية إلى الجهات التي اعتاد الملوك الآشوريون السابقون بتوجيه قواتهم ضدها فحسب، وإنما عجزوا عن الدفاع عن حدود بلادهم الأمر الذي استغلته القبائل الآرامية أفضل استغلال، فوسعت من مناطق انتشارها وانتقلت من مرحلة البداوة إلى مرحلة الاستقرار وتأسيس كيانات سياسية مستقلة خاصة بها، وحصرت الآشوريين في حدودهم الأصلية التاريخية في شمالي بلاد الرافدين، وأصبحوا وكأنهم جزيرة آشورية وسط بحر آرامي (٢٠).

ولكن حالة الضعف هذه لم تستمر طويلاً، إذ سرعان ما بدأ الآشوريون يستعيدون قوتهم وحيويتهم السابقة، وسيروا جيوشهم مجددا نحو جبهاتها التقليدية، والتي كانت المنطقة السورية واحدة منها، وهنا عاد اسم الأخلامو ليتردد مجددا في الكتابات الأشورية، وإن كان بأقل من السابق من حيث العدد ومن حيث المضمون.

إن أول ذكر للأخلامو بعد فترة الانقطاع، يأتينا مع الملك حدد نيراري الثاني (٩١١ – ٨٩١ ق٠م)، والذي يعتبر مؤسساً للدولة الآشورية الحديثة٠ فهذا الملك خاض حروبا كثيرة وعلى جبهات مختلفة وحقق، حسب ادعاءاته، انتصارات عظيمة، كان من بينها الانتصار الذي حققه على قبائل الأخلامو الآراميين٠ فبعد حرب خاضها على ما يبدو في بلاد نايري (أورارتو، مناطق أرمينيا الحالية وجوارها) توجه نحو منطقة الفرات الأوسط "هزيمة أناس الصحراء، الأخلامو الآراميين أنا أنجزت، الجزية من (بلاد) سوحي استلمت" [٢١].

ويذكر الأخلامو مجددا في كتابات تعود للملك آشورناصربال الثاني (٨٨–٥٩ ق٠م)، وذلك أثناء حديثه عن إخماده للتمرد الذي نشب في بيت زماني (منطقة ديار بكر الحالية)٠

بداية النص تتحدث عن قيام الأشراف بالثورة على عمي بعلي حاكم بيت زماني وقتله، ثم يتحدث آشور ناصربال الثاني عن توجهه الى بيت زماني للثأر للحاكم المقتول، وفي نفس النص يتحدث عن حرب خاضها ضد بلاد نايري، ثم يعود ليذكر أسره لأعداد من الأخلامو الآراميين ونقلهم الى آشور (أشراف عمي بعلي، رجل بيت زماني، ثاروا عليه وقتلوه٠ أنا سرت للثأر لعمي بعلي٠٠٠٠، ١٥٠٠ من جنود الأخلامو الآراميين التابعين لعمي بعلي، أنا أسرت ونقلت الى آشور٠ محاصيل بلاد نايري جمعت وخزنت في مدن توشخا ودامدامون وسينابو وتيدو) [٢٢].

إذا فقد كان السبب وراء هذه الحرب هو التمرد على الحاكم المحلي الذي كان مواليا للأشوريين، وتعيين حاكم آخر مكانه اسمه بورامانو، مما استدعى تدخلاً سريعاً من الملك الأشوري لإعادة الأمور إلى نصابها في الإمارة الآرامية المتمردة٠ ونحن لا نعرف سبب تواجد الأخلامو في هذه الإمارة: هل كانوا من السكان المحليين، أم أنهم كانوا من الجنود المرتزقة الذين استعان بهم المتمردون على عمي بعلي، وأعتقد أنه

إذا توضحت العلاقة بين الآراميين والأخلامو فإن سبب تواجد الأخلامو هنا سيكون واضحاً، ويبدو أن الملك الآشوري استغل وجوده في منطقة قريبة من الحدود الأورارتية ليغير على حدودها وينهب كميات من المحاصيل خزنها في مدنه الحدودية.

ينقطع بعد ذلك ذكر الأخلامو في النصوص الأشورية حتى عهد الملك تيغلات بلاصر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق.م)، الذي يذكرهم بعد حرب خاضها في مناطق الزاب الأسفل . فسياق النص يشير إلى حدوث تمرد كبير على الحكم الآشوري في هذه المناطق، مما استدعى تدخل الملك الآشوري بنفسه، وبعد أن أخمد التمرد توجه لملاقاة تجمعات الأخلامو المعادية، فأوقع بها الهزيمة أيضاً. ومما يشير إلى هذا التتابع في الأحداث، إخباره أن الحرب ضد القبائل المتمردة في مناطق الزاب قد جرت " قبل إخضاع الأخلامو " [٢٣].

أما آخر ذكر للأخلامو في النصوص الأشورية فهو الذي في كتابات الملك الآشوري سنحاريب (٧٠٥ – ٦٨١ ق.م). ففي أحداث العام السادس من حكمه جرت صدامات عنيفة بين قواته والأخلامو والسوتو، وقد أدت هذه الصدامات حسب إدعائه إلى "إبادة جميع الأخلامو والسوتو" [٢٤]، ولكن يبقى من غير المعروف بالنسبة لنا المكان الذي جرت فيه عملية الإبادة هذه، إلا إذا أخذنا بعين الإعتبار الهدف الثاني الذي توجه إليه سنحاريب وأيضاً وجه إليه ضربة قوية ألا وهو مدينة حيريمي، هذه المدينة التي لا نعرف موقعها بالضبط إلى الآن، سوى أنها في بلاد بابل، وبالتالي تكون عملية إبادة الأخلامو والسوتو التي يتحدث عنها النص قد جرت في منطقة ما من هذه البلاد.

واللافت للانتباه في كتابات هذا الملك، أنه وللمرة الأولى يذكر في النصوص مدينة أو دولة اسمها " بيت أخلامو"[٢٥]. إن أسلوب التسمية هذا كان متعارفا عليه لدى الآراميين. فهؤلاء الآراميون اعتادوا على إطلاق اسم زعيمهم على الدولة التي قاموا

بتأسيسها، فلدينا مثلا بيت أجوشي وبيت عديني وبيت أموكاني...الخ. وانطلاقاً من ذلك يمكننا القول إن "أخلامو" هذا هو زعيم القبيلة التي أسست الدولة، والتي نسبت إليه فيما بعد، وهذه القبيلة قد تكون قبيلة آرامية، أو قبيلة أخلامية.

رابعاً: العلاقة بين الأخلامو والآراميين:

لقد استقطب تبيان العلاقة بين الأخلامو والآراميين اهتمام عدد كبير من الباحثين في تاريخ الشرق القديم، وكان الدافع وراء ذلك، هو ورود هذين الاسمين مترافقين في كتابات الملوك الآشوريين، كما رأينا، بدءاً من عهد الملك تيجلات بلاصر الأول.

وبسبب عدم الوضوح في النصوص الموجودة بين أيدينا، فإن هؤلاء الباحثين ذهبوا مذاهب مختلفة في تفسيرهم لهذه الظاهرة، ومما زاد الأمر تعقيدا هو، أن بعض النصوص تضيف إلى اسم الأخلامو والآراميين، اسم السوتو أيضاً والسؤال المطروح هو هل هاتين التسميتين تعبران عن مجموعتين عرقيتين مختلفتين، أم هما مجرد مجموعتين قبليتين تواجدتا في نفس المنطقة في فترة زمنية معينة، أم أنهما مجموعة واحدة، وإذا كانا مجموعة واحدة فأيهما الأصل وأيهما الفرع ، هل الأخلامو الأصل والآراميين فرع منهم، أم أن العكس هو الصحيح ؟.

فمثلاً فورير (forrer) يقول إن هذه التسمية المزدوجة تعني أن الأخلامو هم من الآراميين، لأن الأخلامو أضيفوا إلى الآراميين (الأخلامو الآراميين)، وبالتالي يمكن القول أنه في الحالات التي يذكر فيها الأخلامو منفردين، كما في النصوص السابقة لعهد تيجلات بلاصر الأول، فهؤلاء لا يمكن اعتبارهم من الآراميين الأصليين[٢٦]. وقد طرح أونغر (unger) فرضية مفادها أن تسمية الأخلامو Ahlami أطلقت على الآراميين الرحل الذين كانوا يقطنون في شمالي بلاد الرافدين، ولا يشك أبدا في أنهم كانوا يشكلون جزءاً من القبائل الآرامية [٢٧]. وأما كالاغان (CALLAGHAN) في

كتابه (ARAM NAHARAIM) فيقول أن هذه التسمية لا يمكن النظر إليها إلا كاسم عام لمجموعة من القبائل البدوية في الفترة الممتدة من تاريخ أول ظهور لهذه التسمية في الكتابات المسمارية، أي من القرن الرابع عشر (حسب قوله) وحتى عهد الملك تيجلات بلاصر الثالث (٧٤٥ -- ٧٢٧ ق٠م)، ولكنه وبالمقابل فإنه يعتبرهم السلف المباشر للآراميين[٢٨]٠ ودوبون سومير (A. DUPONT- SOMMER) يلخص موقفه من هذه المسألة قائلاً: "إننا نلاحظ أنه منذ القرن الثاني عشر ق٠م يقرن اسم أحلامو بالآراميين، وقد تغلبت في النهاية التسمية الأخيرة على الأولى٠ يمكننا القول أن الآراميين كانوا من صلب البطون الأحلامية ثم أخذوا يتفوقون على بقية العناصر في القبيلة عينها إلى أن فرضوا اسمهم على العنصر الأحلامي كله٠ فاندثر الاسم الأول ليفسح المجال للاسم الثاني (الآرامي)[٢٩]٠ وأما كوبر (KUPPER) الذي عالج مسألة البداوة في المنطقة السورية الرافدية فيقول أنه على الرغم من أن الكثير من المؤلفات التي تعرضت لهذه المسألة تعمم الأمر فتجعل الآراميين والأحلامو شيئاً واحداً، إلا أن الأمر ليس بهذه البساطة، لأنه يمكن الافتراض أنه ليس كل الأحلامو من الآراميين، وأن اعتبار الأحلامو هم من الآراميين ليس إلا من باب التعميم٠ ومن خلال تفحص المصادر التي تذكر الأخلامو والآراميين يتبين لنا أن الأخلامو كانوا من أقوى القبائل البدوية التي كانت تتنقل في البادية الشامية. ومن ثم ظهرت القبائل الآرامية في نفس المنطقة واختلطت بالأخلامو ومن ثم تغلبوا عليهم، إلى أن أصبح من الصعب التمييز بين المجموعتين، وفي الفترة التي تلت عهد تيجلات بلاصر الأول، أصبح الآراميون أصحاب السيادة في منطقة البادية السورية وتراجعت مكانة الأخلامو وفقد اسمهم أي مدلول محدد ولم يعد يذكر إلا في النصوص الدينية والأسطورية[٣٠]٠ ويرى موسكاتي (S. MOSCAI) أن كلمة الأخلامو باعتبارها تعني "المتحالفين" فلا بد أن التسمية المزدوجة التي نقرؤها من عهد تيجلات بلاصر الأول، تدل على تجمع فيه عدد من القبائل المتحالفة مع بعضها من ضمنها الآراميين[٣١]، ولكنه يعود ليؤكد في

بحث آخر أن تسمية أخلامو تشير إلى قبيلة بعينها وليس إلى مجرد تحالف قبلي[٣٢]. ويرى علي أبو عساف أن "كلمة الأحلامو قد قصد بها الإشارة إلى طلائع الآراميين الذين اصطدم بهم الآشوريون، ولم يقصد بها قبيلة [٣٣]. أي أن للكلمتين مدلول واحد ألا وهو الآراميون. وقريب من ذلك رأي فاروق اسماعيل الذي يرى في الأخلامو "القسم الأكبر والأقوى بين القبائل الآرامية في مناطق الفرات الأوسط الممتدة من بلاد سوخي (مناطق عانا) حتى كركميش (جرابلس) بدءاً من القرن السابع عشر ق.م [٣٤]. ونشير أخيراً إلى رأي ليبينسكي الذي يرجح اشتقاق اسم الأخلامو من الجذر غ ل م، ويعتبره من الكلمات الدارجة في السامية الغربية كالأوغاريتية والعبرية والعربية وأيضا في لهجات جنوب الجزيرة العربية والذي يعني برأيه "فتى أو صبي" ولكن بصيغة الجمع أي أغلام، وهو هنا يشابه مصطلح أخلامو، بمصطلح "أنصار" أي الأنصار الذين استقبلوا الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بعد هجرته إليها من مكة المكرمة. وبرأيه فإن الكلمة يجب أن تدل بالأصل على (مجموعة الفتيان)، أي مجموعات من الأفراد الذين كانوا يجوبون مناطق البادية السورية الرافدية، ويغيرون على المراكز الحضرية الواقعة في أطراف هذه البوادي. وبقول آخر فإن هذه الكلمة لا تدل على مجموعة عرقية أو لغوية، ولكنها تعبير بدوي عن القوى التي كانت تقوم بالغزو من أجل أسر الأشخاص ونهب الطعام، والآراميون كانوا جزءاً من هذه المجموعات التي تقوم بأعمال السلب والنهب [٣٥].

ونحن نرى أن لتسمية الأخلامو دلالة قبلية، فهذا الاسم وكما مر معنا آنفا يشير في بعض الأحيان إلى أشخاص، أي يستخدم كاسم علم، وفي أحيان أخرى يشير إلى جماعات، فلو كان هذا الاسم مجرد اسم عام لما استخدم تارة كاسم علم وتارة أخرى للدلالة على جماعات، ونحن نعرف من خلال المجتمعات البدوية العربية أنه من الدارج استخدام اسم بعض القبائل كاسم علم للأفراد، فهناك من يسمّون باسم تميم

وأوس وقيس وغيرها كثير، وهي كلها أسماء لقبائل معروفة. إذاً تسمية الأخلامو حسب رأينا هي تسمية لجماعة قبلية محددة، وهذه الجماعة القبلية كانت تشكل جزءاً من مجموعة أكبر وهي المجموعة الآرامية. فنحن إذا ما دققنا النظر في الأماكن التي انتشر فيها الأخلامو (منطقة البادية السورية ومن ثم الجزيرة السورية وأعالي دجلة والفرات، والجنوب الرافدي) لوجدنا أنها نفس الأماكن التي يرد فيها أول ذكر للآراميين، فكما أن منطقة جبل بشري في قلب البادية السورية كانت منطلق قبائل الأخلامو، فإن هذه المنطقة أيضا كانت منطلق القبائل الآرامية، وفي الجزيرة السورية أسس الآرميون دويلاتهم من مثل بيت بخياني وبيت زماني ونصيبين وغيرها وفي جنوبي بلاد الرافدين أسسوا بيت أموكاني وبيت يقيني وبيت دكوري وغيرها.

إن ماذكرناه سابقا يدفعنا للاعتقاد بأن الأخلامو كانوا جزءاً من مجموع القبائل الآرامية، ولكن المصادر الكتابية ذكرت الأخلامو أولاً، وبشكل أكثر من اسم الآراميين، ربما لأن الدول القائمة في المنطقة احتكت أو اصطدمت أولا بهذا الجزء من القبائل الآرامية فظهرت أولاً في هذه المصادر، ولكن ومع تقدم الزمن وتطور المواجهة، فإن الصدام وقع مع الكتلة الأساسية من هذه القبائل، فبدأ اسم الآراميين يطغى في المصادر على اسم الأخلامو الذي تضاءلت أهميته في الألف الأول ق.م، إلى أن اختفى من النصوص التاريخية، ليبقى متداولاً في بعض النصوص الدينية والسحرية العائدة لكل من أسرحدون وأشوربانيبال (٦٨١ - ٦٢٤ ق م).

الهوامش والمراجع

(١) O.CALLAGHAN , R. T : ARAM NAHARIN , ROM , 1948 , P 95.

(٢) انظر مادة خ ل م في **لسان العرب** لابن منظور٠

(٣) فرزات، محمد حرب : **عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الآرامي القديم**، حتى أواخر القرن الثامن ق٠ م٠ مجلة دراسات تاريخية، العددان ١٩ – ٢٠، ١٩٨٥، ص ١٧٧٠

(٤) أبو عساف، علي : **الآراميون تاريخاً ولغة وفناً**، دار أماني، طرطوس ط١، ١٩٨٨، ص ١٦٠

(٥) ARM , XX111.1 1983

(٦) ARM , XX11/ 11 1983

(٧) سعيد الأحمد، سامي: **تاريخ الخليج العربي من أقدم الأزمنة حتى التحرير العربي**٠ منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، ١٩٨٥، ص ٢٦٤٠

(٨) المرجع السابق ص ٢٦٥٠

(٩) بوتس، دانيال٠ ب : **الخليج العربي في العصور القديمة**، الجزء الأول، من عصور ما قبل التاريخ إلى سقوط الإمبراطورية الأخمينية ؛ ترجمة ابراهيم خوري، مراجعة وتعليق د٠ أحمد عبد الرحمن السقاف، إصدار المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٣ م ص ٤٧١ – ٤٧٨٠

(١٠) ARNAUD , DANIEL : RECHERCHES AU PAY D ASTATA , E M R V1 , TOM 3 , PARIS 1986 , الرسالة ٢٦٣٠

(١١) THE AMARNE LETTERS : EDITED AND TRANSLATED BY WILLIAM MORAN , 1982 , EA , 200 : 8 – 10

(١٢) LUCKENBILL D.D : ANCIENT RECORDS OF ASSYRIA AND BABYLONIA، CHICAGO 1926 – 1927 V0 1 , 73

والمعروف اختصارا باسم ARAB • وأما بلاد كاتموخ أو كوتموخ الواردة في النص، فهي المنطقة الواقعة على المجرى الأعلى لنهر دجلة وعلى ضفته اليسرى

(١٣) ARAB , 1 , 116

(١٤) ARAB , 1 , 209

(١٥) GRAYSON , KIRK : ASSYRAN RULERS OF THE ERLLY FIRST MILLENIUM BC , 1 (1114 – 859) , university of Toronto press. p 23 (44 – 63).

(١٦) op. cit , p 23

(١٧) op. cit , p 43 (34 – 36)

(١٨) ARAB , 1 , 268.

(١٩) ARAB , 1 , 287 , 308

(٢٠) SADER , H : LES ETATS ARAMEENS DE SYRIE DEPUISTEUR FONDATION JUSQU A LEUR TRANSFORMATION EN PROVINEES ASSYRIENNES , BEIRUT 1984 , P20

(٢١) ARAB , 1 , 362.

(٢٢) GRAYSON : OP.CIT P 261 (85 – 96).

(٢٣) ARAB , 1 , 771.

(٢٤) ARAB , 2 , 325.

(٢٥) KUPPER , J. R : LES NOMADES EN MESOPOTAMIE AU TEMPS DES ROIS DE MARI. PARIS 1957 , P , 111

(٢٦) FORRER , E : ARAMU , RLA , 1 (1932) P 130.

(٢٧) UNGER , E : AHLAMI , RLA 1 (1932) P 57.

(٢٨) O. CALLAGHAN : OP.CIT , P 93

(١٦) دوبون – سومير : **الآراميون** : ترجمة ألبير أبونا ، مجلة سومر، المجلد ١٩ ص ١٥ – ١٧.

(٣٠) KUPPER : OP. CIT ، PP 132 – 136

(٣١) موسكاتي ، ساباتينو : **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة السيد يعقوب بكر، دار الراقي، بيروت ١٩٨٦، ص ١٧٧.

(٣٢) MOSCATI , S : THE ARAMAEAN AHLAMU , IN JOURNAL OF SEMITIC STUDIES. V 4. N 4. OCTOBER 1957 , P 303.

(٣٣) أبو عساف: المرجع السابق. ص ١٦.

(٣٤) اسماعيل، فاروق: **اللغة الآرامية القديمة**، منشورات جامعة حلب١٩٩٧ ص٧٠

(٣٥) LIPINSKI , E : THE ARAMAEANS THEIR ANCIENT HISTORY , CULTURE , RELIGION , 2000, 1 , PP 37 _ 39.

نقود الإمبراطور فيليب العربي وعائلته في سوريّة

الدكتور خالد كيوان
قسم الآثار
كلّية الآداب
جامعة حلب

مخطط البحث

- مقدّمة
- فيليب العربيّ
- مصادر البحث
- نقود فيليب العربيّ في المدن السوريّة:
- أنطاكية (Antioche)
- نقود أنطاكية في الفترة الرومانيّة:
- النّقود البرونزيّة
- النّقود الفضيّة
- تيترادراخما فيليب العربي:
- فيليب قيصر (الابن)
- مارثيا أوتاكيلا سيفيرا
- الأنطونينياني
- مسكوكات اللاذقيـــة (Laodicea ad mare)

ــ مقدّمة:

شهد عهد الإمبراطور ماركوس يوليوس فيليبوس العربيّ وأسرته بين عامي ٢٤٤ ــ ٢٤٩م ازدهاراً متقدّماً على صعيد إصدار العملات الفضيّة والبرونزيّة في دار ضرب أنطاكية، والنّقود البرونزيّة في لاوديسيا (اللاذقية)، ودمشق، ونابلس (نيابوليس)، ومنبج (هيرابوليس)، وسيرهوس (النبي هوري)، وهليوبوليس (بعلبك)، وبوسترا (بصرى)، وتيروس (صور)، وكذلك على صعيد عمارة المدن التي أكّد عليها تأسيس مدينة شهبا على اسمه (فيليبوبوليس أي مدينة الإمبراطور فيليب)، وجعل منها داراً لسكِّ عملاته البرونزيّة.

ــ فيليب العربيّ:

ولد فيليب العربي في عام (٢٠٤) في شهبا وهي بلدة صغيرة تقع بالقرب من عدّة مدن هامّة كان لها دور في المنطقة خلال القرون الأولى الميلاديّة مثل: كاناثا (قنوات) وبوسترا (بصرى) وذلك ضمن ما عُرف فيما بعد باسم الولاية العربية (**Provincia Arabia**) لاسيّما في عهد الإمبراطور ترايانوس (٩٨-١١٧م)، وكان والده أحد شيوخ العرب ورئيساً لقبيلة كبيرة اتّسع نفوذها وازداد عدد أفرادها حتّى أصبحتْ قوّة لها دورها في دعم الإمبراطورية التي أصبح رعاياها على اختلاف انتماءاتهم مواطنين لهم جميع الحقوق، وهذا التحول كان قد أجراه (كركلا) الإمبراطور السوري الذي حكم روما بين عامي (٢١١-٢١٧م) حين أصدر المرسوم الذي يقضي بمنح حقوق المواطنة لجميع رعايا الإمبراطورية في الولايات التابعة لها. حمل والد فيليب اسم جوليوس مارينوس وحمل ابنه اسم ماركوس (مرقص) يوليوس فيليبوس الذي شبَّ في بيئة عربيّة صرفة، وعندما أصبح فيليب ضابطاً في الجّيش استطاع أنْ يثبت ذاته قائداً ناجحاً حتّى أصبح قائداً للحرس الإمبراطوري. وعندما تمرّد جنود جيش الشّرق على الإمبراطور جورديانوس الثالث (٢٣٨-٢٤٤م) واغتالوه على الحدود السورية ــ الساسانيّة أصبح فيليب إمبراطوراً بين عامي (٢٤٤-٢٤٩م) وباشر إنجازات مهمّة في

تحسين الجّيش لمتابعة قتال الفرس أو لعقد معاهدة صلح معهم وهذا ما حصل عندما لقّب بصانع السلام مع الفرس، وتعلّق بمبادئ الشّرعية فقوّى من سلطة مجلس الشيوخ وحاول أنْ يضع حدّاً لتدخل الجّيش في السّلطة والتّمرّد على الإمبراطور. وبهذا العمل جعل الطريق بين الجّيش (القوّة) ومجلس الشيوخ (القانون) طريقاً آمناً، كما أنّه جعل الطريق بين المسيحية والوثنية طريقاً آمناً، فقد ناصر الحرية الفردية، وعلى رغم أنّ الوثنيّة كانت هي عقيدة روما. إلا أنّ فيليب العربي كان تسامح مع معتنقي المسيحية بممارسة عقائدهم، وهذا ما شهدته أنطاكية حين زارها في عام ٢٤٧م وتسامح مع مسيحييها حين ذاك، وإثر فتن المتمرّدين قُتل فيليب العربي عام ٢٤٩م في معركة فيرونا بإيطالية بتآمر من صديقه تراجان دوقيوس[١]، لكنّ طريقه لم يقتل، فبقيتْ آثاره شاهداً حتّى اليوم على أنّ النّاس يمرّون والطريق باقٍ لمنْ سيمرّون بعدهم. أمّا بالنسبة لعائلته فتتألّف من زوجة نبيلة أصيلة تدعى مارثيا أوتاكيلا وولد وحيد هو فيليب الصغير الذي حظي بمشاركة والده الحكم عام (٢٤٧م) ونال لقب قيصر ثمّ أغسطس (معادلاً لقب إمبراطور)، وقد ظهرت صورة العائلة كاملةً على قطع نقديّة متكرّرة من إصدار أنطاكية ومدن سورية أخرى ممّا يؤكد على إشراك فيليب العربيّ لأسرته في الحكم، ويزوّدنا بمعلومات عن الألقاب التي حظوا بها كلقب (دومينوس نوستير "Dominus Noster" سيدنا). كما تؤكّد هذه المسكوكات على أهمّية الناحية الاجتماعية في استشفاف الترابط العائلي في أسرة فيليب العربي.

ـ مصادر البحث:

بدأتْ دراسة نقود المدن السوريّة بشكل عام خلال القرنين التاسع عشر والعشرين وذلك من قبل علماء النُميّات الأجانب، كالعالم: (**إرنست بابلون E. Babelon**، وتيودور ميونه **T. Mionnet**، **وف. دو سولسي F. De Saulcy**، **وأريك روث Warwick Wroth**، **وهيل Hill**، **وبيلينجر Bellinger**) الذين حصروا إنتاجها النّقدي خلال الفترة

الرّومانيّة وما قبلها. وتعتبر إنتاجاتهم العلميّة التّالية من أقدم وأهمّ ما كتب عن النّقـود السّوريّة الصادرة في الفترة الرّومانيّة بوحدتيها الفضّية والبرونزيّة وهي: .

Babelon, Ernest, 1890, Les rois de la Syrie, d'Arménie et de Commagène. Paris.

Μιοννετ, T– Εδμε, 1837, Δεσχριπτιον δεσ μεδαιλλεσ αντιθυεσ γρεχ θυεσ ετ ρομαινεσ, Τομε ς, Παρισ.

De Saulcy, F, 1874, Numismatique de la terre sainte, Paris.

Wroth, Warwick, 1899, Catalogue of the Greek Coins of Galatia, Cappadocia, and Syria, London.

Barclay, Head, 1911, Historia Numorum, Oxford.

BELLINGER. A, 1940, The Syrian Tetradrachms of Caracalla and Macrinus, ***The American Numismatic of Society.*** New York.

ومن الأبحاث الحديثة ما يلي:

PRIEUR. Michel. 2000, *A type corpus of the Syro - Phoenician Tétradrachmes and their fractions from 57 BC to 253 AD.* London.

AMANRY, Michel, 2002, La politique Monétaire des Flaviens en Syrie de 69 à 73 " ***les monnayages Syriens***" Actes de la table ronde de Damas, édit par Christian Augé, IFAPO Beyrouth.

ومن الأهمّية الإشارة إلى أهمّ مركزين عالميين لدراسة النّقود هما:

Χαβινετ δεσ Μεδαιλλεσ δε Παρισ

Βριτισῃ Μυσευμ

رغم وجود دراسات عديدة حول النّقـود الـسّورية فـي الفتـرة الرّومانيّـة إلا أنّها ما تزال حتّى يومنا تفتقر إلى الـشمولية، فالأبحـاث التـي تناولـت إصـدارات مدنٍ بحالها تبقى قليلة وغير كافية ممّا يدفعنا للبحـث دائمـاً نحـو اسـتكمال هـذه الدراسات، فنقود فيليب العربـي تكـاد جميعهـا تكـون مدروسـة، وجـلّ تركيـز الباحثين كان على إصدارات مدينـة أنطاكيـة دون غيرهـا مـن المـدن الـسورية

الأخرى ربّما لأنّها عاصمة سورية خلال الفترتين الهلنستية والرّومانية، ولأنّها تمتّعتْ بإصدار نقود فضّية إلا أنّ هذا لا يمنعنا من تناول إصدارات المدن الأخرى وجمعها كلّها وإظهار أهمّيتها على اختلاف جميع المستويّات لنبيّن مدى أهمّية علم المسكوكات ليس فقط خلال فترة طويلة أو قرنٍ من الزمن بل على مستوى إمبراطور وحيد دام حكمه حوالي ست سنوات. رغم أنّ فيليب العربي قدّم إنجازات كثيرة لولاية سورية إلا أنّ الكتب التي تناولت أعماله الفنّية تبقى محدودة وقليلة.

لقد تميّزت إصدارات فيليب العربيّ عامّةً بنقشها في مركز الظهر مشاهد متنوعة تشير إلى الترفيه عن الشعب بإقامة الألعاب الرياضيّة، كما في مدينة دمشق والتي رُمز لها بنقش جرّة تخرج من فتحتها العلوية سعفة نخيل تشير إلى الخلود والأبديّة. كذلك حملت مسكوكاته نقوشاً عسكريّة تشهد إلى مدى اهتمامه بتنظيم الجيش وتوزيع الفرق، وذلك حين نُقشت راية الفرقة السادسة فيراتا (**Sexta Ferrata**) على مسكوكة برونزيّة صادرة عن دار الضرب بدمشق أو تلك التي نُقشتْ على نقود هليوبوليس (بعلبك) كراية الفرقتين الثالثة والخامسة[٢]. كما تؤكّد دراسة مسكوكات الإمبراطور فيليب العربيّ على اهتمامه ببناء المعابد التي ارتفعت في كلّ مكان، وقد ترجم هذا الاهتمام بنقش واجهاتها على المسكوكات لاسيّما في دمشق وهليوبوليس وسيرهوس. كذلك ظهر اهتمام فيليب العربيّ بالزراعة أيضاً من خلال نقشه على المسكوكات رموزاً نباتيّة تشير إلى زراعة الكرمة والقمح، وإحياء الأساطير الإغريقيّة التي تشير إلى التربية أو العدالة.





فيليب العربي ومارثيا أوتاكيلا
وفيليب الابن

ـ نقود فيليبّ العربيّ في المدن السوريّة:

ـ أنطاكية (ANTIOXЄΩN)[٣]:

تعتبر أنطاكية من أعرق المدن السوريّة المؤسّسة من قبل سلوقوس نيكاتور لتكون عاصمةً للمملكة السلوقيّة في بداية القرن الثالث قبل الميلاد. أمّا عن تاريخها في الفترة الرومانيّة، فقد سمح بومبيوس لأنطاكية أنْ تحتفظ بامتيّاز الحكم الذاتيّ الذي حازته سابقاً من السلوقييّن. كما أنعم عليها يوليوس قيصر بعدّة منشآت من بينها المسرح والمدرّج، وساهم هيروديس في زمن أغسطس بإنشاء طريق ورواق ذي أعمدة، وأضاف إليها كاليغولا وترايانوس وهادريانوس عدداً من الحمامات، ورصف أنطونينوس بيوس طريقها الرئيسي بالغرانيت المجلوب من مصر، وأعاد كومودوس تنظيم ألعابها الأولمبيّة الدوريّة. جرّدها سبتيميوس سفيروس من رتبة الميتروبوليس (المدينة الأمّ)، وذلك بعد انتصاره في معركة إيسوس على بسينيوس نيجر عام (١٩٤م)، وجعلها قرية (كوميه **KOME**) تابعة للاذقيّة البحر، وفيما بعد صفح عنها خلال زيارته لها بين عامي (٢٠٢ ـ ٢٠٤م)، وأغدق عليها ابنه كركلا لقب

المستعمرة وأعاد اعتبارها من جديد، وأصدر بها تيترادراخمات فضيّة، وتعتبر ضاحيتها دفنة أجمل بقعة في عالم الشرق القديم. من مياهها العذبة شرب الإسكندر الكبير، وعلى أرضها أقيمتْ الأبنية الفخمة ومراكز التسليّة والحدائق المعروفة بحدائق دفنة، المكتسيّة بأشجار الغار التي أعطتْ اسمها للمدينة. كانت تُقام فيها الاحتفالات بالألعاب الأولمبيّة بالفترة السلوقيّة التي كانت تستمر ثلاثين يوماً، وتشمل السباق بالعربات، والمصارعة، والرّوايات التمثيليّة. بنى فيها هادريانوس مسرحاً وأصلح ووسّع شبكة الأقنية، وحضر لوسيوس فيروس صهر ماركوس أوريلوس الاحتفالات بمناسبة انتصاره على البارثيين، ونقل إلى روما فرق المغنين والراقصين، دمّرها الفرس الساسانيون بقيادة الملك شابور بين عامي (٢٥٣ ــ ٢٥٦م)، ثمّ عادتْ إلى الوجود من جديد حيث بنى ديوقليتيانوس فيها قصراً بين عامي (٢٨٤ ــ ٣٠٥م).

ــ نقود أنطاكية في الفترة الرومانيّة:

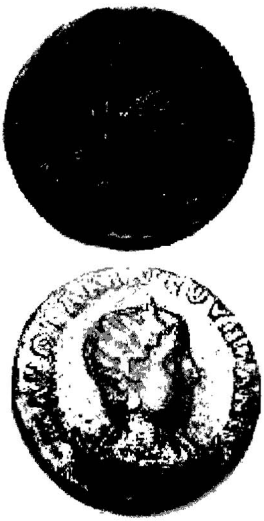
ــ النّقود البرونزيّة:

ضربتْ أنطاكية نقوداً برونزيّة وفضّية على شرف فيليب العربيّ وعائلته (زوجته مارثيا أوتاكيلا وابنه فيليب قيصر)، حيث حملت نقودها صورة رأس الإمبراطور فيليب العربيّ إلى جانب رأس ابنه وأُحيطا بعبارة تذكر اسميهما (ΑΥΤΟΚ.Κ.Μ.ΙΥΟΛ.ΦΙΛΙΠΠΟϹ.ϹЄΒ)، بمعنى (أوتوكراتور "إمبراطور" قيصر ماركوس يوليوس فيليبوس سيباستوس) بينما حمل مركز الظهر نقش واجهة معبد الإله جوبيتر وفي الأعلى كبش يعدو نحو اليمين ونُقش حول المشهد الرئيسي عبارة مستعمرة أنطاكية المدينة الأم(ΑΝΤΙΟΧЄΩΝ.ΜΗΤΡΟΚΟΛΟΝ)(الشكل ١). كما حملت نقود أخرى في مركز الوجه صورة فيليب الأب والابن، ونُقش في مركز الظهر رأس الرّبة تيكة تعلوه الأبراج وفوقه كبش يعدو باتجاه اليمين مع كتابة الحرفين (SC) و(ΔЄ) (الشكل ٢). وهناك نماذج أخرى حملت صورة فيليب العربيّ بزيّه العسكري ممسكاً التّرس ويكلل رأسه بورق الغار(الشكل ٣)، أمّا نقود ابنه وزوجته

تخرج عن الأسلوب المعهود لنقود فيليب العربيّ حيث حملت في مركز الظهر نقش رأس الرّبة تيكة تعلوه الأبراج وفوقه كبش يعدو باتجاه اليمين مع كتابة الحرفين (SC) و(ΔЄ) (الشكلان ٤-٥). كما ضربت أنطاكية نقوداً حملتْ في مركز الوجه رأس فيليب الأب والابن بشكل جانبي بينما حمل مركز الظهر رأس الرّبة تيكة تعلوه الأبراج وفوقه كبش يعدو باتجاه اليمين مع كتابة الحرفين (SC) و(ΔЄ) (الشكل ٦).



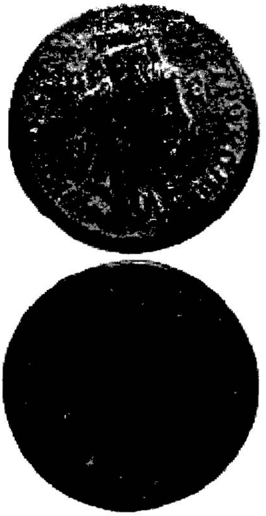
١ـ فيليب الأب والابن (واجهة معبد جوبيتر)   ٢ـ فيليب الأب والابن (رأس الرّبة تيكة)



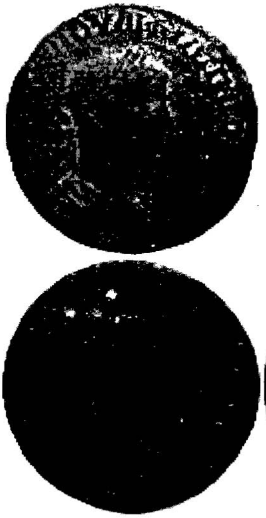
٣ ـ فيليب الأب



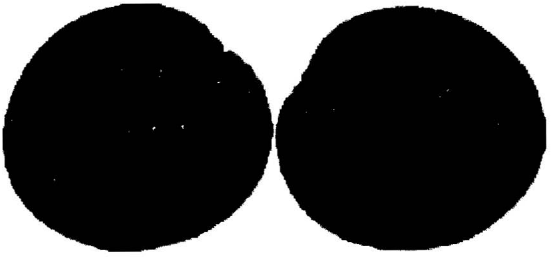
٤ ـ مارثيا أوتاكيلا



٥ ـ فيليب الابن



٦ ـ فيليب الأب والابن

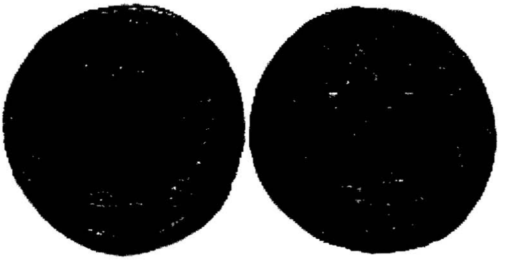


فيليب العربي ورأس زوجته مارثيا أوتاكيلا

ــ النّقود الفضيّة:

ــ تيترادراخما فيليب العربي:

تتميّز إصدارات فيليب العربي بأنّها سكّت في روما لصالح مدينة أنطاكية وأخرى سكّتْ في أنطاكية وهذا ليس بالأمر الجديد، فقد سكّت أنطاكية العديد من النّقود لصالح المدن السورية الأخرى في فترات مختلفة. نجد في نقوش تيترادراخمات فيليب العربيّ اختلافاً واضحاً في قالب السكّ، فالتّماثيل النّصفية كبيرة ومتنوعة مثّلته أحياناً بزيّه العسكري وأحياناً أخرى بزيّه الإمبراطوري، أمّا في مركز الظهر فنجد نسراً مواجهاً جناحاه نصف مفتوحين. كما نُقشتْ عبارة جديدة تحت براثن النسر هي: (**MON VRB**)، وهي اختصار لــ (**MONETA VRBIS**) أي نقود المدينة (الشكل ٧)[٤].



٧ ــ فيليب العربي

ويمكن تمييز عدّة إصدارات تعود لفيليب العربيّ وأسرته حسب الترتيب التالي:

ـ **النّموذج الأوّل:** حمل في مركز الوجه رأساً جانبيّاً لفيليب مكللاً بتاج من ورق الغار مع طوق من الكتابة اليونانية تذكر اسمه وألقابه (**AYTOK.KAI.IOYΛI.ΦIΛIΠΠOC.CЄB**)، أمّا مركز الظهر فحمل نسراً نصف مفتوح الجناحين نقش تحتهما الحرفان (**SC**) اللذان يشيران إلى (مجلس الشيوخ)، ويحمل بمنقاره باقةً من الأزهار وكتب تحت براثنه بأحرف لاتينية (**MONETA B**) ويشير الحرف (**B**) إلى السّنة الثانية من حكمه نحو العام (٢٤٥م) (الشكل ٨).



٨ ـ فيليب العربي

ـ **النّموذج الثاني:** يؤرّخ إلى السّنة الثانية من حكم فيليب كما يتّضح من قالب الظهر الذي حمل نسراً واقفاً على غصن نخيل نُقش في أسفله الحرفان (**SC**) مع كتابة التاريخ.

ـ **النّموذج الثالث:** يؤرّخ إلى السنة الرّابعة من حكم فيليب العربيّ إذ حمل في مركز الوجه تمثالاً نصفياً جانبيّاً يسارياً لفيليب يعلو رأسه تاج شعاعيٌّ ويرتدي الزّيّ العسكري، أمّا الظهر فيتميّز بكتابة كلمة أنطاكية بشكل واضح تحت براثن النّسر وبأحرف لاتينية (**ANTIOXIA**) ونُقش في أسفلها الحرفان (**SC**)، وحول المشهد المركزي عبارة تشير إلى الولاية أو السلطة التريبونية الشعبية (**ΔHAMAPXЄ OYCIACYΠATOΓ**). ويلاحظ في هذا النّموذج اختلاف في القالب من حيث نقش

النّسر الذي يبدي ملامح القوّة بشكل أكبر، فالصدر منتفخ والفخذان عريضان ممتلئـــان والمنقار مدبَّبٌ بشكل واضح (الشكل ٩).



٩ ـ فيليب العربي

ـ فيليب قيصر (الابن):

بدأتْ إصدارات فيليب الابن بشكل متقطّع دون الإشارة إلى ولاية والده، وحملـت إصداراته لقب قيصر وصورة رأسه الحاسر، بينما كانت نماذج الظهر المتمثّلة بـنقش (النسر) الذي ظهر نفسه على عملات والده، كالمثال التالي:

ـ الوجه: حمل رأساً جانبيّاً لفيليب الابن حيث يبدو شاباً فتيّاً حاسر الرأس يحـيط بـه كتابـة تـذكر اسـمه وألقابـه: (إمبراطـور يوليـوس فيليبـوس قيـصر .(IMP.IOYΛI.ΦIΛIΠΠOC.KЄCAP

ـ الظهر: نسر واقفٌ على غـصن نخيـل ونُقِـشَ أسـفلَ الغـصن الحرفـان(SC) (الشكل١٠).



١٠ ـ فيليب الابن

ثمّة نقد آخر حمل في مركز الوجه رأس فيليب الابن مكلّلاً بورق الغار وعبارة تحيط برأسه تذكر اسمه وألقابه نحو: (أوتوكراتور "إمبراطور" قيصر ماركوس يوليوس فيليبوس **AYTOK.K.M.IOYΛI.ΦΙΛΙΠΠΟC.CЄB**)، بينما حمل مركز الظهر نقش نسر كتب تحت براثنه كلمة أنطاكية بأحرف لاتينية (**ANTIOXIA**) ونقش في الأسفل الحرفان (**SC**) (الشكل ١١).



١١ ـ فيليب الابن

ـ مارثيا أوتاكيلا سيفيرا:

تتبع إصداراتْ أوتاكيلا النّماذج الخاصّة بزوجها وابنها ولكنّها توقّفتْ بعد السّنة الثالثة من حكم فيليب العربيّ رغم استمرار إصداراتها في روما حتّى العام ٢٤٩م،

والشيء المميّز في إصداراتها بأنّ تماثيلها النّصفية مرتكزة على هلال تقليداً لما أصدرته النساء السيفيريات الحمصيات: (جوليا دومنا، جوليا ميسا، جوليا ماميا، جوليا سوميا).

ـ الوجه: رأس جانبيّ يمينيّ للإمبراطورة محمول على هلال، يبدو شعرها مصفّفاً بخطوط عريضة تضع على رأسها تاجاً مقوّساً من الأمام مع كتابة اسمها وألقابها (**MAP.ΩTAKA.CЄYHPAN.CЄB**)، أمّا مركز الظهر فحمل نسراً مواجهاً نصف مفتوح الجناحين رأسه لليمين تارةً ولليسار تارة أخرى، يحمل بمنقاره باقة من الأزهار ويقف على غصن نخيل ونُقش أسفل الغصن اسم أنطاكية بأحرف لاتينية (**ANTIOXIA**) كما نقش أسفل الاسم الحرفان (**SC**) مع كتابة التاريخ أو الاكتفاء بنقش (**SC**) دون كتابة اسم أنطاكية (الشكلان ١٢و١٣).



١٢ ـ مارثيا أوتاكيلا **١٣ ـ مارثيا أوتاكيلا**

ـ الأنطونينياني:

قام كركلا بضرب النّقد الأنطونينياني الفضيّ المعدّل بين عامي ٢١٣ - ٢١٥م إثر إصلاحه النقديّ، وقد صدرتْ هذه المسكوكة من الأنطونينياني المعدّل أوّل مرّة في عهد كركلا، ثمّ عاد إلى الظهور بكثرة في منتصف القرن الثالث الميلاديّ، لكنّه كان بنماذج متعدّدة ومن معدن مؤلّف من فضّة ممزوجة بالنحاس، أو من النحاس الموشّى بالفضّة. حيث أصبح وزن الأنطونينياني (٤،٧٥غ)، وأصبح وزنه في عهد جورديانوس الثالث (٢٣٨ـ٢٤٤م) (٤،٨٦غ)، واستمرّ الانحطاط في عهد تراجان دوكيوس، فأصبح وزنه (٤غ). أصدرتْ أنطاكية أنطونينيّات في عهد فيليب العربي حملتْ في مركز الوجه رأسه مكلّلاً بتاج شعاعي وكتابة لاتينية تذكر اسمه (IMP IVLIV PHILIPPVS AVG)، بينما حمل مركز الظهر صورة واجهة معبد مؤلّف من ستّة أعمدة وجبهة مثلثة وحوله كتابة لاتينية (..SAECV..ANOV).



ـ مسكوكات اللاذقية (Laodicea ad mare):

تقع مدينة اللاذقية على الساحل السوري وقد شيِّدتْ على أنقاض مدينة فينيقيّة قديمة تدعى راميتا، ويُعلّل سبب اختيار موقعها من قبل الملك سلوقس نيكاتور في عام ٣٠٠ ق.م عن طريق طائر النسر رسول الإله زيوس الذي حمل فخذ حيوان قرباني (يعتقد أنّه خنزير) من قمّة جبل كاسيوس، وحطّ به في المكان الذي بُنيت فيه المدينة، والتي أُطلق عليها اسم لاوديسيا تكريماً لوالدة سلوقس. فقد شكّلت هذه المدينة إلى جانب شقيقاتها من المدن كأنطاكية، وسلوقية، وأباميا أهمّ المدن الرئيسيّة في شمال

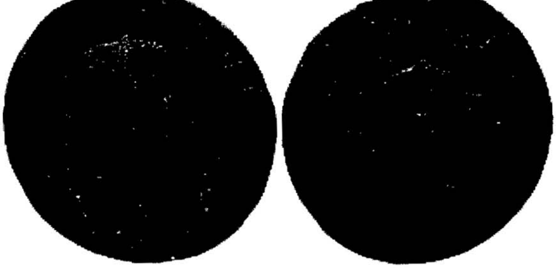
سوريّة، وامتلكت في عهد الملك أنطيوخوس الثالث الكبير نحو ٢٠٠ ق.م ميناءً هامّاً، وقامتْ دار ضربها في عهد الملك أنطيوخوس الرّابع أبيفانس (١٧٥-١٦٤ق.م) بإصدار نقودٍ برونزيةٍ بلديةٍ من النّوع الصّغير الذي علا رأسه تاجٌ شعاعيّ، كما حملت كتابة يونانيّة تذكر اسمها نحو: (ΛΑΟΔΙΚΕΩΝ ΠΡΟΣ (or ΤΩΝ ΠΡΟΣ) ΘΑΛΑΣΣΗΙ)[٥]. تابعتْ إصدارها النّقود في عهد ألكسندر بالاس (١٥٠-١٤٥ ق.م) فضلاً عن ذلك فإنّ كثيراً من نقودها البرونزيّة كانت متآكلة بسبب كثرة التداول والاستعمال أو مضروبة من معدن رديء أو خسيس.

ـ نقود اللاذقية في عهد فيليب العربيّ:

أصدر الإمبراطور فيليب العربيّ نقوداً حمل بعضها في مركز الظهر نقش رأس الربّة تيكة يعلوه تاج ذو أبراج تشبه سور المدينة ونقوداً أخرى مشابهة لها حملتْ نقش نسر ضمن واجهة معبد مبني فوق مصطبة، ويتقدّم الواجهة عمودان جانبيّان تعلوهما قبةٌ قليلة التحدّب، وأحيط المشهد بنقش لاتيني يذكر اسم دار الضرب: (COL. LAO. METRO.POL. **كولونيا لاوديسيا ميترو بول**). (الشكل ١٤). كما أصدرتْ اللاذقية باسم فيليب الابن نقداً برونزيّاً حمل في مركز الظهر صورة الربّة أرتميس[٦] إلهة الصيد والحسن والجمال وسيدة الغابات، وقد مُثِّلت بعتاد الصيد المؤلّف من قوس ونشاب، ونُقش عند قدميها مشهد غزالين وكتابة لاتينية تذكر دار الضرب وألقابها: (COL .LAOD.METRO.POL **كولونيا لاوديسيا ميترو بول**) (الشكل ١٥). ومن النّقود الهامّة في هذه الفترة نقدٌ حمل في مركز الظهر مشهد الربّة تيكة في الوسط تحيط بها من كلّ جانب صورة ربّتين حاميتين للمدينة تشيران إلى أنّهما من المدن الصغيرة التابعة للمدينة الكبيرة (اللاذقية) الممثّلة بالربّة الأم (تيكة) في الوسط (الشكل١٦).



١٦ ١٥ ١٤

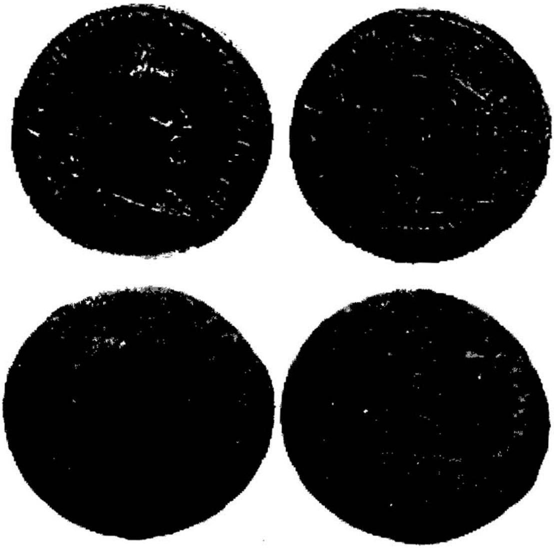


١٤

ـ مسكوكات سيرهوس البرونزية (النبي هوري Cyrrhus):

تقع سيرهوس[٧] شمال غرب مدينة حلب بحوالي ٦٩ ـ ٧٠ كم، وقد اشتهرتْ بعبادة الإله زيوس كاتايباتوس (الصاعقة) في الفترة السلوقيّة، ويُمثّل عادةً بهيئة طائر النّسر يقبض ببراثنه على صاعقة، وقد بُني له معبدٌ كبير فيها. وقد مثّل هذا المعبد على عدّة نقود قبل عهد فيليب وابنه واستمرّ في فترة حكمه وظهر بواجهة سداسية الأعمدة وجبهة مثلّثة، وفي وسط المعبد نرى تمثال الإله زيوس كاتيباتوس

جالساً يرافقه النّسر والرّمح وحول المشهد عبارة تذكر كيريستون زيوس كاتيبــاتوس (KYPPHCTWN ΔIO KATAIΠATOC) وفوق الجبهة المثلّثة كبش يعــدو نحــو اليمين (الشكل ١٧).



١٧- فيليب الابن ــ واجهة معبد زيوس كاتيباتوس



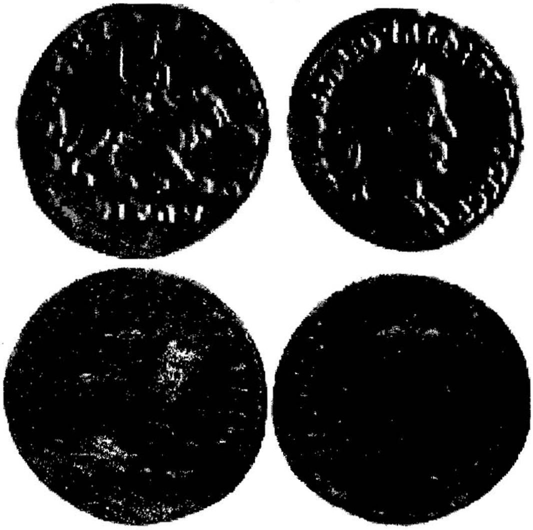
ـ مسكوكات هيرابوليس ـ منبج (Membij -Hieropolis):

تقع منبج شمال شرق مدينة حلب وعلى مسافة (٢٠كم) إلى الغرب من نهر الفرات، وقد ورد اسمها منذ القديم منبج (**Membij**) واستُبدل في عهد سلوقوس نيكاتور بهيرابوليس التي تعني المدينة المقدّسة، حيث بنى فيها معبداً لربّة المدينة الكبرى أتارجاتيس (عشتار)[٨]. وقد ظهرتْ الرّبة أتارجاتيس في منبج لاسيّما على نقود فيليب العربي ممتطيّةً ظهر سبع متجه نحو اليسار وهو من النّماذج المتكرّرة السابقة لعهد فيليب[٩]، والوصف التالي يبين مدى أهمّية هذه النّقود:

مركز الوجه ـ رأس جانبيّ يمينيّ ملتحٍ للإمبراطور فيليب العربيّ مكلّلٌ بتاج من ورق الغار تحيط به الكتابة اليونانيّة التالية: **AVTOK. KAI...ΦΙΛΙΠΠΟC.CЄB**

مركز الظهر ـ الربّة أتارجاتيس ممتطيّةً أسداً يمشي باتجاه اليمين، تمسك بيدها اليمنى رمحاً، وأحيط المشهد المركزي بعبارة إغريقيّة تذكر اسم هيرابوليس:

(**ΘЄAC YPIAC- ЄPOΠOΛITΩN**) (الشكل ١٨).

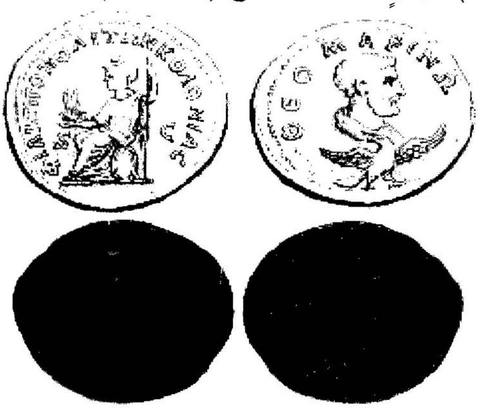


١٨ ـ فيليب العربي

ـ فيليبوبوليس (شهبا ΦΙΛΙΠΠΟΠΟΛΙΤΩΝ):

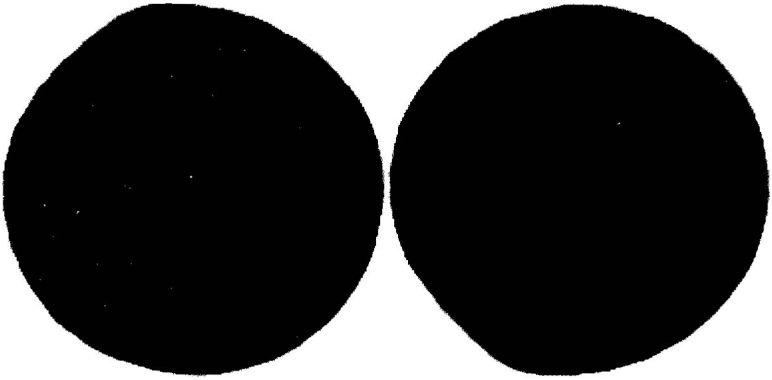
تقع فيليبوبوليس (شهبا) جنوب سورية، وتبعد عن مدينة دمــشق جنوبــاً حــوالي ٩٠كم، وقد ارتقتْ وبلغتْ هذه المدينة أوج ازدهارها في عهد ابنها البار الإمبراطــور فيليب العربيّ وزوجته مارثيا أوتاكيلا ٢٤٤ــ ٢٤٩م وابنهما فيليب قيصر.

تميّزتْ نقود فيليبوبوليس بحملها في مركز الوجه نقشاً جانبيّاً لرأس مارينوس والد الإمبراطور فيليــب العربــيّ، وقــد نُقــشت حولــه عبــارةٌ تــذكر اســمه كإلــه (ΘЄΟ ΜΑΡΙΝΩ)، ويؤكّد هذا النقش على تقديس الإمبراطور فيليب العربيّ لــروح والده بعد موته حين رفعه إلى مصاف الآلهة الرومانيّة (الشكل ١٩). بينما حمل مركز الظهر نقش الرّبة روما جالسةً، وقد بسطتْ يدها اليمنى إلى الأمام ليقف فوقهــا نــسر جاث، وقد حمل على ظهره تمثالين صغيرين يمثّلان الإمبراطور فيليــب الأب وابنــه فيليب قيصر وحول المشهد المركزي كتابة تذكر اسم مستعمرة فيليبوبوليس (كولونيا) (ΦΙΛΙΠΠΟΠΟΛΙΤΩΝ.ΚΟΛΟΝΙΑC) أو حملت نقش الرّبة روما واقفةً ترتــدي على رأسها الخوذة، ممسكةً بيدها اليسرى رمحاً وعند قدمها اليسرى التّــرس وعلــى جانبيها الحرفان (SC) كرمزٍ لمجلس الشيوخ (الشكل ٢٠).



١٩ – فيليب الأب ــ الربة روما (فيليبوبوليس) ٢٠ – فيليب الأب ــ الربة روما (فيليبوبوليس)

كما أصدرت فيليبوبوليس مسكوكات برونزية على حياة فيليب العربي حملتْ في مركز الوجه رأس الإمبراطور فيليب مكللاً بورق الغار وأُحيط بعبارة تذكر اسمه ولقبه (**AYTOK KAI IOΛ ΦIΛIΠΠOC CЄB**)، بينما حمل مركز الظهر نقش الربّة روما جالسةً، وقد بسطتْ يدها اليمنى إلى الأمام ليقف فوقها نسر جاث، وقد حمل على ظهره نقش تمثالين صغيرين يمثّلان الإمبراطور فيليب الأب وابنه فيليب قيصر وحول المشهد المركزي كتابة تذكر اسم فيليبوبوليس كمستعمرة (كولونيا) (**ΦIΛIΠΠOΠOΛITΩN.KOΛONIAC**) (الشكل ٢١).



٢١- فيليب الأب ــ الربة روما (فيليبوبوليس)

أصدرتْ دار الضرب فيليبوبوليس أيضاً مسكوكات برونزية نقيّة سُكّت على غرار إصدارات مدينة أنطاكيّة، حيث حملتْ نقش رأس الربّة روما بوضعيات مختلفة جالسةً أو واقفةً تعتمر خوذةً وتمسك رمحها (الأشكال ٢٢-٢٣-٢٤-٢٥)، مع وجود النّقش اليونانيّ الذي يذكر اسمها كمستعمرة (فيليبوبوليس **ΦIΛIΠΠOΠOΛITΩN** **KOΛONIAC**).



٢٢- فيليب الأب ـ الربة منيرفا

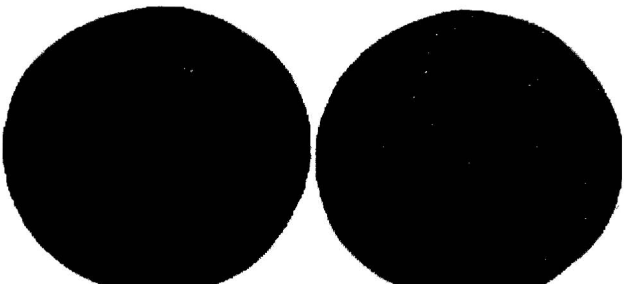






٢٣- مارثيا أوتاكيلا ـ الربة منيرفا

٢٤- فيليب الابن ـ الربة منيرفا (فيليبوبوليس)



٢٥- فيليب الابن ـ الربة منيرفا (فيليبوبوليس)

بالطبع توقّفتْ فيليبوبوليس عن إصدار النّقود فور موت فيليب العربي ولمْ تصدر من قبله أو من بعده نقوداً نهائياً.

ـ بعلبك (هليوبوليس *Héliopolis*):

تقع هليوبوليس في سهل البقاع بين جبال لبنان الشرقيّة والغربيّة، وتشكّل بذلك ملتقى العبادات الداخليّة والساحليّة، وقد أدّى تطوّر اللاهوت الشمسي الذي قاد الشّمس إلى الصّف الأوّل في مجمّع الآلهة إلى ميل الآلهة المحليّة إلى التوحّد معها. والشعارات المميّزة للإله الرئيس في بعلبك تبرز لنا هذا التوحّد بين حدد وجوبيتر المكتسب للصفات الشّمسية، فأصبح يُطلق على حدد اسم جوبيتر الهليوبوليتاني. بعد موت الإسكندر ضمّت هليوبوليس إلى المملكة البطلميّة، إلى أنْ تمكّن أنطيوخوس الثالث؟ من ضمّها إلى المملكة السلوقيّة بعد معركة (**Panion**) عام ١٩٨ ق.م، وأصبحتْ مستعمرة رومانيّة تحت حكم أوغسطس في عام ١٥ ق.م. وتفيدنا النّصوص أنّه كانت تعبد في بعلبك (كما في هيرابوليس) آلهة ثلاثة تمثّل ثالوثاً مؤلّفاً من جوبيتر (زيوس) وفينوس (أفروديت) وميركوري (هرمس)[١٠] ، ويوافق هذا الثالوث (حدد وأتارجاتيس وسيميوس "**SIMIOS**" "شمس"). وقد خُصّص له الهيكل الكبير في بعلبك، ويعدّ أحد أكبر المعابد القديمة إذ يعود بناؤه إلى الإمبراطور كلاوديوس وانتهى منه ودشّنه الإمبراطور أنطونينوس بيوس عام ١٦٥م. وقد تمتّعت هذه المدينة بمكانة رفيعة المستوى في عهد العائلة السيفيرية منذ بداية حكم الإمبراطور سبتيموس سيفروس، وكان يُنقش اسمها حتّى عهد الإمبراطور غاليانوس بالكتابة التالية:

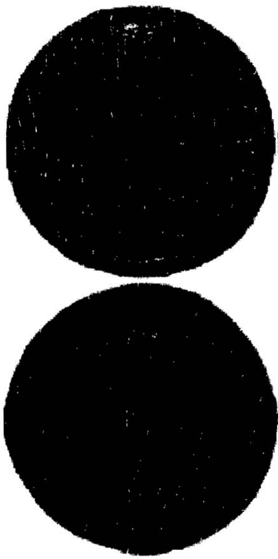
.COL. HEL. COLL. IVL. AVG. FEL. HEL

إنّ أهمَّ ما تميّزتْ به نقود هليوبوليس نقشها واجهات المعابد المُقامة على شرف جوبيتر وهرمس وتيكة (ربّة الحظ الحسن والمصير السيئ وحاميّة المدينة)[١١]. ومن بين هذه الواجهات ما نُقش على نقود فيليب العربي من حيث حملها واجهة معبد الإله هرمس أو تلك التي نُقشتْ على نقود مارثيا أوتاكيلا حيث جسّدتْ واجهة معبد للإله

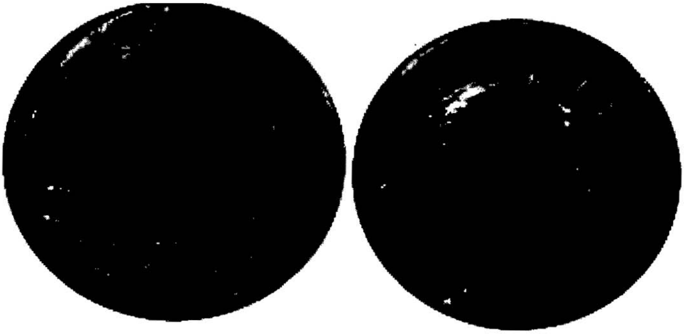
جوبيتر على قطعة برونزيّة مؤلّفة من ستة أعمدة من كل جانب، وأمام واجهة المعبد مذبحان وتحيط بالمشهد اسم هليوبوليس كمستعمرة رومانية (**COL. HEL. COLL. IVL. AVG. FEL. HEL**) (الشكل ٢٦). كما حملتْ برونزيّة أخرى في مركز الظهر الرّبة تيكة واقفةً ممسكةً بيدها اليسرى قرن الخصب، وبيدها اليمنى المحراث، وعلى جانبيها ربّتا النّصر اللتان تقفان فوق عمودين لتحملا مظلّة تلقي بفيئها على الرّبة تيكة، وإلى جانبي تيكة خادمان (الشكل ٢٧). كما حظي معبد زيوس[١٢] بتمثيله على برونزية تنسب لمارثيا أوتاكيلا وهو من المعابد الكبرى بدليل كثرة الأعمدة التي تحف بواجهاته (الشكل ٢٨).



٢٦ ـ مارثيا أوتاكيلا

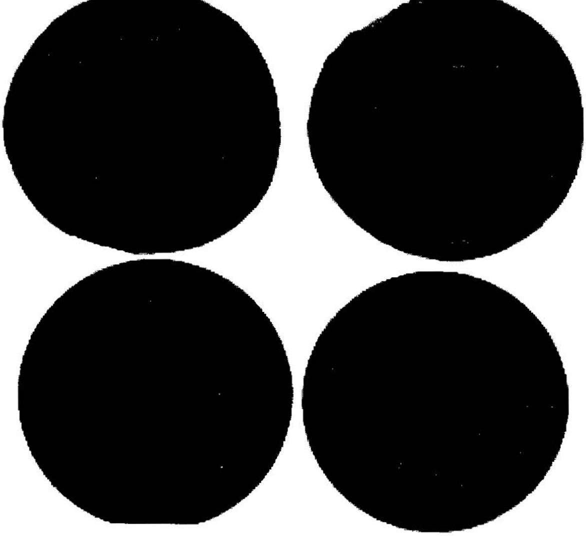


٢٧ ـ مارثيا أوتاكيلا

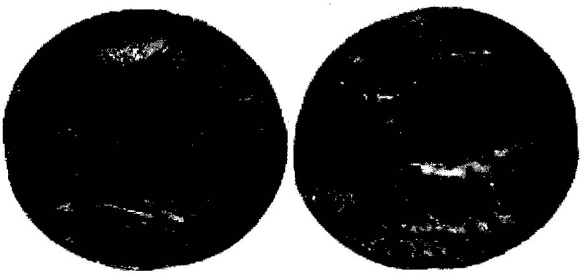


٢٨- مارثيا أوتاكيلا هليوبوليس معبد زيوس

أمّا نقود فيليب العربيّ فقد حملتْ صورة الرّبة تيكة تعلو رأسها الأبــراج وخلفهــا قرن الخصب وأمامها راية عسكرية مرفوعة وهي تشير إلى فرقة حــاملي الرّايــات حيث كان يُرمز لها بواسطة شخصين أو ثلاثة أشخاص يحملون الرّايــات، وأحيانــاً أخرى يظهر ثلاثة أشخاص من حاملي الرّايات وهم يتبــادلون الرّايــات مــع ثلاثــة آخرين، وكل واحد من هؤلاء يرمز أو يمثّل فيلقاً، وكل نقد أيضاً يرمز إلــى ثلاثــة فرق، وقد عُرف من بينها في زمن الإمبراطور فيليب العربيّ الفرقة الخامسة والثالثــة غاليكا، وكانت لها شاراتها العسكرية التي ظهرت فوق المسكوكات، وكان طاقم الفرق من الفرسان، وقد حملت برونزية نقش رأس جانبي للربة تيكة وأمامه وخلفــه نقــش راية عسكرية أو شخصان محاربان واقفان يمسكان برايــة ويفــصل بينهمــا مــذبح (الشكلان ٢٩و٣٠). وقد ظهرتْ هذه الرّاية على نقود ابنه عندما حملتْ برونزيّة فــي مركز الظهر نقش فيليب الابن يسير خلف ثورين كمؤسس للمدينة وتعلــو ظهرهمــا هاتان الرّايتان (الشكل ٣١).



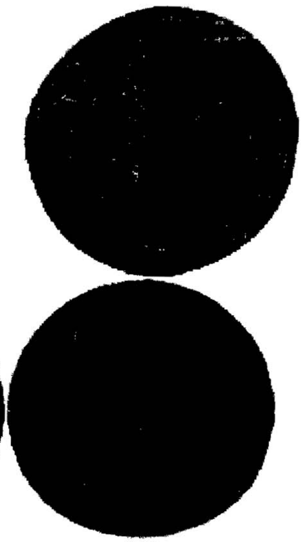
٢٩و٣٠- فيليب العربي (رايات الفرق العسكريّة)



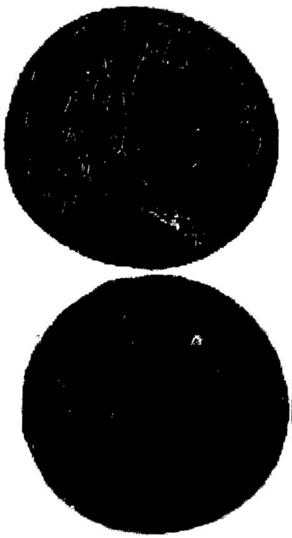
٣١- فيليب الابن

كما ظهرتْ على نقود فيليب الأب صورة واجهة معبد الإله هرمس مؤلّفاً من درج طويل (الشكل ٣٢) كما حمل نقد آخر في مركز الظهر الرّبة تيكة واقفةً ممسكةً بيدها اليسرى قرن الخصب، وبيدها اليمنى المحراث، وعلى جانبيها ربّتا النّصر اللتان تقفان فوق عمودين لتحملا مظلّة تلقي بفيئها على الرّبة تيكة، وإلى جانبي تيكة خادمان وهذا النقش قد تكرر على نقود زوجته (الشكل ٣٣). أمّا نقود فيليب الابن فمثّلت الإله هرمس في مركز الظهر واقفاً يمسك الكادوس (العصا التي يلتفُّ حولها ثعبانان حيث

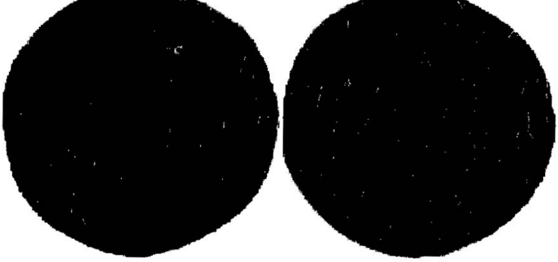
فضّ النزاع بينهما) (الشكل ٣٤)، كما حملت نقود أخرى صادرة على شرفه واجهة معبد الإله جوبيتر مبنيّاً فوق مصطبة تحتوي على درج (الشكل ٣٥)، وهناك نقود أخرى حملت في مركز الظهر نقش نسرين متقابلين يشيران إلى التّواجد العسكري (الشكل ٣٦).



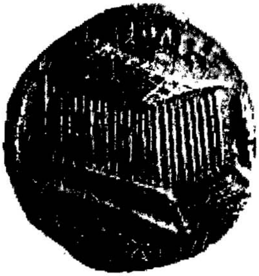
٣٢- فيليب العربي (واجهة معبد هرمس)



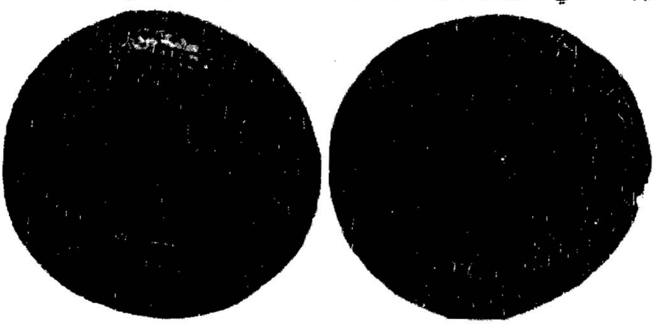
٣٣- فيليب العربي







٣٤- فيليب الثاني هليوبوليس هرمس   ٣٥- فيليب الثاني هليوبوليس هرمس



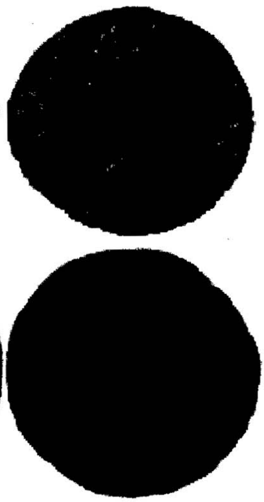
٣٦ـ فيليب الثاني نسران متقابلان

ـ نيابوليس (نابلس NEAPOLIS):

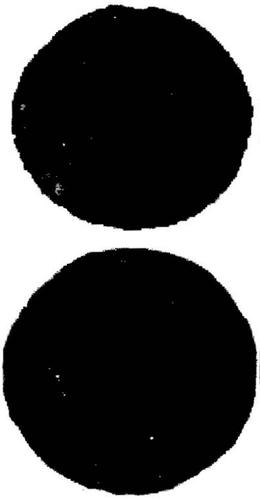
بدأتْ نيابوليس تصدر النّقود في العصر الإمبراطوري بين عهدي تيتوس وماكسيمينوس حيث حملت الاسم فلافيا نيابوليس (ΦΛΑΟΥΙ. ΝΕΑΠΟΛ) أو فلافيا نيابوليس سورية - فلسطين. ويبدأ تقويمها عام ٧٢م. وقد أُعيد بناء المدينة في زمن

الفلافيين[١٣]، بينما حظيتْ بلقب مستعمرة منذ عهد الإمبراطور فيليب العربي إلى غاليانوس نحو: (COL. IVL. NEAPOL) (COL. IVL. NEAPOL).

تميّزتْ نقودها بنموذجين هامّين، الأوّل يمثّل واجهة معبد مُقامٍ على قمة جبل جيريزيم ــ الذي يُعرف اليوم باسم جبل الطور ــ ترفعه أحياناً النسور وأحياناً أخرى الثيران، وهو مخصّص للإله زيوس (الشكلان ٣٧-٣٨)، وعلى القمّة الأخرى مذبح، وخلفهما يسير الإمبراطور كمؤسس للمدينة. والنّموذج الآخر يمثّل جوبيتر هليوبوليتان (الشمسي) بين ثورين وربما كانت أرتميس إيفوس.

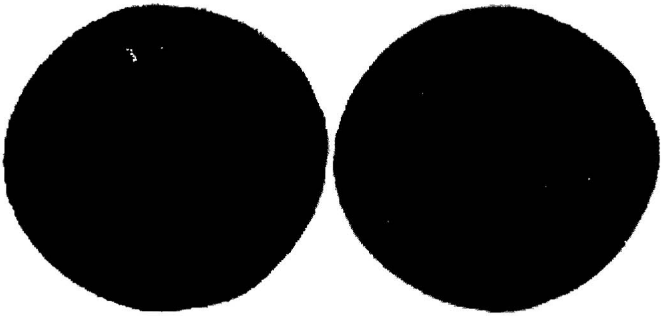


٣٧- فيليب الأب، نسر ومعبد جيريزيم



٣٨- فيليب الثاني، ثوران فوقهما معبد جيريزيم

كما أصدرت نيابوليس نقداً تذكارياً من البرونز حمل على الوجه الأوّل صورة فيليب الأب وعلى الوجه الثاني صورة ابنه فيليب قيصر مكللين بورق الغار (الشكل ٣٩).



٣٩- فيليب الأب وفيليب الابن

ـ دمشق (ΔΑΜΑC):

أسفرتْ الدراسات الأثرية التي جرتْ من قبل عالم النميات دو سولـسي وبـابلون (**De Saulcy et Babelon**) على النّقود الدمشقية إلى تحديد بداية الإنتاج النقدي بدمشق، وقد كان ذلك منذ أنْ دخل بارمينيون دمشق، وهو القائد اليوناني المكلـف مـن قبـل الإسكندر المقدوني بمهمّة احتلال جنوب سورية، وفي ذلك التاريخ أي حـوالي العـام ٣٣٣ ق.م. تابعتْ دمشق إصدارها نقوداً فضّية وبرونزيّة في الفترة السلوقيّة منذ عهد أنطيوخوس السابع إيفريجيت بينما بدأتْ تصدر عملات رومانيّة إمبراطوريّة في وقت مبكر عن المدن السورية الأخرى. إذ يؤرّخ إنتاجها النّقدي منذ بداية تربّع أوكتافيانوس (أغسطس) على العرش الرّوماني، في حوالي العام ٢٩ ق.م وذلك بعد انتصاره فـي معركة أكتيوم عام ٣١ ق.م.

تعتبر فترة ازدهار عملية الإنتاج النّقدي بالنسبة لدمشق في القرن الثالث المـيلادي، لاسيّما في عهد الأسرة السيفيرية، ومن ثمّ في عهد الإمبراطور فيليب العربي ٢٤٤ ــ ٢٤٩م حيث تعدّدت النّماذج وتنوّعت الوحدات النّقديّة. ويقتصر موضوعنا على تناول عملة دمشق في عهد الإمبراطور فيليب العربي، إذ تُعدُّ نقوش المسكوكات البرونزيّـة الصادرة عن دار ضرب دمشق في عهده، وعلى شرف زوجته مارثيا أوتاكيلا وابنـه فيليب قيصر أيضاً دليلاً على اهتمامه بكثير من المجالات الحياتية، وعلـى مختلـف

الأصعدة الدينية والاقتصادية والاجتماعية. كما وتُعدُّ النماذج المنقوشة على إصداراتهم النّقدية الدمشقية من أكثر المسكوكات السّورية أهمّيةً من الناحية الاجتماعيـــة، كونهـــا عرّفتنا على أعضاء الأسرة الحاكمة وألقابهم، وتؤكّد بعض المـــشاهد علـــى اهتمـــام الإمبراطور فيليب ببناء الأبنية الدينية المقامة بدمشق، أو ترميمها وإعادة توسيعها[١٤]، ويشير إلى ذلك القطعة النّقدية التي حملت على مركز الوجـــه نقـــشاً جانبيّـــاً لـــرأس الإمبراطور فيليب العربي، معتمراً التّاج الشعاعي، كما حملت إصدارات أخرى نقـــشاً جانبيّاً لرأسه المكلل بورق الغار، تحيط به كتابةٌ لاتينيةٌ تذكر اسمه، مع عبارة لاتينيـــة تعني الابن التقي، والمرمّزة بالحرفين:

IMP.M.IVL.PHI-LIPPVS.PF.AVG .(PF= Pius Filius)

إمبراطور. ماركوس. يوليـــوس. فيليبـــوس. بيـــوس. فيليـــوس. أوج (الإمبراطور يوليوس ماركوس فيليبوس الابن التقي. المعظم)

بينما حمل مركز الظهر واجهة معبد مقبب مرفوعاً على أربعة أعمدة، نُقِـشَتْ فـــي منتصفه صورةٌ نصفيةٌ يمينيةٌ للرّبة تيكة ــ دمشق، التي علا رأسها التاج الذي يأخـــذ شكل سور المدينة، كما يوجد في كل من زاويتي واجهة المعبد من الأعلى كوخٌ يطـــلُّ منه رأس نسر، يشير إلى القوّة، كما يعدُّ من رموز الإله جوبيتر الشمـــسي المنتـــصر والمنتقم من الأعداء في الحرب. لذلك كانت تُنقش صورة النسر على الرّاية العسكرية عند الرّومان أثناء الحروب. بينما يطلُّ من الكوخ الآخر نقـــش حمامـــة تـــشير إلـــى السلام[١٥]، وقد وقف على جانبي المعبد سادنٌ ممثلٌ بشاب، يقوم على خدمة المعبـــد. ثمّة نقشٌ آخر عند أدراج المعبد يمثّل كبشاً يعدو نحو اليمين، منقوشاً ضـــمن إطـــار مستطيل، لعلّه يكون قرباناً أو أضحيةً. كما أُحيط المشهد المركزي بكتابةٍ لاتينيةٍ تذكر اسم دمشق المستعمرة **(كول دام ميترو): COL.DAM.MHTROP. (الشكل ٤٠)**. من جهة أخرى، فقد ظهر النّموذج نفسه على النّقود الصادرة على شرف مارثيا أوتـــاكيلا زوجة الإمبراطور فيليب.

كذلك توجد قطعةٌ نقديةٌ برونزيةٌ أخرى حملت في مركز الوجه نقشاً جانبيّاً يمينيّاً للإمبراطور فيليب العربيّ، ملتحٍ، يكلّل رأسه بإكليل من ورق الغار، وأُحيط المشهد المركزي بكتابةٍ لاتينيةٍ تذكر اسم الإمبراطور فيليب IMP.M.IVL.PHI-LIPPVS.PF.AVG.

بينما حمل مركز الظهر واجهة معبد مقبب رباعي الأعمدة، وقد نُقِشَتْ في منتصفه صورةٌ نصفيةٌ يساريةٌ للربّة تيكة ـ دمشق التي علا رأسها تاجٌ يأخذ شكل سور المدينة. ويُذكّرنا نقش هذا المعبد بواجهات المعابد المنقوشة على النّقود الصادرة في عهد الأسرة السيفيرية، التي أطلقنا عليها اصطلاحاً اسم **(معبد ـ المحراب)** **(الشكل ١ ٤)**.

ومن الأهمية الإشارة إلى بدء ظهور النّقوش الكتابية اللاتينية إلى جانب اليونانيّة على الإصدارات النّقدية للإمبراطور فيليب العربي بدمشق(١٦)، حيث ظهرتْ اللاتينية ممزوجةً مع الحروف اليونانية في النّقود وعلى السواكف والمذابح، ويبدو سبب نقش النمطين الكتابيين معاً على إصداراته النّقدية قد ارتبط في حقيقة الأمر بمنح المدينة لقب مستعمرة رومانية **(Colonia)**.

كذلك اهتمّ الإمبراطور فيليب العربيّ بالآلهة الدمشقية التي ترمز إلى الحياة الخصيبة والثروة المائية من خلال نقش صورها على النّقود البرونزية المحفوظة بمتحف دمشق الوطني، وبالمراكز العالمية، حين حملتْ في مركز الوجه نقشاً جانبيّاً يساريّاً لرأس الإمبراطور فيليب، ملتحٍ، مكلل بورق الغار، محاطاً بكتابةٍ لاتينيةٍ تذكر اسمه:

إمبراطور. قيصر. ماركوس. يوليوس. فيليبوس

. IMP.C.M.IVL.PHILLIPVS

بينما حمل مركز الظهر نقش ربّة دمشقية، متمثّلةً بفتاة حسناء، تجسّد ربّة الحظّ الحسن والمصير السيئ وحامية المدينة (تيكة/توخي) التي جلست على كومة من

الحجارة، والتفتتْ برأسها وجسمها نحو اليمين، وارتدتْ ثوباً طويلاً يستر كامل جسدها، ووضعتْ يدها اليسرى على خدّها الأيمن في حركة تأمّل فكري، بينما وضعتْ يدها اليمنى على خصرها، كما نُقش خلفها غصنٌ نباتيٌ يمثّلُ دالية عنب مع أوراقها وفروعها، وهي تشير إلى الإنتاج الزراعي الذي اعتمدتْ عليه دمشق وضواحيها، كزراعة الكرمة. وقد انسدل شعرها نحو الخلف كموج النهر الهادئ لينتهي في جذع الدالية، كأنّه يرمز إلى خصب نهر بردى.

ومن جهة أخرى ثمّة نقشٌ في أسفل النّقد، يجسد ذئبةً متّجهةً نحو اليمين، وقد رفعتْ ذيلها نحو الأعلى في وضعيّة الاستعداد للهجوم، ويشير وجودها على النّقد إلى تواجد الفرقة العسكرية السادسة فيراتا، وتمركزها بالقرب من دمشق ومن المتوقّع في منطقة (الغزلانيّة شرق دمشق). وأُحيط المشهد المركزي بكتابةٍ يونانيةٍ تذكر اسم دمشق (**داماس** ΔAMAC) (**الشكل ٤٢**). هذا إلى جانب إصدار الإمبراطور فيليب العربيّ نقداً برونزيّاً من وحدة السستار اكتشف في موقع سحر في اللجاة جنوب سورية من قبل بعثة فرنسية، وقد حمل في مركز الوجه نقشاً جانبيّاً يمينيّاً لرأس الإمبراطور فيليب، مكللاً بورق الغار مُحاطاً بعبارة لاتينيّة تذكر اسمه ولقبه:(**بيوس فيليوس** **Pius. Fillius**) الذي يعني الابن التقي من خلال نقش الحرفين (**PF**). (**IMP.M.IVL.PHILIP.PVS.PF.AVG**). بينما حمل مركز الظهر نموذجاً فريداً من نوعه، يُجسِّد فتاةً حسناء ربّما تمثّل الرّبة نيمفي (ربّة الينابيع والمياه)، واقفةً على كأس نباتي، ممسكةً بكلتي يديها الغصن الذي ينتهي ببرعمٍ متفتحٍ، وأُحيط المشهد المركزي بكتابةٍ يونانيةٍ تذكر اسم دمشق العاصمة (**كول.داماس ميترو** **COL.ΔAMAS.METRO**) (**الشكل ٤٣**).

ويبدو أنّ نهر بردى الذي نُقش على نقود ماركوس أوريلوس وكومودوس، لمْ يغب عن بال الإمبراطور فيليب العربيّ، لأنّه يرمز إلى الخير والبركة والخصوبة، وقد أُشير إليه بشخص آدمي يسبح تحت قدمي الربة تيكة، ليجسّد نهر بردى، حاملاً بيده

اليمنى جسماً صغيراً ما ربّما سنابل قمح، بينما أمسك بيده اليسرى قرناً يرمز للخصب والذكورية، وقد استند على وعاء مقلوب ينضح منه الماء، في إشارة إلى غزارة مياه نبع الفيجة، وأُحيط المشهد المركزي بكتابةٍ لاتينيةٍ تذكر اسم دمشق المستعمرة: **كول دام ميترو COL.DAM.MHTROP**

كما كان لنقوش الحيوانات بعد ديني على نقوده البرونزيّة التي حملتْ على مركز الظهر نقش كبش، ملتفّ القرنين، متجه نحو اليمين، ربّما يرمز إلى الإله جوبيتر (زيوس ــ آمون)، ونُقشت حوله عبارةٌ لاتينيةٌ تذكر اسم دمشق المستعمرة: (**COL. DAMAC**).

ربّما يشير هذا الرّمز إلى مدلولات أخرى كالثّروة الحيوانيّة من الأغنام التي كانت تفتخر بها مدينة دمشق نظراً لسيطرتها على مساحات واسعة من الغطاء النباتي الذي شكّل مرعىً وكلأً لها (**الشكل ٤٤**). علاوةً على ذلك، فقد عالجتْ مسكوكات الإمبراطور فيليب العربي موضوع الولادة والأمومة بشكل رمزي تجسّد على عملاته بنقش ظبية واقفة تشير إلى الربّة ديانا (أرتميس) ربّة الصيد والخصوبة والجمال، إلى جانب كونها مختصّةً بأمور النساء، ومعينتهم عند الولادة، وقد نُقشتْ متّجهة نحو اليمين، ترضع طفلاً صغيراً جالساً على الأرض، كما يوجد في أسفل المشهد نقش كبش يعدو نحو اليمين، ينظر إلى الوراء، وأُحيط المشهد المركزي بكتابةٍ لاتينيةٍ تذكر اسم دمشق المستعمرة: "**كول دام ميترو**" **COL.DAM.MHTROP (الشكل ٤٥)**

هذا وتؤكد المصادر التاريخية إلى أنّ الإمبراطور فيليب العربيّ قد اهتمّ بالألعاب الرياضيّة في أكثر من مدينة، لا سيّما حين حضوره حفل الألعاب الرياضية بذكرى الاحتفال بألفية تأسيس روما. وكذلك ظهر اهتمامه بالألعاب الرياضية المقامة على شرفه في المدن السورية، كمدينة دمشق التي ربّما حضر إليها بمناسبة حفل الألعاب الرياضية التي جُسِّدت نقوشها على إصداراتها النّقدية البرونزيّة المتميّزة بحملها في مركز الظهر مشاهد للسلل والرّموز الرياضية، كنقش إكليلٍ من ورق الغار، نُقشت

بوسطه عبارةُ الألعاب الرياضيّة سبا سميا (CЄBA-CMIA) التي اشتقت منها الكلمة الرّومانية أوغست/سيباستوس، كما نُقش في أسفل الإكليل رأس كبش. وأُحيط الإكليل من الخارج بنقشٍ لاتينيٍّ يذكر اسم دمشق المستعمرة (**الشكل ٤٦**):

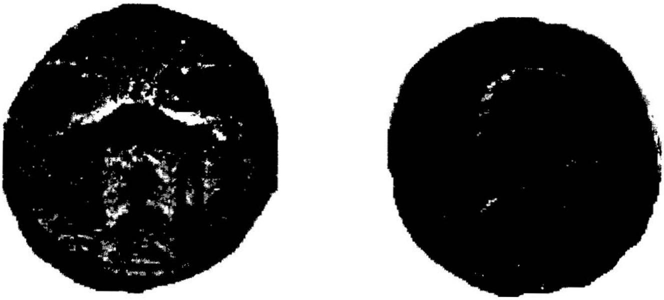
" **كول دام ميترو** COL.DAM.MHTROP[١٧]، كما حملتْ إصدارات دمشق نقش جرةٍ كبيرةٍ بفتحتين، وقد نَبَتَتْ من الفتحة العلوية سعفة نخيل، وأُحيط النقش المركزي بكتابةٍ لاتينيةٍ تذكر اسم دمشق، إضافةً إلى ذلك، نُقشت على الجّرة عبارةٌ يونانيةٌ تذكر الألعاب الأولمبية أو ألعاب القوى التي كانت تُقام سنوياً بدمشق (أكتيا هيرا سيبا سميا): (AΓTIA.IЄPA.CЄBA-CMIA)، ونُقش أسفل الإكليل رأس كبش، إلى جانب حمل نقودها نقش طاولة ثلاثية القوام، انتصبتْ فوقها جرّةٌ خرجت من فتحتها العلوية سعفة نخيل، ونُقشت حولها كتابةٌ يونانيةٌ تذكر اسم دمشق المستعمرة (Δ[AMAC]·COL)[١٨]. وممّا لا شكّ فيه أنّ تكرّر ظهور هذا النقش يؤكّد وجود ملعب أو ميدان سباق بدمشق كانت تُجرى به السباقات الرياضية (**الشكل ٤٧**). ومن وجهة نظر أخرى للمسكوكات الدمشقية، نرى من خلالها اهتمام الإمبراطور فيليب العربيّ بالجيش وتنظيمه، وقد أشار إلى ذلك نقش الراية العسكرية للفرقة السادسة فيرّاتا التي كانت تتمركز بالقرب من دمشق منذ عهد الإمبراطور كركلا، حين ظهرتْ نقوشها للمرّة الأولى في عهده، ومن ثمّ في عهد سيفيروس ألكسندر ووالدته جوليا ماميا، وفي عهد فيليب العربي، حيث حملت نقوده البرونزية الدمشقية على مركز الوجه نقشاً جانبيّاً لرأسه المكلل بورق الغار، ووجهه الملتحي، وصدره المصفّح بدرعٍ عسكري يزينه رأس ميدوزا التي تلقي الرعب في نفوس من يراها فيتحوّل إلى حجر، وقد أُحيط المشهد بنقش كتابيٍّ لاتينيٍّ يذكر اسمه ولقبه: (IMP.C.M.IVL.PHILLIPVS **إمبراطور قيصر ماركوس يوليوس فيليبوس**). في حين حمل مركز الظهر نقش ذئبة ترضع الطفلين ريموس ورومولوس، وقد انتصب على ظهرها نقش الرّاية التي تشير إلى الفرقة السادسة فيراتا

(LEG.VI.FR.COL.DAM) مع نقش كبش يعدو نحو اليمين (**الشكل ٤٨**)[١٩]. هذا إلى جانب حمل بعض النّقود البرونزيّة مشاهد طقسية دينية، متمثّلةً بنقش الإمبراطور واقفاً مقابل امرأة، ربّما كانت الإمبراطورة! وقد فَصَلَ بينهما المذبح الذي كانت تؤدّي عليه الإمبراطورة الطّقوس الدينية المتمثّلة بسكب الماء المقدس من إناء، أو التضحية بكبش نُقش رأسه في أسفل النّقد، وهو يشير إلى دمشق، بينما نُقشَت في أعلى المشهد شجرة سرو، ربّما ترمز لأبدية حكم فيليب، وتبارك صلواته، وأُحيط المشهد المركزي بكتابةٍ لاتينيةٍ تذكر دمشق المستعمرة (**COL.DAM.MHTRO**)، ونُقش في الأسفل باليونانية اسم نبع الفيجة(**الشكل ٤٩**)[٢٠]. إضافةً إلى ما سبق من نقوشٍ ممثّلةً على النّقود الدمشقية، نرى وجود مشاهد أخرى تمثّل الألعاب الرياضيّة، وتؤكّد هذه النّقوش على اهتمام مارثيا أوتاكيلا بالألعاب الرياضيّة كزوجها الإمبراطور فيليب، إلى جانب اهتمامها بنقوش واجهات المعابد الدينية، وذلك حين حملت نقودها إكليلاً نباتياً تتوسّطه عبارةُ الألعاب الرياضية (**CЄBA-CMIA**)، كما أُحيط بها اسم دمشق المستعمرة. بينما حملتْ نّقود أخرى في مركز الوجه نقشاً جانبيّاً يمينيّاً لرأس الإمبراطورة مارثيا أوتاكيلا بشعرها المصفف والمُثبّت بواسطة قوس، وأُحيط المشهد المركزي بعبارةٍ لاتينيةٍ تذكر اسمها ولقبها: (**M.OTC. SEVERA. AVG** /م (ارثيا). أوت. (اكيلا). **سيفيرا) أوج (وستا)**. في حين حمل مركز الظهر نقش واجهة معبد مشيّد فوق بوديوم (قاعدة)، تألّفت من جبهةٍ مثلثةٍ، محمولةٍ على أربعة أعمدة تظهر في منتصف المعبد صورة مارسياس أو سيلينوس، الفلاح والساقي، ماشياً نحو اليسار، حاملاً على ظهره جلد كبش، في حين نُقش أمامه دلو ماء ربّما يرمز إلى نبع الفيجة كدليل للخصوبة والعطاء، كما يرمز للسقاية، أمّا في أسفل المعبد، ثمّة نقشٌ يمثّل واجهة بناء تأخذ شكل القوس، يجلس في وسطها إله نبع الفيجة الذي صوّر بشكل آدمي، ممسكاً بيده اليمنى سنبلة قمح ترمز للبركة، بينما حمل بيده اليسرى قرن الخصب، توضّعت إلى جانبه جرّةٌ مقلوبةٌ ينضح منها الماء كتعبير عن نبع الفيجة. بينما نُقش في الجهة اليسارية من

المعبد القمر، ومن الجهة المقابلة نُقِشَتْ الشمس، اللذان يدلان على الولادة والخصب، وبعث الحياة، أو الزرع والحصاد، وهما يشيران إلى أتارجاتيس زوجة هدد، والتي يُرمز لها بالهلال وقرص الشمس(٢١). وأُحيط المشهد المركزي بعبارةٍ لاتينيةٍ تذكر اسم مستعمرة دمشق (COL·DAM. MHETRO) (**الشكل ٥٠**). ويبدو أنّ أجمل النّماذج المنقوشة على النّقود البرونزيّة الصادرة عن دمشق التي تعبّر عن مشاركة فيليب لابنه في الحكم، وتفصح عن مدى العلاقة الأخوية بين الأب وابنه، وكذلك تفيدنا في استشفاف العلاقة الاجتماعية، تلك القطعة التي جمعتهما معاً على الوجه الأوّل من النّقد، حيث نُقش الرأسان معاً بشكل متقابل، وكُلّلا بورق الغار، وأُحيطا بكتابةٍ لاتينيةٍ تشير إلى اسميهما بصيغة الجمع (IMPP.D.D.N.N.PHILIPP)، ويشير الحرفان (DN) المرمّزان الدّالان على الكلمة اللاتينية (**دومينوس نوستير Dominus Noster**) إلى سيدنا(٢٢)، وتدلّ هذه العبارة على تبوّء الإمبراطور فيليب العربي وابنه فيليب قيصر منصباً دينياً رفيعاً، تجلّى بالكاهن الأكبر المشرف على إدارة الأمور الدينية ورعايتها، غير أنّ أهمّ ما يميّز هذه القطعة حملها لقب الإمبراطور بصيغة الجمع (IMPP.AVGG) فهي تشير إلى مشاركة فيليب لأسرته في الحكم من جهة، ومنحه ابنه لقب إمبراطور من جهة أخرى، بينما حمل الظهر اسم زوجته مارثيا أوتاكيلا نحو: (M OTAC SEVERINA AVGVSTI) (**الشكل ٥١**). ومن النّماذج النّقدية ذات الصلة بالأسطورة الإغريقية إحدى القطع المنسوبة إلى فيليب الابن، والتي حملتْ في مركز الوجه نقشاً جانبيّاً يمينيّاً، أُحيط بكتابةٍ لاتينيةٍ نقرأ منها اسمه (PHILIPPOC.K.OBI...). في حين حمل مركز الظهر نقش مارسياس واقفاً أمام شجرة سرو ترمز للخلود، وقد جُسِّد وهو رافعاً يده اليمنى باتّجاه شجرة السرو كأنّه يرعى نموّها ويراقب ارتفاعها حين رُبط إليها من قبل أبولو الذي جعل مصيره معلّقاً على هذه الشجرة، غير أنّه نَدِم على عمله فحوّله إلى نهر، وربّما المقصود من ذلك نهر بردى. في حين يظهر مارسياس وهو يحمل على ظهره جلد كبش الذي جعله زقّاً

للخمر، بينما نُقش في الأسفل علامة دار الضرب الدمشقية المتمثّلـــة بـــرأس كـــبش، وأُحيط المشهد بعبارةٍ لاتينيةٍ تذكر دمشق المستعمرة[٢٣]: (COL.DAM.MHTROP). (الشكل ٥٢)

نقود دمشق في عهد فيليب العربي



نقد ٤٠: معبد بداخله الرّبة تيكة وعلى الزاويتين العلويتين يوجد كوخان متقابلان من عهد فيليب وزوجته

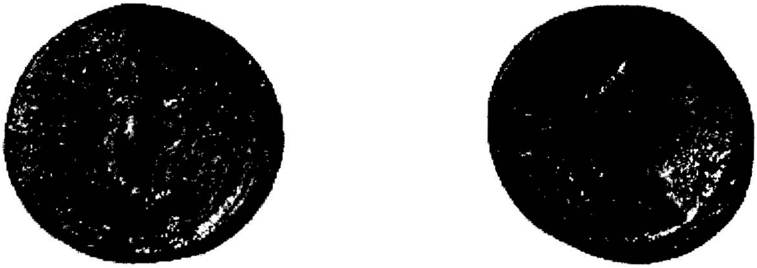


نقد ٤١



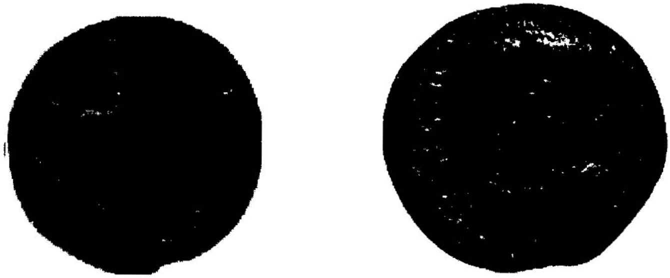
نقد ٤٢ـ دوبونديوس برونزي، فيليب العربي

متحف دمشق الوطني (فرع الآثار الكلاسيكية)، الوزن ١٣,٧٥غ، القطر ٣سم، السماكة ٣ملم

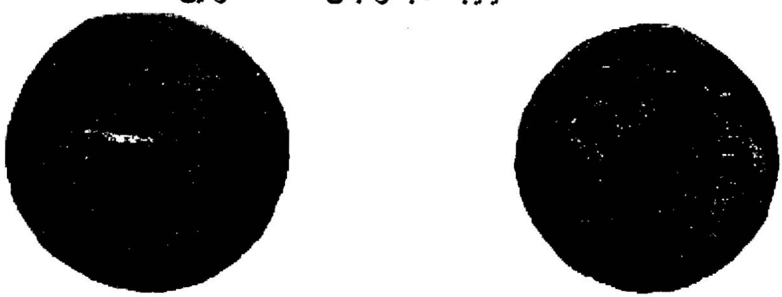


نقد ٤٣: الإمبراطور فيليب العربي ــ الربة نيمفي

مكتشفات البعثة الفرنسية في موقع سحر باللجاة، وزنه (٢٠,٥١غ)، قطره (٣١-٣٣مم)



نقد ٤٤: فيليب الأب وكبش ملتف القرنين



نقد ٤٥: فيليب الأب وظبية ترضع صغيرها



نقد ٤٦: فيليب الأب وعبارة (سبا سميا) الألعاب الرياضيّة





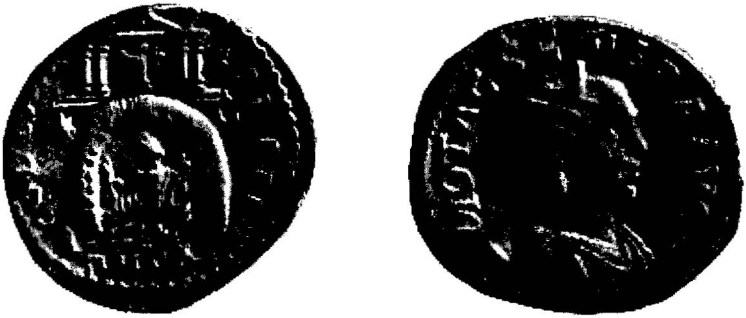
نقد ٤٧: فيليب الأب ــ جرة الألعاب الرياضية فوق طاولة

مكتشفات البعثة الوطنية في قلعة دمشق عام ٢٠٠٣م ــ الوزن ٨غ، القطر ٢٤مم، السماكة ٢,٥مم





نقد ٤٨: فيليب الأب ــ ذئبة ترضع طفلين ــ متحف بيروت

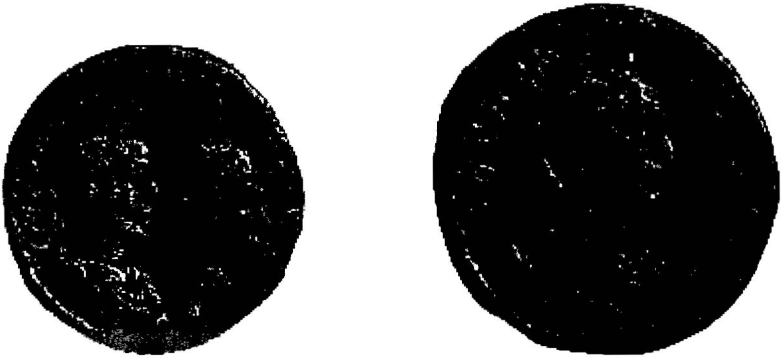


نقد ٤٩: مارثيا أوتاكيلا. إله نبع الفيجي بوسط قوس يخرج منه الماء وفي الأسفل

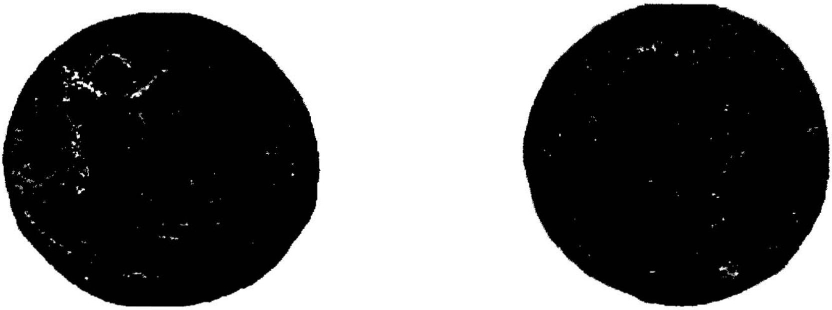


اسم نبع الفيجي.

نقد ٥٠: الإمبراطور والإمبراطورة بينهما مذبح



نقد ٥١: فيليب الأب والابن ومارثيا أوتاكيلا



نقد ٥٢: فيليب الابن. مارسياس أمام شجرة السرو وفي الأسفل رأس كبش

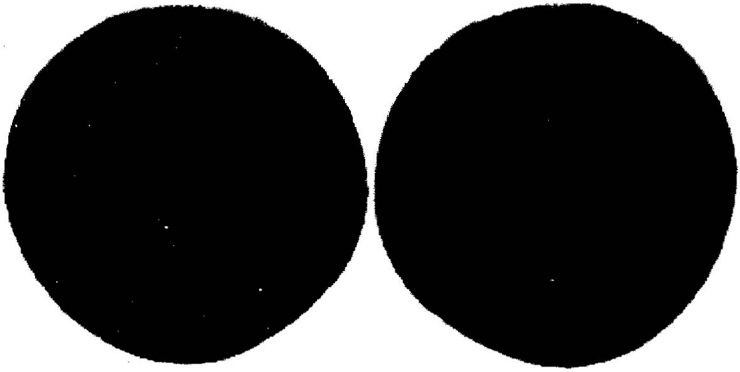
ـ صور (تيروس Tyros):

تقع صور فوق بروز صخري يتّصل بالساحل اللبنانيّ بواسطة بقعة رملية، وقد تشكّلت هذه البقعة فوق الحاجز الذي بناه الإسكندر الكبير لأجل احتلال جزيرة صور الصّغيرة، وذلك بعد فشل جميع محاولاته في احتلالها. تعتبر مدينة صور من أشهر مدن الساحل السوريّ الفينيقيّ إلى جانب صيدون وأرادوس. وتعود أقدم نقودها إلى النّصف الثاني من القرن الخامس ق.م مضروبةً وفق المعيار الفينيقيّ، وأهمّ ما يميّز نقودها هو نقش الحيوان القشري (الموريكس) الذي كانت له فائدة هامّة في استخراج الصباغ الأرجواني، وقد أطلق الإغريق اسم فوني على الفينيقيين نظراً لشهرتهم في استخراج هذا الصباغ. يبدأ تقويم الاستقلال في صور منذ العام ١٢٦ق.م وحتّى عهد فسباسيانوس (٦٩ـ ٧٩م) حيث أصدرتْ صور تيترادراخمات عُرفت بالصوريّة، حملتْ على الوجه رأس الإله ملقارت وعلى الظهر نسراً وهراوة ملقارت، وديدراخمات وأوكتودراخمات ذهبيّة مؤرّخة إلى العام ١٠٨ ق.م بتأثير من الملك بطليموس العاشر. وفي عام ٩٣م بدأتْ تظهر كلمة ميتروبوليوس (ΜΗΤΡΟΠΟΛЄWC) مع الإله ملقارت، ونسر، وشجرة نخيل، وسفينة. كما حظيتْ

صور بلقب مستعمرة (**Colonia**) في عهد الإمبراطور ألكسندر سفيروس (٢٢٢-٢٣٥م) حتّى الإمبراطور غاليانوس (٢٥٨-٢٦٨م)، ونُقش اسمها باللاتينية نحو:

COLONIA SEP TVRVS/TVRO METROP./ SEP TVRO METROP COL) (PENIC

أمّا من نماذج نقود فيليب العربي في صور نقد برونزي حمل في مركز الوجه رأس فيليب العربيّ، بينما حملت في مركز الظهر قارباً يعلو متنه قدموس وخلفه حيوان الموريكس الصدفي وهذا النّقد يشير إلى أسطورة أوروبا عندما خطفها زيوس بهيئة ثور فتبعها أخوها قدموس بقاربه ناقلاً معه الحروف الفينيقيّة إلى بلاد الإغريق (الشكل ٥٣).



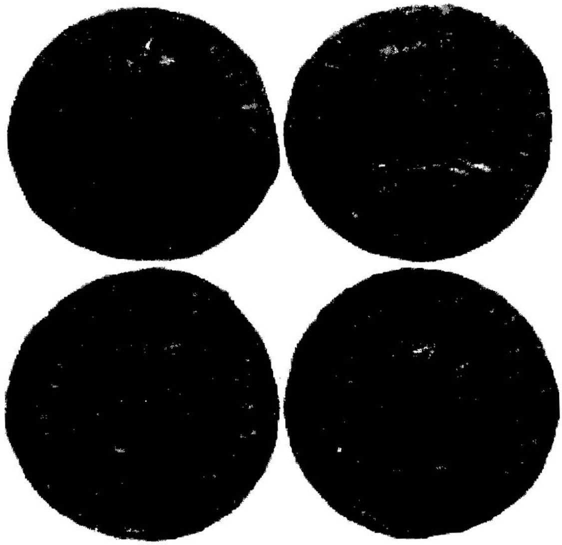
نقد ٥٣: فيليب الابن. قدموس في قارب ينقل معه الحروف الأبجدية مع نقش الصدفة (الموريكس)

ـ بصرى (Nea Bostra Traianoc):

تقع بصرى جنوب مدينة دمشق وتبعد عنها حوالي ١٤٠كم، وقد لعبت دوراً تجاريّاً هامّاً بالنسبة للقوافل التجاريّة المارّة عبرها في القرن الثاني ق.م، حيث كانت إحدى مدن الأنباط. وقد اتّخذ منها ترايانوس في العام ١٠٦م عاصمةً للولاية العربيّة

الجديدة، ومنحها اسمه **(نيا بوسترا ترايانا)**، وأقرَّ لها حقّ إصدار نقود فضيّة، إلى جانب إصدار مسكوكات برونزيّة أيضاً، وقد حظيتْ بعهد سيفيروس ألكسندر ٢٢٢–٢٣٥م بلقب "كولونيا ميتروبوليس" **(COLONIA METROPOLIS)** الذي يعني (المستعمرة الرومانيّة)[٢٤].

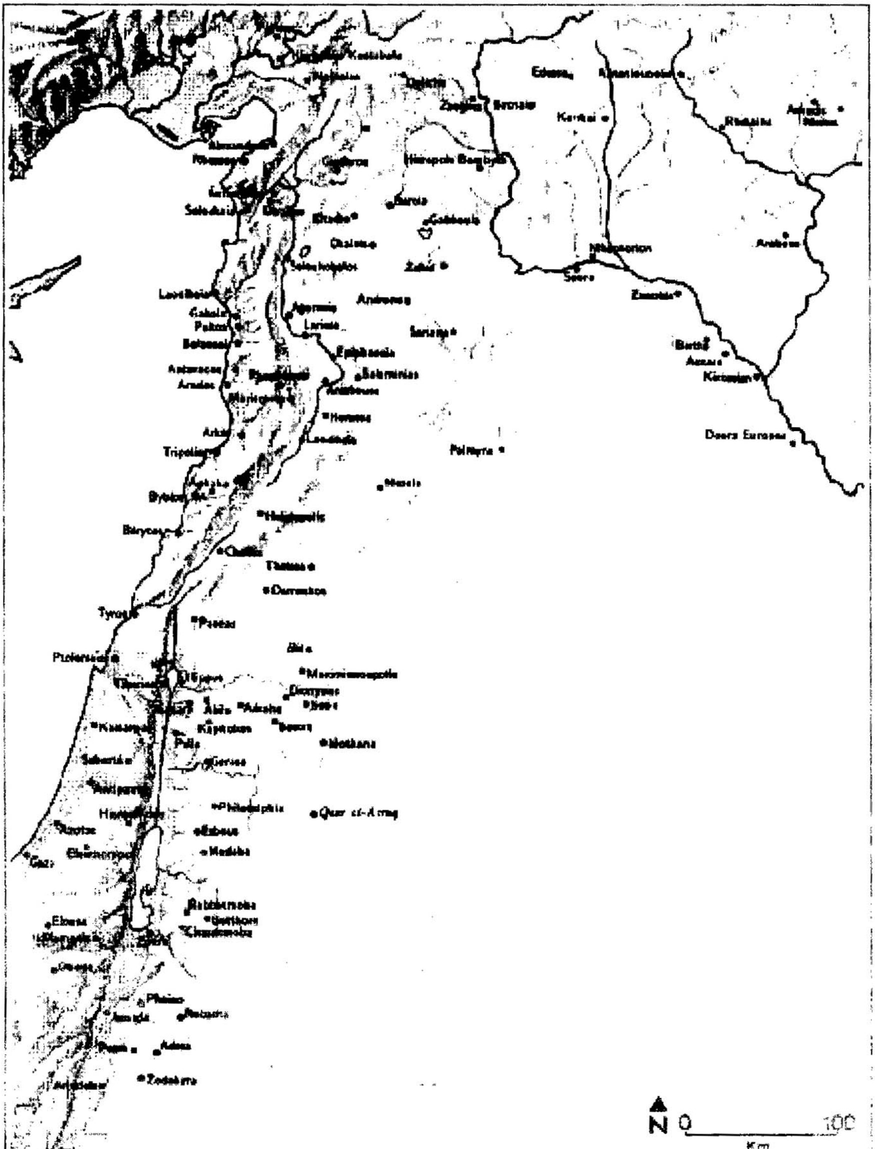
تميّزت مسكوكات بصرى بحملها في عهد ترايانوس تمثالاً نصفيّاً للربّة تيكة يعلو رأسها التاج المزدان بالأبراج وفي الأسفل عبارة أرابيا (العربية) أو نَقش اسم بصرى باليونانيّة نحو: **(NEA TPAIANA BOCTPA)**، أو نقش الربّة تيكة على برونزيّة تنسب للإمبراطورة فوستينا الأولى، مُثِّلت وهي تدوس بقدمها على إله نهر بهيئة رجل ممسكةً برمحها. كذلك، حملتْ في القرن الثاني الميلادي في عهد (ماركوس أوريلوس) نقش جمل تجاريّ. كما أصدرتْ بصرى نقوداً برونزيّة حملتْ على الوجه رأسين يمثّلان الإمبراطور سبتيموس سفيروس وزوجته جوليا دومنا، بينما حمل الظهر واجهة معبد رباعيّ الأعمدة بداخله الربّة تيكة تمسك قرن الوفر ونُقش اسم بصرى باللاتينية مع مزيج اليونانيّة نحو: **(NEA TPAIANA BOCTPA)**. إضافةً إلى ذلك، فقد حظيّتْ بصرى بلقب كولونيا في عهد ألكسندر سفيروس ووالدته جوليا ماميا، وأصدرتْ نقوداً حملت رأس الإله ذي الشرى، كما حملتْ نقود بصرى في عهديهما رأس الربّة تيكة، التي تعتبر الربّة الحامية للمدينة، ونُقش اسمها باللاتينيّة مع مزيج اليونانيّة نحو: **(COLONIA BOSTPA)**، وفي عهد فيليب العربيّ حملتْ في مركز الوجه صورته وكتابة تحيط بها تذكر اسمه ولقبه: **(IMP CAS M IVL PHILIPPOS AVG)** بينما حملت في مركز الظهر رأس الإله زيوس – آمون يعلو صدره رأس ميدوزا أو الجورجونة تلك الفتاة التي تحوّلتْ إلى ربّة مخيفة شعرها بشكل أفاعٍ تلقي الرعب في نفس كل من يراها فيتحوّل إلى حجر، ونُقش حول المشهد عبارة مستعمرة بصرى **(COL MTRO BOCTRA)** (الشكل ٥٤).



نقد ٥٤: فيليب الأب

رأس زيوس – آمون   ذو الشرى





خريطة سورية في الفترة الرومانية

النتائج

من خلال عرضنا لنقود الإمبراطور فيليب العربي وعائلته وقراءتنا لها من خلال ما تمّ ضربه في المدن السورية يمكن استنتاج النقاط الرئيسية التالية:

ـ على صعيد الألقاب الإمبراطورية:

نلاحظ أنّ اسمي فيليب العربي وابنه فيليب قيصر كانا مسبوقين بالكلمة اليونانيّة أو اللاتينية (**AYTOKPAT[ΩP]**) بمعنى إمبراطور، وقد تمَّ نقش هذا اللقب على النّقود البرونزية والفضيّة (التيترادراخما)، بينما حمل النّقد الأنطونينياني اللقب (**IMP[IMPERATOR]**) لا سيّما على نقود فيليب العربي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنّ لقب أوتوكراتور الذي سبق اسم فيليب الابن يشير إلى مشاركته لأبيه في الحكم وتمتّعه باللقب الفخري (إمبراطور).

أمّا على صعيد الألقاب الدينية فقد حظي فيليب الأب والابن بلقب دومينوس نوستير (**IMPP.D.D.N.N.PHILIPP**)، بمعنى سيدنا، وهو لقب بدأ بالظهور على النّقود منذ عهديهما وانتشر بسرعة في الفترة البيزنطية وذلك على نقود القرنين الخامس والسادس الميلاديين.

نلاحظ في نقود دمشق اسم مارثيا أوتاكيلا منتهياً بلقب أوغستي (المعظمة) نحو (**M OTAC SEVERINA AVGVSTI**) (مارثيا أوتاكيلا سيفيرينا أوغستي)، أي حتّى زوجة الإمبراطور كانت تدعى بالإمبراطورة، ويدل هذا على أنّ عائلة فيليب العربي كاملةً تمتّعتْ باللقب الإمبراطوري وهذا يشير إلى محبّة السوريين لحكم فيليب الذين تشرّفوا بمنح عائلته هذه الألقاب (الدينية والسياسية)، وأضافوا إليها لقب صانع السلام مع البارثيين (**PAPTHICUS PAX**).

ـ نوع الكتابة:

إنّ الكتابة التي نُقشت على نقود فيليب العربي وعائلته لتشير إلى مسألة غاية في التعقيد نوعاً ما، فنلاحظ وجود نمطين من الكتابة اليونانيّة واللاتينيّة، وبالوقت نفسه استخدام النمطين الكتابيين معاً وفي كلمة واحدة ونبيّن ذلك في الأمثلة التالية:

ـ مارثيا أوتاكيلا: (**MAP. ΩTAKIΛC. CЄOYHPAN. CЄB**) وذلك على نقود أنطاكية. ـ (**OTACILIA. SEVERA**) أوتاكيلا سيفيرا باللاتينية على نقود هليوبوليس.

ـ (**MAP.ΩTAKΛ.CЄYHPAN.CЄB**) نلاحظ في نهاية الجملة التي تذكر اسم أوتاكيلا لقب سيباستوس مكتوباً باللاتينية (**CЄB[ACTOC]**) وهو موازٍ للّقب اليوناني (**ΣЄBACTOC**) بمعنى أوغستي (**AVGVSTI**) أي الموقّرة والمعظّمة، وفي حال كان اسم أوتاكيلا مبتدأً بالحرف (**O**) فإن اللقب هو (**AVGVSTI**)، وإذا كان مبتدأً بالحرف (**Ω**) فإن اللقب هو (**ΣЄBACTOC**) أي بالمعادلة اليونانية الرّومانية.

ـ فيليب العربي: درج اسم فيليب العربي بالكتابة اليونانية (**ΦIΛIΠΠOC**) على برونزيات وتيترادراخمات أنطاكية، وبالكتابة الرّومانيّة اللاتينية (**PHILIPPVS**) على أنطونينيات أنطاكية وبرونزيّات دمشق.

إنّ عملية الدمج بين الكتابتين اليونانية واللاتينية بدأتْ منذ عهد ألكسندر سفيروس (٢٢٢-٢٣٥م)، واستمرّتْ في عهد فيليب العربي لتتضح في الرّبع الأخير من القرن الثالث الميلادي، وذلك بعد أنْ خرج الحكم نهائياً من أيدي السوريين (السيفيريين وعائلة فيليب) التي حكمتْ نصف قرن من الزمن تقريباً وكانت متأثّرة بتقاليد سورية التي ورثتها من الحضارة الإغريقية في العصر الهلنستي ضمن الفترة السلوقيّة.

ـ على الصعيد الديني:

حملت مسكوكات المدن السورية عدّة صور للآلهة الإغريقية والمحلّية يمكن فرزها فيما يلي:

أ ـ الآلهة:

ـ أنطاكية:

حملتْ تيترادراخمات أنطاكية بشكل مستمر نقش النسر وهو تقليد واستمرار للتيترادراخما التي صدرتْ في عهدي أغسطس وتيبريوس ومن ثمّ نيرون والتي أُطلق عليها اسم تيترادراخما النسر السورية على أنّ النسر هو رمز بعلشمين ورسوله، وباليونانية والرّومانية رمز للإلهين زيوس وجوبيتر، وقد ارتبط بتأسيس المدن حين حمل فخذ حيوان كقربان لأجل وضع حجر الأساس على طريق تأسيس المدينة كمدينتي أنطاكية واللاذقية. أمّا برونزيات أنطاكية فقد اتّحدتْ جميعها لتحمل رأس الرّبة تيكة (ربّة الحظ الحسن والمصير السيئ والحامية للمدينة) تضع على رأسها تاجاً ذي أبراج.

ـ اللاذقية:

حملت نقودها نقش الإلهتين تيكة وأثينا (منيرفا الرّومانية).

ـ هيرابوليس:

تميّزتْ نقودها بنقش الرّبة أتارجاتيس تمتطي ظهر سبع، وهذا الرّمز لمْ يبتكر في عهد فيليب العربي بل كان عبارة عن استمرارية وجد بالأصل على نقود القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي.

ـ هليوبوليس:

من نقوش الآلهة التي وجدتْ على عملاتها في عهد فيليب العربي وعائلته الإله هرمس، وواجهات المعابد، والرّايات العسكرية التي سنأتي على ذكرها.

ـ دمشق:

تعددتْ الآلهة التي نقشتْ على نقود دمشق في عهد فيليب العربي إلى جانب نقش الحيوانات، منها: نقش تيكة، نيمفي (ربّة الينابيع والمياه)، خروف أو كبش وقد وجد

على نقود أنطاكية في واجهة معبدها أيضاً لكونه أحد رموز الإله جوبيتر، إلـه نهـر بردى أو نبع الفيجة.

ـ صور:

لدينا نقد برونزي وحيد حمل في مركز الظهر نقش قدموس في قارب ينقل معـه الحروف الأبجدية وما هذا المشهد المنقوش على نقود صور إلا تقليدٌ للمـشهد نفـسه الذي ظهر في عهد الإمبراطور ترايانوس (٩٨-١١٧م).

ـ بصرى:

تميّزتْ بنقش إله واحد يتقمّص شخصيتين هما: زيوس آمون الذي يـضع علـى رأسه قرنين وذو الشرى، وللوقوف عند ذلك فإن زيوس يضاهي بالمـصرية آمـون وعند الأنباط ذو الشرى وقد أدخل البطالمة عبادته إلى سورية كما أدخلوا عبادة الإلـه سيرابيس (إله الموت والعودة إلى الحياة).

ـ واجهات المعابد:

سادتْ على النقود السورية منذ القرن الثاني في زمـن الأنطـونيين (الأبـاطرة الخمس الصالحين) نقش واجهات المعابد إلا أنّ انتشارها على النَقود بسرعة كان قـد حدث في القرن الثالث الميلادي، وقد تميّزتْ بعض المدن السورية بوضـع واجهـات معابدها على نقودها، فأنطاكية على سبيل المثال نقشتْ واجهة معبد رباعي الأعمدة في وسطه نسر يرمز للإله جوبيتر، كذلك اللاذقية لمْ تبتعد عن هذا النقش فقد حملت أيضاً واجهة معبد رباعية الأعمدة في وسطه نقش نسر، بينما نقشتْ سيرهوس على نقودها واجهة معبد سداسية الأعمدة في وسطه تمثال زيوس كاتيباتوس، فـي حـين نقـشتْ نيابوليس واجهة معبد جيروزيم مرفوعاً على قمّة جبل وعلى القمّة الأخـرى صـورة مذبح مشابهاً للنقش الذي ظهر على نقود ماكرينوس (٢١٨م) وألكـسندر سـفيروس (٢٢٢-٢٣٥م)، ونلاحظ في دمشق العديد من أشكال واجهات المعابد ثنائية الأعمـدة المقامة على شرف الرّبة تيكة، إلا أنّ أهمها واجهة معبد الفيجة وهـي عبـارة عـن

واجهة معبد مقامة فوق قوس يخرج منه الماء وبوسطه إله نهر نبع الفيجة وهي وثيقة توثّق لشكل المعبد وقدسيته وأهمّيته، إلا أنّ أكثر واجهات المعابد جماليةً ما نُقش على نقود هليوبوليس التي حملتْ واجهة معبد زيوس وهرمس.

ـ الرّايات العسكرية:

نُقشتْ الرايات العسكرية على نقود هليوبوليس ودمشق في عهد فيليب العربي وعائلته، وقد جاءتْ هذه الرّايات برفقة الثيران مرفوعة على ظهورها، أو مع النسور أو فوق ظهر الذئبة أو أمام وخلف رأس الربّة تيكة، ففي هليوبوليس تمّ نقش رايتي الفرقتين الثالثة الغالية والخامسة، وفي دمشق نقش الفرقة السادسة فيراتا، ويبدو أنّ نقش الفرقتين الثالثة والخامسة على نقود هليوبوليس كان هدفه حماية سهل البقاع أمّا بالنسبة لدمشق فهدفه حماية المنطقة الشرقية منها لا سيّما عندما كُشف عن نصب تذكارية وشواهد قبور لعسكريين من هذه الفرق منتشرة شرق دمشق بالقرب من الغزلانية.

ـ الألعاب الرياضية:

تعتبر دمشق المدينة الوحيدة من بين المدن السورية التي حملتْ نقودها في عهد فيليب العربيّ وعائلته نقوشاً تشير إلى الألعاب الرياضية كنقش إكليل من ورق الغار وبداخله العبارة التي تشير إلى الألعاب الرياضية أو جرّة تخرج من فتحتها العلوية سعفة نخيل، ونستذكر أنّ الخطيب نيكولاس الدمشقي هو من اقترح على الإمبراطور أغسطس إقامة الألعاب الرياضية بدمشق والمدن السورية وقد بنيّتْ لأجل ذلك الملاعب بالقرب من المدن.

ـ على الصعيد الاجتماعي:

لمْ تحظ أيّة نقود في العالم الرّوماني مثلما حظيتْ به نّقود المدن السورية من ناحية نقشها صوّر عائلة فيليب العربي، فقد تعدّدتْ الصور وتنوّعتْ في أنطاكية ودمشق وفيليبوبوليس ونيابوليس، وهي تقدّم لنا انعكاساً هامّاً لما نقشته المدن السورية من صور العائلة السيفيرية سابقاً على نقودها.

الهوامش

(١) حمدان، عبد المجيد، **الإمبراطور فيليب العربي**، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢٠٠٤م. ص ٧٨...

(٢) حمدان، عبد المجيد، ٢٠٠٤م. ص ٧٨...

(٣) بخصوص التنظيم المعماري وتاريخ عمارة المدن السورية، فقد صدر حديثاً الكتابان: (عبد الكريم، مأمون: **الآثار الكلاسيكية في سورية**. جامعة دمشق ٢٠٠٩م). و(الخضر، عبد المعطي: **تاريخ العمارة**. جامعة حلب ٢٠٠٦م).

(٤) **BELLINGER. A, 1940;** The Syrian Tetradrachmes of Caracalla and Macrinus, ***The American Numismatic of Society.*** New York.

(٥) **HEAD. B. 1911;** Barclay, V, Head, ***Historia Numorum***, Oxford.

(٦) أرتميس، هي أخت الإله أبولو، ابنا زيوس، وهي ربة الصيد، تتمثل ممسكةً بقوسها وجعبة نشابها، كما تعتبر معينة النساء عند الوضع. عُرفت باسم ديانا أيضاً، من رموزها الغزال، وقصة أكتيون الذي حولته إلى وعل، وجعلت كلابه تطارده وتنهشه، بعد أنْ رآها أكتيون تستحم في مغارة، فعاقبته بفعل ذلك. انظر: (**B. Ernest:** Les Monnaies Grecques. Paris. 1921. P24-92). هذا وتدعى إيفس باسم (أفسوس)، وهي مدينة تقع بالقرب من مصب نهر كايستر، كما أنّها كانت واحدة من أعظم المدن الأيونية وأهم موانئها. انظر: (مكاوي، فوزي: تاريخ العالم الإغريقي وحضاراته من أقدم العصور حتى العام ٣٣٢ ق.م. الدار البيضاء. ١٩٨٠م).

(٧) سيرهوس: تعرف اليوم باسم النبي هوري، نقبت فيها سابقاً بعثة فرنسية (١٩٥٢م)، وتنقب فيها حالياً بعثة وطنية سورية ــ لبنانية بقيادة جانين عبد

المسيح. وقد ازدهر هذا الموقع في الفترة الهلنستية في عهد أنطيوخوس الرابع أبيفانس، ثم في القرن الثاني الميلادي، وبلغ الذروة في الفترة البيزنطية. كشفت التنقيبات فيه عن العديد من المنشآت المعمارية الرومانية أهمها المسرح، ولوحات الفسيفساء من الفترتين الرومانية والبيزنطية، والمدافن والقبور والبيوت.

(٨) بابلون. جان: ١٩٨٧م. ص ١٨

(٩) **COMMELIN. P, 1837**, ***Mythologie Grecque et Romaine***. Paris. p.115

(١٠) هرمس: هو ابن الإله زوس ومايا. ولد في أركاديا، كان يحمي المسافرين ويعتبر إله التجارة، كما يقود أرواح الموتى إلى العالم الآخر. ينسب له ابتكار المقاييس والأعداد وحروف الهجاء، وهو إله المكر والدهاء والسرقة، من رموزه الكادوس (العصا) التي يلتف حولها ثعبانان، وقبعته المجنحة التي تخفيه، وصندله ذو الأجنحة الذي ينتعله.

(١١) كانت **(Tyche)** تيكة تُعبد على قمة جبل الأولمب، ومن رموزها قرن الوفر **(Corne d'abendance)**، وهو قرن العنـــزة البرية الإلهية المسماة (أمالتيه) التي رضع زيوس من حليبها.

(١٢) زيوس: كبير آلهة اليونان وجبل الأولمب، أبوه كرونوس إله الزمن.

(١٣) مكاوي، فوزي ١٩٨٠م. **تاريخ العالم الإغريقي وحضاراته من أقدم العصور حتى العام ٣٣٢ ق.م**. الدار البيضاء.

(١٤) ينسب للإمبراطور فيليب العربي بناء عدة معابد في سورية بحسب نصوص التدشين أو التواريخ، كمعبد دورا أوروبوس المؤرّخ على العام ٢٤٦م، ومعبد شهبا، ومعبد الضمير المؤرخ على العام ٢٤٥م، وكذلك معبد حرّان العواميد بالمقارنة مع معبد شهبا حسب رأي:

Weber.Thomas. 2006. p.34.

كما يرى موريس سارتر في كتابه (من الإسكندر إلى زنوبيا) أنه يوجد الكثير من المعابد في زمن الإمبراطور فيليب العربي، الممثلة على النقود الدمشقية (**Sartre**. **(Maurice, 2001.** p.686.

(١٥) **Rey-Coquais**. Jean. Paul. 1989, La Syrie de Pompée à Dioclétien, Histoire Politique et administrative, ***Archéologie et Histoire en Syrie***, édit par J.M. Denetzer, Saarbrücken. pp.45-61.

(١٦) تشير دراسة نقود دمشق إلى أن اسمها كان يُكتب على النقود البرونزية الصادرة في عهد ألكسندر سفيروس وحتّى فيليب بالكتابة اللاتينية، مع كتابة الحرف الأول من اسمها بالإغريقية (Δ). انظر:

Augé. Christian, 2003. p.80, Rémanences hellénistiques dans les monnayages provinciaux de Syrie et d'Arabie. **Revue Numismatique**. Vol139 et **AUGÉ. C, 1989**, Christian Augé, la Monnaie en Syrie à l'époque hellénistique et Romaine, ***Archéologie et Histoire de la Syrie.*** Édit par J.M. Dentzer. Saarbrücken.

(١٧) **De Saulcy**, F, 1874, Numismatique de la terre sainte, Paris, p.46

(١٨) اكتشف النقد من قبل البعثة الوطنية العاملة في قلعة دمشق عام ٢٠٠٣م في منطقة (**C.D17**).

(١٩) الوزن ١٨,٦٧غ. القطر ٢٩مم.

(٢٠) **De Saulcy**. 1874. P.46 et **WROTH, Warwick, 1899,** ***Catalogue of the Greek coins of Galatia, Cappadocia, and Syria***, London.

(٢١) حتي. فيليب. ١٩٥٨. ص ١٨٨.

(٢٢) سلهب، زياد وخالد، كيوان، ٢٠١١م. **المسكوكات القديمة**. جامعة دمشق، الطبعة الأولى. و زهدي، بشير.١٩٧٦م، **أقدم النقود الدمشقيّة**، الحوليّات الأثريّة العربيّة السوريّة، المجلد ٢٦.

(٢٣) كيوان، خالد ٢٠١٠م. **إنتاج المسكوكات وتداولها بدمشق وريفها في الفترة** الرومانية من القرن الأول إلى الثالث الميلادي، دمشق.

(٢٤) **Seyrig, Henri, 1959,** Les Monnaies de la Décapoles, *SYRIA*, p.74.

المراجع

ـ المراجع العربيّة:

ـ بابلون. جان. ١٩٨٧م.

إمبراطوريات سوريات، تاريخ فترة التأثير السوري بالإمبراطورية الرومانية. ترجمة يوسف شلب الشام. الطبعة الأوّلى، دمشق.

ـ حمدان، عبد المجيد. ٢٠٠٤م.

الإمبراطور فيليب العربي، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٨٥/٨٦/.

ـ زهدي، بشير.١٩٧٦م.

أقدم النقود الدمشقيّة، الحوليّات الأثريّة العربيّة السوريّة، المجلد ٢٦.

ـ حتي، فيليب. ١٩٥٨م

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأوّل.

ـ كيوان، خالد ٢٠١٠م.

إنتاج المسكوكات وتداولها بدمشق وريفها في الفترة الرومانية من القرن الأوّل إلى الثالث الميلادي. دمشق، وزارة الثقافة.

ـ زياد سلهب وخالد، كيوان ٢٠١١م.

المسكوكات القديمة. جامعة دمشق، الطبعة الأوّلى.

ـ مكاوي، فوزي١٩٨٠م.

تاريخ العالم الإغريقي وحضاراته من أقدم العصور حتى العام ٣٣٢ ق.م، الدار البيضاء.

ـ المراجع الأجنبيّة:

Augé. C, 2003
Christian Augé, Rémanences hellénistiques dans les monnayages provinciaux de Syrie et d'Arabie. **Revue Numismatique**. Vol139.

Augé. C, 1989

Christian Augé, la Monnaie en Syrie à l'époque hellénistique et Romaine, ***Archéologie et Histoire de la Syrie.*** Édit par J.M. Dentzer. Saarbrücken.

BELLINGER. A, 1940

Alfred. Bellinger, The Syrian Tetradrachmes of Caracalla and Macrinus, ***The American Numismatic of Society.*** New York.

COMMELIN. P, 1837.

Pierre Commelin, ***Mythologie Grecque et Romaine***. Paris

De Saulcy, F, 1874
Numismatique de la terre – sainte, Paris.

HEAD. B. 1911.

Barclay, V, Head, ***Historia Numorum***, Oxford.

Rey-Coquais. Jean. Paul. 1989

La Syrie de Pompée à Dioclétien, Histoire Politique et administrative, ***Archéologie et Histoire en Syrie***, édit par J.M. Denetzer, Saarbrücken. pp.45-61.

Sartre. M, 2001
Maurice Sartre, **D'Alexandre a' Zénobie. IV** siècle av. J-.C – **III** siècle ap. J-.C. Paris.

SERIGE. Henry, 1959
Les Monnaies de la Décapoles, *SYRIA*, p.74.

Weber. M.T, 2006
Thomas. M. Weber, **Sculptures from Roman Syria in the Syrian National Museum at Damascus**. Volume I. Worms.

WROTH. W, 1899.

Warwick, Wroth, ***Catalogue of the Greek coins of Galatia, Cappadocia, and Syria***, London.

الصراع بين الفرس والأحباش على حيازة اليمن في القرن السادس الميلادي

الدكتور محمود فرعون

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

مقدمة:

إذا أردنا أن نتفحص الخلفية الاقتصادية والسياسية للتنافس من أجل حيازة اليمن، علينا الرجوع للوراء إلى القرن الأول قبل الميلاد، عندما سيطر الرومان على الحوض الشرقي للبحر المتوسط، فحاولوا احتلال اليمن بإرسال حملة ايليوس غاليوس عام ٢٤ ق.م، التي انتهت بالفشل. لكن ذلك لم يثنهم عن زيادة نشاطهم التجاري في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وخاصة بعد اكتشاف الرياح الموسمية المنتظمة في القرن الأول الميلادي.

وقد تزايد الطلب تدريجياً في الإمبراطورية الرومانية، خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين، على الحرير الطبيعي والأحجار الكريمة والتوابل الشرقية بالإضافة إلى اللبان والمر، وفي هذه الحقبة ظهرت مملكة أكسوم* في شرق إفريقيا، كياناً سياسياً قويا ينافس مملكة حمير الناشئة في الجهة الأخرى من الشاطئ المقابل. وكانت تلك

المنافسة تهدف على السيطرة على التجارة المارة عبر البحر الأحمر وموانئه، التي كانت أكثر الشواطئ انتعاشا من الناحية التجارية. وبحكم تلك المنافسة كان حكام أكسوم يدخلون مع ملوك اليمن في صراع تارة وفي تحالف تارة أخرى، حسب ما تقتضيه الظروف، إلا أنهم ظلوا يتطلعون بعين الطامع صوب اليمن القديم، ويترقبون أي اختلال سياسي ليتسللوا على إثره إلى المناطق الداخلية في اليمن. وقد نجح الأحباش في بسط نفوذهم على بعض مناطق تهامة في القرنين الثالث والرابع الميلاديين لفترات قصيرة، مستغلين ظروف الحرب الداخلية بين سبأ وحضرموت من ناحية والدولة الحميرية من ناحية أخرى(١).

وخلال القرن الخامس الميلادي اختفت التحرشات الحبشية بسبب توحيد البلاد وقيام الدولة المركزية في اليمن. أما في القرن السادس الميلادي فقد بدأت الصراعات والخلافات تدب في أوصال الدولة الحميرية، وظهر الأحباش كقوة من جديد، وبدعم كبير من بيزنطة حاولوا احتلال اليمن، واستخدمت الديانتان المسيحية واليهودية كوسيلة من وسائل الصراع السياسي والاقتصادي بين الأحباش والحميريين.

يمكن التعرف على أحداث القرن السادس الميلادي من خلال بعض المصادر، فمثلاً نقش (Ry 510)، الذي يعود تاريخه لعام ٥١٦ م، يتحدث عن حملة قام بها الملك معد يكرب يعفر إلى وسط الجزيرة العربية لقمع تمرد، وانتهت الحملة بعقد اتفاقية مع المنذر الثالث ملك الحيرة، الذي قبل بدفع جزية (٢). ثم انتقل الحكم إلى يوسف أسأر (ذو نواس)**، الذي اعتنق اليهودية وانتهج سياسة مغايرة لسياسة سلفه وسعى لتخليص المناطق اليمنية من النفوذ الحبشي والمصالح البيزنطية، فاستخدم الشدة في معاملة التجار المسيحيين حلفاء الأحباش وضد القبائل اليمنية الموالية لهم كقبائل عك والأشاعر بتهامة. وبسبب تلك السياسة قل تعامل التجار البيزنطيين مع الموانئ اليمنية وتضررت المراكز التجارية، وبنفس الوقت وصل الأسقف توما إلى الحبشة وأخبرهم عما يعانيه المسيحيون في حمير من اضطهاد ومضايقات، لذلك أرسل ملك الحبشة إلى

ملك حمير معاتبا: " أنت قمت بعمل سيء بقتل التجار المسيحيين الرومان وعطلت التجارة وحبست الضرائب عن مملكتي والممالك الأخرى"[٣]، وكان ذلك سببا لقيام الحرب بين الطرفين.

الحرب الحبشية الحميرية الأولى :

في حزيران من عام ٥١٧ م نزلت القوات الحبشية في ميناء المخا على البحر الأحمر دون أي مقاومة من قبل الحميريين، وقد لقيت ترحيباً من قبل المسيحيين هناك، ثم اتجهت هذه القوات نحو العاصمة الحميرية ظفار، فسيطرت عليها وفر الملك الحميري يوسف أسأر إلى الجبال لتجميع قواته. أما ملك الحبشة فقد عاد إلى الحبشة بعد أن ترك قواته في ظفار وفي بعض المواقع على الساحل[٤].

ومع نهاية العام بدأ يوسف (ذو نواس) العمليات العسكرية ضد الأحباش مستغلا فصل الشتاء، الذي لا تستطيع فيه القوات الحبشية الحصول على إمدادات عن طريق البحر، وكان عليه خوض صراع ليس فقط مع الأحباش بل مع عدة مناطق من الدولة الحميرية التي لم تكن أصلا معترفة بسلطته. كان الصراع بين يوسف وأعدائه ضارياً وعنيفا، واستمر أكثر من عام، وعن هذا الصراع يتحدث النقشان (Ry 507) و(Ry 508) اللذان وضعا بأمر شرحئيل يقبل قائد جيش الملك يوسف، الذي قام بتسجيل كافة الانتصارات التي حققها سيده على الأحباش في هذين النقشين[٥].

يذكر النقشان أن الملك يوسف قام بجمع قواته والهجوم على العاصمة الحميرية ظفار فقتل الأحباش واستولى على الكنيسة وأحرقها بمن كان فيها من الأحباش الذين لجؤوا إليها وكان عددهم نحو ٢٨٠ شخصا، وتوجه بعدها إلى تهامة لمحاربة الأشاعر فأخضع حصن شمير والمخا وبعض المناطق الساحلية الأخرى ليضمن قطع طرق الإمدادات الحبشية، التي قد ترسل عن طريق البحر.

وهكذا تمكن الملك الحميري من بسط سلطته على المنطقة الساحلية بالكامل، وورد في النقش (Ry 508) نتائج الحملة كالتالي: عدد القتلى (١٣٠٠٠ قتيل)، والأسرى (٩٥٠٠ أسير)، وعدد المواشي التي غنموها (٢٨٠٠٠٠ رأساً من الماشية والجمال) (٦).

وبعد إخضاع المنطقة الساحلية استلم القائد شرحئيل أمراً من الملك للتوجه على رأس حملة إلى نجران، وقد اشتركت في هذه الحملة قوات كبيرة من قبائل همذان وكندة ومراد ومذحج والبدو.

ويمكن القول أن قوات شرحئيل لم تلق أي مقاومة على امتداد الطريق من المخا إلى نجران، لأن هذه المناطق لم تكن واقعة ضمن مراكز التأثير المسيحي في اليمن، أو أن سكان هذه المناطق وجدوا في قوات شرحئيل المنقذ لهم من الهيمنة الحبشية. أما الملك يوسف (ذو نواس) فقد بقي على الساحل وانشغل ببناء التحصينات تحسباً من أي هجوم حبشي مباغت. وبعد أن اطمأن لعدم وصول أية إمدادات حبشية إلى الساحل اليمني توجه إلى نجران للالتحاق بالحملة التي أرسلها إلى هناك، والتي كانت تحاصر المدينة، وبدأ بمفاوضة وجهاء مدينة نجران، الذين وافقوا على الاعتراف بسلطته. وحول هذه الأحداث يتحدث كتاب الحميريين عن ذلك فيقول: "وصل يوسف (مسروق) إلى أسوار نجران المحاصرة، فخرج ١٥٠ شخصاً من وجهاء المدينة لمقابلته، فاستقبلهم معاتباً وقال: لماذا تمردتم علي؟، ألا تعرفون أنني الملك؟ وكرر اتهامه لهم بعدم الطاعة والولاء، وطالبهم بإحضار كل ما بحوذتهم من ذهب وفضة(٧)، وكان الحصول على الذهب والفضة من أهم مطالب يوسف...، ورغم خضوعهم لمطالبه إلا أنه أمر بقتل أغلب زعماء نجران وكل المسيحيين والرهبان رجالاً ونساءً، وأحرق بعضا منهم أحياء في الكنائس، وأعدم البعض الآخر في وادٍ خارج المدينة"(٨). هذا وقد أوردت المصادر قائمة بالشهداء الحميريين الذين استشهدوا في نجران ***.

ويعود السبب في قتل يوسف للزعماء والمسيحيين في نجران لأنهم كانوا مسيطرين على التجارة ومتحالفين مع الحبشة وبيزنطة، وقد أراد القضاء على الزعامات الكبيرة في نجران واستبدالها بزعامات مطيعة له، ثم تابع يوسف حملته في القضاء على نفوذ الأحباش في المدن اليمنية الأخرى مثل حضرموت ومأرب وغيرها.

إن اضطهاد يوسف للمسيحيين كان له أهدافٌ سياسية واقتصادية، أراد منه القضاء على الأوساط المرتبطة اقتصاديا بشكل مباشر بالأحباش وبالتجارة البيزنطية.

ويمكن التساؤل: لماذا لم يرسل الأحباش أي إمدادات عسكرية إلى نجران؟

مما سبق نستتنج أن الملك الحميري قد استعد لهذا، فأمر ببناء القلاع والحصون على طول المدن الساحلية، كما أن الوقت الذي نفذ فيه عملياته العسكرية نهاية عام ٥١٨ م كان ملائما، حيث أعاق هبوب الرياح إمكانية نقل أي إمدادات عسكرية عن طريق البحر، أو أن الأوضاع في الحبشة لم تكن ملائمة، حيث كانت الحبشة تعيش صراعا سياسياً، وخلافاً بين الأميرين أكسوم وأدوليس على السلطة(٩).

ومع نهاية عام ٥١٨ م أخضع الملك يوسف كافة مناطق الدولة الحميرية لسلطته، وتم بسط الأمن والاستقرار داخل البلاد، وتطلع بعدها إلى تعزيز وضعه الداخلي بالبحث عن دعم له من الخارج، فاتجه إلى الحيرة عاصمة اللخميين وحليفة بلاد فارس لتشكيل حلفٍ معادٍ للبيزنطيين والأحباش. وتشير المصادر أن يوسف أرسل وفوداً إلى ملك الفرس والى المنذر الثالث ملك الحيرة يخبرهما عما فعل بالمسيحيين في بلاده ويطلب منهما الضغط على النصارى في بلديهما (١٠).

وفي هذه الفترة كان قد وصل إلى الحيرة سفراء كل من بيزنطة وفارس والحبشة، وفي الحيرة قُرِئت رسالة يوسف (مسروق) إلى المنذر أمام زعماء القبائل وبحضور جميع السفراء، الذين تواجدوا في بلاط المنذر آنذاك، وكان من عداد الحاضرين إبرام مبعوث جوستين قيصر بيزنطة وشمعون بطرس الأرشامي مبعوث ملك الفرس،

بالإضافة إلى سرجيوس أسقف الرصافة وآخرين، وحرص كل وفد على اجتذاب ملك الحيرة إلى جانبه، وكان القرار الحاسم للملك المنذر في هذا الشأن موضع ترقب واهتمام كل الوفود.

نجح السفير البيزنطي أبرام في إقناع الملك المنذر بعقد اتفاق سلام معه، وفي نفس العام تم عقد معاهدة سلام مع الفرس عام ٥٢٤م، وهكذا حققت الدبلوماسية البيزنطية هدفها في عدم حصول ملك حمير على أي دعم من الحيرة أو فارس(١١).

وبعد ذلك وجه جوستين قيصر بيزنطة رسالة إلى ملك الحبشة كالب أقنعه فيها بضرورة القيام بعملية عسكرية ضد ملك حمير، ووعده بالدعم، لأن بيزنطة تضررت من سياسة مسروق.

الحرب الحبشية الحميرية الثانية:

تأخر رد فعل الأحباش حتى عام ٥٢٥ م، حين قام ملك الحبشة كالب بقيادة حملة عسكرية، وبمساعدة السفن البيزنطية الموجودة في البحر الأحمر، بغزو اليمن. وتذكر المصادر بالتفصيل كيف وصلت السفن الحبشية إلى مكانين على الشاطئ العربي، وكيف نزل الجنود من السفن واصطدموا مع الجيش الحميري على الشاطئ، وانتهت المعركة بمقتل ملك حمير وانتصار الجيش الحبشي(١٢).

وبعد سيطرة الجيش الحبشي على صنعاء واحتلال بقية مناطق اليمن، عين عليهم ملكاً يمنياً هو اسميفع أشوع، الذي ينتمي إلى القبائل اليزنية، وقد اختاره النجاشي**** من نصارى حمير ليكون ملكاً، على أن يدفع إلى الأحباش جزية سنوية(١٣)، كما ورد اسم اسميفع في نقش حصن الغراب(١٤).

لم يطل حكم اسميفع أشوع فقد ثار عليه بعد ٦ سنوات الجنود الأحباش الذين كانوا باليمن ونصبوا بدلاً عنه أبرهة(١٥). لم ترض هذه الأحداث ملك الحبشة، الذي أراد

استعادة الحكم من أبرهة فأرسل حملتين ضده، لكن دون جدوى، وانضم جنود الحملتين إلى أبرهة. وبعد وفاة النجاشي قام أبرهة بعقد صلح مع خليفته، وتعهد أبرهة بدفع جزية سنوية مقابل اعتراف الملك الحبشي الجديد به نائباً له باليمن.

وهكذا عزز أبرهة وضعه داخل البلاد، وأخضع الثائرين عليه وقام بترميم سد مأرب عام ٥٤٣ م.

سجل أبرهة أهم الأحداث التي جرت في نقشه الشهير كوربوس (CIH 541) على جدار سد مأرب، فذكر فيه كيف تم إخضاع الثائرين عليه، وتكاليف ترميم السد، وذكر وصول سفراء الدول إليه لتهنئته بتوليه الحكم وبحث المصالح المشتركة، ومن هؤلاء سفيرا ملكي الحبشة والروم، ووفد ملك فارس، ورسل المنذر اللخمي، ورسل الحارث بن جبلة الغساني، ورسل أبي كرب بن جبلة [١٦]. فتسجيل وصول السفراء يدل على مكانة وأهمية حمير بالنسبة لدول الجوار.

تشير المصادر بأن أبرهة وجه جهوده لنشر الديانة المسيحية ببلاد العرب من خلال نشر المذهب الخلقدوني (البيزنطي)، المغاير لمذهب الطبيعة الواحدة للمسيح، الذي كان سائداً في حمير والحبشة. وهذا التحول كان له أبعاد سياسية مما يعني أن أبرهة اتجه نحو بيزنطة بدلا من الحبشة، ولترسيخ الديانة المسيحية قام أبرهة ببناء الكنائس ومن أشهرها كنيسة القليس التي بناها في صنعاء، والتي كانت تعد من أضخم الكنائس في ذلك العصر[١٧]. وتورد المصادر أن أبرهة قام بحملتين أو أكثر، الأولى هي حملته سنة ٥٤٧ م إلى ديار قبيلة معد وسط الجزيرة العربية، وهي موثقة بنقش (RY 506). أما الثانية فكانت موجهة إلى مكة حوالي عام ٥٧٠ م أو قبل ذلك بقليل، أي في أواخر فترة حكم أبرهة، لكنه لم يتمكن من الوصول إليها[١٨].

طبقاً للمصادر العربية كانت حملة أبرهة (الفيل) موجهة ضد مكة بهدف تحطيم الكعبة وتوجيه الحجاج إلى الكنيسة المسيحية (القليس)[١٩]. ويمكن القول أن بيزنطة نجحت

في تحريض أبرهة، حاكم اليمن، للقيام بغزو وسط الجزيرة العربية والحجاز تحت هدف إخضاع قبائل وسط الجزيرة وبسط سيطرة الأحباش عليها، ولوضع الطريق التجاري بين اليمن والشام تحت سيطرتهم. ومن الممكن الافتراض أن بعض حملات أبرهة كانت تهدف إلى ربط اليمن ببيزنطة، عن طريق السيطرة على طريق الحجاز وغرب الجزيرة، لتقليص نفوذ اللخميين حلفاء الفرس. وبذلت الدبلوماسية البيزنطية جهوداً كبيرةً لإنشاء تحالف ضد الفرس، يضم الحبشة ومملكة حمير والقبائل العربية، ولتحقيق هذا الهدف أرسلت بيزنطة عدة وفود إلى اليمن ما بين ٥٣٠-٥٤٠ م[٢٠].

تم إعادة فتح الطريق التجاري المار عبر البحر الأحمر باتجاه الهند أمام البيزنطيين والأحباش مرة ثانية، لكن فتح هذا الطريق لم يلغ احتكار التجار الفرس لتجارة الحرير من موانئ الهند. وحسب بروكوبيوس فإن الإمبراطور جوستنيان بعث بوفد إلى أكسوم وطلب منهم أن يشتري الأحباش الحرير من الهنود مباشرة ويبيعونه للرومان للحيلولة دون وصول الأموال إلى أعدائهم الفرس، وقد وافق الأحباش لكنهم عجزوا عن الوفاء بوعدهم، لأن تجار الفرس كانوا يشترون كل الشحنات، وهم المسيطرون على أسواق الحرير، ووسطاء تجارة الحرير بين الصين والغرب، سواء على الطريق البري عبر وسط آسيا، أو الطريق البحري الآتي من سيلان والهند[٢١]. ولم يستطع الأحباش منافسة الفرس، حيث كان أسطولهم التجاري والحربي ضئيلاً، ويدل على ذلك ما سبق ذكره حول طلب الملك الحبشي كالب الاستعانة بالسفن البيزنطية عندما قرر القيام بحملة ضد حمير.

وتختلف المصادر في تحديد تاريخ الحملة التي قام بها أبرهة على مكة، والتي تسمى بعام الفيل، الذي يعتقد أن محمد (ص) ولد فيه، ويميل بعض الباحثين إلى أن الحملة تمت مابين ٥٤٧-٥٧٠ م [٢٢]. إن موقع مكة كان ذو أهمية تجارية كبيرة، ففي موسم الحج تنتشر الأسواق في مكة وضواحيها، لذلك كان هدف حملة الفيل نفس هدف حملة ٥٤٧ م، وهو الاستيلاء والسيطرة على الطرق التجارية وإخضاع القبائل البدوية في

وسط الجزيرة، ومن الجائز أن يكون هدف الحملة أيضا الاستيلاء على التجمعات اليهودية الواقعة قرب مكة، والتي كانت تربطها علاقات وصلات تجارية مع إيران[٢٣].

استمرت سياسة أبرهة وأبنائه من بعده في الاستئثار بالحكم في اليمن، وجردوا الزعامات القبلية من السلطة، وحكموا اليمن بصورة استبدادية ومهينة. لذلك تمردت عليهم بعض القبائل وثار بعض الزعماء، فقام واحد منهم وهو سيف ذي يزن بطلب المساعدة من الفرس لتحرير اليمن من الحكم الحبشي، الذي استمر لأكثر من نصف قرن.

الحرب الفارسية الحبشية في اليمن:

وجد الفرس في طلب سيف ذي يزن المساعدة، سبباً مباشراً لدخول الفرس إلى اليمن، إذ يحقق لهم ذلك القضاء على نفوذ الأحباش حلفاء أعدائهم البيزنطيين، ويبعد هيمنة التجار البيزنطيين عن الموانئ اليمنية. كما أنه يحقق للفرس طموحهم في السيطرة على منافذ البحار في جزيرة العرب، ويؤمن لهم سهولة في تسويق تجارتهم من بيع وشراء في أسواق الجزيرة العربية، وخاصة أنهم كانوا مسيطرين على شواطئ الخليج العرب.

من المرجح أن كسرى كان يطمح للوصول إلى وسط الجزيرة عن طريق اليمن، باعتباره مدخلاً يلتقي فيه مع حلفائه اللخميين، الذين كانوا يسيطرون على جزء كبير من شمال ووسط الجزيرة العربية.

لكل هذه الأسباب أرسل كسرى حملة تختلف المصادر العربية في قوامها، فابن قتيبة يذكر أن الحملة كان قوامها سبعة آلاف وخمسمائة رجل، وكان معظمهم من الديلم[٢٤]، وضم إليهم كل من كان في سجونه من المجرمين، وعين عليهم أحد قواده المشهورين ويسمى وهرز [٢٥].

أما الطبري فيذكر بأن "كسرى أنوشروان بعث بثمانمائة رجل من المساجين وعلى رأسهم أحد قواده وهرز، وسيرهم مع سيف بن ذي يزن" (٢٦).

ومع تضارب الروايات حول الحملة الفارسية يجب أن نذكر بأن كسرى كان يعلم بأن للحبشة قوة كبيرة، ومن ورائها تقف بيزنطة، لذلك ليس من المعقول أن نقبل الروايات التي تذكر بأنه بعث بحفنة من المساجين ليقاتلوا الحبشة ويحرروا اليمن، فمهما بلغت صحة هذه الروايات يمكننا القول بأنه بمجرد وصول القوة الفارسية إلى اليمن سارعت بعض القبائل اليمنية بالانضمام إليها، وشاركتها بالعمليات العسكرية ضد الأحباش، والتي انتهت بانهزام الأحباش وطردهم إلى خارج البلاد أواخر عام ٥٧٥ م (٢٧).

وهكذا تخلص اليمنيون من الحكم الحبشي، وأعلن سيف ذي يزن ملكا على اليمن. ويشير المسعودي أن وفوداً من العرب جاءت تهنئه بالمُلك وبطرد الأحباش من اليمن، ومنها وفد مكة بزعامة عبد المطلب(٢٨).

أما القائد وهرز فقد عاد من اليمن محملاً بالهدايا إلى كسرى، بعد أن عين إلى جانب سيف بن ذي يزن حاكماً فارسياً، يجمع الجزية ويراقب أحوال البلاد، لأن كسرى كان قد فرض عليهم جزية سنوية تدفع له كل عام. غير أن حياة سيف لم تدم طويلا حيث قتله خدمه من الأحباش، أو أن الفرس تآمروا عليه في آراء أخرى(٢٩).

اضطربت الأوضاع في اليمن، مما دفع بكسرى إلى إرسال حملة ثانية قوامها أربعة آلاف مقاتل بقيادة وهرز، فأعادت اليمن تحت السيطرة الفارسية المباشرة، وعين القائد وهرز حاكماً لليمن. وبهذا الشكل أصبح اليمن بعد سيطرة الفرس عليه، يعد القسم الرابع في التقسيم الإداري لمملكة فارس(٣٠)، وتمكن الفرس من السيطرة على أسواق التجارة في اليمن كسوق صنعاء وعدن. وهكذا غدت اليمن جزءاً من الدولة الساسانية.

بعد الاحتلال الفارسي لليمن تناقصت أهمية البحر الأحمر بالنسبة للبيزنطيين والأحباش نتيجة تغير القوى التي استحوذت على اليمن، فحاولت بيزنطة البحث عن

طريق جديد للحصول على الحرير ومنتجات الشرق دون وساطة التجار الفرس، فوجدت في القبائل التركية بوسط آسيا البديل، حيث تعهدت بإيصال الحرير ومنتجات الشرق إلى خرسون والقرم شمال البحر الأسود، حيث المراكز البيزنطية[٣١]. ويذكر أحد المؤرخين أن التقارب البيزنطي التركي هو الذي دفع الفرس إلى إرسال حملة لاحتلال اليمن[٣٢].

إن سياسة الأحباش ومن خلفها بيزنطة فشلت في احتلال اليمن والسيطرة على الطريق البحري المتجه إلى الهند، ولم يستطيعوا منافسة الفرس، الذين نجحوا في تحقيق أهدافهم في السيطرة على اليمن، وعلى الطريق البحري إلى الهند، كما سيطروا على الطريق البري عبر الحجاز باتجاه الشمال، وانتعش الطريق التجاري الذاهب من وسط الجزيرة باتجاه اليمامة وشرق الجزيرة، ثم توج الفرس انتصاراتهم فيما بعد باحتلال سورية ومصر في بداية القرن السابع الميلادي.

المصادر والمراجع

١. الجرو، أسمهان، **التاريخ السياسي لجنوب شبه الجزيرة العربية**، مؤسسة حمادة، إربد، الأردن، ١٩٩٦، ص ٢٤٣-٢٤٤

٢. انظر ترجمة نقش (RY 510) عند بتروفسكي، ميخائيل، **اليمن قبل الإسلام**، ترجمة محمد الشعيبي، بيروت، ١٩٨٧، ص٣٢٦

٣. لوندين، اليمن إبان القرن السادس الميلادي، ترجمة محمد علي بحر، مجلة الإكليل، العددان الثالث والرابع، صنعاء، ١٩٨٨، ص ١٢-١٣

٤. انظر التاريخ المنسوب لديونسس التلمحري، الترجمة الروسية للنص السرياني عند:

Пигулевская. Н.В. Ближний восток, Византия, Славяне, Ленинград, 1976, ст.118.

٥. لوندين، المرجع السابق، ص ٢٠

٦. انظر ترجمة هذين النقشين عند لوندين المرجع السابق، ص ١٦-١٧-١٨

٧. لوندين، المرجع السابق، ص ٢٢

٨. Moberg، A.، The book of Himyarites، fragmentas of a Hitherto unknown syriac work، edited with introduction and translation by Axel Moberg، London، 1924، p. ٢٨.

٩. يعتقد أن الوادي الذي أعدم فيه ذو نواس المسيحيين خارج نجـران هـو نفسه الأخدود، الذي يشير إليه القرآن الكريم في **سورة البروج** (الآيـة ٤-٨)، حـول الأخدود انظر:

-- المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ط٢، دار الهجرة، ايران، ١٩٨٤، ج٢، ص ٥٢

– اليعقوبي، **تاريخ**، طبعة دار صادر، ج١، ص ١٩٩.

١٠.لوندين، المرجع السابق، ص.٢٢، الجرو، المرجع السابق، ص ٢٨٤

١١. Moberg، op.، cit.، p.43.

١٢. Пигулевская. Н.В., Византия на путях в Индию, Москва, Ленинград, 1951, ст.296.

١٣. هناك روايات متعددة في المصادر العربية والسريانية حول مقتل الملك الحميري، للمزيد انظر:

- الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر،١٩٦١،ج٢، ص ١٢٣
- المسعودي، **مروج الذهب**، ج٢، ص ٥٢
- Moberg, op., cit., p.43.

١٤. Procopius of Caesarea, History of The Wars, translated by H.B.Dewing, New York, 1914-1940, 1, p.189.

١٥. عن سميفع أشوع، انظر ما كتبه بافقيه، محمد، في العربية السعيدة، ج٢، ص١٦٦

١٦.كان أبرهة عبداً نصرانياً مملوكاً لتاجر إغريقي في مدينة آدوليس، رافق الحملة الحبشية التي احتلت اليمن عام ٥٢٥م، اختلف مع أرياط قائد الجيش الحبشي، فقتله واستلم مكانه. انظر:

- المسعودي، **مروج الذهب**، ط٢، دار الهجرة، ايران، ١٩٨٤،ج٢، ص٥٢.

- اليعقوبي، **تاريخ**، ج١، ص٢٠٠.

١٧. حول محتويات نقش أبرهة (CIH 541)، انظر الترجمة عند: بيتروفسكي، **اليمن قبل الإسلام**، ترجمة محمد الشعيبي، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٣٣٦

- Пигулевская. Н.В.، 1951، ст.320

١٨. الأزرقي، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس بيروت ط٣، ١٩٨٣، ج١، ص ١٣٧.

١٩. شيبمان، كلاوس، **تاريخ الممالك في جنوب الجزيرة العربية**، ترجمة فاروق اسماعيل، صنعاء، ٢٠٠٢م، ص ٨٨

- وهناك آراء بأن حملة أبرهة المدونة في نقش (RY 506) والمؤرخة بسنة ٥٤٧/٥٥٢ م، هي نفسها حملة الفيل المذكورة بالمصادر العربية. انظر:

- الرميني، عرسان، **حلقة مفقودة في تاريخ مملكة كندة**، مجلة المنارة، المجلد ٤، العدد١، لأردن، ١٩٩٩، ص ٧١

- لوندين، **اليمن إبان القرن السادس الميلادي**، ترجمة محمد علي بحر، مجلة الإكليل، العددان الأول والثاني، صنعاء، ١٩٩٠، ص ٢١-٢٢

٢٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ب ت، ج١، ص ٤٤٢

٢١. Пигулевская. Н.В.، Византия на путях в Индию، Москва، Ленинград، 1951، ст.327

- لوندين، اليمن إبان القرن السادس الميلادي، ترجمة محمد علي بحر، مجلة الإكليل، العددان الأول والثاني، صنعاء، ١٩٩٠، ص ٢٠

٢٢. Procopius، op.، cit.، p.193.

٢٣. لوندين، المرجع السابق، العددان الأول والثاني، صنعاء، ١٩٩٠، ص ٢٢

Пигулевская، 1951، ст.330

٢٤. لوندين، المرجع السابق، العددان الأول والثاني، صنعاء، ١٩٩٠، ص ٢٢

٢٥. ابن قتيبة، كتاب المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار الكتب مصر، ١٩٦٠م، ص٦٣٨

٢٦. المسعودي، المصدر السابق، ج٢،ص٥٥

٢٧. الطبري، **تاريخ الرسول والملوك**، ج٢، ص ١١٧

- ابن منبه، وهب، **كتاب التيجان في ملوك حمير**، نشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ١٩٧٩م، ص ٣١٦

٢٨. يختلف الباحثون في سنة احتلال الفرس لليمن، وأعطوا تواريخ تتراوح ما بين عام ٥٧٠-٥٧٦م، انظر:

- كرستنسن، آرثر، **ايران في عهد الساسانيين**، ترجمة يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص ٣٥٨
- بتروفسكي، ميخائيل، **اليمن قبل الإسلام**، ترجمة محمد الشعيبي، بيروت، ١٩٨٧، ص ٨٠
- علي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، بيروت، ١٩٦٩، ج٣، ص ٥٢٧.

٢٩. المسعودي، المصدر السابق، ج٢،ص٥٨

- الأزرقي، المصدر السابق، ج١، ص ١٤٩

٣٠. الطبري، المصدر السابق، ج٢، ص١١٧-١٢١

- ابن الأثير، المصدر السابق، ج١، ص ٤٥٠

- مرعي، عيد، **تاريخ الجزيرة العربية القديم، مكتبة الخبتي بيشة**، ٢٠٠٤، ص ٦٦

٣١. الطبري، المصدر السابق، ج٢، ص ٩٩

٣٢. هايد، ف، **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى**، ترجمة أحمد محمد رضا، مصر، ١٩٨٥م، ج١، ص٢٩

٣٣. Harmatta, Janos, The struggle for the possession of South Arabia between Aksum and The Sasanians, Accademia Nazionale del Lincei, Roma, 1974, tomo 1, p.105

*أكسوم: **مملكة ظهرت في القرن الأول الميلادي في شمال الحبشة ومرتفعات ارتيريا**، ويعود أصول سكانها الى قبائل حبشت العربية، التي هاجرت من جنوب الجزيرة الى شرق افريقيا منذ الألف الأول قبل الميلاد، للمزيد انظر:

– الطيبي، أمين، **الحبشة عربية الأصول والثقافة**، ليبيا، ١٩٩٣م، ص٣٤

الملك يوسف هو: **ذو نواس بالمصادر العربية، ودومنوس بالمصادر البيزنطية، ومسروق بالمصادر السريانية. انظر زكار، خربطلي، تاريخ الوطن العربي القديم، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٠، ص٦٦، الهامش ٤.

*** حول أسماء الشهداء الحميريين، انظر مقالة مار اغناطيوس افرام برصوم، **منارة انطاكية السريانية**، ج١، دار الرها، حلب، ١٩٩٢، ص٤٩-٦٥

****النجاشي لقب أطلق على كل الملوك الذين حكموا الحبشة، كقيصر بيزنطة وكسرى فارس.

جوهر السيف الإسلامي أصله وتطوره

الدكتور محمد شعلان الطيار

قسم الآثار

كلية الآداب

جامعة دمشق

يطلق اسم السيف بشكلٍ عام على كل أداة قتالية ذات نصل طويـــل، بغـــض النظر عن الشكل والتفاصيل التي تباينت طبقاً لمراكز التصنيع أو الاستخدام.

ويعود استخدام السيف بمفهومه البسيط المكون من شريحة معدنية ذات نصل حاد ورأس مدبب إلى الألف الرابع قبل الميلاد، حيث بدأ الإنسان القديم إثر اكتـــشاف معدن النحاس والتعرف على خواصه، بتبديل أدواته الحجرية بالنحاســـية ومـــن ثـــم البرونزية، حيث بدأ بتصنيع رؤوس الـــسهام وأدوات الـــصيد والأنـــصال المعدنيـــة القصيرة ذات الطرف الحاد منذ عصر البرونز، قبل أن يقوم مع بداية الألـــف الثـــاني قبل الميلاد بالعمل على زيادة طول النصل البرونزي إلى الحدّ الأعلى المـــسموح بـــه تقنياً وهو ٩٠ سم.[١] ، والذي كان يتركب من نصل مبسط طويل وحاد، ذي طـــرف مزود بمقبض مغلف يساعد على حمل النصل الحاد واستخدامه كأداة قتال، قبل أن يتم تطويره مع بداية الألف الخامس عشر قبل الميلاد لاسيما في اليونان، قبرص ومصر، حيث زود النصل بواقية اليد الأفقية المتباينة الأشكال، التي مكنت المقاتل من الـــتحكم

بالسيف ومنع انزلاق اليد نحو النصل وصد ضربات الخصم القريبة أثناء الالتحام، مع تأمين أكبر قدر من الحماية لقبضة اليد أثناء القتال من الضربات القريبة المنزلقة على النصل.

غير أن اكتشاف معدن الحديد الأكثر صلابة ووفرة فلزاته وسهولة استخراجها وتصنيعها، قد دفعت الإنسان إلى التحول نحو اعتماده كبديل عن البرونز في صناعة الأدوات لاسيما القتالية (نصال، حراب، سيوف..)، حيث تشير الدلائل الأثرية على قيام الحثيين والمسينين وكذلك شعوب السلت (٧٠٠ ق.م) بتصنيع السيوف الحديدية، التي أخذت تحتل مكان الصدارة في مجال تطور الصناعات الحربية لتلك المرحلة الزمنية، حيث أثبتت جدارتها وكفاءتها القتالية في مقابل سابقتها البرونزية التي كانت تشكل عماد تسليح الجيش المصري في عصر البرونز.

هذا وقد دفعت عملية التنافس بين الصناع والحرفيين إلى الخوض في العديد من التجارب لتطوير المنتج، حيث تم التعرف على الفولاذ الصلب الذي تم تشكيله من خلال إضافة القليل من الرماد الخشبي إلى مصهور الحديد في مرحلة الصهر الأولى، وهو ما أكسب المعدن نوعاً من الصلابة والمقاومة، التي سعى صناع السيوف الفرس والرومان فيما بعد إلى تطويرها، من خلال تنويع الطرائق المعتمدة في تشكيل المعدن وتحويله لإكسابه بعض الصفات الخاصة والمميزة، ولعل أهمها وأكثرها استخداماً التقنية التي تعتمد على أسلوب عجن الخلطة المعدنية وتبريدها، وتحويلها إلى نصال بواسطة الطرق، أو باعتماد أسلوب الدمج واللحام بواسطة الطرق، الذي اعتمده صناع السيوف الرومان (١٠٠ ق.م) في تصنيع السيوف القصيرة المعروفة باسم الكلاديوس gladios التي تراوح طولها فيما بين ٦٠-٧٠ سم. حيث استخدم الصناع أسلوب جمع الشرائط الفولاذية ودمج فلزاتها بواسطة الطرق.

وبالرغم من التطور الجوهري الذي طرأ على مادة صنع السيف خلال الفترات السابقة، فإن القفزة النوعية في مجال الفاعلية القتالية قد تمت على يد شعوب الفايكنغ (القرن ٨-١١ م)، الذين عملوا على تطوير شكل السيف الذي أصبح يتركب من نصل مستقيم وعريض ذي طرفين حادين وذؤابة دقيقة مدببة أو دائرية، بحيث توضع نقطة التوازن فيه على بعد معقول من قائم السيف، الأمر الذي ضاعف من طاقة قوة الضرب والقطع في السيف المحدَّث، وحدَّ من لياقة المقاتل الدفاعية، وهذا ما أوجب على المقاتل استخدام الترس كوسيلة مساعدة في الدفاع والتصدي لضربات الخصم وذلك لصعوبة التحكم بسرعة ارتداد السيف والمناورة به أثناء القتال، الأمر الذي ألزم صناع السيوف الفايكنغ العمل على تطوير نظام حماية إضافي للسيف تمثل في إضافة الشاربين أو واقية اليد التي اتخذت شكل العارضة الأفقية السميكة، التي تعمل على الفصل فيما بين القبضة والنصل، بهدف صد الضربات القريبة من القبضة، ومنع انزلاق اليد المحصورة فيما بين العقب البيضوي المنتفخ وواقية اليد نحو الشفرة الحادة، وتأمين نوع من التوازن للسيف الذي تراوح وزنه فيما بين ١٠٠٠-١٤٠٠غ، وطول ٧٥ سم، وهو ما أكسبه نوعاً من التوازن والفاعلية أثناء القتال؛ الأمر الذي جعل منه أداة التسليح الرئيسة في أوربا قاطبة حتى العصور الوسطى. حيث قام النورمانديون بتعديل شكل واقية اليد (الشاربان)، التي اتخذت الشكل البيضوي المفرغ، الورقة العريضة المدببة الأطراف أو شكل الخطاف، كذلك تم تعديل شكل العقب أو القبيعة من النمط البيضوي المنتفخ إلى نمط ذيل السمكة المشعَّب، الذي استخدم كأداة دفاع ثانوية أثناء القتال.

من جانب أخر فقد ألزمت عملية التطور في أشكال الدروع الحربية وتحولها من نمط الزرد الحلقي القابل للاختراق، إلى نمط الصفائح المعدنية المتراكبة إلى قيام صناع السيوف النورمانديين بتطوير الفاعلية القتالية للسيف بزيادة طوله إلى ٨٥ سم، دون إجراء أي تعديل على الوزن، وذلك من خلال تشكيل نوع من التخديد الأحادي

الطولي على صفحتي النصل، لتخفيف وزنه وإكسابه القدر الكافي من المرونة، هذا إلى جانب تعديل شكل الذؤابة من النمط الدائري إلى النمط الضيق الحاد، الذي يأخذ بالاتساع والعرض مع الاقتراب من واقية اليد، مما يساعد على تحول مركز الثقل إلى الجزء الأخير من السيف، وهذا ما أكسبه قدراً أكبر من قوة الطعن، هذا إلى جانب زيادة طول القائم المنتهي بانتفاخ كروي أو على شكل ذيل السمكة مما سهل على المقاتل استخدام كلتا قبضتيه في التحكم والسيطرة على قائم السيف لتأمين أكبر قدر ممكن من قوة الضرب والقطع والبتر بدلاً عن الطعن. غير أن عملية التعديل المحدثة على طول السيوف أسهمت في الحدّ من قدرة المقاتل الغربي على المناورة السريعة أثناء القتال بسبب تحكم وزن وطول السيف في حركة المقاتل، وذلك على النقيض من السيوف العربية الخفيفة التي تميزت بخفة وزنها ومرونتها ورهافة حدها، المستمد من أسلوب تشكيل الفولاذ المخفف الوزن الذي بقي سراً خفياً عن صناع السيوف الغربيين الذين تابعوا صناعة السيوف الثقيلة الوازنة(٢).

عرف السيف عند العرب كأداة أساسية في القتال والدفاع عن النفس، حيث افتخر العربي باقتنائه والتفاخر بحيازته وتعددت أسماؤه التي كانت تشير في غالبيتها إلى فاعلية السيف واستخدامه أو مكان صنعه؛ والتي عدد الكندي منها في رسالته «السيوف وأجناسها» ما يزيد عن خمسةٍ وعشرين نوعا من السيوف التي صنفت طبقاً لنوع معدنها ومواصفاتها كالحسام، الصمصام، المهند، الصارم، الفيصل، البتار أو طبقاً لمكان تصنيعها كالدمشقية، اليمانية(٣)، القلعية(٤)، الهندية، الخرسانية(٥)، البصْرية، المصرية(٦) والكوفية(٧)، الحيرية..، ويدل ذلك على تنافس المراكز الحضارية خلال تلك الحقبة الزمنية على صناعة السيوف والعمل على تجويدها وتحسينها، بحيث تحوّل السيف إلى قطعة فنية يتفاخر مالكها باقتنائها وحتى تسميتها، إلى الحد الذي أضحى معه السيف ينسب إلى صاحبه كصمصامة عمرو بن معد كرب الزبيدي، ذي الجوهر

المميز المائل إلى السواد، المميز بنصله الصلب أحادي الحدّ الذي قدر عرضه بثلاثة أصابع تامة (٧,٥ سم)[٨].

ومن السيوف المشهورة ما ذكره ابن قيم الجوزية في كتابه: «زاد المعاد في هدى خير العباد» من أسياف الرسول محمد (ص)، منها سيفه المأثور "مأثور الفجار"، وهو أول سيف ملكه وكان قد ورثه عن أبيه عبد الله بن عبد المطلب، وكذلك العضب، والقلعي، والبتار، والحتف، التي غنمها من بني قنيقناع، والرسوب، والمخذوم والمعور والقضيب وذو الفقار[٩].

كما ذكرت كتب الأدب والتراث أسماءً للعديد من السيوف الشهيرة منها: المستلب وهو سيف الفارس الشاعر عمرو بن كلثوم التغلبي، والقرين سيف زيد الخير النبهاني الطائي، والمخدوم والرسوب المفخم سيف الحارث بن أبي شمر الغساني؛ وكذلك ذو الوشاح سيف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والألوق ذي القرط أو القرطبي وهو سيف خالد بن الوليد، والمَلاء سيف سعد بن أبي وقاص، والصد وهو سيف أبي موسى الأشعري، والرقراق سيف سعد بن عباده[١٠].

هذا وقد تعددت أجزاء السيف ومسمياته، التي وردت في الشعر والأدب العربي وهي:

١- الذؤابة: وهو الجزء المدبب من السيف (رأس السيف).
٢- المضرب: الجزء المنحني بين القسم العلوي للشفرة (الغرار) والذؤابة.
٣- الغرار، الضبة، الحد: وهو الجزء المستقيم الأسفل من السيف ويعرف بالشفرة، وقد يكون للسيف غرار علوي أو علوي وسفلي.
٤- الكل: وهو الجزء العلوي غير الحاد والمعاكس للشفرة.
٥- الخلد: صفحة السيف.
٦- النسخ، السنبلة: وهو الجزء المثلث الشكل الذي يربط ويثبت القائم بالصفحة.

٧- الشاربان: القسم البارز الذي يعمل على حماية القبضة.

٨- القائم: مقبض السيف.

٩- السيلان: الحلقات التي تلتف على القائم وتغلفه.

١٠- القبيعة: الجزء المنحني الذي يتركز خلف القائم ويمنع انزلاق السيف من القبضة عند الحركة.

١١- التنسيمات، التوشيحات، السفسفه، ماء السيف، جوهر السيف: مجموعة من التسميات أطلقت على الخطوط والتموجات السوداء التي تظهر على صفحات السيف وتكسبه بصمته وشكله الخاص والمميز الذي لا يمكن تقليده(١١).

تشير الدلائل الأثرية على أن العرب في مرحلة الجاهلية وصدر الإسلام قد استخدموا أنواعاً مختلفة من السيوف المستقيمة القصيرة والخفيفة، التي بقيت قيد الاستخدام حتى القرن العاشر الهجري(١٢)، حيث شاع بعدها استخدم السيف المقوس الذي تميز عن سابقه بكونه أسرع حركة في الرفع والشد والطعن وهو ما تطلبته طبيعة الكر والفر في المعارك و الحروب، هذا إلى جانب تأثر السيف الإسلامي في شكله العام بالعديد من المؤثرات الوافدة إلى المنطقة إثر الغزو المغولي حيث بدأ الصناع بإنتاج نوع من السيوف التي تميزت بنصلها العريض، القليل الانحناء والذي يحمل حداً قاطعاً في ثلثه الأخير، كما قام صناع السيوف بإنتاج أنماط معدلة منها:

١- **الياتاغان أو الياطاغان:** وهو سيف منحنٍ بدون واقية يد، تميز بتملكه لنصل حاد مزدوج الانحناء، بحيث يتفق خط انحناء النصل مع حركة معصم اليد نصف الدائرية أثناء الطعن، ويتركز وزن السيف في الثلث الأمامي منه مما يساعد على تنامي قوة الضرب والقطع والبتر والطعن السريع، وتأمين سهولة في الارتداد والمناورة، الأمر الذي جعل من الياتاغان السلاح الأكثر انتشارا في تسليح الجيوش الإسلامية نظراً لفعاليته في المعارك، قبل أن يشيع استخدامه في أوربا، لاسيما في المناطق التي كانت تخضع للنفوذ العثماني.

٢- **القليج:** تسمية عثمانية تعني القاطع، أطلقت على نوع من السيوف التي شاع استخدامها بين المماليك والعثمانيين في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، والتي تميزت بشكلها الخليط فيما بين السيف المغولي الكالاتشوري والياتاغان، وبطوله الكلي المقدر بنحو (١٠١ سم)، ونصله ذي الحدين الذي يبلغ طوله ٨٥ سم، الذي يكون رفيعا في الثلث الأول منه قبل أن يأخذ بالاتساع التدريجي، في نهاية الثلث الأول من النصل بحيث تشكل نقطة التلاقي زاوية منفرجة واضحة المعالم تؤمن عملية قطع ممتازة، غير أن الطول الزائد للقليج وما رافقه من صعوبة في الحمل والحركة أثناء القتال، لم تجعل منه السلاح المثالي للمقاتلين، وهذا ما دفع بالصناع إلى إنتاج نموذج أخر من سيف القليج الذي تميز بطوله المعتدل.

٣- **الشمشير:** وهو سيف سميك ضيق النصل، ذي شفرة سفلية أحادية، وقائم خفيف بسيط الشكل يتوضع بين الشاربان (واقية اليد الأفقية)، والقبيعة ذات التركيب المنحني أو المنكسر نحو الأسفل على شكل قبضة المسدس، والتي تسهل عملية التحكم بالسيف وتمنع انزلاقه من قبضة اليد خلال المناورات القتالية.

هذا ويشكل العصر الصفوي الفترة الذهبية لصناعة الشمشير في بلاد فارس، حيث برز اسم أسد الله الأصفهاني وابنه عبد عليفي في مجال صناعة الشمشير الذي بلغت صناعته غاية الكمال والروعة والإتقان على يديه، وتضاءلت بوفاته حيث تراجعت مكانة فارس وشهرتها كمركز هام لصناعة الشمشير.

وبالرغم من تعدد مراكز تصنيع السيوف في كافة أرجاء العالم فقد تفاخرت بلاد الشام عامة ودمشق خاصةً بصناعتها للسيوف الممتازة التي فاقت قرينتها، وذلك بسبب تملكها لخاصية أو ظاهرة فنية عرفت باسم الجوهر، الفرند، التموجات، التنسيمات أو البقع المحكمة، ذات اللون الوهاج المائل إلى البياض، الذي يمنح السيف الدمشقي الصلابة والليونة وخفة الوزن والحد القاطع والنصل المقاوم للصدأ ذا

البصمة والسمات الخاصة غير القابلة للتقليد، التي شكلت في مجملها أحد أهم خفايا صناعة السيف الدمشقي ذي الحدً المرهف والمميز، الذي عجز صناع السيوف الصليبيون عن كشف سر صنعه أو تقليده، الأمر الذي دفعهم إلى نسج العديد من الأساطير التي تقدس في مضمونها سر معدنه الإلهي، الذي ارتبط بأسطورة الإله السوري «حدد» إله الصاعقة، حيث قالوا "أن صنّاع السلاح الدمشقيين كانوا ينتظرون أن يشق البرق رحم الأرض ويزرع فيها شيئا من وميضه محدثاً فيها عروقاً معدنية كبيرة، حيث يأخذها الصناع ويعجنوها ويلقونها في النار ويطرقونها ويضعونها في خليط من الماء والزيت، ليصنعوا منها تلك السيوف السحرية التي طافت العالم لبناء صرح الحضارة العربية التي انتشرت في أصقاع الأرض وردّت الأذى والطغيان عن دمشق وكل بلاد الشام، حيث بلغت من فاعليتها ورهافة حدها أن الشعرة كانت تنشطر إلى نصفين عند سقوطها على حد شفرتها، والتي يعود إليها الفضل في انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في المعارك التي خاضها ضدهم"، الأمر الذي دفع بالقادة الغربيين بعد أن عجزوا عن كشف أسرار صناعتها أو تقليدها؛ إلى إرسال التجار إلى بلاد الشام لشراء إنتاجها من الأدوات الحربية لاسيما السيوف الدمشقية الخفيفة المرهفة الحد، التي زخرفت أنصالها بالآيات الكريمة، والأشعار والدعوات، ورصعت مقابضها بالحجارة الكريمة وصنعت لها الأغماد المزخرفة، الباهظة الثمن التي تم اقتناؤها للتفاخر بحملها في المناسبات والمبارزات والمظاهر الاحتفالية الهامة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن صناع السيوف الدمشقيين كانوا قد اعتمدوا في صناعة السيوف على نوع من سبائك الفولاذ الهندي المعروف باسم الووتز wootz، المركب من فلزات الحديد المضاف إليه نسبة ١،٢ – ١،٨% من الفحم، وكذلك القليل من السيليسيوم، المنغنير، الفوسفور، الكبريت ونسبة قليلة من معدن الفاناديوم، التي تسهم في تشكل الفولاذ الصلب، الذي يمر تحضيره بسلسلة من عمليات التسخين

heating والطرق forging وفق تقنية معقدة، تسهم في إكساب صفحات السيوف المصنعة نوعاً من الجمال المصبوغ بالغموض الذي يحيط بسر هذه الحرفة حيث كان صناع الفولاذ الهنود يقومون بصهر فلزات الحديد المضاف إليها نسبة محددة من فحم الخشب النقي ضمن فرن حجري تحت درجة حرارة ١٢٠٠مْ، والذي ينتج عنه قطع الحديد الأسفنجي (المسامي) الخشن، الذي يتم تكسيره وضغط مسامه بواسطة الطرق، ومن ثم يوضع الناتج مع نسبة من كربون الخشب النقي ضمن إناء فخاري محكم الإغلاق داخل فرن حجري حيث يتم صهره، ومن ثم سكبه في قوالب على شكل قطع فولاذية دائرية يتم تبريدها بشكل تدريجي لتشكل أقراص الووتز الفولاذية المعدة للتصدير الخارجي من أجل التصنيع، والتي يعاود الصناع تسخينها مرة أخرى إلى درجة الاحمرار وتشكيلها بواسطة الطرق على شكل نصال وسيوف فولاذية ملساء وصلبة، وهي السمة العامة للسيوف قاطبة الخالية من التنسيمات، وذلك على النقيض من السيوف الدمشقية التي تميزت بجوهرها وتنسيماتها السطحية، المشكلة وفق تقانة تصنيع معقدة هدفت إلى إكساب السيف الدمشقي سماته الخاصة، حيث عمل صناع السيوف الدمشقيون في العصور الوسطى على تطوير تقانة تصنيع أنصال السيوف وإكسابها الصلابة والليونة والحدّ المرهف، وذلك من خلال التغلب على ضعف المادة الصلبة من خلال تشكيل أنابيب شعرية متناهية الصغر تعمل على تخفيف وزن السيف وزيادة مرونته، وامتصاص نسبة من قوة الضرب أثناء المبارزة، مما يساعد على احتفاظ المقاتل العربي بلياقته لوقت أطول من المقاتل الغربي الذي اعتمد السيف الثقيل في معاركه.

ويتم تشكيل الأنابيب الشعرية أو التنسيمات في السيف الدمشقي من خلال زيادة نسبة الكربون الداخلة في خلطة العجينة الفولاذية المصنعة من فولاذ ووتز المستورد، الذي يتم تسخينه وتشكيله بالطرق، ليأخذ شكل النصل المطلوب، قبل أن يعاد تسخينه مرة أخرى تحت درجة حرارة تصل إلى ١٢٠٠مْ. بحيث تتجانس حبيبات

المعدن المشكلة للنصل، ومن خلال العمل على تبريد النصل ببطء شديد خلال عدة ساعات بهدف تشكيل شبكة عنكبوتيه من الخطوط والشعيرات الكربونية ضمن حبيبات الفولاذ المشكلة للنصل، والتي يعمل الصانع على حرقها وتفريغها من خلال قيام الصانع بمعاودة تسخين النصل حتى درجة الاحمرار الدموي أو الرمادي تحت درجة حرارة ٦٥٠ – ٧٥٠ مْ، والتي تعمل على حرق شبكة الكربون وتلاشيها، مخلِّفةً مجموعة من الأنابيب والخطوط الشعرية والتموجات الدقيقة المفرغة التي تكسب النصل الرهافة والمرونة(١٣).

وبالرغم من كون فولاذ ووتز المستورد قد شكل المادة الخام الرئيسة لمعظم صناع السيوف في العالم، فقد عمل الصناع الدمشقيون على تصنيع فولاذهم المحلي الخاص، سواءً من فلزات الحديد المستخرجة من مناجم المنطقة أو عبر إعادة تدوير المخلفات المعدنية وصهرها وتصنيعها مرةً أخرى، حيث وصف الجلدكي الطرسوسي الذي عاش في بلاد الشام في شرحه لكتاب "الحديد" لجابر بن حيان مراحل صناعة الفولاذ المحلي، وكذلك أبو الريحان البيروني في مؤلفه "الجماهر في معرفة الجواهر"، الذي شرح بوضوح طريقة صناعة الفولاذ الدمشقي نقلاً عن كتاب ألَّفه حداد دمشقي، قائلاً: أن السيف الدمشقي كان يصنع من الحديد الدمشقي المحلي المستخرج من مناجم بلاد الشام أو المستورد من الهند، أو من خلال صهر نفايات الحديد كالحدوات، المسامير... في كور الصهر، وسكبه في البواتق ومن ثم إضافة مادة المنغنيز إلى المصهور الحديدي لزيادة لمعانه ومنع أكسدته، هذا إلى جانب إضافة بعض المواد العضوية النباتية كالإهليلج، قشر الرمان، قش الأرز، الخشب أو أوراق الأشجار، التي تقوم بعملية تفحيم الخليط، وذلك من خلال تحويل المواد العضوية إلى فحم يختلط بالحديد الذي يتحول إلى فولاذ، يحمل على صفحاته التنسيمات والتمشيحات، أو الوشي الدمشقي الذي يعرف بجوهر السيف أو الفرند، والذي يظهر على شكل مجموعة من الخطوط الحرة ذات الألوان القزحية، أو على شكل خطوط وبقع دائرية ومتعرجة، أو

تموجات وغيوم لونية، أطلق عليها تسميات مختلفة مثل التنسيمات، السفسفة أو مـاء السيف، وهذا التنوع والتشكيل يكوّن في طبيعته السمة والبصمة الخاصة لكـل سـيف والتي تكون غير قابلة للتقليد، نظراً لارتباطها بنسب العناصر الـشائبة الداخلـة فـي التركيب impurity elements كالكربون، السليسيوم، الكبريـت، الفوسـفور والمـواد العضوية النباتية، وكذلك درجات الحرارة عند الإسقاء والإحماء وهي الطريقة الأولى في التصنيع، أما الطريقة الثانية فتقوم على مبدأ خلط فلزات لمعدنين فـولاذيين، الأول طري والآخر صلب جداً، ويضاف إلى الخليط نسبة من المواد العـضوية، ويـصهر الخليط ضمن بوتقة يتم تسخينها بواسطة الفحم الخشبي النقي، لتحويل المصهور إلـى قضبان فولاذية بيضاء رفيعة، يقوم الصانع بجدلها مع بعضها لتأخـذ شـكل الحبـل الفولاذي المضفور، الذي يتم إحماؤه وطرقه لعدة مرات بهدف إعادة التحام وانـدماج الجدائل الفولاذية فيما بينها لتشكيل الخلد أو نصل السيف الأملس، المزدان بالتموجات والتنسيمات الصغيرة والدقيقة والمميزة الناجمة عن عملية الـدمج بـالطرق، وكـذلك التجمع العشوائي لحبيبات الكربون الناعمة ذات اللـون الرمـادي المائـل للبيـاض والمتقاربة المسافات، التي أخذت تشكل البصمة الخاصة بنصل كل سيف علـى حـدا وذلك طبقاً لتشكيل المعدن، جدل القضبان، الطرق، الدمج...، حيـث كانـت عمليـة تشكيل المعدن المستخدم في صناعة الأنصال الدمشقية التـي تمـر بمجموعـة مـن العمليات الميكانيكية كالإحماء والتشكيل بواسطة الطرق على السندان، التـي تعطـي السيف شكله النهائي المستقيم أو المقوس بلونه الأبيض المائل للسواد، ومن ثم الـشحذ بواسطة حجر الجلخ والمبرد لتشكيل الشفرة أو الطرف القاطع الأحـادي أو الثنـائي، ومن ثم تنفيذ مجموعة الرسوم والنقوش والكتابات على صفحات السيف علـى قاعـدة من التنسيمات أو التمشيحات التي تزين جوهر السيف؛ وذلك قبل أن يقـوم الـصانع بتنظيف النصل بواسطة الأحماض ودهنه بمادة الشحيرة لتثبيت لون المعدن وحمايتـه من الصدأ، ومن ثم تسخين نصل السيف ثانية وسقايته وتبريده بالمـاء إذا كـان مـن

الحديد ليتخذ صلابة الفولاذ أو سقايته بالماء والزيت بنسب متكافئة إذا كان النصل من الفولاذ أصلاً ليكتسب الصلابة في الحد والمرونة في البنيان، وقد تستغرق عملية صناعة نصل السيف ما لا يقل عن ثلاثة أيام، لا يستطيع خلالها الصانع مغادرة ورشته والابتعاد كثيرا عن كور النار لمراقبة المعدن وطرقه وسقايته، بهدف الحصول على جوهر متميز ذي لون مائل للسواد، توضع عليه الرسوم والنقوش وتكتب الأسماء بإشراقٍ مائل إلى البياض، وفي بعض الأحيان يتم تكفيت السيف بخيوط النحاس أو الفضة أو الذهب، في حين تُشكَّل القبضة في الغالب من العاج، أما الغمد فيتم تطعيمه بالصدف والعاج والعظم والأحجار الكريمة.

هذا وقد عملت ورشات تصنيع السيف الدمشقي على إنتاج ثلاثة أنواع من الأنصال ذات الجوهر أو التوشيحات المختلفة، وذلك من خلال التلاعب بنسب الكربون المضاف على الخلطة الفولاذية:

الأول وهو الفولاذ الدمشقي ذو العلامات السطحية، المصنع من المصهور المعدني المضاف إليه نسبة من الكربون (١-٢%)، ويتم من خلال قيام الحدادين بتسخين المصهور وخلطه أو عجنه وهو ساخن لعدة مرات مع التبريد وهذا ما يساعد على تشكل الطبقات الفولاذية المكونة للنصل ويسهل عملية تشكيل الحد المرهف للسيف مع التنسيمات السطحية.

الثاني وهو الفولاذ الدمشقي غير المعلم سطحيا، والذي يصنع بنفس الطريقة السابقة غير أن نسبة الكربون فيه تكون مرتفعة بشكل أكبر والتنسيمات أرفع وأدق وأكثر انتظاما وبساطه نسبة إلى النمط السابق، ولا تظهر بالعين المجردة.

الثالث وهو الفولاذ الدمشقي العسكري أو الحربي، ويتميز بعلاماته السطحية الواضحة، ويتشابه بعلاماته السطحية مع النوع الأول.

هذا إلى جانب إمكانية الحصول على الليونة في الأنواع الثلاثة طبقاً لنسبة الكربون الداخلة في الخلطة وعملية التسقية والتبريد(١٤).

وبالرغم من حيازة دمشق مكان الصدارة في صناعة السيوف فقد انتقلت هذه الحرفة من دمشق إلى حلب ومن ثم إلى مصر والأندلس(١٥). غير أنه وبالرغم من شيوع هذه الحرفة في أقاليم وأصقاع مختلفة من العالم فقد حافظت دمشق على كونها الأهم والأبرز في مجال إنتاج النماذج الراقية من السيوف لاسيما خلال العصر المملوكي، حيث كانت تمد أسواق القاهرة وغيرها من المناطق والأقاليم بحاجتها من السيوف الدمشقية، التي حرص الأمراء والأثرياء وكبار رجالات الدولة من المماليك على حيازتها لشهرتها وجمالها، وبراعة معلمي الحرفة في التفنن بزخرفتها وتزينها باستخدام تقانة التكفيت والتنزيل والترصيع، التي حولت السيف الدمشقي إلى تحفة فنية تعد من مكملات اللباس والمظهر العام للأمراء وكبار رجالات الدولة. وبرز في هذا المجال العديد من العائلات وورشات التصنيع التي اختصت بصناعة السيوف الدمشقية كآل السيوفي، جوهر، الجوهري، المسابكي، الحداد، النحاس، الحفار والطباع وغيرهم؛ غير أن قصب السبق والشهرة كان من نصيب ورشة أسد الله الدمشقي الذي أضحى اسمه مقترناً بنوعية السيوف المنزلة والمكفتة والمرصعة التي كان ينتجها، وكذلك إبراهيم المالكي الذي كان يعد من أشهر معلمي وصناع السيف الدمشقي في نهاية العصر المملوكي(١٦)، حيث صنع عدداً من السيوف الدمشقية الخاصة بالسلطان المملوكي قانصوه الغوري وغيره من رجالات الدولة، ونقش اسمه على أنصال هذه السيوف ووضع ختمه على سيلاناتها؛ كما برز في هذا المجال المعلم المملوكي يوسف صنقر، الذي اعتبرت ورشته من أهم ورش تصنيع السيوف في دمشق حيث تم حصر أكثر من أربعين سيفاً دمشقياً كانت تحمل اسمه، منها السيف الذي صنعه للسلطان المملوكي قانصوه الغوري، وذلك قبل أن يقوم بنقل ورشته من دمشق إلى اسطنبول إثر سيطرة العثمانيين على بلاد الشام ونقل معلمي الحرف إلى عاصمة السلطنة

العثمانية، حيث اشتهر هناك باسم الحاجي صونقور، واحتلت ورشته مكان الريادة في تصنيع السيوف الخاصة بالأمراء والسلاطين العثمانيين الذين أغدقوا عليه بالمكافآت والهبات والخلع(١٧)، غير أنه وعلى الرغم من شهرته التي أطبقت الآفاق، لم يكن اسم الحاجي صونقور مسجلاً ضمن قوائم الصناع العثمانيين الأتراك الأصل، بدلالة عدم تدوين اسمه في سجلات الأرشيف العثماني، بالرغم من الشهرة والمكانة التي وصل إليها، والتي دفعت ببعض ورشات تصنيع السيوف إلى تقليد منتجه، ونقش توقيع حاجي صونقور "المزيف" عليها وترويجها كمنتج أصيل، وبالرغم من ذلك فإن إنتاج السيف الدمشقي لم يتوقف بوفاة حاجي صونقور، بل تابع عمله من بعده ابنه ومن ثم حفيده يوسف سنقر (صونقور) في إنتاج السيف الدمشقي، حيث صنع في العام ١٥٨٥م سيفاً من الفولاذ الدمشقي قدم هدية للسلطان العثماني بايزيد الثاني، هذا إلى جانب عشرة سيوف أخرى وأربعة خناجر قدمت للسلطان نفسه في اثنتي عشرة مناسبة مختلفة.

وعلى الرغم من المكانة التي وصلت إليها صناعة السيف الدمشقي فقد أخذت هذه الحرفة بالتراجع والتدهور بدءاً من القرن الخامس عشر الميلادي وذلك بفعل عوامل عدة، منها قيام القائد المغولي تيمورلنك إثر غزوه لبلاد الشام بإلزام أكثر من خمسة عشر ألفاً من أرباب المهن ومعلمي الحرف ومهرة الصناع السوريين والدمشقيين خاصة على الهجرة إلى عاصمته سمرقند، لاسيما كبار معلمي الحرفة في صناعة السيف الدمشقي، الذين استقروا في سمرقند وغيرها من المدن، حيث أسسوا ورشاتهم وأنتجوا السيوف المدمشقة التي كانت تعرف في شرق آسيا باسم "الازيميني" ومعناها " العجمي"، وكذلك قيام السلطان العثماني سليم الأول بعد ذلك بإلزام من تبقى من أرباب ومعلمي الحرف المبدعين ولاسيما صناع السيوف الدمشقية، على الهجرة إلى عاصمة السلطنة العثمانية لتأسيس ورشاتهم فيها وتصنيع السيوف الدمشقية، التي أضحت السلاح المفضل لدى فرسان الجيش العثماني، حيث عمل معلمو الحرفة

الدمشقيون على تطوير وتصنيع أشكال جديدة من السيوف الدمشقية المزخرفة، المصنعة لرجالات السلطنة، مثل البالا والياطقان وغيرها من السيوف التي ازدانت بالنقوش والكتابات القرآنية، المزخرفة بأقلام الخطاطين المعروفين، والتي لازالت تتصدر معروضات العديد من المتاحف العالمية[١٨]. غير أنه وبالرغم من انتشار ورشات تصنيع السيف الدمشقي في مناطق مختلفة، فقد حافظ الصناع على أسرار صناعة السيف الدمشقي الذي بقي خافياً على ورشات التصنيع الغربية، التي اعتمدت في إنتاجها على تصنيع السيوف الثقيلة غير المعلمة، المصنعة من فولاذ ووتز المستورد أو الفولاذ المصنع محلياً، دون التمكن من معرفة سر جوهر وفرند السيف الدمشقي المتميز، وهذا ما دفعهم إلى استيراد هذه السيوف دون القدرة على إنتاجها.

هذا وقد جهد العديد من الباحثين والعلماء المعاصرين إلى الخوض في غمار البحث والتحري لكشف هذا السر الغامض الذي أكسب السيف الدمشقي جوهره المميز[١٩]، ومنهم جان روبرت بريانت Jaen Robert Breant، الذي نشر دراسة علمية تحت عنوان «وصف طريقة للحصول بواسطتها على نوع من فولاذ السيوف الشرقية المدهشقة»؛ والتي تتلخص في خلط نسبة من الحديد مع نسبة منخفضة من الكربون ١%، التي كانت تلعب دوراً بارزاً في آلية تشكيل الفولاذ، وإكسابه الصلابة اللازمة مع سهولة التشكيل بالطرق.

كما قام الباحث بيلانو في العام ١٩١٨ م، بالعديد من الأبحاث التي أكد من خلالها على أن صناعة السيوف الدمشقية ذات الجوهر المميز كانت تقوم على مبادئ خاصة في التصنيع؛ ولكنه لم يتمكن من اكتشافها كاملة لأنه لم يطلع على المصادر العربية في هذا المجال؛ غير أن العمل الدؤوب في هذا المجال مكّن أخيراً عالمين أمريكيين من جامعة ستانفورد في الولايات المتحدة الأمريكية، هما أوليغ شيربي الذي كان يعمل أستاذاً في علم المعادن والهندسة في جامعة ستانفورد، وهيفري واد سورث الذي كان يعمل في مختبرات شركة لوكهيد للصناعة الحربية في بالوالتو من التوصل

إلى معرفة سر السيف الدمشقي بعد أن بذلا جهداً مضنياً خلال سنوات عدة من العمل المخبري، حيث اتبعا أسلوباً علمياً جديداً مكنهما من تحقيق الغرض المطلوب في حل لغز صناعة جوهر السيف الدمشقي، وذلك عندما قاما برفع درجة حرارة المعدن وتقليبه بشكلٍ مستمر تحت درجة حرارة ٢٠٥٠ مْ، ومن ثم العمل على خفض درجة الحرارة إلى ١٢٠٠ مْ، والمحافظة على هذه الدرجة أثناء تشكيل الخليط المعدني؛ وهذه العملية تشبه إلى حد كبير عملية تصنيع العجينة الخزفية التي كانت تعجن بأسلوب اللف والجدل المستمر، والتي أدت عند تطبيقها على عجينة معدن الفولاذ المسخن إلى مرحلة ما قبل الانصهار، إلى تشكل مركب «كربيد الحديد»، غير المستقر في تركيبته الهشة، حيث أن استمرار اللف والعجن يفرض على تركيبة المعدن البقاء ضمن الحدود الضيقة التي تسمح له فقط بملء مكان الحبيبات الفارغة في التشكيل، والتي تهدف إلى إنتاج الأدوات الفولاذية المصنعة من المعدن الشديد الليونة وهو في حالة السخونة والصلابة الشديدة بعد القيام بتبريده.

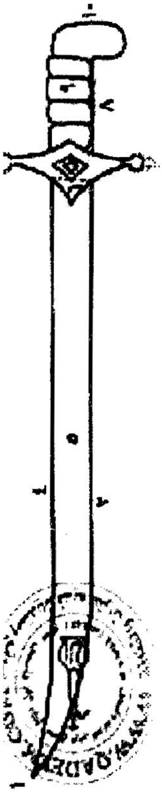
هذا وقد أكد فريق بحث علمي آخر من جامعة دريسدن للتكنولوجيا بألمانيا في العام ١٩٩١ م، برئاسة الدكتور بيتر بوفلر Peter Paufler أستاذ «الكريستالوجرافيا» حصوله على السر الكامن في صناعة السيف الدمشقي، عبر التدقيق في عينة مأخوذة من سيف دمشقي من صنع المعلم الحداد أسد الله الفارسي (القرن ١٦ م) وفحصها بواسطة المجهر الالكتروني. حيث اكتشف فريق البحث وجود الأنابيب النانومترية، وهي أنابيب شعرية بالأبعاد النانومترية[٢٠]، وأضاف باوفلر أن تلك الأنابيب المتناهية الصغر المصنوعة من كربيد الحديد C_3Fe، التي يتراوح قطرها فيما بين ٦-٩ ميكرونات، وتتباعد شرائط الجسيمات بعضها عن بعض بمقدار ٣٠-٧٠ ميكرون، قد أضحت اليوم قمة تكنولوجيا النانو أو علم المواد متناهية الصغر، وهي التي أعطت السيف الدمشقي مقاومته وليونته غير الطبيعية وشكله الأخاذ وأكسبته ميزاته الفائقة، من حيث الرهافة والمتانة وخفة الوزن، التي مكنت

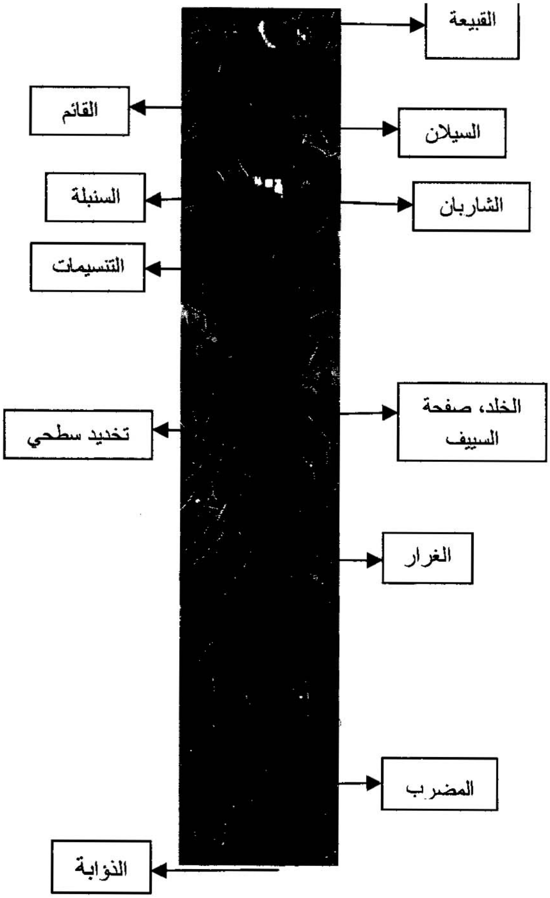
المقاتل العربي من التحكم بحركة السيف والسيطرة عليه إثناء النزال، على النقيض من السيف الأوربي الذي اعتمد في قوته وشدة ضربه على الوزن مما جعل حركة المقاتل تتبع حركة ووزن السيف في الضرب والطعان.

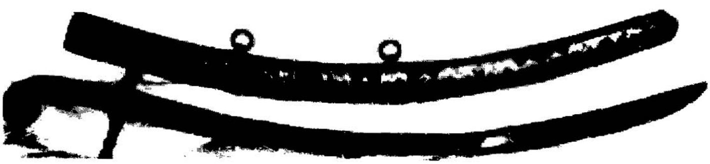
وبالرغم من تضارب الآراء حول أصل ونشأة السيف الدمشقي وتسمياته وتوارد بعض الآراء التي تقول بعدم أساس ووجود لصناعة السيوف بدمشق بل أن الصناع الدمشقيين قد اقتصر دورهم على عملية التزيين والزخرفة والتكفيت والتطعيم التي عرفت باسم الدمشقة Damascening، والتي أكد البعض الآخر منهم أن هذه التسمية لا تعني صناعة السيوف بل تجارتها لأن دمشق كانت ممراً للقوافل بين الشرق والغرب وكان يتم فيها شراء الأنواع الجيدة من السيوف الفارسية والهندية التي تنقل وتباع في البلاد الأخرى، حيث أطلق عليها هذا الاسم دلالة على مكان شرائها ودليل أصحاب هذا الرأي عدم التمكن من الحصول على أي سيف يحمل اسم أحد الصناع الدمشقيين الذي بلغ من الشهرة التي وصل إليها أسد الله الأصفهاني وغيره من صناع السلاح الأتراك أو الفرس. ويأتي الرد على هذا الرأي عبر مخطوط هندي محفوظ في متحف لندن يتضمن شرحاً عن حياة أسد الله الأصفهاني، حيث يذكر أن اسمه الحقيقي هو أسد الله، وأنه استعار هذا الاسم من صانع سلاح دمشقي هو أسد الله الدمشقي كرمز لعلامة الجودة في صناعة السيوف.

وكذلك يأتي الرد على هذا الرأي عبر المعلومات والأخبار التي ورد ذكرها في العديد من كتابات مؤرخي العصور الوسطى في أوربا، الذين أكدوا على إعجاب وانبهار الغرب بالسيوف الدمشقية ورهافتها، والخوض في العديد من التجارب والبحوث للكشف عن التقنية التي اعتمدها الصناع الدمشقيون في صناعة الفولاذ الدمشقي وتمييزهم بينه وبين الفولاذ الهندي المعتمد في تصنيع السيوف الأوربية.

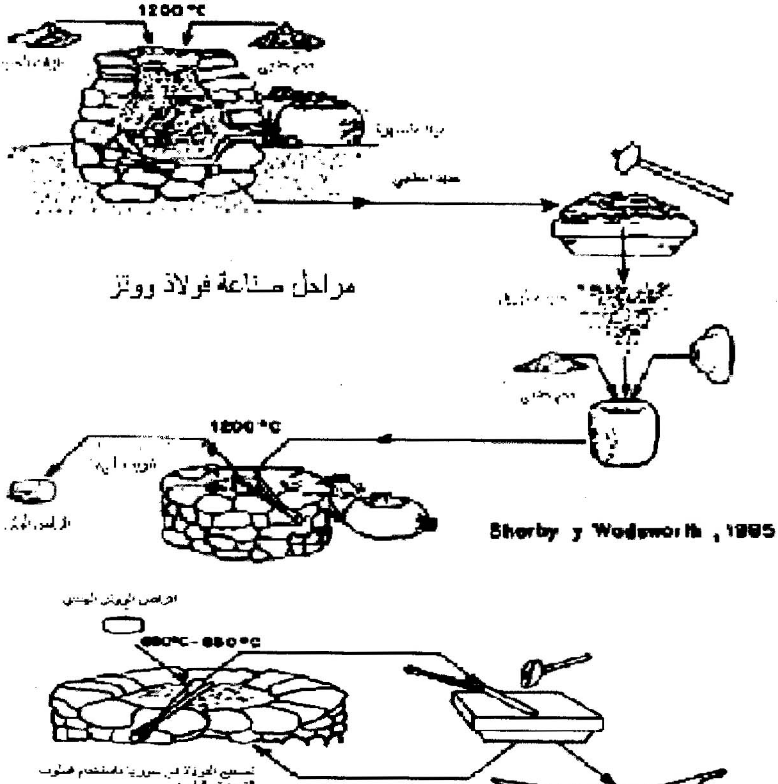
هذا إلى جانب تأكيد تلك المراجع على قيام الصناع الدمشقيين باستيراد الفولاذ الهندي، إضافة إلى استثمارهم لخامات الحديد المستخرج من المناجم في بلاد الشام (دمشق، الزبداني، بيروت، بشري وعجلون)، في حين أكد الباحث غودال وآخرون أن الأنصال الدمشقية كانت تصنع من الحديد المستخرج من مناجم كومو ساموندروم في جيد أباد، وكان التجار الفرس ينقلونه إلى دمشق، ومهما كان مصدر المعدن فإن العمليات التصنيعية اللاحقة هي التي كانت تضفي على الفولاذ الدمشقي خواصه وسماته، حيث كانت تنتقى الخامة الجيدة، ويتم غسلها وصهرها مرة أخرى ضمن بواتق حجرية باستخدام الفحم الخشبي، ومن ثم تبرد ببطء، ويعاد صهرها مرة أخرى بعد إضافة الكربون، وتترك حتى تبرد ببطء للمرة الثانية قبل أن تؤخذ الخامة وتحمى حيث يتم تشكيلها بالطرق وتبرد بالتسقية والتسخين المتكرر بهدف الحصول على الأنصال ذات التنسيمات المميزة التي أكسبتها شهرتها التاريخية.





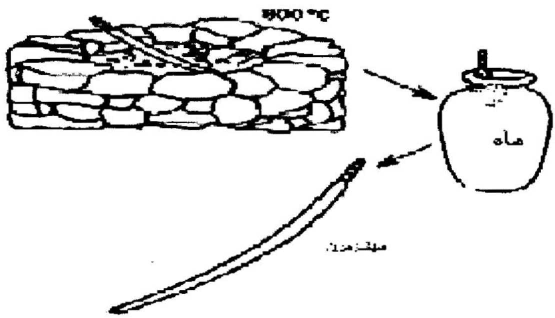


سيف دمشقي ذي تشكيل منحنٍ مع غمده

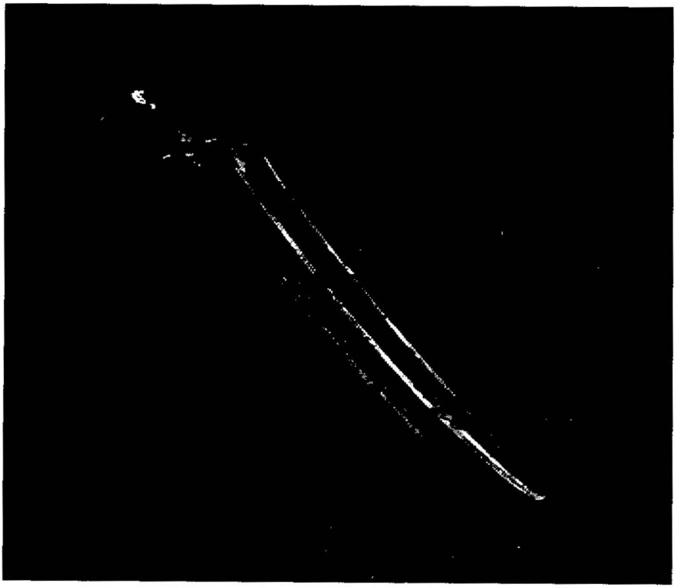


مراحل صناعة فولاذ ووتز

Sherby y Wadsworth , 1985



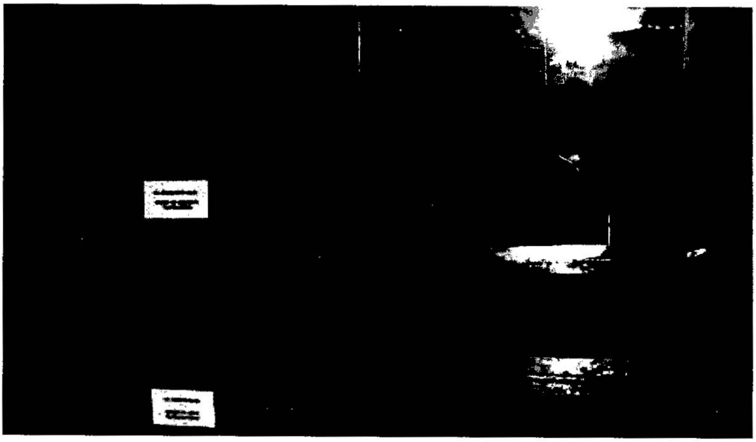
تسقية السيف وتبريده بالماء لزيادة صلابته ومرونته



سيف دمشقي مع غمده صنع عام ١٥٥٠ م



سيف من الطراز الدمشقي يحمل اسم الصانع أسد الله الدمشقي وتظهر على صفحته التنسيمات واسم الصانع (القرن ١٦ م)



سيف الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب المعروف بذي الوشاح



ذو الفقار وهو الاسم القديم لسيف الإمام علي بن أبي طالب والذي كان قد أهداه إياه الرسول (ص) في معركة أحد، وبرز استخدامه في غزوة الخندق ويتميز السيف بنصله المنحني والمركب من شفرتين متطابقتين منفرجتين في ثلثهما الأول بحيث يمتلك السيف ذؤابتين بحيث يأخذ الثلث الأول من السيف شكل الحرف اللاتيني(V)

الهوامش

(١) إن زيادة طول النصل البرونزي عن ٩٠ سم.، تؤثر سلباً على السيف من حيث تراجع مقاومته وقابليته للكسر.

(٢) تميز السيف الغربي بوزنه الثقيل الذي يعتمد على قوة القطع، ويحد من حرية حركة جسم المقاتل التي كانت تتبع حركة السيف، وذلك على النقيض من السيف العربي الذي تميز بخفة وزنه ورهافة حده وتنامي مقدرة المقاتل في السيطرة على حركة السيف والمناورة به.

(٣) اشتهرت مدينة صعدة في شمال اليمن باستخلاص مادة الحديد اللازمة لصناعة السيوف، حيث كانت السيوف "اليرعشية" في مقدمة أنواع السيوف اليمانية التي ذاع صيتها قبل الإسلام، منذ زمن الملك شمَّر يَرْعَش وقد عرفت بالسيوف الحميرية؛ هذا وقد تميزت السيوف اليمانية بجودتها وصلابتها وليونتها، ويصفها أبو عمر الكندي بقوله "جوهرها مستطيل معرج متساوٍ العقد". كما يصف أيضاً السيوف التي طبعت باليمن بقوله" يكون منها أربعة قدود". ومن العلامات المميزة للسيوف اليمانية العتيقة قبل الإسلام وجود ثقبين في سنبل السِّيلان: "ما يدخل من السيف في النِّصاب"، يكون فيه ثقب السنبل من إحدى وجهتيه أوسع من الوجهة الأخرى أو الواجهتان متساويتان ووسطه أضيق، وقد حملت في معظمها على صفحاتها أخدوداً أو شطباً أحادياً أو ثنائياً للتخفيف من وزن السيف وإكسابه المرونة اللازمة.

(٤) تميزت السيوف القلعية بطولها الذي تراوح فيما بين ٤-٥ أشبار (٩٤,٨-١١٨,٥ سم) وعرض ثلاث أصابع (٦,٥ سم). وهي ذات قدود متساوية في العرض من الأعلى والأسفل.

(٥) تتشابه السيوف الخراسانية مع القلعية من حيث الشكل والطول مع اختلاف في الجوهر.

(٦) تمتاز السيوف المصرية بطولها واستواء سطحه.
(٧) تميزت السيوف الكوفية بقصرها حيث بلغ طولها ثلاثة أشبار (٧١ سم) وعرضها ثلاثة أصابع (٦,٥ سم).
(٨) نال صمصامة من الشهرة والمكانة ما دفع الشاعر أبا الهول الحميري إلى وصف جوهرة قائلاً:

(أخضر اللون بين حديه نور من فرند تمتد فيه العيون)

وكان عمرو بن معد كرب قد وهب سيفه الصمصامة بعد إسلامه إلى خالد بن العاص عامل الرسول (ص). على اليمن، ومن ثم انتقلت ملكية الصمصامة بعد ذلك إلى خالد بن عبد الله القسرى، ومن ثم إلى بني مروان الذي بقي في ملكهم حتى زوال حكمهم، حيث يشاع أنه انتقل بعد ذلك إلى خزائن الفاطميين.
(٩) الذي كان نعله من الفضة وكذلك السيف الشهير المعروف «ذو الفِقار»، الذي تميز بجوهره الخالص وبشكله الخاص المكون من ذؤابتين أو نصل ذي رأسين، وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله من الفضة، وهو السيف الذي غنمه المسلمون في معركة بدر الكبرى من العاص بن منبه السهمي، وكان من نصيب الرسول (ص)، الذي أهداه فيما بعد لعلي بن أبي طالب، وتوارثه آل بيت الإمام بعد ذلك ثم انتقل منهم إلى الخليفة العباسي المهدي ثم الهادي ومن بعده هارون الرشيد.
(١٠) بالرغم من أن اسم السيف هو الأكثر شيوعاً على هذه الأداة الحربية، فقد ذكرت المصادر اللغوية العربية أكثر من ثلاثمائة اسم أو صفة أطلقت على السيف، منها: - الحسام: وهو السيف القاطع أو الحاد وحسام السيف أي طرفه الذي يضرب به - المهند: اسم للسيف الرقيق الحد - الصارم، القاطع، البتار: وهو السيف ذي الحد المرهف - الصمصام: وهو السيف الصلب الذي لا ينثني - العضب: السيف القاطع العضب الشيء المقطوع - الرسوب: وهو السيف الذي

يغيب أو يمضي في الضرب - البارقة: وهو السيف شديد البريق واللمعان - الدالق: السيف سهل الخروج من الغمد - المشمل: سيف صغير يشتمل علية الرجل تحت ثيابه - الصحيفة: وهو أحد الأسماء الذي يطلق على السيف ذي السطح العريض. - الأرقد: السيف غليظ المتن - الدائر: اسم للسيف الذي قدم عهدة في القتال وبدت الأثلام على حده نتيجة الضرب والطعان - الدوان: وهو السيف المهمل الغير حاد ولا يصلح للقطع - الساذج: السيف الذي لا يوجد نقش على نصله - الهندي، اليماني: اسم أطلقته العرب على السيف يرجع إلى مكان صناعته - الخذام، المخْذم، الفيصل: السيف سريع القطع والبتر- المنصلِ: صفة تطلق على السيف الحاد الطويل النصل - القرضاب : السيف الذي يقطع العظام - اللج : السيف المهول تشبيها بلُج البحر.

(١١) يطلق على تلك التنسيمات أو الوشي اسم الدمار، الدبان، الشرايين أو الجوهر وهو اصطلاح يستخدم للدلالة على الخطوط المتداخلة المتباينة المختلفة الألوان والأشكال المتوضعة على صفحات السيوف، والتي تشكل مجموعة من الخطوط المتداخلة ذات التركيب الشبكي العفوي، أو التي تأخذ شكل عقد وبقع موزعة بشكل عفوي تتشكل نتيجة توضع الشوائب في الخليط الفولاذي للنصل.

(١٢) تشير الكثير من الوثائق والمخلفات المادية الأثرية الإسلامية إلى شيوع استخدام السيف المستقيم، الذي نقشت صورته على الدينار الذهبي المؤرخ على العام ٧٧ هـ. والذي حمل صورة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان متوشحاً بسيفه المستقيم؛ وكذلك دينار الخليفة العباسي الطائع لله سنة ٣٦٥ هـ. وكذلك الرسوم والنقوش والصور التي استخدمت في زخرفة الآنية الخزفية والبرونزية وكذلك العديد من المخطوطات المؤرخة على القرن العاشر الهجري.

(١٣) تحدد نسبة مرونة السيف طبقاً لنسبة الكربون الداخلة في الخلطة المعدنية ففي حال انخفضت نسبة الكربون في الخلطة قلت نسب مرونة المعدن، وفي حال

زادت نسبة الكربون إلى ٤% ارتفعت نسبة مرونة الفولاذ وهذا ما دفع الصناع إلى التلاعب في نسب المرونة من خلال التلاعب بنسب الكربون الداخلة في التركيبة.

(١٤) تعددت أنواع الجواهر في صناعة السيوف من فارسي وهندي، حيث برزت عدة أنواع من جوهر السيف الفارسي منها جوهر كير كنيردبان وهو جوهر الأربعين درجة، وجوهر قرة خراسان ويظهر على النصل في هيئة خطوط رقيقة رمادية أو سوداء اللون تبدو كشبكة الصيد الملقاة على سطح الماء، وجوهر قرة طبان ويتميز بلونه الأسمر وبتموجاته غير المنتظمة وفي بعض الأحيان تتشابك مع هذه التموجات خطوط على شكل ألياف مبعثرة؛ في حين يتشابه الجوهر الهندي مع الجوهر الدمشقي والفارسي غير أن شكل تشبيكاته تأخذ شكل الخيوط والأسلاك في العقد وخاناته أرق وأرفع . ويتميز جوهر السيف الهندي بصلابته بحيث لا يعمل فيه المبرد إلا بعد عناء.

(١٥) أولى عبد الرحمن الثاني (٨٢٢-٨٥٢ م) هذه الصناعة عناية خاصة، وقام بتشجيع صناعة السيوف في طليطلة Toledo والمرية Almeria، اللتان قطنهما الدمشقيون خاصة، وتحدث عن سيوفهما المقري، حيث صنف مدينة المرية وأشبيلية خلال القرن الثاني كأحد أهم وأشهر المدن الأندلسية في صناعة السيوف والأسلحة، هذا وقد تعرف الأوربيون على السيوف الدمشقية عبر الصليبيين الذين اقتنوها ونقلوها إلى أوربا حيث عرفت هناك باسم Damascening التي كانت تعني السيف الدمشقي.

(١٦) انتقل ابراهيم المالكي إلى اسطنبول بعد خضوع بلاد الشام ومصر لسيطرة العثمانيين في العام ١٥١٧ م.

(١٧) بلغت قيمة ونوعية بعض الهبات التي أغدقها السلطان العثماني على حاجي صونقور فيا بين ١٥٠٠–٢٠٠٠ أقجة فضية، كما خلع عليه السلطان في أحد المناسبات قفطاناً مصنوعاً من قطيفة بورصة.

(١٨) يفتخر العديد من المتاحف وجامعي التحف باقتنائهم ضمن مجموعاتهم العديد من السيوف الدمشقية أو المدمشقة القديمة والمحدثة، منها متحف طوب كابي في اسطنبول الذي يحتفظ بمجموعة من السيوف الدمشقية التقليدية القديمة والمطورة منها:

سيف الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان وهو سيف مستقيم النصل.

سيف الصحابي سعد بن عبادة، وهو سيف مستقيم نقش على نصله اسم الصحابي الجليل مع بعض النقوش الكتابية والدمشقة المتأخرة.

سيف الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز المؤرخ على العام ١٠٠هـ، وقد نقش عليه اسم الخليفة واسم الصانع.

سيف الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك الذي حمل اسمه ونقشاً تأريخياً للعام ١٠٥ هـ.

سيف الخليفة العباسي هارون الرشيد.

سيف السلطان المملوكي قايتباي ذي التكفيت الذهبي.

سيف السلطان المملوكي الظاهر قانصوه الغوري الدمشقي الصنع، الذي تميز بنصله الفولاذي المقوس ومقبضه الحلزوني وواقيته الفضية المتعامدة الشكل والمطلية بالذهب، ونصله الذي حمل على وجهيه مجموعة من الرسوم الميتافيزيقية الخرافية والنباتية المحفورة والمكفتة بخيوط بالذهب.

(١٩) قام الجنرال الروسي انوسوف بالعديد من التجارب قبل أن يعلن في العام ١٨٣٧م اكتشافه أسرار صناعة السيف الدمشقي؛ كما حاول العديد من العلماء

الأوربيون العمل على كشف سر الفولاذ الدمشقي منهم ميشيل فراداي Michael Fraday، وهو ابن أحد الحدادين الذي أكد أن السر الكامن وراء جـودة وتميـز السيف الدمشقي هو وجود نسبة قليلة من السيليكا والألومنيوم في الفـولاذ، فـي حين أكد العالم الفرنسي جان روبرت بريانت Jean Robert Breant أن السر يكمن في وجود نسبة مرتفعة من الكربون في الخلطة الفولاذية.

(٢٠) النانومتر: جزء من مليار جزء من المتر.

المراجع

- ابن هشام: **السيرة النبوية**. تقديم طه عبد الرؤوف سعد. ج ٤. بيروت ١٩٧٥.
- أعظمي، وليد: **السيف اليماني في نحر الأصفهاني**. دار الوفاء، مجلد ١، ط.١، ١٩٨٨.
- أكفاني، محمد بن ساعد الأنصاري: **نخب الذخائر في أحوال الجواهر**. مكتبة المتنبي. – اونصال يوجل: **السيوف الإسلامية وصناعتها**، نشر مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإسطنبول. ترجمة تحسين عمر طه أوغلي الكويت ١٩٨٨م.
- بيروني أبو الريحان محمد بن أحمد: **الجماهر في معرفة الجواهر**، مخطوط الاسكوريال رقم ٩٠٥٤. مكتبة الملك فهد الوطنية- الرياض ١٩٣٦.
- بيروني: أبي الريحان محمد بن أحمد: **الجماهر في معرفة الجواهر**. تحقيق سالم الكرنكوي. مكتبة المتنبي.
- تيفاشي، أبي العباس: **أزهار الأفكار في معرفة الأحجار**.
- حسن، أحمد يوسف: **صناعة الفولاذ الدمشقي** محاضرة في حلب ١٩٧٢.
- زكي، عبد الرحمن: **السيف في العالم الإسلامي**، صحيفة *المعهد المصري للدراسات* الإسلامية بمدريد. مجلد ٥ العدد ١،٢. ١٩٥٧. القاهرة ١٩٥٧.
- زكي، عبد الرحمن: **رسالة الكندي في السيوف وأجناسها**. م. كلية *الفنون الجميلة*. جامعة القاهرة مجلد ٢١٤. ص. ١-٢٦، القاهرة ١٩٥٥ – ١٩٥٦م.
- زيدان، جرجي: **تاريخ التمدن الإسلامي**، جزء ١.ط. ١٩٢٦. مراجعة حسين مؤنس. دار الهلال القاهرة ١٩٦٨.

- عبادي، أحمد مختار: **الحضارة العربية الاسلامية**. الإسكندرية ١٩٩٩.

- فرهوفن، د. جون: **سر السيوف الدمشقية**. مجلة *العلوم*. الكويت. مجلد ١٧، أغسطس- سبتمبر ٢٠٠١.

- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **زاد المعاد في هدى خير العباد**. تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط. ط ٣. مؤسسة الرسالة ١٩٩٨.

- كندي، يعقوب بن اسحق: **الجواهر والأشباه**.

- كندي، يعقوب بن اسحق: **السيوف وأجناسها**. تحقيق عبد الرحمن زكي. مكتبة الثقافة الدينية ١٩٩٨.

- ميتز، أدم: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**. ج. ١، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده. ط. ١.

- يعقوبي: **تاريخ اليعقوبي**. ج.١.

- C.S. Smith, "Damascus Steel," *Science,* 216 (1983), pp. 242 - 244.

- D. T. Peterson, H. H. Baker, and J.D. Verhoeven, "Damascus Steel, Characterization of

- History of metallography: The Development of ideas on the structure of metals before . Cyril S. Smith. MIT press 1988.

- J. Wadsworth and O. D. Sherby, "Damascus Steel-Making," *Science,* 216 (1983), pp. 328- 330.

- J. Wadsworth and O. D. Sherby, "On the Bulat-Damascus Steel Revisited," *Prog. Mat. Sci.,* 25 (1980), pp. 35- 68.

- J. D Verhoven A. H. Pendray and W. E Danksch: The Key Role of impurities en Ancient Damascus steel Blades. in minirales Society. Vol. 50. No. 9. Pg . 58 - 46. September 1988.

- J. D. Verhoeven and A. H. Pendray, "The Mystery of the Damascus Sword," *Muse,* 2 (2) (April 1998), pp. 35 - 43.

- J. D. Verhoeven, A.H. Pendray, and E. D. Gibson, "Wootz Damascus Steel Blades," *Mat. Char.,* 37 (1996), pp. 9- 22.

- L. S. Figiel, *On Damascus Steel* (Atlantas, FL: Atlantas Arts Press, 1991).

  One Damascus Steel Sword," *Mat. Char.,* 24 (1990), pp. 355- 374.

- Oscar Torres Carrasco: Asociación Española. de Esgrima Antigua Espadas Medievales. B. Bronson, "The Making and Selling of Wootz," *Archeomaterials,* 1 (1986), pp. 13 - 51.

علاقات عُمان الدولية خلال عهد سعيد بن سلطان ١٨٠٤م-١٨٥٦م

الدكتور فاضل محمد الحسيني
كلية التربية للبنات
دكتوراه دولة في تاريخ العرب الحديث والمعاصر
جامعة بغداد

تعد الحقبة الزمنية التي مرت بها عمان إبان حكم سعيد بن سلطان والتي تزيد عن نصف قرن، من الفترات التاريخية المهمة في تاريخ عمان الحديث، ويعود ذلك الأمر لسببين:

أولهما: الإنجازات الكبيرة التي شهدتها عمان خلال هذه الفترة وعلى مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية.

ثانيهما: شخصية السلطان سعيد وما تتسم به من قدرات قيادية وسياسية واقتصادية أهلته أن يكون السبب الرئيس في تحقيق تلكم الإنجازات التاريخية لعمان الأمر الذي جعل غالبية المؤرخين من العرب والأجانب يعدون عصره من أزهى العصور التي مرت بعمان خلال تاريخها الحديث كما يرونه من أبرز الشخصيات في أسرة البو سعيد والتي لعبت دوراً متميزاً في تاريخ عمان والخليج وشرق أفريقيا بل ذهب

البعض أكثر من ذلك فاعتبره من الشخصيات العربية المهمة في تاريخ العرب الحديث والمعاصر(١)، لما كان يتمتع به السلطان سعيد من كفاءة وحنكة وإدارة فضلاً عن همته العالية وبعد صيته (٢).

ومن أبرز إنجازات السلطان سعيد لعمان خلال فترة حكمه هي علاقاته الدولية إذ سجل عهده وضع الحجر الأساس للكثير من العلاقات العربية الدولية وبخاصة مع أوربا والولايات المتحدة الأمريكية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن البحث عند تناوله علاقات عمان مع أوربا سيقتصر على بحث العلاقات العمانية مع كل من فرنسا وبريطانيا وذلك لأهمية علاقة هاتين الدولتين الأوربيتين مع عمان من جانب ولضيق مساحة هذا البحث من جانب آخر .

يتطرق هذا البحث إلى علاقات عمان الدولية خلال عهد السلطان سعيد من خلال المحاور التالية:

١- العلاقات العمانية الفرنسية.
٢- العلاقات العمانية البريطانية.
٣- العلاقات العمانية الأمريكية.

معتمدين في إنجاز هذا البحث على أبرز المصادر والمراجع العربية والأجنبية والمحلية.

١- العلاقات العمانية الفرنسية

كانت أولى بوادر العلاقات العمانية الفرنسية قد سبقت عهد السلطان سعيد بل سبقت عهد البوسعيد برمته حيث بدأ الاهتمام الفرنسي بعمان منذ عام ١٦٦٧م عندما اقترح (دي لالين delalain) المبعوث الفرنسي إلى بلاد فارس السيطرة على عمان

واتخاذها قاعدة بحرية مهمة لفرنسا (٣)، في الوقت الذي كان فيه التنافس الأوربي على أشده في منطقة الخليج العربي من أجل التجارة والمستعمرات (٤). ولعل الاشتباكات التي حصلت بين فرنسا وبريطانيا -فيما بعد- في المياه الإقليمية العمانية إبان عهد أحمد بن سعيد دليل على ذلك.

لم يفلح الفرنسيون في الاستحواذ على عمان واتخاذها قاعدة بحرية لهم فلجأوا إلى احتلال جزيرة (موريشيوس) عام ١٧١٥م وقد أطلقوا عليها اسما جديدا هو جزيرة فرنسا (ايل دي فرنسا Jle de france) (٥)، واتخذوا منها قاعدة بحرية ومركزاً تجارياً ومقراً للاتصال بدول الخليج، وعلى ضوء ذلك تم الاتصال بين حاكم الجزيرة (مالارتيك) والإمام أحمد بن سعيد (٦)، وهكذا تشكلت أولى العلاقات الفرنسية العمانية والتي كانت تتسم بطابع الود والصداقة.

وعلى الرغم من أن هذه العلاقات قد تعرضت للأزمة عندما جرت الاشتباكات بين فرنسا وبريطانيا في المياه العمانية-كما أسلفنا- إلا أنها قد حسمت مؤخراً من قبل فرنسا عندما قدمت الاعتذار الرسمي لأحمد بن سعيد وقد لعب القنصل الفرنسي ببغداد (روسو) دوراً كبيرا في إعادة العلاقات الطيبة بين عمان وفرنسا (٧).

استمرت العلاقات الفرنسية العمانية بعد وفاة أحمد بن سعيد إذ تولى ابنه (سلطان بن أحمد) حكم البلاد وقد تسلم رسالة دبلوماسية من نابليون يطالبه بإقامة علاقات متينة بين بلديهما وقد بعثها نابليون من القاهرة في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٧٩٩م، ولم يكتف نابليون بالرسالة فحسب وإنما أقدم على تعيين (دي كافينياك) كقنصل فرنسي في مسقط وقد وصلها فعلاً عام ١٨٠٣م لكن السلطان العماني ظل متمسكاً بوعده للإنجليز بالابتعاد عن الفرنسيين فرفض استقبال القنصل الفرنسي وأبقى على العلاقات التجارية بينهما فقط (٨).

أما في عهد السلطان سعيد وهو ما يدخل في صلب بحثنا فقد بدأ عهده بخطوة نوعية غير مسبوقة حيث بادر شخصياً إلى إرسال ممثل عنه وهو (ماجد بن خلفان) إلى الجزيرة الفرنسية من أجل التفاوض و التوصل إلى عقد معاهدة بين عمان وفرنسا، وبالفعل توصل السلطان سعيد مع الجنرال الفرنسي (ديكان) حاكم جزيرة فرنسا (جزر القمر حالياً) لتوقيع معاهدة أطلق عليها (معاهدة السلام الدائم وعدم الاعتداء) بتاريخ ١٨٠٧/٦/١٥م (٩)، وقد تضمنت هذه المعاهدة اعترافاً بالحياد العماني في الصراع الذي كان قائماً بين فرنسا وبريطانيا وعدم التعرض للسفن العمانية، وكذلك تضمنت المعاهدة قبول عمان بوكيل تجاري فرنسي في العاصمة مسقط وقد تم بالفعل إرسال (الميسو دلون) لشغل هذا المنصب في مسقط. كما عقد السلطان سعيد معاهدة تجارية عام ١٨١٧م مع حاكم جزيرة البوربون منحت فيها كل بلد منهما الأفضلية التجارية للأخرى (١٠).

ومن المفيد الإشارة إلى أن تميز العلاقات الدولية خلال عهد السلطان سعيد يعود إلى عدم اكتراثه بتحذيرات بريطانيا وتهديداتها بعدم إقامة علاقات مع فرنسا والاقتصار في علاقات عمان التجارية والسياسية مع بريطانيا فقط والتي التزم بها بشكل أو بآخر الحكام العمانيون الذين سبقوا السلطان سعيد أو الذين قد جاءوا من بعده.

وهكذا استمر السلطان سعيد بتوطيد علاقات دولته مع فرنسا في مختلف المجالات ولكن هذه العلاقات التي بناها وتبناها السلطان سعيد بجرأة وإقدام سرعان ما انهارت عندما اندحر الفرنسيون في معركة الطرف الأغر فاستسلمت الجزيرة الفرنسية للإنجليز بتاريخ ١٨١٠/١٢/٣م (١١).

ولقد ظل المحيط الهندي منذ ذلك التاريخ ولغاية عام ١٨١٥م مغلقاً بوجه الملاحة الفرنسية، ولم تتجدد الاتصالات بين عمان وفرنسا بعد ذلك لغاية عام ١٨١٧م حيث

عادت العلاقات التجارية ثانية بين البلدين والتي توجت بالمعاهدة التجارية التي تم التوقيع عليها من قبل الطرفين في شهر آذار من عام ١٨٢٢م وقد استمر العمل بهذه المعاهدة لغاية عام ١٨٤٤م إذ كانت خلالها العلاقات العمانية الفرنسية تتميز بالمتانة والتبادل التجاري الواسع (١٢)، حيث لم تكتفِ فرنسا بفتح قنصلية لها في مسقط فحسب بل أقدمت على فتح قنصلية فرنسية أخرى في زنجبار عام ١٨٣٩م بعد أن فتح السلطان سعيد لدولته عمان آفاقاً رحبة جديدة في أفريقيا وقد اتخذ من زنجبار عاصمة ثانية لدولته عمان. وقد وصل القنصل الفرنسي إلى زنجبار عام ١٨٤٠م ليزاول مهامه الدبلوماسية من هناك (١٣).

لابد لنا من الإشارة إلى أن السلطان سعيد بالرغم من عدم اكتراثه لتحذيرات وتهديدات بريطانيا من إقامة علاقات تجارية وسياسية مع فرنسا إلا أن هذا الأمر لم يستمر في جميع الأوقات فهناك فترات معينة قد التزم سعيد بعض الشيء بالتحذيرات البريطانية ولم يتعمق في علاقات مع فرنسا ليس بسبب تخوفه وخشيته من بريطانيا وإنما باعتقادنا بسبب الخوف على المصالح العمانية لأن السلطان سعيد قد أدرك ببصيرته النافذة بأن مصالح عمان مع بريطانيا أكثر تشعباً وفائدة من فرنسا كما أن لديه تحالفات كثيرة مع بريطانيا ضد أعدائه في المنطقة فضلاً عن التزاحم والتنافس بين مصالح عمان وفرنسا في العديد من المناطق الأفريقية ولكن جميع هذه الأسباب لم تدفع السلطان سعيد إلى غلق الباب بوجه العلاقات الفرنسية العمانية مثلما كانت تريد ذلك بريطانيا، وإنما استمر في علاقاته مع فرنسا معبِّراً بذلك عن الصورة الصادقة للعلاقات الدولية ذات الاستقلالية والمعبرة عن تبادل المصالح بين البلدين، لذلك نرى السلطان سعيد قد استمر في إبرام الاتفاقيات مع فرنسا طيلة عهده، فقد عقد اتفاقية للصداقة مع فرنسا في السابع عشر من تشرين الثاني عام ١٨٤٤م تضمنت كذلك حرية التجارة لكلا الطرفين والتي نجم عنها ازدهار تجاري واسع بين البلدين أدى إلى انزعاج الإنجليز (١٤).

توج السلطان سعيد علاقاته مع فرنسا خلال السنوات الأخيرة من عهده بتمتين العلاقات العمانية الفرنسية من خلال إرساله بعثة رسمية مصحوبة بهدية عمان والمتألفة من مجموعة من الخيول العربية الأصيلة كهدية إلى رئيس الجمهورية الفرنسية عام ١٨٤٩م (١٥).

وعلى العموم كانت العلاقات العمانية الفرنسية خلال عهد السلطان سعيد كما عبر عنها حفيده (رودولف سعيد) في كتابه (سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان) بأنه قد تم فيها إنجاز الشيء الكثير رغم الصعوبات العديدة (١٦).

٢- العلاقات العمانية البريطانية:

شهدت العلاقات العمانية البريطانية تميزاً ملحوظاً عن سائر العلاقات الدولية لعمان خلال تاريخها الحديث وعلى الرغم من أن أحمد بن سعيد مؤسس سلالة البوسعيد كان حذراً في التعامل مع البريطانيين وكثيرا ما رفض إقامة الصلات معهم لتخوفه من احتلال البريطانيين لبلاده خاصةً وأن عهده قد تزامن مع انتقال ميدان الصراع من أوربا إلى الخليج العربي وعمان بسبب حرب السنوات السبع وحرب الاستقلال الأمريكية (١٧)، إلا أن بريطانيا بعد اعتبارها الهند الدرة اللامعة في التاج البريطاني، دفعها هذا الأمر إلى السيطرة على الطريق المؤدي إلى الهند وبما أن مسقط كانت تقع على هذا الطريق فقد حرصت على إقامة أفضل العلاقات مع عمان.

وبالفعل، اقدمت بريطانيا على عقد معاهدة ١٧٩٨م مع السلطان (سلطان بن أحمد) والذي كان يعد أول حاكم عربي يرتبط بعلاقة مع البريطانيين(١٨)، على الرغم من ان السفن البريطانية التجارية والتي كانت تتجه من موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر وتعود إليها قد اتخذت من مسقط ميناء للتوقف والتزود بالماء والمؤن قبل هذا التاريخ بوقت طويل (١٩).

وفي عام ١٨٠٠م أقدمت بريطانيا ثانية على عقد معاهدة مع عمان ومن الجدير بالذكر أن المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع عمان تختلف تماماً عن المعاهدات التي كانت تعقدها مع سائر إمارات الخليج العربي، تلك المعاهدات التي كان يطلق عليها اسم (المعاهدات الأبدية المانعة) والتي كانت تعد بمثابة فرض الحماية على تلك الإمارات بيد أن عمان لم تنضم لتلك المعاهدات وبالتالي اعتبرت دولة مستقلة ولو من الناحية القانونية، الأمر الذي أعطى الحق لعمان في أن تبرم العديد من المعاهدات مع مختلف الدول كما سنلاحظ ذلك في هذا البحث.

أما العلاقات العمانية البريطانية في عهد السلطان (سعيد بن سلطان) فقد ترددت بريطانيا أول الأمر في عقد معاهدة معه لأسباب عدة منها صلاته مع الفرنسيين إلا إن وقوع سفنها عرضة للانتهاك وتكبد تجارتها لخسائر فادحة جعلها تقدم على عقد المعاهدات مع عمان فضلاً عن رغبة السلطان سعيد في إقامة أمتن العلاقات مع بريطانيا أسوة بعلاقاته الدولية الأخرى كفرنسا مثلاً، الأمر الذي هيأ الأجواء لعقد معاهدة ١٨٣٩م بين البلدين (٢٠)، تلك المعاهدة التي تضمنت بنودها حرية التجارة والإقامة ونقل البضائع وعدم فرض ضرائب تزيد عن ٥% على البضائع البريطانية وإعطاء الحق للقنصل البريطاني في عمان في الفصل بين المنازعات التي تحدث بين الرعايا البريطانيين، ثم أردفت بعقد معاهدة أخرى بين بريطانيا وعمان وذلك في عام ١٨٤٥م كانت بنودها تنحصر بمكافحة تجارة الرقيق، حيث تعهدت عمان بمنع تصدير واستيراد الرقيق سواء في مناطق عمان الآسيوية أو الأفريقية (٢١)، كما حارب السلطان سعيد وفق هذه المعاهدة نشاطات القراصنة الأوربيين الذين كانوا يمارسون تجارة الرقيق في بلاده، وكان هذا الموقف له ردود فعل ايجابية لدى الرأي العام العالمي يومئذ كما أشادت الصحف البريطانية ومجلس العموم البريطاني يومئذ بجهود سعيد في مجال محاربة تجارة الرقيق ومراعاته لحقوق الإنسان رغم الخسائر المادية الكبيرة لبعض التجار في دولته (٢٢).

تفيد لنا الوثائق التاريخية الإنجليزية بأن السلطان سعيد كان يعير اهتماماً فائقاً لعلاقاته مع بريطانيا إذ كان يشعر بأن مصالح عمان التجارية والسياسية تقتضي التعامل الدبلوماسي العالي مع البريطانيين والاحتفاظ بصداقة طيبة ودائمة معهم لذلك كان سعيد دوماً يعتبر الإنجليز أحسن أصدقائه ويسره أن يلتقي في كل وقت بأي منهم وأن يحيطهم بكل رعاية ويبدي لهم كل اهتمام (٢٣).

لذلك كان السلطان سعيد يتحين الفرص للتعبير عن اهتمامه بالعلاقات مع البريطانيين وتقديره إياهم فقد قدم للحكومة البريطانية في عام ١٨٣٣م أفضل السفن البحرية لديه وهي سفينة (ليفربول) التي بنيت في حوض السفن في بومباي بالهند عام ١٨٢٦م وكان طاقمها يتكون من مائة وخمسين بحاراً وضابطاً ومزودة بأربعة وسبعين مدفعاً وعلى متنها مجموعة من الخيول العربية الأصيلة وقد قبلها ملك بريطانيا(وليام الرابع) الذي أطلق عليها اسم (باخرة الإمام) تقديراً للسلطان سعيد وقد ردت الحكومة البريطانية بهدية للسلطان سعيد عبارة عن مركب من مراكب الأسطول الملكي والذي أسمته (الأمير الوصي) (٢٤).

كما بعث السلطان سعيد سفيره إلى لندن عام ١٨٤٢م وهو (علي بن ناصر) والي ممباسا على السفينة (السلطانة) لمقابلة الملكة البريطانية فكتوريا من أجل تمتين العلاقات الدبلوماسية بين البلدين (٢٥).

الواقع أن السلطان سعيد كان لا يفوت أي فرصة يعزز بها علاقاته مع بريطانيا بعد أن أدرك بأن دولته عمان بحاجة إلى دعم ومساندة الإنجليز لها في مواجهة العقبات والصعاب الناجمة عن التحالفات في المنطقة والتي كانت توجه ضده (٢٦)، فضلاً عن حماية سفنه التجارية التي كانت تجوب منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي، الأمر الذي دفعه إلى توثيق العلاقات مع الأقطار الواقعة على المحيط الهندي ومع الدول الغربية لذلك كان يبتكر الوسائل والأساليب التي تدعم علاقة هذه الدول مع

عمان ومن أبرزها وأهمها كانت بريطانيا، التي هي أيضاً كانت بأمس الحاجة إلى دعم علاقاتها مع عمان حيث قال الحاكم البريطاني العام في الهند ذات مرة بأن استقلال عمان يعتبر مصلحة مهمة من جانب بريطانيا (٢٧).

لقد توج السلطان سعيد تقديره للبريطانيين ورغبته في إقامة امتن العلاقات معهم خدمة لمصالح عمان الكبرى في التجارة والسياسة أواخر عهده، بأن أهدى جزر كوريا موريا الواقعة قرب الساحل الجنوبي لعمان إلى فكتوريا ملكة بريطانيا في عيد ميلادها على الرغم من إلحاح بريطانيا على شراء هذه الجزر، حيث فوض الكابتن نريمانتل قائد السفينة الملكية البريطانية (جونو) بالتفاوض مع السلطان سعيد لشراء هذه الجزر لكن السلطان سعيد قد أصر على الإهداء دون مقابل للحكومة البريطانية وعلى ضوء ذلك تم عقد معاهدة تنص على إهداء هذه الجزر إلى بريطانيا من قبل السلطان سعيد في الرابع عشر من تموز ١٨٥٤م (٢٨).

وتفيد المصادر التاريخية بأن الإهداء لم يستمر طويلاً حيث تم إبرام عقد لإيجار تلك الجزيرة للجانب البريطاني لمدة خمس سنوات (٢٩)، ومن الجدير بالذكر أن الفرنسيون سبق وأن طلبوا من السلطان سعيد شراء هذه الجزر لوجود السماد الطبيعي فيها ولكن السلطان سعيد رفض طلبهم (٣٠)، وهذا يؤكد ما أشرنا إليه في البحث من حرص السلطان سعيد على متانة العلاقة مع البريطانيين أكثر من غيرهم.

٣- العلاقات العمانية الأمريكية:

لم تكن لعمان علاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية قبل تولي السلطان (سعيد ابن سلطان) الحكم في عمان وذلك بسبب حداثة ظهور أمريكا كدولة مستقلة في المحيط الدولي إذ أعلن استقلالها عام ١٧٧٦م فضلاً عن تأخر اهتمام الأمريكيين بأقطار الخليج العربي والجزيرة العربية إضافة لسياسة العزلة التي انتهجتها أمريكا والتي دعا إليها مؤسسها الأول جورج واشنطن وأعلنها من بعده الرئيس جيمس منرو

في تصريحه الشهير عام ١٨٢٣م بدعوى التفرغ للبناء الداخلي وعدم الانغماس في مشاكل الآخرين (٣١)، لذلك يعد السلطان سعيد مؤسس العلاقات العمانية الأمريكية وتعتبر عمان أول دولة في منطقة الخليج والجزيرة العربية أقامت علاقات سياسية وتجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية وثاني دولة عربية بعد المغرب.

حملت السلطان سعيد عدة دوافع إلى إقامة العلاقة مع ما كان يسمى بالعالم الجديد منها أن الولايات المتحدة الأمريكية حديثة العهد، ولا ترتبط إقامة العلاقات معها بالتخوف من السيطرة أو الاستعمار كما هو الحال مع الدول الأخرى كفرنسا وبريطانيا لذلك كان يسعى السلطان سعيد من خلال علاقته مع أمريكا من أجل التوازن مع القوى الأجنبية الأخرى الطامعة في مد نفوذها إلى منطقة الخليج والمحيط الهندي وشرق أفريقيا، كما كان السلطان سعيد يرمي إلى الحفاظ على ممتلكات الدولة بواسطة دبلوماسيته المعهودة (٣٢).

ولا ننسى، من الجانب الآخر كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعد المصالح الاقتصادية الحجر الأساس في سياستها تجاه العالم العربي، وبذلك تمكنت عمان في عهد السلطان سعيد من أن تجتذب الأمريكيين إليها مطلع القرن التاسع العاشر لوقوعها في طريق الهند والشرق الأقصى ولأنها كانت مركزاً للعلاقات مع بقية أقطار الوطن العربي وإيران وأفريقيا (٣٣).

أدرك السلطان سعيد بحنكته السياسية وفراسته الدبلوماسية أن من مصلحة عمان أن تبادر لإقامة علاقات طيبة ومتينة مع الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة وأن السلطان سعيد قد توسع بدولة عمان لتشمل أجزاء مهمة من أفريقيا وقد جاءته الفرصة السانحة عندما زار التاجر الأمريكي (ادموند روبرتس) زنجبار عام ١٨٢٧م لكنه لم يجد التسهيلات التي كان يلقاها الإنجليز والذين كانوا أصدقاء للسلطان سعيد فعاد إلى أمريكا وهو يحمل في فكره عقد معاهدة مع عمان (٣٤).

لقد وافق الرئيس الأمريكي يومئذ (اندروجاكسون) على عقد معاهدة بين الولايات المتحدة الأمريكية وعمان وعهد إلى ارموند روبرتس بإجراء المفاوضات بشأن ذلك والتوصل إلى عقد المعاهدة بين البلدين.

وبالفعل، وصلت السفينة الأمريكية (بيكويك) إلى مسقط وعلى متنها البعثة الأمريكية برئاسة روبرتس الذي التقى السلطان سعيد وطرح عليه رغبة الولايات المتحدة في إبرام معاهدة للصداقة والتجارة مع عمان وقد أدرك السلطان سعيد من خلال طرح الوفد الأمريكي على مائدة المفاوضات الأهمية التجارية والسياسية التي وصلت إليها عمان في عهده والتي بسببها استقطبت الدول الكبرى ومنها أمريكا، لذلك انتهز السلطان سعيد الفرصة وأبدى استعداده التام لعقد المعاهدة المنشودة بين البلدين (٣٥)، فقد تم توقيع المعاهدة في الثاني من شهر أيلول عام ١٨٣٣م، والتي صادق عليها الكونغرس الأمريكي في الثلاثين من شهر تموز عام ١٨٣٤م.

ولو تصفحنا بنود الاتفاقية الأمريكية العمانية لوجدنا أن بعض موادها تتصل بتمتع الأمريكيين بامتيازات اقتصادية وقضائية في دولة عمان بشقيها الآسيوي والأفريقي حيث صار الحق للتجار الأمريكان بالنزول إلى الموانئ العمانية ودفع ٥% فقط كرسوم على البضائع التي كانوا يجلبونها إلى عمان، والبعض الأخر من بنودها يتصل بحق القنصل الأمريكي في عمان في فض المنازعات التي قد تنشأ بين رعايا دولته، كما نصت على حق القنصل العماني في الولايات المتحدة الفصل في القضايا التي قد تنشأ بين رعايا دولته في الولايات المتحدة الأمريكية (٣٦).

كما نصت إحدى بنود الاتفاقية على أن يتم التعامل مع جميع السفن العمانية بمعاملة أكثر الدول حظوة عند دخولها الموانئ الأمريكية.

ولم تفت السلطان سعيد التفاتته الدبلوماسية المعهودة حيث أرسل مع رئيس البعثة الأمريكية (روبرتس) رسالة إلى الرئيس الأمريكي جاكسون مرفقة مع المعاهدة المعقودة بين البلدين والتي جاء فيها

"ولقد استجبت من كل النواحي لرغبات معالي سفيركم روبرتس وذلك بإبرام معاهدة صداقة وتجارة بين بلدينا العزيزين، هذه المعاهدة التي سنتقيد بها بكل إخلاص أنا ومن يخلفني في الحكم، وتستطيع سيادتكم أن تطمئن بأن كل السفن الأمريكية التي ترسو في الموانئ التابعة لي ستلقى نفس المعاملة الكريمة التي تلقاها في موانئ بلادكم السعيدة التي يسود فيها الهناء، آمل من كل قلبي بأن سيادتكم ستعتبروني صديقكم الدائم والحميم وأن صداقتي لسيادتكم لن تزول مع الأيام، بل ستستمر زيادة في الرسوخ" (٣٧).

لم يكتف السلطان سعيد بالرسالة إلى الرئيس الأمريكي فحسب بل تصرف على صعيد الواقع أيضاً بدبلوماسية عالية ومرونة فائقة حيال الجانب الأمريكي في القضايا والمسائل التي لم تدرج في لوائح المعاهدة مثل تخصيصه بناية كبيرة وجيدة للبعثة الأمريكية في عمان كما سمح للأمريكان بإنشاء وكالات تجارية في الأماكن التي يختارونها.

ومن الجانب الأمريكي، رحب الرئيس الأمريكي برسالة السلطان سعيد وبنود الاتفاقية حيث كان وقعها في عموم الأوساط الأمريكية طيباً لأن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر نفسها قد كسبت كثيراً حيث أصبحت مرتبطة بصداقة إحدى القوى الآسيوية الأفريقية التي تفخر بامتلاكها أسطولاً أكبر من الأسطول الأمريكي نفسه حيث كان الأسطول العماني مكوناً من خمس وسبعين سفينة مختلفة الأحجام، كل منها مزود بعدد من المدافع تتراوح بين أربعة وخمسين إلى ستة وخمسين مدفعاً، كما أن

السفن التجارية العمانية وكما لاحظها المبعوث الأمريكي روبرتس بنفسه كانت تبحر شرقاً إلى الهند وسيلان وجاوة إلى جانب موانئ شرق أفريقيا.

لكننا لا ننسى أن الاتفاقية من الجانب الأخر، أي من الجانب العماني قد عززت أهمية السلطان سعيد في المحافل الدولية وأبرزت قدرته على الدخول في اتفاقية مع دولة كبرى، الأمر الذي شجعه على تقوية العلاقات العمانية الأمريكية من خلال عرضه الامتيازات التجارية للأمريكان، وخاصة في شرق أفريقيا مقابل أن يقفوا إلى جانبه ويمدوه بالسلاح.

كما لا ننسى، أن هذه الاتفاقية مع دولة كبرى أعطته صفة الندية التي يستند إليها في مواجهة القوى الكبرى الأخرى مثل فرنسا وبريطانيا والتي مكنته من كسب مكانة دولية، ومنحت عمان سمة الاستقلالية وعدم التدخل في شؤونها الداخلية، هذا الأمر الذي كانت تسعى إليه الكثير من الدول الآسيوية والأفريقية يومئذ (٣٨).

هذا الذي تقدم ذكره كانت له فوائده السياسية من عقد الاتفاقية بين عمان وأمريكا، أما الفوائد الاقتصادية فهي كثيرة أيضاً فعلى الرغم من أن التعامل التجاري كان جارياً بين البلدين قبل توقيع المعاهدة وخاصة مع الجانب الأفريقي لعمان، إلا أن الأمر اختلف كثيراً بعد توقيع المعاهدة إذ ازدهر التبادل التجاري بين البلدين بشكل ملفت للنظر، فقد سجلت التقارير الأمريكية وصول (١٣) سفينة تجارية أجنبية إلى زنجبار بعد توقيع الاتفاقية من بينها تسعة سفن أمريكية (٣٩) كانت تحمل العديد من البضائع المتنوعة والتي قد نزلت في الأسواق العمانية لأول مرة مثل القماش القطني الأمريكي المسنن الذي سرعان ما انتشر استعماله في عمان والخليج العربي والجزيرة العربية إلى جانب الأدوات المنزلية والساعات والأحذية وغيرها، مقابل ذلك كانت تحمل السفن الأمريكية من عمان القرنفل والعاج وجوز الهند والتوابل (٤٠).

كذلك أفادت المعاهدة عمان فوائد عسكرية حيث ساعدت الولايات المتحدة عمان في تقوية دفاعاتها وتزويد أسطولها التجاري بالمعدات العسكرية لحمايتها كما زودتها بالسلاح التي تمكنت به عمان من إخضاع (ممباسا) لسيادتها ويذكر لنا (مايلز) في هذا الصدد بأنه قد شاهد مدفعاً أمريكياً خلال زيارته لعمان عام ١٨٧٥م كان هذا المدفع من جملة المدافع التي اشتراها السلطان سعيد ضمن صفقة الأسلحة الأمريكية والتي تعاقد عليها مع الولايات المتحدة الأمريكية (٤١).

استمرت العلاقات العمانية الأمريكية منذ عقد الاتفاقية بين البلدين عام ١٨٣٣م ولغاية منتصف القرن التاسع عشر تتسم بطابع الود والصداقة غير أنها تعرضت للاضطراب والأزمة أواخر عهد السلطان سعيد لأسباب شتى منها: الخلافات بين السلطان سعيد والأمريكيين حول مدى سلطة القنصلية الأمريكية في عمان على الرعايا الأمريكيين حيث فجر هذا الخلاف ارتكاب بحار أمريكي جريمة قتل بحق مواطن عربي كما حدث خلاف آخر بين الطرفين نجم عنه رغبة السلطان سعيد في تعديل المادة الثانية من المعاهدة لعام ١٨٣٣م والتي نصت على حق الأمريكيين دخول جميع الموانئ العمانية، بيد أن السلطان سعيد كان يصر على أنها تشير إلى الاقتصار على ميناء زنجبار الرئيسي فقط ولم تستجب الحكومة الأمريكية لطلبه في التعديل، وقد لعب القنصل الأمريكي في زنجبار (شارلس وارد) دوراً في سوء العلاقة بين البلدين، الأمر الذي أدى في النهاية إلى قطع العلاقات العمانية الأمريكية في شهر تموز من عام ١٩٥٠م.

وبالرغم من أن السلطان سعيد كان حريصاً على استمرار العلاقات مع الولايات المتحدة -كما أسلفنا- إلا انه قد اضطر إلى تجميدها، خاصة وأنه قد استنفذ جميع الوسائل لحل المشكلات التي أثيرت بين البلدين حيث بعث برسالة شخصية إلى الحكومة الأمريكية في أيلول عام ١٨٤٧م، إلا انه لم يتلق رداً عليها مما دفعه إلى التمسك بمطالبه ووقف العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية، لكن الأخيرة لم

تستمر في صمتها طويلاً، وارتأت ألا تفقد صداقة عمان وسلطانها فأرسل الرئيس الأمريكي (ميلارد فيلمور) رسالة ودية إلى السلطان سعيد حملها مبعوثه (أوليك) حيث غادر القنصل الأمريكي السابق (وارد) عمان عائداً نحو بلاده، ومن المفيد الإشارة بأن المبعوث الأمريكي الجديد (أوليك) عندما وصل عمان في كانون الأول عام ١٨٥١م اتصل بالتجار الأمريكان أولاً مستفسراً منهم عن طبيعة المعاملة التي يلقونها في عمان فذكروا له حسن المعاملة لهم من قبل الحكومة العمانية بخلاف ما كان يذكره القنصل الأمريكي السابق (وارد) لحكومته، بعد ذلك سلم المبعوث الأمريكي الجديد (أوليك) رسالة الرئيس الأمريكي إلى السلطان سعيد ثم غادرها نحو أمريكا وهو يحمل أفضل الانطباع عن الحكومة العمانية وقد تتابع القناصل الأمريكان في عمان منذ عام ١٨٥٢م مسؤولية العمل على تحسين العلاقات العمانية الأمريكية، والمطلع على التقارير التي كتبها هؤلاء القناصل سيجد الكثير من الإشارة بروح المودة التي كان يبديها السلطان سعيد وأركان حكومته نحو الأمريكيين.

لقد ظلت الاتفاقية التي عقدت بين عمان وأمريكا منذ عام ١٨٣٣م سارية المفعول حتى عام ١٩٥٨م، ولم يعكر سريان مفعولها طيلة هذه المدة سوى هذه الفترة القصيرة التي تطرقنا إليها قبل قليل، وقد استبدلت بعد عام ١٩٥٨م بمعاهدة جديدة للصداقة والتجارة، (٤٢).

إلا إن بداية العلاقات بين البلدين عام ١٨٣٣م كانت فاتحة للعلاقات العمانية الأمريكية الدائمة بشكلها الرسمي الموثق ولا زال الجانبان لليوم يذكران هذه البداية بكثير من الاعتزاز والتقدير والاحتفال بها (٤٣). ولابد من الإشارة ونحن بصدد العلاقات العمانية الأمريكية أن البلدين كانا يتبادلان السفراء والقناصل والوفود الرسمية بينهما، وعلى سبيل المثال أرسل السلطان سعيد مبعوثه الخاص (أحمد بن نعمان الكعبي) إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٠م على متن سفينته المسماة

(سلطانة) من أجل تمتين العلاقات العمانية الأمريكية وبهذا تعد عمان أول دولة عربية توفد ممثلاً دبلوماسياً لها إلى الولايات المتحدة الأمريكية (٤٤).

كما بعثت الولايات المتحدة الأمريكية أحد رعاياها المدعو (ريتشارد ووترز Richard Waters) إلى عمان عام ١٨٣٦م ليكون أول قنصل أمريكي في مسقط.

وفي الختام لابد من القول بأن العلاقات العمانية الأمريكية أبان عهد السلطان سعيد قد عادت بالنفع الكثير لكلا البلدين إذ استفادت الولايات المتحدة كثيراً في حقل التجارة من جراء علاقاتها الجيدة بعمان، فقد تواصل الازدهار التجاري الأمريكي لأكثر من نصف قرن، حيث شهدت تجارتها مع عمان خلال السنوات التي امتدت من ١٨٣٣م ولغاية ١٨٥١م تصاعداً مستمراً في الأرباح يفوق كثيراً أرباح التجارة البريطانية في عمان.

ومن جانب أخر استفادت عمان من علاقتها الجيدة بالولايات المتحدة الأمريكية إذ أن الوجود التجاري الأمريكي الكبير في عمان غذى الاقتصاد العماني كثيراً كما جعل من مسألة سيادة عمان واستقلالها إبان حكم السلطان سعيد أمراً ثابتاً لا يحتاج إلى نقاش وقد أشارت التقارير السياسية الصادرة عن الخارجية الأمريكية لعام ١٩٤٦م بأن السياسة الأمريكية تستند في علاقاتها مع عمان إلى واحدة من أقدم معاهداتنا التي ما زالت نافذة المفعول وهي معاهدة الصداقة والتجارة لعام ١٨٣٣م.

كما أكد التقرير على أهمية العلاقات العمانية الأمريكية وأشار إلى أن الذكرى المئوية لهذه العلاقة قد أحييت في آذار من عام ١٩٣٤م وقد تميزت بزيارة قامت بها بعثة دبلوماسية أمريكية لمسقط كما أشار التقرير لما حدث عام ١٩٣٧م وهو استقبال الرئيس الأمريكي فرانكلن روزفلت Frank lin Rosevelt في واشنطن السلطان سعيد بن تيمور سلطان عمان وضيفه الخاص وخلص التقرير في النهاية إلى

استقلالية عمان منذ عهد السلطان سعيد بن سلطان نتيجة العلاقات الدولية القوية التي عقدها هذا السلطان مع أمريكا وغيرها من الدول بخلاف المعاهدات التي عقدتها الإمارات العربية الخليجية الأخرى مع بريطانيا والتي وضعتهم تحت الحماية البريطانية (٤٥).

الاستنتاجات

توصلنا من خلال البحث إلى ما يلي:

١- تطورت العلاقات الدولية لعمان كثيراً خلال حكم السلطان سعيد بن سلطان وبخاصة مع الدول الأوربية كفرنسا وبريطانيا، كما شهدت علاقات جديدة تبرم لأول مرة مثلما حصل ذلك مع الولايات المتحدة الأمريكية.

٢- لم يخضع السلطان سعيد خلال حكمه إلى رغبة البريطانيين في احتكار إقامة العلاقات معهم فقط، والتي خضعت لها بقية إمارات الخليج العربي، وعلى ضوء ذلك كانت تعد عمان دولة مستقلة ولو من الناحية القانونية.

٣- ازدهرت العلاقات الدولية لعمان وتوسعت إبان حكم السلطان سعيد وذلك بسبب طموحه المتزايد، إذ أراد أن يرقى بعمان إلى مصاف الدول الكبرى والمتميزة، وقد تجسدت بعض طموحاته على صعيد الواقع حيث اتسعت رقعة دولته لتمتد أطرافها بين قارتي آسيا وأفريقيا مما جعل بعض المؤرخين يصف دولته بالإمبراطورية، كما ازدهرت التجارة كثيراً في عهده فضلاً عن ضخامة أسطوله الذي كان يجوب البحار بين عاصمتي عمان يومئذ (مسقط وزنجبار) على الرغم من المسافة الطويلة بينهما والتي تربو على ألفي ميل، هذه التحولات الايجابية لعمان فرضت على السلطان سعيد أن يخلق شبكة واسعة ومتشعبة ومتينة من العلاقات الدولية تمكنه من إدارة إنجازاته بنجاح ويسر.

الهوامش

١- العقاد، صلاح، **التيارات السياسية في الخليج العربي**، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١١٦.

٢- اعتبر بعض المؤرخين السلطان سعيد من أبرز الرواد السياسيين في تاريخ آسيا وأفريقيا خلال القرن التاسع عشر للميلاد.

المغيري، سعيد بن علي، **جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار**، تحقيق عبد المنعم عامر، عمان، ١٩٧٩م، ص١٣٩.

٣- **عمان في التاريخ، سلطنة عمان** ودار أميل للنشر المحدودة، لندن، ١٩٩٥م، ص٤٤٩.

4- Agwani, M.S. The Gulf in the international politices from the beginning of the modern times to the end of the Second World War, Historical studies conference on Eastern Arabic, Published by A Scocieation of Arab, Historians, Doha, Qatar, 1976.

5- Skeet, Ian, Mascat and Oman the end of an Era, London, 1974, P 40.

٦- مايلز، س.ب.، **الخليج بلدانه وقبائله**، ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الرابعة، عمان، ١٩٩٠م، ص٢٧٠.

٧- روث، رودولف سعيد، **سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان**، ١٧٩١م-١٨٥٦م، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، ١٩٨٣م، جامعة البصرة، ص١٣٩.

٨- الكردي، علي عظم محمد عباس، **العلاقات السياسية العمانية الفارسية**، ١٨٠٦م-١٩١٣م، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ١٩٨٩م، ص٢٦.

٩- هولي، دونالد، **عمان ونهضتها الحديثة**، ترجمة فؤاد حداد وعادل صلاحي لندن، ١٩٧٧م، ص٤٧.

١٠- **عمان في التاريخ**، مصدر سابق، ص٥١٩.

١١- ويلسون، ارنولد، **تاريخ الخليج**، ترجمه محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان، ١٩٨١م، ص١٧١.

١٢- مايلز، مصدر سابق، ص ص٢٧١-٢٧٥.

١٣- روث، مصدر سابق، ص١٤٩.

١٤- محمد، جاد طه، **تجارة الأسلحة في مسقط قديماً**، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة الرابعة، الرياض، ١٩٨١م، ص٢٨٤.

١٥- نشرت هذا الخبر جريدة (الجبهة الوطنية) الفرنسية الصادرة بتاريخ ١٨٤٩/٨/٣٠م.

١٦- روث، مصدر سابق، ص١٥٤.

١٧- صالح زكي، **بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤م**، دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري، بغداد، ١٩٦٨م، ص٦٤.

١٨- المغيري، المصدر السابق، ص٢٥٧.

١٩- Parsons, Abraham, Travel in Asia and Africa, London, 1808, P208.

٢٠- Aitchison, C.U, A collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries, Vol XI, Delhi, 1833, P284.

٢١- لاندن، روبرت جيران، **عمان منذ ١٨٥٦م مسيراً ومصيراً**، ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الثالثة، سلطنة عمان، ١٩٨٣م، ص١٩٨.

٢٢- **عمان في التاريخ**، مصدر سابق، ص٤٥٧.

٢٣- روث، مصدر سابق، ص١٦٥.

٢٤- المغيري، مصدر سابق، ص١٥٥.

٢٥- عمان في أمجادها البحرية، سلطنة عمان، سلسلة تراثنا العدد الثامن، ط٤، ١٩١٤م، ص٦٠.

٢٦- عبيدلي، أحمد، الإمام عزان بن قيس، **جوانب من التاريخ العربي الإسلامي في ظل الهيمنة الأوربية**، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٤م، ص٥٩.

٢٧- هولي، مصدر سابق، ص٤٧-٤٨.

٢٨- مايلز، مصدر سابق، ص٤٥٧.

٢٩- المصدر نفسه، ص٤٥٨.

٣٠- ويلسون، مصدر سابق، ص١٧١.

٣١- عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص٤٥٧.

٣٢- المصدر نفسه، ص٥٢٧.

٣٣- لوريمر، جون غوردن، **دليل الخليج**، القسم التاريخي، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، بيروت، ١٩٧٠م، الجزء الثاني، ص٧٢٨.

٣٤- ريتشارد، ستيفنس، اس**تعراض بداية العلاقات الأمريكية التجارية والقنصلية مع سلطنة عمان**، مسقط ١٨٣٣م-١٨٥٦م، نقلاً عن عمان في التاريخ، ص٤٥٩.

٣٥- روث، مصدر سابق، ص١٦٧.

٣٦- عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص٤٦٠.

٣٧- المصدر نفسه، ص٤٦٠.

٣٨- المصدر نفسه.

٣٩- روث، مصدر سابق، ص١٧٠.

٤٠- هولي، مصدر سابق، ص١٨٧.

٤١- روث، مصدر سابق، ص١٧٢.

٤٢- عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص٤٦٠.

٤٣- روث، مصدر سابق، ص١٧٣.

٤٤-المعمري، أحمد حمود، **عمان وشرق أفريقيا**، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان، ١٩٧٩م، ص١٢؛ عمان وأمجادها البحرية، مرجع سابق، ص٦٠.

٤٥- Memorandum Prepared in The Department of State (Secret) Washington, March 15,1946, No 7900004-946-Current U-S Policy to Ward the Arab Peincipalities of the Persirf Gulf and the Gulf of Oman.

المصادر والمراجع

أ- المصادر والمراجع العربية والمعربة

١- أحمد حمود المعمري، عمان وشرق أفريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله، عمان، ١٩٧٩م.

٢- أحمد عبيدلي، الإمام عزان بن قيس، جوانب من التاريخ العربي الإسلامي في ظل الهيمنة الأوربية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٤م.

٣- ارنولد ولسن، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، عمان، ١٩٨١م.

٤- جاد طه محمد، تجارة الأسلحة في مسقط قديماً، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة الرابعة، الرياض، ١٩٨١م.

٥- دونالد هولي، عمان ونهضتها الحديثة، ترجمة فؤاد حداد وعادل صلاحي، لندن، ١٩٧٧م.

٦- رودولف سعيد روث، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان، ١٧٩١م-١٨٥٦م، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، البصرة، ١٩٨٣م.

٧- زكي صالح، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤م، دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري، بغداد، ١٩٦٨م.

٨- سعيد علي المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق عبد المنعم عامر، عمان، ١٩٧٩م.

٩- صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة، ١٩٨٣م.

١٠- علي عظم محمد عباس الكردي، العلاقات السياسية العمانية الفارسية، ١٨٠٦م-١٩١٣م، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ١٩٨٩م.

١١- عمان في التاريخ، مجموعة بحوث ألقيت في ندوة عمان في التاريخ التي عقدت في مسقط عام ١٩٩٤م، سلطنة عمان، دار أميل للنشر المحدودة، لندن، ١٩٩٥م.

١٢- عمان في أمجادها البحرية، سلسلة تراثنا العدد الثاني، عمان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م.

١٣- لاندن، روبرت جيران، عمان منذ ١٨٥٦م مسيراً ومصيراً، ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الثالثة، عمان، ١٩٨٣م.

١٤- لوريمر، جون غوردن، دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، بيروت، ١٩٧٠م.

١٥- مايلز، س.ب، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الرابعة، عمان، ١٩٩٠م.

ب- المصادر والمراجع الأجنبية:

١- الوثائق Records

1- Aitichison, G.U. A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, Vol, XI, Delhi, 1833.

2- Memorandum Prepared in the Department of State (Secret) Washington, March 15, 1946, No 7900004-946-Current U.S Policy to Ward the Arab Peincipalities of the Persin Gulf and the Gulf of Oman.

٢- الكتب Books

1- Agwani, M.S. The Gulf in International Politices from the Beginning of the Modern Times to the End of the Second World war, Historical Studies Conference on Eastern Arabic, Published by Asocieation of Arab, Historians, Doha, Qater, 1976.

2- Parsons, Abraham, Travel in Asia and Africa, London, 1808.

3- Skeet, Ian, Mascat and Oman the End of an Era, London, 1974.

قراءة في منهج الحركة الفكرية الجزائرية وأسلوبها (١٨٣٠م- ١٩٢٠م)

الدكتور غطاس نعمة

قسم التاريخ

جامعة دمشق

مقدمة:

شهد الوطن العربي منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حركات تجديدية دينية الطابع – بادئ الأمر – عدّها المؤرخون ردود فعلٍ إزاء سيطرة العثمانيين على الوطن العربي واحتجاجاً على عجزهم وفسادهم وإهمالهم. ثم تجاوزت هذه الحركات منهجها في الدعوة إلى الإصلاح لتتبنى شكل الثورة المسلحة ضد النظم الحاكمة المهترئة الآيلة للسقوط وضد التغلغل الاستعماري الأوروبي في الولايات العربية.

فمحاولات الاستعمار الأوروبي في الأقطار العربية أثارت ردود فعل قوية تراوحت بين الاحتجاج السلمي والمقاومة المسلحة.

وقد عرف الوطن العربي في القرن التاسع عشر نهضة فكرية شملت مختلف جوانب الحياة العربية: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأثمرت هذه الحركة عن ردود فعل بحيث تركت آثاراً واضحة على الأوضاع السياسية.

وبعد الإطلاع وجدتُ أن هناك كمّاً هائلاً من المصلحين الوطنيين والمفكرين والعلماء الذين أوقفوا جُلَ حياتهم من أجل نهضةٍ عربية شاملة وسعوا لتحقيق استقلال تام من كل أشكال التبعية، ولهذا جاءت مظاهر الحركة الفكرية في الجزائر على شكل مظاهر فكرية أدى الفكرُ فيها دوراً بارزاً أطرتها مظاهر ثورية تحريرية سياسية وعسكرية. شكلت بمجموعها معولاً شديد الوطأة على الاحتلال وأعوانه.

بقراءة واعية للعوامل الداخلية في ظهور الحركة الفكرية في الجزائر وأبرزها المقاومة العفوية والعسكرية المسلحة والسياسية، ثم التعليم والتدريس كمؤثر رئيس في إحداث هذه الحركة الفكرية، فضلاً عن الصحافة والصحف التي أدت هي الأخرى دوراً مهماً حيث عدت سلاحاً فعالاً ضد الأعداء ويساهم في استنهاض الشعب، ثم الإبداعات الهائلة والنجاحات العظيمة والأدوار الريادية للمفكرين والعلماء والمصلحين وشيوخ الدعوة والجهاد في صياغة هذه الملحمة النهضوية والفكرية وهذا ما دفعها قدماً لتحقيق طموحات الشعب في تقدمه وتقرير مصيره.

وفي محور آخر تم بيان مظاهر هذه الحركة الفكرية من جمعيات ومدارس وزوايا إلى مجلات وجرائد وصحف ذات طابع وطني وانتشار للمفكرين والعقول النيرة على أرض الجزائر.

الحركة الفكرية في الجزائر

الحركة الفكرية:

تنبه المجتمع العربي في أنحاء الوطن العربي منذ نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي إلى وجوده في حالة خمول، وتخلف، وتبعية.

والمقصود بالحركة الفكرية يقظة الشعب الجزائري ومحاولة النهوض من جديد لما يمتلك من معطيات حضارية هائلة عبر التاريخ، ليتطور هذا الواقع العربي في مختلف

مناحي الحياة ويعاضدها أيضاً مسيرة التحرر الوطني التي هي جزء لا تتجزأ من نهضة ويقظة الشعوب المغلوبة على أمرها بشكل خاص.

أما العوامل الخارجية والداخلية للحركة الفكرية فتتجلى في:

أولاً: العوامل الخارجية والداخلية للنهضة الفكرية في الجزائر:

هناك جملة عوامل خارجية وداخلية أسهمت بشكل أو بآخر في تطور الحركة الفكرية والبعث القومي في الجزائر مركزين على انعكاسات هذه العوامل وتأثيراتها على الحركة الفكرية.

(١) - العوامل الخارجية

(أ) - حملة إكسموث الإنكليزية على الجزائر عام ١٩١٦م:

صحيح أن هذه الحملة قصفت الجزائر وألحقت أضراراً بالغة بمدينة الجزائر، لكن ما يهمنا من هذه الحملة نتائجها على الحركة الفكرية في الجزائر، وليس المهم عندنا شرح وتفصيل مراحل هذه الحمل زماناً ومكاناً وهي معروفة: قادها اللورد إكسموث وكانت بمثابة إثبات وجود وجس نبض ومحاولة تحرش تمهيداً للهيمنة وبسط النفوذ ضمنياً في حين تظاهرت بريطانيا آنذاك أنها تسعى لتحرير المسحيين وتعهدت بإلغاء الاسترقاق..

أهم نتائج حملة إكسموث:

أ - حرضت الشعور الوطني لدى الجزائريين، وخاصة الجند ورجال الطائفة[١]، ونبهت إلى وجود أطماع أجنبية تحاول الانقضاض على البلد مستغلة ضعف الدولة العثمانية والظروف المحيطة بها.

ب – أشعرت حملة إكسموث – فرنسا –الطامعة دائماً بالجزائر بأن إنكلترا تحوم هي الأخرى لتفرض سيطرتها على هذا المجال الحيوي الذي تحظى به الجزائر كدولة أفريقية.

ج – أظهرت الحملة عجز الدولة العثمانية عن الدفاع عن إمبراطوريتها المفككة[٢] وتحجر سلاطينها وفساد انكشارية دولتهم.

(ب) – الامتيازات الأجنبية:

هذه الامتيازات التي كانت تقوم على منح رعايا الدول الأجنبية حرية الاتجار في الأملاك بالإمبراطورية العثمانية وهذه الامتيازات لم يحصل عليها العثمانيون أنفسهم. وتمثل هذه الامتيازات منح جميع المتجولين والسائحين الأجانب من غير المسلمين حرية الحركة، واستمر العمل بالامتيازات للأجانب إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى. هذا الأمر جعل المراكب الفرنسية محترمة في هذا البحر. غير أن الإنكليز لم يرضوا بهذا الأمر وعملوا على إفساد الود بين نابليون بونابرت وداي الجزائر.[٣] وكان أمرُ الامتيازات الأجنبية أمراً أنكرهُ الشعب وحاربه المثقفون لأنه يمثل جانباً سلبياً يشمل الكثير من مناحي الحياة، ويكرس النفوذ الأجنبي ويضعف كاهل الناس، ويؤدي إلى شلل العامل الاقتصادي وإضعاف البنى التحتية وبدا أثر الامتيازات واضحاً بعد ضعف الدولة العثمانية بشكل خاص.

(ج) – الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠وأثره على الحركة الفكرية فيها:

يعدّ الاحتلال الفرنسي للجزائر نهاية الوجود العثماني في الشمال الإفريقي العربي وبداية السيطرة الاستعمارية على أقطار المغرب العربي.

أما أسباب الاحتلال فهي جملة أسباب مباشرة وغير مباشرة:

فمنها دوافع سياسية:

- حيث أرادت فرنسا أن تعوض مستعمراتها في أمريكا اللاتينية، ودوافع اقتصادية – حيث أرادت فرنسا فتح منافذ لبيع منتجاتها، وإيجاد اليد العاملة الرخيصة والمواد الأولية والأراضي الخصبة.

ودوافع دينية تمثلت في محاولة فرنسا إضعاف الإسلام إن لم يتم القضاء عليه حسب زعمهم.

- وهذا ما صرح به سكرتير الحاكم الفرنسي آنذاك بيجو ((آخر أيام الإسلام قد دنت وخلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح...)) [٤] إضافة إلى أطماع فرنسية شجَّعها ضعف الدولة العثمانية، والقضاء نهائياً على الأسطول الجزائري.

ومما شك فيه أن التاريخ الحديث لم يعرف مأساة استعمارية كمأساة الجزائر كما أن الإنسان الحديث لم يواجه أزمةً إنسانية هزته من الأعماق كأزمة الجزائر، حيث أن الاستعمار الفرنسي لم يكتف باحتلال الجزائر وسلب ثرواتها وخيراتها، ومحاولة الجادة طمس معالمها القومية وسلب ثقافتها ولغتها وهويتها الشخصية. [٥]

لقد كان للاحتلال الفرنسي للجزائر تأثيرات واضحة المعالم على الحركة الفكرية واليقظة العلمية ليس في الجزائر فقط وإنما في أكثر البلاد العربية، لذا يجب أن لا يُنسى أن (النهضة العربية لم تكن وليدة الاحتلال الفرنسي)، كما يتبادر للذهن حيث أن هناك (انفجاراً للروح القومية العارمة التي تزعمها شيوخ الصوفية ضد ممارسات وسلوك السلطة التركية الحاكمة بالجزائر نحو الرعية وإرهاقها بمتطلبات الضرائب والرسوم.

وكانت بداية هذه الثورة القومية بزعامة الشيخ أبي العباس ابن المختار التيجاني).[٦] فالنهضة واليقظة العربية لم تكن وليدة الاحتلال الفرنسي للجزائر بل أقدم بكثير لكن الاحتلال الفرنسي أيقظها ومنحها التطلع إلى تبديل الأوضاع البائسة التي جسدها العثمانيون في مختلفة أقطار الوطن العربي.

هذا التجديد الفكري ولَّد في رواد النهضة ضرورة الإصلاح والنهوض بالعرب والإسلام تماشياً مع العالم سريع الخُطا. [٧]

ومما ارتقى بالصمود الجزائري وصلابته وعصيانه على الأعداء هو أن الهوية لم تكن عربية فقط في الجزائر،وإنما أشمل من ذلك وهو الإسلام، فالهوية إسلامية بالدرجة الأولى. كانت الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي تنهل من معين الفكرة الإسلامية التي لا تقوم على أساس الجنس أو العرق أو اللغة أو المنطقة بل قامت على رابطة الدين، حتى أن التيار الوطني احترم هذا الانتماء أيدلوجياً لأن التيار الوطني هو من يقاتل الأعداء ويلتحق بركب الثورة ب ((المجاهد)).

إذن برز هذا الرافد الحيوي – الدين الإسلامي – المتأصل والمتجذر في نفوس الجزائريين ليكون حاجزاً صلباً أمام محاولات الاستعمار الفرنسي، الذي حاول بضمها طمس الهوية العربية والعقيدة الإسلامية.

*** أهم انعكاسات الاحتلال الفرنسي يتم إيجازها بالشكل التالي:**

١- نبهت الحملة الفرنسية – بأسلحتها الحديثة وأساليبها الغربية – الغرب إلى قدرات العالم الغربي ومطامح الاستعمار الفرنسي[٨] وهنا أدرك العرب حقيقة ما هم عليه وضرورة اللحاق بالركب المتقدم.

٢- ولدّ الاحتلال الفرنسي للجزائر الحماس العربي الإسلامي وأشعر رواد الفكر أن العرب أمام تحد خطير [٩] وبالوقت نفسه حرض الاحتلال الفرنسي للجزائر

الشعور الوطني. ونتيجة لما مارسهُ هذا الاحتلال من القمع والفضائح والإنهاك ظهرت الشخصيات الوطنية [١٠] والمجاميع القتالية التي أبدت استعدادها لبذل كل ما تمتلك وصولاً إلى طرد المستعمر والتحرر من القمع والإذلال.

هذا الاستنتاج لا يجري في خط تسويغ الاستعمار أو استحسانه، فالاستعمار أمرٌ لا تُحمدُ عقباه لكن له انعكاسات على الواقع ربما يستثمرها الشعب في مصلحته.

(إن الاحتلال الفرنسي للجزائر عملية جراحية فظيعة مزقها الواقع الجزائري، ولكنها نفعتها، فقد استفاقت الجزائر من نومها وجلست تمسحُ الكرى عن عينها، وتنظر حولها لتتبين الطريق بشكل واضح والوسائل التي تتذرع بها فرنسا للتخلص من المقاومة فابتدأت نهضتها في القرن التاسع عشر. [١١]

وكان الدور كبيراً لوعي الشعب الجزائري وإدراك العارفين لخطورة ما يهدف إليه المحتل من تقسيم وتجزئة للبلاد والشعب، ومن إبادة للشخصية العربية الإسلامية عبر محاربة اللغة العربية والدين الإسلامي، وأكثر من ذلك بكثير هدفت فرنسا إلى تمييع الجزائر كدولة وصهرها في البوتقة الفرنسية:

(فقد قررت الحكومة الفرنسية فيما يتعلق بالجزائر، أن الجزائر جزءٌ لا يتجزأ من فرنسا، هذا الزعم أقامته على أساس القانون الفرنسي) [١٢]

وكلما اشتد القمع في محاولة يائسة لإذلال وإسكات الشعب – كلما تمسك الشعب الجزائري بثوابته وتوالت ثوراته التي لم تهجع يوماً. لهذا نجد التزكية لنضال الشعب الجزائري على ألسنة الكثير من أصحاب الشأن حتى من رجالات الاحتلال أنفسهم.

ونجد أن الاستجابة لتأثير الاحتلال الفرنسي تأتي مباشرة حيثً تهب المقاومة الوطنية مع أول قدمٍ يضعها المحتلون على هذه الأرض، حيث كانت القبائل في الأقاليم تمثل

أشد وأعتى خصوم الاحتلال فحملوا لواء المقاومة مع غيرهم حتى أثمرت ثورة ١٨٧١م.

لقد اتجهت السياسة الفرنسية في الجزائر نحو الوصول إلى هدفين هما فرنسة السكان، وفرنسة الأرض، عندما أعلنت أن الجزائر قطعة طبيعية من فرنسا وأن المنطقة الشاطئية جزءٌ لا يتجزأ من فرنسا نفسها) (١٣) فالأطماع الفرنسية بعيدة المدى واسعة الطموح.

حيث لم تُفلح فرنسا في الاتجاه الأول فلم يرض الجزائريون أن يكونوا فرنسيين، فاتجهت بطبيعتها الاستعمارية إلى القضاء على الشعب الجزائري وتشريده، ولم يستجب للفرنسية من سكان الجزائر إلا اليهود. ثم قامت فرنسا باستقدام الأوروبيين إلى الجزائر وأصدرت فرنسا قانون الجنسية لكل مواطن أوروبي يولد في الجزائر. وفي سنة ١٩٢٠م، صدر دستور جزائري فرنسي ليعد كل جزائري بمقتضاه مواطناً فرنسياً، فأدرك الجزائريون أن إحكام قبضة المستعمر على البلاد هي وراء القصد من هذا الدستور (١٤).

لقد اشتدت السياسة الفرنسية عنفاً وبطشاً تقتل وتبيد وتشرد كما اعتمدت محاور أبرزها الإجهاز على مقومات ودوافع القوة والمقاومة والصمود عبر محاربتها اللغة العربية والإسلام فأرادت بجعلها اللغة الفرنسية لغة الدولة الرسمية ضرب الوحدة الوطنية في الصميم. ومنعت العرب من افتتاح المدارس وزوايا التعليم وأماكن الإرشاد إلا بموافقة المقيم الفرنسي، الذي هدف إلى تدمير نظام الملكية الجزائري عبر قرارات وضعتها فرنسا، وبدأت سياسة مصادرة الأراضي والملكيات (١٥) فاستولوا على أكثر الأراضي وأخصبها. وعمدوا إلى حرمان الشعب الجزائري من التعليم، وكان الاستيطان في الجزائر من الأهداف الاستراتيجية لفرنسا.

وكانت فرنسا تنقل من رعاياها إلى الجزائر بالألوف وكان ازدياد عدد المستوطنين يثير الانتباه وأعطت لهؤلاء المستوطنين الفرنسيين أراضي الدولة والأوقاف.

والحقيقة كان دور المقاومة حاضراً في إعاقة سياسة الاستيطان واضطرابها، ولهذا فرضت الحكومة الفرنسية جزءاً كبيراً من الغرامة الحربية على القبائل الثائرة والرافضة لسياسة الاستيطان [١٦].

(د) – الحملات التبشيرية:

ومن العوامل الخارجية التي أدت إلى إيقاظ مكامن الوعي الوطني والشعور الإسلامي انتشار من يزعم (التبشير بدين المسيح)، وهذا نوع من محاربة الشعب في معنوياته وحرياته ومعتقداته الدينية.

حيث وجدنا (فئة لإطراب) الموجودة بناحية سطا والي منذ عام١٨٤٣، (وجمعيات الآباء البيض والسود) المنتشرة في شتى أنحاء القطر الجزائري.

وفي سنة ١٨٦٧ انتشر رجال الكهنوت في أرجاء البلاد لتنصير المسلمين متظاهرين بتقديمهم أعمال البر والمساعدة مستغلين بذلك فرصة الجفاف والقحط الذي حل بالبلاد وانتشار الأمراض والأوبئة، وكان يوجه لهم الإمداد والدعم من البابا بيوس التاسع ثم ليون الثالث عشر.

وغايات الحملات التبشيرية معروفة بأنها تهدف إلى تفكيك وحدة الأمة الإسلامية والعبث بها وقد دخل الرهبان وعسكروا في المدن الجزائرية وقدم الكرسي الرسولي الدعم لهم. [١٧]

كذلك أيقظت ونبهت هذه الحملات الشعب إلى نوايا الاحتلال الذي يحاول قطع صلة المسلم بدينه وانتمائه وعقيدته، ومعروف هنا دور رجال الدين الإسلامي في وضع علامات الحذر أمام الناس وخاصة العوام ذوي الوعي المحدود لما يخطط له الاحتلال

الفرنسي. فالآثار السلبية للبعثات التبشيرية هي أنها أوجدت مسارات فكرية متضاربة ومنحرفة نتيجة لتوجهات تلك البعثات، ولهذا كانت البعثات التبشيرية نعمة ونقمة في آن واحد، وهناك آثار إيجابية للبعثات التبشيرية حيث أوجدت هذه البعثات نشاطاً تعليمياً عبر تأسيسها للمدارس ونشرها للكتب التراثية والتاريخية باللغة العربية وظهر تطلع العرب إلى إنشاء مدارس مماثلة في هيكلها وطريقة تعليمها.

كذلك من العوامل الخارجية – التي لا حصر لها الآن – حركة الإصلاحات الدستورية وتأثيرها على العرب – الإصلاح الذي سعى لتفعيل حركة التعليم وفتح المدارس وإشراك العرب في الحكم. فكان أثرها واضحاً في تنبيه الوعي والحس الوطني. وكل ما هدف إلى الإجهاض على الهوية العربية – كحركة التتريك وغيرها -- كان له الأثر سلباً من حيث النهج والهدف – وإيجاباً من حيث اعتباره عامل تحفيز وتنبيه واستنهاض للمحافظة على الهوية والكيان.

كذلك فقد ساهمت النزعات القومية التركية المكشوفة، كما أدى التعصب القومي التركي إلى رد فعل عربي، فكل تعصُب قومي يؤدي إلى خلق نفور قومي، وكل شامخ قومي يؤدي إلى انفتاح حضاري على القوميات الأخُرى (١٨). فهذا أيضاً حرك مكامن الشعور والترابط القومي العربي.

(هـ) – الحركات الفكرية ومشاريع الإصلاح العربية:

هناك عامل خارجي آخر مهم أثر إيجاباً في الحركة الفكرية الجزائرية مطلع القرن التاسع عشر هو الحركات الإصلاحية القائمة في أماكن أخرى مثل حركة مصطفى كامل، ونهضة الأفغاني ومحمد عبده، وحركة تركيا الفتاة، وتونس الفتاة.. الخ.

وهذا ما صرح به تقرير لجنة البحث البرلمانية الفرنسية ١٩٠٠م أن الشبيبة الجزائرية متفتحة على قضايا العالم السياسي وتطوراته وعلى دراية تامة بالحركات الوطنية، وأنه يوجد مجرى سري من الصحف والمجلات الشرقية نحو الجزائر. فاتخذت

الإدارة الفرنسية إجراءات قمعية ضد العديد من الصحف العربية المشرقية والتركية في محاولة لعزل الشباب الجزائري عن هذه التيارات الوطنية [١٩].

وكانت هذه الأحوال تنير العقول وتبصر الإفهام وتحرك الهمم مما زاد في فاعلية السلاح الفكري الذي يعد أبلغ السبل، خاصة وأن الاحتلال يمارس كل السبل ليحكم سيطرته ويُديم احتلاله.

(و) – الحرب العالمية:

- كان من آثار الحرب العالمية الأولى أنها فتحت أعين الشعوب المضطهدة على آفاق وطموحات جديدة في التحرر والاستقلال. فنشطت حركات التحرر الوطني القومي ولاسيما في البلاد العربية. وبعد الحرب العالمية الأولى عمدت الدول الاستعمارية إلى احتواء الحركات الوطنية والقومية عبر اتباع سياسة التهدئة والتسكين. والحقيقة أن الحرب العالمية الأولى ثم الثانية أدت إلى تلاشي الاستعمار وانتصار الحركات الوطنية وتحقيق أهدافها في تحرير شعوبها والحصول على استقلال دولها.
- أثرت الحرب العالمية الأولى على الشعب الجزائري حيث انتقل الكثير من أبناء الجزائر (جنود وعمال) إلى فرنسا للعمل واحتكوا بالعالم الجديد، وتعرضوا لتأثيرات الأحزاب اليسارية الفرنسية واتحادات العمال هناك، وتأثروا بقيام الثورة العربية الكبرى ومبادئ الرئيس الأمريكي ويلسون وخاصة مبدأ حق الشعوب في تقرير المصير، وتأثروا بانتصار القوميات في أوروبا، وقيام الثورة الشيوعية.

برز في نهاية الحرب العالمية الأولى الأمير خالد الجزائري حفيد الأمير عبد القادر ثم تزعم تياراً سياسياً مطالباً بالسماح للجزائريين أن يكونوا فرنسيين – أي بالتجنيس – مع الاحتفاظ بأحوالهم الشخصية، وطالب بالمساواة بين الفرنسيين والجزائريين، وطالب بأن يكون للجزائر تمثيل في المجلس الوطني الفرنسي، وبإلغاء التدابير التعسفية ضد الجزائريين، وبتطبيق التعليم الإجباري باللغتين

الفرنسية والعربية، والمساواة بين الفرنسيين والجزائريين في الوظائف ورفضت فرنسا المطالب ونفت الأمير خالد إلى فرنسا.

• في ١٩١٦ نشبت ثورة حقيقية - كانت خلاصة لأعمال ثورية متفرقة متمثلة بهجمات على المؤسسات الفرنسية والسكك الحديدية - ويبدو أن هذه الثورة تأثرت بالسنوسية في ليبيا، واستخدمت فرنسا أقسى أساليب القمع من القتل الجماعي وتدمير المنازل والاستيلاء على قطعان الماشية وإبادة محاصيل القمح والشعير[٢٠].

كل هذه الظروف أسهمت بشكل فعال في نضوج الوعي الفكري وفي تسارع الأحداث وفي اتساع مساحة المجابهة للاحتلال وتفعيل فكرة الخلاص من الاستعمار.

(١) - العوامل الداخلية للحركة الفكرية في الجزائر:

(أ) - حركة المقاومة:

الجزائر بلدٌ مقاوم ويكاد يكون أكثر البلدان مقاومة وشراسة ومعارضة لمشاريع الاستعمار والاحتلال.

ويشار إلى الدور الكبير للشعب في المقاومة والثبات والتضحية. وظهرت حركة المقاومة البحرية لهجمات الأسبان والأوربيين في البحار العربية وهذا ما أطلق عليه هؤلاء اسم (القرصنة)، بينما هي في حقيقتها نوع من الجهاد الوطني في البحر.

وقامت في أقطار المغرب العربي حركات استقلالية عن الحكم العثماني نظراً لضعف الدولة العثمانية وبُعد المغرب العربي عن مركز الدولة العثمانية.

وعندما ساءت سياسة الدايات وكثرت مظالم الانكشارية وساءت الأحوال الاقتصادية في الجزائر تبعاً لسياستهم، اندلعت الثورة الدرقاوية في الجزائر عام ١٨٠٥م وشملت معظم غربي الجزائر بزعامة محمد بن عبد القادر بن الشريف الفليتي.

وفشلت الثورة لتصدي الأتراك لها، وسوء تصرف الثوار، ولتعاون الداي مع الانكشارية، ومقتل زعيم الثورة ابن شريف الدرقاوي.

لكن هذه الثورة كانت بذرة حيّة في تنمية الشعور الوطني الجزائري، وخطوة مهمة على طريق الاستقلال.

واحتلت فرنسا الجزائر، (ولم تستسلم الجزائر لهذا الاحتلال ورفضت الاندماج والدمج، وحمل رجال القبائل ثقل النضال في الفترة الأولى) [٢١]

يشار إلى مقاومة الداي (حسين) للعدوان الفرنسي، واجتمع له ٦٠٠٠٠ مقاتل من الأقاليم الثلاثة، لكنه كان ضعيفاً في تنظيم صفوف المقاومة، واختار غير الأكفاء لمواقع قيادية فصمدت الجزائر في بادئ الأمر أمام الأسلحة الفرنسية الحديثة لكن أُجبرَ الداي على الاستلام ونُفيَ إلى نابولي..

فما أن وضعَ الاستعمار الفرنسي أقدامَه في الجزائر حتى انطلقت القبائل تقاوم بعنف وتدافع بشراسة بقيادة محي الدين الحسيني – وهو والد الأمير عبد القادر– أحد زعماء الأشراف الذي ظل يحارب سنتين ثم تخلى عن القيادة لابنه عبد القادر عام ١٨٣٢.

والجدير بالذكر أن هذه المقاومة العفوية أو المسلحة أو السياسية لم تكن وليدة اللحظة في الجزائر التي وُصِفَتْ أرضُها: كأنها أرضٌ ما وجدت إلا لتحتدم عليها معارك العداء والشرف.

ووُصف شعبُها كأنه شعبٌ لم يُخلق إلا للكفاح والجهاد.(وظلت الجزائر عبئاً ثقيلا على فرنسا، وتكلفها كل يوم الخسائر الفادحة في الأموال والأرواح، واستخدمت فرنسا كما أشير إليه سابقاً فظاعات بشرية وجرائم مروعة، ولم تعرف الجزائر استسلاماً بالمعنى الصحيح، بل فترات انطواءٍ بسيطة يتلوها تحفزّ واندفاع) [٢٢]. فالمقاومة من أهم

العوامل الداخلية لتطور الحركة الفكرية في الجزائر ونشوء معطيات جديدة في هذا المجال الحيوي:

١- المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي:(المقاومة العفوية، والمقاومة المنظمة)

٢- النضال السياسي الجزائري ضد الاحتلال

* **المقاومة العفوية:** وفكر المجابهة في الجزائر هو فكر مقاوم لكن يتقلب من عفوي إلى مسلح إلى سياسي.

- يعتمد التنظيم دون إلغاء الكفاح المسلح - وكل هذا دلّ على نضوج الفكر الوطني الجزائري.
- وبالطبع جاءت المقاومة العفوية كرد سريع على الاحتلال معبرة عن الرفض الذي لا تردد ولا تلعثم فيه تجاه الاحتلال جملةً وتفصيلاً.

فعملت القبائل المقاومة على حصر الاحتلال الفرنسي في مدينة الجزائر ومنعه من التوسع خارجها ومنع وصول المؤن إليهم، وهي مقاومة شرسة وضارية، لكن ينقصها التنظيم والتوحد والقائد الكفء وتكونت المقاومة العفوية من مقاومة مدينة الجزائر ومدينة قسنطينة ومدينة وهران وتلمسان.

* **المقاومة المنظمة:** يعد يوم الرابع والعشرين من تشرين الثاني لسنة ١٨٣٢م بداية بروز التحول المنظم في تاريخ المقاومة الجزائرية، بعد إجماع قادة سهل إغريس على مبايعة عبد القادر الجزائري أميراً وسلطاناً. [٢٣] فتم اختيار عبد القادر - (الذي كانت حياته بسيطة متواضعة فضلاً عن ذلك فأكله بسيط. ولباسهُ أبسط، ويسكن في

خيمة، ولا يملك سوى قطيع صغير من الأغنام وقطعة أرض يحرثها زوجٌ من الثيران ولم يصرف لحياته الخاصة قرشاً واحداً) [٢٤].

فنشأ الأمير عبد القادر الجزائري في أسرةٍ ذات عيش متواضع لكنها مهتمة بالعلم والدين، ووالده محي الدين الحسيني الذي تصدى من أول وهلة لمجابهة العدوان الفرنسي وكان زعيماً للمقاومة ثم تنازل لابنه عبد القادر، فأدت بساطة العيش والاهتمام بالعلم والتقوى التي تربى عليها الأمير عبد القادر الجزائري إلى صياغته شخصية مجاهدة لا تخشى في الله لومة لائم.

(فهو الأمير الذي دافع عن بلاده حين احتلها الفرنسيون سنة ١٨٣٠م، دفاعاً لم يُسمع بمثله.... واستمر في دفاعه ١٧ سنة متتالية، انتصر خلالها عدة مرات واعترفت له فرنسا وجميع الأمم بالبسالة والشجاعة) [٢٥].

ولا يُهمل دور الشعب في صناعة الأحداث، فله المساحة الأكبر والحصة الأوفر، لكنه يحتاج إلى القادة الأكفاء – حيث الفكر تخطيطاً وتنظيماً – وحيث مبدأ الثبات والثقة بالنصر والانفراج والمواصلة – فلا الشعب يستغني عن القادة الأكفاء، ولا القادة يحققون ظفراً بدون إسناد الشعب ومشاركته الفاعلة – سيما وإن كان الأمر مواجهة أعتى وأصلب الظروف والأخطار.

وفي مقاطع من حديثه وهو يخاطب في كتبه ورسائله الجنرالات الفرنسيين تجد العزة و الأنفة فيتكلم عن الحروب (... فيقول مخاطباً المارشال الفرنسي بيجو، الحروب وقد تربينا عليها وتغذينا بلباتها فنحن أهلها من المهد إلى اللحد...) وفي مقطع آخر يقول: (... إن العرب يبتهجون في معامع القتال كما يبتهج العروس ليلة عرسه فلا يخطر ببالكم أنهم يضجرون منها أو يتركونها... والسلام على من اتبع الهدى واتقى سبيل الردى) [٢٦].

فكان الأمير فارساً مغواراً ومجاهداً أميناً بذل قصارى جهده لدفع الظلم عن بلاده، بايعته القبائل فكان أهلاً لهذه البيعة.

والفترة من ١٨٣٢ - ١٨٣٩ كانت مرحلة الانتصار الذي يليه انتصارٌ آخر، واتخذ من مدينة معسكر مركزاً لقيادته وعاصمةً له وإن تحقيق الانتصارات على الفرنسيين اضطرت حاكم وهران (ديميشل) توقيع معاهدة ١٨٣٤م، التي اعترفت بحكم الأمير على غربي الجزائر عدا المنطقة الساحلية، واستفاد الأمير من هذا السلام ونظم جيشه وأقام مصنعاً للأسلحة والذخيرة، ثم نقض الفرنسيون المعاهدة وهاجموا الأمير وأحرقوا عاصمته معسكر، لكنه استعادها وانتصر على الفرنسيين. فوقعوا معه معاهدة (تافنا) ١٨٣٧ اعترفوا له بحكم غربي الجزائر بما في ذلك المنطقة الساحلية.

ولما فرغ الأمير من تمهيد البلاد، أقبل على تحسين أحوال المملكة وتحصينها وتثقيف الثغور، ورتب جيشه وقسمه وحدد له الرواتب والمشافي والطعام والشراب، وطهر البلاد، وجمع شملها، وقتل الجواسيس. (٢٧)

فكان الأمير عبد القادر بجيشه ودولته وجهاده وعقيدته مظهراً واضحاً من مظاهر الوعي الفكري والنضوج الوطني والجهاد الحقيقي في سبيل الله ثم الوطن. ولا نريد أن نسهب كثيراً في دور الأمير حيث أن دوره كبير وإنجازه معروف. وحقيقة التاريخ الجزائري مليء برجال وقادات المقاومة مثل بومزراق وبومعزة والمقراني. إلا أن الأمير عبد القادر الجزائري لم يكن مجرد شيخ يدافع عن طريقته، أو زعيم يدافع عن قبيلته، أو باحث عن السلطة والرياسة، وإنما حاول الأمير في ذات الوقت أن يؤسس دولة حديثة وأن يضع نظاماً إدارياً فمن الناحية الإدارية اتخذ عبد القادر مجلس شورى يتكون من أحدَ عشر عالماً وينظر هذا المجلس في شؤون السياسة العليا ويعد محكمة استئناف، واتخذ وزراء للخارجية والجباية والخزانة والأوقاف، وبلغت النيابات ثمانية

وحدات إدارية واتخذ الأمير جيشاً واستعان بالأوروبيين لتدريب هذا الجيش ومصانع السلاح.

لكن اعترضته مشكلات وهو يحاول تحقيق الوحدة الوطنية، كاستمرار النزعة القبلية والروح الانعزالية لدى بعض قبائل البربر. (٢٨)

وحقق الأمير الانتصارات المتتالية على الفرنسيين لكن ظروفاً ألمت به وتنكر له سلطان المغرب – عندما اضطر الأمير لاجئاً إلى هناك، وأمر بطرده خارج المغرب فحوصر الأمير من كل الجهات، واستسلم ١٨٤٧م ونقل إلى طولون ثم سُجن في فرنسا حتى عام ١٨٥٢ عندما أطلقه نابليون الثالث ليعيش في دمشق حتى الوفاة عام ١٨٨٣م. عَدَّ الكثير من المؤرخين الأوروبيين عبد القادر الجزائري زعيم الاستقلال والحرية الوطنية في الجزائر. فهو الذي أتم السيطرة على ثلثي الجزائر بحكمته وجهوده ومن معه. وكما عدّه مارسيل ايميري: ((بطل الاستقلال والقومية العربية في الجزائر)) وعدّه بوابيه أنه: ((القائد الروحي للجزائر)) وعَدَّ ثوار ١٩٥٤ ثورة الأمير أُمَّ الثورة الجزائرية الكبرى. (٢٩)

ولم تنته المقلومة في الجزائر بغياب وسجن ووفاة قادتها بل تستمر متواترة متصاعدة لتعبر عن مطاليب الشعب ووعي قادته ورفض الاحتلال بكل صوره.

* **ثورة المقراني عام ١٨٧١م:** ومن أهم أسباب اندلاع هذه الثورة سياسة الفرنسة التي أرادت فرنسا تطبيقها لطمس الهوية العربية والإسلامية وصدور قرار كريميو الذي منح اليهود في الجزائر صفة المواطنين الفرنسيين وخوف الجزائريين من تدفق المهاجرين الفرنسيين القادمين من الألزاس واللورين بعد الهزيمة الفرنسية أمام ألمانيا في حرب الـــ ١٨٧٠م. فانضم إلى الثورة جماهير الشعب وسقط المقراني شهيداً.

وأهم ما نتج عن هذه الثورة والحكم بالإعدام على الآلاف من الجزائريين، والسجن المؤبد، والنفي، وفرض غرامة كبرى على منطقة الثورة.

لكن هذه الثورة ألهبت الحماس الوطني وحركت الشعور القومي ورصت الصفوف وتواصلت الثورات ضد الاحتلال الفرنسي الذي مارس التجويع والتهجير والتعذيب والتدمير والتجهيل والقتل والعنف وكل صور القمع والإرهاب بحق الشعب الجزائري، ودلت هذه المقاومة ضد الاحتلال على حركة فكرية ناهضة ويقظة قومية ناشطه وعلى انتماء وطني أصيل على الحياة الحرة الكريمة. ولم تهدأ هذه المقاومة حتى عصفت بالاحتلال ونالت الاستقلال التام غير المنقوص عام ١٩٦٢.

وفي ١٨٧١م ظهرت فئة اجتماعية على المسرح السياسي نتجت من تفكك البنية الاجتماعية القبلية التي سادت في الأرياف وقت الاحتلال،ويعد تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية هو التحالف الشائك بين الحركة الفلاحية والحركة الوطنية الحضرية[٣٠].

* النضال السياسي:

توقف النشاط المسلح في الأرياف والجبال والبوادي الذي كان معتمداً على رجال القبائل والفلاحين، ليسمح للنضال السياسي، وينتقل مركز النشاط إلى المدن وذلك أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، والسبب هو قضاء الفرنسيين على الطبقة البرجوازية بالتشريد والإفقار، وإلى سياسة التجهيل التي فرضتها السلطة الفرنسية على الشعب الجزائري. ومن العوامل التي أدت لظهور النشاط السياسي:

١- ظهور الطبقة البرجوازية.

٢- الاتصال المباشر بالثقافة الأوروبية.

٣- التأثر بتيار الجامعة الإسلامية.

٤- التأثر بالأوضاع الدولية كالصراع الألماني الفرنسي حول المغرب وتميز هذا النشاط بالطابع الإصلاحي لا الثوري وظهر تبعاً له تياران:

* **الأول – تيار المحافظين:** من العلماء والمحاربين القدامى طالبوا بالمساواة في التمثيل النيابي، والمساواة في الضرائب والفوائد، وعارضوا التجنيس والتجنيد الإجباري، وطالبوا بالعمل بالقضاء الشرعي، وأبرز رواد هذا التيار عبد القادر المجاوي وعبد الحليم بن سماية اللذان تأثرا بأفكار الجامعة الإسلامية، وبأفكار المصلحين بالمشرق العربي كمحمد عبده ورشيد رضاه.

* **الثاني – تيار النخبة:** ويمثله المترجمون والمحامون والأطباء والمعلمون والقضاة والصحفيون خريجوا المدارس الفرنسية، وهؤلاء قبلوا الإدماج والتجنيس والتجنيد على أن ينال الجزائريون حقوق الفرنسيين، وطالبوا بتمثيل أوسع للجزائريين في المجالس النيابية.والتياران يفتقران إلى حسن التنظيم [٣١].

(ب) – التعليم والتدريس:

ومن العوامل الداخلية التي لها الأثر البارز في الحركة الفكرية في الجزائر التعليم الذي اقتصر في بداياته على علوم الدين في الكتاتيب وحلقات المساجد، ولما رأى المستعمرون أن هذا التعليم يحافظ ويرسخ الهوية العربية والإسلامية ويُسهم في تطور ونضوج الحركة الوطنية المناهضة للاحتلال عمدوا إلى منع فتح المدارس وملاحقة العلماء ومضايقتهم، فكانت الحرب الفرنسية شرسة ضد التعليم لمنع الوعي ومنع الدعوة إلى الجهاد والحرية.

وخرَّجت هذه الزوايا أعداداً كبيرة من الشباب المتعلم والمتمسك بلغته وقوميته وديانته، كتلافي لمخاطر الاحتلال ومحاولاتهم ومؤامرتهم على يد شيوخ أجلاّء، مما أسهم بوضوح قي فتح الأبواب للتحرر واليقظة. وكان الجزائريون من أشد الأمم تمسكاً

بالدين والغيرة عليه والعمل على نشره، وكانوا يعتنون بالتعليم الديني، فلا تجد مدينة أو قرية ليس فيها مسجد أو مساجد كثيرة للصلاة، ودروس للوعظ والإرشاد، وكُتّاب أو كتاتيب في كل ركن من أركان المدن والقرى والبوادي لتعليم الصبيان واليافعين القراءة والكتابة واللغة العربية ومبادئ الفقه الإسلامي، فصار هذا الأمر سبباً للرفعة والتقدم. وكانت المساجد تقوم بالتعليم الثانوي والعالي في الفضل والصلاح وفي علوم العربية والدين. وكان التعليم مجانياً، وإذا كان المتعلم فقيراً تكفلت به الجمعيات الخيرية. (٣٢)

(ج) – الصحافة والصحف:

استخدم الاحتلال الفرنسي كل ما بوسعه من وسائل مادية ومعنوية لتتم له السيطرة على مقاليد الأمور في الجزائر بشكل دائم. ومنذ صارت عندهم النيّة لاستهداف الجزائر والعزم على احتلالها بدءوا يخططون، لاستخدام البندقية إرهاباً للنفوس، والكتاب تخريباً للعقول. فكانت المطبعة ضمن الأسلحة التي حملها المحتلون لتحقيق الغزو الفكري للشعوب التي يقصدونها. (٣٢)

وأول استهدافٍ وتركيزٍ للثقافة الاستعمارية كان على اللغة العربية فركز الاحتلال الفرنسي على تعليم اللغة الفرنسية وعد اللغة العربية لغة دخيلة في الجزائر، ولا يُنكر أن هذه السياسة طبعت بعض العقول المحلية بطابع الاستعمار، لكن في جانبها الآخر شدَّت العزم في النفوس الوطنية المحافظة على أصالة اللغة العربية واعتبارها أمراً مصيرياً تبذل لأجل سلامته الجهود والأموال بل وحتى الدماء.

فكان العرب في الجزائر يتطلعون إلى صحافةٍ تسهم إسهاماً فاعلاً في جوانبَ عديدة منها الحفاظ على اللغة العربية وإنضاج الوطنية في الصدور واعتبار العلم السلاح الذي يجب أن لا يغيب في المعركة من أجل الاستقلال.

أدرك الفرنسيون أثر الصحافة في إنهاض الشعوب وآمنوا بدورها الفعال في يقظتها وعبر (جان ميرانت) المسؤول بالولاية العامة عن هذا الدور بقوله (إنَ الجرائد هي هذه الآلة التي تجمع في وقت واحد بين البساطة والقوة... إنها هي التي شع منها النور فبدد الظلام الذي كان يلفُ الشعوب المتخلفة). غير أن هذا الاعتراف بالدور الريادي للصحافة يتحول إلى نكران سافر عندما يصبح الأمر متعلقاً (بصحافةٍ عربية) تهدف إلى إيقاظ عرب مسلمين، ويُفسرٍّ هذا عداءهم وحربهم وإغلاقَهم للعديد من الصحف الوطنية الجزائرية. (٣٣)

فلعبت الصحافة الفرنسية في الجزائر عبر إصداراتهم الصحيفة دوراً مهماً في إثارة انتباه النخب الجزائرية إلى هذا السلاح بيد الاحتلال وخطورته، علماً أن النخب الوطنية الجزائرية كانت على ارتباط وصلة بالصحافة العربية الوافدة من المشرق العربي وتونس، حيث كانت الصحف تهرب إلى الجزائر بشتى الوسائل وهذا ربطهم بالرأي العربي العام، وأحدث تقدماً ملحوظاً في النضال الوطني والوعي الفكري واستحداث وسائل جديدة وفاعله لتحقيق الاستقلال.

وصدر في الجزائر أثناء الاحتلال جرائد وصحف ومجلات منها ما يُعبر عن وجهة النظر الاستعمارية ومنها ما يدعو إلى الإصلاح والاعتدال والمساواة ومنها ما اتخذ المنحى الوطني.يذكر منها على سبيل المثال ومن كل اتجاه نموذج:

* **جريدة المبشر**: عام ١٨٤٧: وهي أول جريدة عربية بالمغرب العربي، أمر بإنشائها (لوي فيليب) ملك فرنسا، وتهدف إلى غايات استعمارية أهمها خُذلان روح المقاومة الوطنية وظلت هذه الجريدة الوحيدة في الميدان حتى عام ١٨٨٢م.

* **جريدة الأقدام**: ١٩١٩م: أصدرها مسلمون جزائريون بالفرنسية وهي وطنية مطالبة بالحقوق وأضيف إليها صفحتان بالعربية مسؤول عنهما الأمير خالد الجزائري، لعبت دورا وطنياً هاماً

* **جريدة المنتخب:** ١٨٨٢م: أسبوعية ظهرت بقسنطينة، وهي أول جريدة مصدرها غير حكومي،تدعو إلى اندماج المسلمين بالفرنسيين، وعناوين أخرى كثيرة في أُطر متنوعة وغايات مختلفة.والجرائد الصادرة عن السلطة الحاكمة – وهي عربية – لم تمنع لأنها سايرت المحتل.

والجرائد التي أصحابُها جزائريون ورضوا بالاحتلال الفرنسي لم تمنع لأنها سايرت المحتل. وصُحف ناطقة بأسماء خصوم الإصلاح مثل (البلاغ الجزائري، والمرشد) لم تمنع لأنها سايرت المحتل، والصحف الوطنية تتعرض للإغلاق والمساءلة والمنع لشعور المحتل أنها تحرض الجماهير للثورة وأنها تقود الحركة الحية المنظمة نحو الاستقلال وطرد المحتل فعملت على محاربتها.

وتاريخ الصحافة الوطنية الجزائرية، تاريخ حافلٌ بالمقاومة، مليءٌ بالبطولات، فيه الجهاد بالكلمة، وعلى صفحاته يبرز الوجه المشرق للشعب المناضل طيلة مائة وثلاثين عاماً، فساهمت الصحافة الجزائرية في توعية الشعب واستنهاضه وطنياً وقومياً وهيأت الشعب لمعركة الاستقلال والتحرير عبرَ أكثر من ٧٨ صحيفة وجريدة ومجلة واصلت كفاحها بالكلمة ما يزيد على خمسين سنة(٣٤). ويتعرض محرروها وروّاد المقالة فيها للمسألة والحبس والعقاب.

لكنها واصلت في إطار النضال الإعلامي الموازي للنضال السياسي والكفاحِ المسلح، وأثمر تعاضد الجهاد بأنواعه في إنهاء الاحتلال ١٩٦٢م.

(د) – المفكرون والمصلحون:

أدى المفكرون والمصلحون دوراً ريادياً في قيادة الحركة الفكرية والإصلاح، وكانوا عاملاً مهماً لتنامي اليقظة ولهم دور كبير في بعث الوعي القومي، وهم يذكّرون

الشعب بالظلم والمعاناة والنكد الذي حل بهم، والتخلف والجهل الذي حدث بسبب ممارسات الاحتلال والتجهيل وتعطيل العلم وإهمال المعرفة.

فأحدث هؤلاء الرواد حركة فكرية طورت حال المجتمع نحو الأفضل في أغلب مناحي الحياة، وحاربوا الجهل والأمية.

وشددوا من مقت الناس للاحتلال. وفي الجزائر كان للعلماء والمفكرين دورٌ كبيرٌ في استنهاض همم الشعب، وحذروا من مكائد الاحتلال واستمر الخنوع والاستسلام له وأنشؤوا جيلاً صالحاً بعد جيل، وهناك لفيفٌ طيب من العلماء ورواد الحركة الوطنية يُذكر منهم على سبيل المثال:

* **عبد الحليم بن سماية:** (١٨٦٦م –١٩٣٣م) وهو من المصلحين الأوائل في الجزائر يعتنق مذهب محمد عبده الإصلاحي ويدعو إليه، وابن سماية من أوسع علماء عصره علماً وثقافةً، ولد بالجزائر وتونس، تولى خطة التدريس بالجزائر العاصمة ديسمبر/١٨٩٦م، ثم بالجامع الكبير ١٩٠٠م، واشتهر أستاذاً خرجَ المثقفين مزدوجي الثقافة، تعرض بشدة لاضطهاد الاحتلال الفرنسي، له مؤلفات، ومن رواد المقالة في جريدتي (الأقدام، وكوكب أفريقيا) (٣٥)

* **عباس بن حمانة:** (توفي ١٩١٤م)، وهو من رواد الحركة الوطنية الجزائرية، ورافق الوفد الجزائري ١٩١٢م إلى باريس مطالباً بإلغاء التجنيد الإجباري، وأنشأ في تبسة (الجمعية الصديقية الخيرية للتربية الإسلامية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي) عام ١٩١٢م، وفي ١٩١٢م أنشأ عباس بن حمانة (المدرسة القرآنية) التي حاربها غُلاة الاستعمار، ثم هيؤوا لهذا الوطني المعروف من اغتاله بضربة فأس عام١٩١٤م. (٣٦) فمات عزيزاً في سبيل وطنه.

* عبد الحميد محمد بن محمد المصطفى بن باديس:

(١٨٨٩م - ١٩٤٠)، ابن باديس من كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، والزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ قيامها في ١٩٣١م حتى وفاته، ولد بقسنطينة وتونس وأتم دراسته في جامع الزيتونة بتونس.

ثم استقر به الأمر ليُدرس الجيل الجزائري الناشئ ويُعدُه للمستقبل وأصدر جرائد المنتقد والشهاب والبصائر، وله مساهمات واسعة في إصلاح البلاد (٣٧) وأمثال هؤلاء الرجال هم الذين وضعوا معالم طريق الخلاص من الاحتلال.

ثانياً: مظاهر الحركة الفكرية في الجزائر

(١): الجمعيات:

كانت الجمعيات بأشكالها مظهراً من مظاهر الحركة الفكرية في الجزائر، وهي من الدوافع الأساسية لتصاعد هذه الحركة ونضوجها، وأسهمت الجمعيات في إيقاظ الوعي القومي وتنوير العقول ودعت إلى أحياء المجد العربي والتراث.

وأبرز هذه الجمعيات في الجزائر:

(أ) - **جمعية العلماء المسلمين:** قبل هذه الجمعية نشأت (جماعة العلماء الجزائريين) هدفها المحافظة على الثقافة العربية في الجزائر. وللجماعة دور مهم في إرساء القواعد النظرية لفكرة القومية، حيث رسخت صفة الجزائر العربية الإسلامية(٣٨).

أسسها عبد الحميد بن باديس في الجزائر ١٩٣١ وهي جمعية إسلامية إصلاحية، أصدرت صحيفتين هما الشهاب والبصائر.

ومن أبرز أهداف هذه الجمعية:

١- فتح المدارس في معظم أنحاء الجزائر.

٢- التمسك بالشخصية الجزائرية العربية الإسلامية.

٣- العمل من أجل استقلال الجزائر.

٤- إحياء اللغة العربية وتقويتها لأنها مقوم أساسي للشخصية الجزائرية.

٥- تقوية الروابط مع البلاد الإسلامية.

وعملت هذه الجمعية على إيقاظ الشعور العربي والإسلامي وقادت الجزائر بنجاح للتخلص من الاستعمار الفرنسي.

وكانت هناك جمعيات خيرية تتكفل بدعم طلاب العلم، وتنافس الأغنياء في دعم المؤسسات العلمية والطلبة الفقراء.

(ب) – نادي صالح باي الثقافي: قام بتأسيسه مفتي المذهب المالكي وأستاذ الفقه والعلوم الإسلامية ابن الموهوب بن محمد السعيد وذلك سنة ١٩٠٨م وفيه كان المفتي يلقي محاضراته الثقافية، واشتهر بمحاربة البدع [٣٩].

(ج) – حزب الشباب الجزائري: تأسس ١٩١٢م، طالب بإلغاء القوانين الاستثنائية بحق الشعب الجزائري، وطالب بالمساواة مع الأوربيين في الضرائب والوظائف، وطالب بالتعليم: قاومته الحكومة الفرنسية وشردت أعضاءه.

(٢): الزوايا والمدارس:

كانت الزوايا منتشرة في أنحاء الجزائر، وأسهمت في نشر التعليم، وترسيخ اللغة العربية، والحث على الالتزام الديني، وترك الفساد، ونبذ صور التبعية والاحتلال

والتواطؤ، والمحافظة على الدين الإسلامي والهوية العربية، والزوايا من عطاءات الأعمال المشتركة والجهود الشخصية للعلماء وطلاب العلم لأجل إصلاح المجموع وإحداث الوعي وإيقاظ الفكر ونشر التعليم، وأهم هذه الزوايا:

(أ) – الزاوية التيجانية: تأسست عام ١٧٨٢م على يد الشيخ سيدي أحمد التيجاني وهي تعلم النشء الجزائري اللغة العربية وعلوم الدين الإسلامي المختلفة، فكانت مظهراً يدل على التطور الفكري في الجزائر.

(ب) – زاوية تماسين: اُفتتحت عام ١٨٠٥م وهي ذات دور متميز روحياً وثقافياً وحضارياً واجتماعياً، ودعى شيوخها وأشهرهم الشيخ أبو الحسن الحاج علي التلمساني إلى توحيد صفوف المسلمين.

وافتتح شيوخ هذه الزاوية – المدرسة القرآنية الجديدة – وشاركت الزاوية بشيوخها في النضال مع الأحرار، وعُرفَ دورها في النضال ومساندة الحركات الوطنية وثورات التحرير الوطني.

وقامت بأعمال جبارة ضد الاحتلال.

(ج) – زاوية الهامل: تأسست ١٨٦٠م، أسسها محمد بن أبي القاسم الفقيه المالكي المعروف.

وبلغت شهرة هذه الزاوية الآفاق وأمَّها طلاب العلم من أرجاء الوطن العربي، وتحولت إلى منتدى ثقافي عربي أصيل ومَعلَم ديني مشهور، وقال المستشرق جاك بيرك ((إن تاريخ زاوية الهامل يهم تاريخ المغرب العربي بأسره... متسائلاً هل هناك روابط أدبية وثقافية بين هذا المعهد وبين مدارس الشرق والغرب)).

وكانت أهم أهداف معهد الهامل – الحفاظ على معالم الشخصية العربية الإسلامية في المجتمع الجزائري الذي كان مُهدداً بخطر الثالوث الأسود (الفقر والجوع والجهل)، فحمل خريجو هذه الزوايا وغيرها مشاعل الفكر والثقافة والوطنية.

وهناك المزيد من الزوايا المنتشرة في ربوع الجزائر لتؤدي دورها المسؤول في المسيرة، فمثلت هذه المحطات في تنوير الأذهان ونشر العلم والمعرفة معولاً فكرياً قصم ظهر المستعمرين والهادفين إلى القضاء على الهوية العربية والإسلامية في الجزائر وسائر البلاد العربية الذين استخدموا أعتى وأقسى الأساليب القمعية.

(٣): الصحافة والصُحف:

لها الأثر الكبير، إن وجدت لتدل على الحركة الفكرية الناهضة فأسهمت في انتشار التعليم وإحياء التراث أدباً وعلماً وتاريخاً.

أن الجو السياسي والاجتماعي الداخلي والخارجي يُعد من أهم البواعث الدافعة إلى إنشاء صحافة وطنية عربية، فنشأت الصحافة الوطنية الجزائرية على خطين:

١- (اتجاه إصلاحي إسلامي) متأثر بالحركات المشرقية العبد ونية والأفغانية.

٢- (اتجاه سياسي) ويعبر عن طموحات النخبة في إطار حركة الشباب الجزائري فطبعت الصحافة العربية الجزائرية بطابع (الصراع والمقاومة والنضال) (٤٠) وأهم الصحف والمجلات والجرائد من مظاهر الحرية الفكرية:

(أ) – **جريدة الحق:** صدرت بعنابة عام ١٨٩٣م بالفرنسية، وكانت أول جريدة أسبوعية ثم اختفت، وظهرت مرة أخرى بالفرنسية والعربية ١٨٩٤م وهي أول جريدة سياسية أدبية تصدر بالجزائر لمسلمين جزائريين، قاومت اليهود وفضحت نواياهم العدائية.

وهي جريدة وطنية عُنيت بالأوضاع السياسية والاقتصادية ثم مُنعت، وخلفتها جريدة الحق من وهران يديرها فرنسي اعتنق الإسلام وأخلص له، وعكست هذه الجريدة الجو المشحون والغاضب لصدور قانون التجنيد الإجباري.

وأبرز محرري هذه الجريدة، عمر راسم، المعروف بقلمه الثائر والمواقف الوطنية الثابتة، والمحرر الآخر عمر قدور، الذي تجاوز بقلمه حدود الجزائر ليكتب في ١٥ صحيفة عربية وإسلامية، وكان يتحدى بمقالاته السلطة الفرنسية التي سجنته وأبعدته وغرمته.

(ب) – جريدة الفاروق:

صدرت عام ١٩١٣م بالجزائر، أصدرها الرجل الوطني المعروف عمر بن قدور الجزائري وهي جريدة عربية إسلامية وطنية بحتة، صادرها المستعمر بعد ٢٣ شهراً من صدورها لمواقفها الوطنية.

(ج) – مجلة الجزائر:

صدرت عام ١٩٠٨ أصدرها عمر راسم – المعروف بنفسه الوطني وقلمه المقاوم – وهي مجلة وطنية إصلاحية، صادرها الاستعمار الفرنسي [٤١].

وهناك عدد كبير من المجلات والجرائد المعبرة عن آراء مختلفة، والداعمة والمؤيدة لاتجاهات عديدة بالإضافة إلى صحف ومجلات من دول عربية أخرى، حيث دلَّ تواجدها على انتشار الحركة الفكرية والنهضة في الجزائر.

(٤)– المفكرون والمصلحون:

كان المفكرون والمصلحون والشيوخ مظهراً من مظاهر الحركة الفكرية، والحقيقة كانت أعدادهم لا يُستهان بها وساهموا في إعدادِ جيل مثقف، ودور العلماء والمفكرين والمصلحين معروف عبر التاريخ فهم صمامات الأمان في مجتمعاتهم ومشاعل العلم

والمعرفة في أممهم، وتواجدهم في بلدٍ يعني التطور والوعي لاشك. ولعب علماء الجزائر دوراً مهماً في تربية الجيل وتعليمه.

ومن أبرز هؤلاء:

(أ)- محمد بن بكير التاجر: توفي ١٩٣٩م، من رجال الحركة-الوطنية الجزائرية، وله اشتغال بالصحافة، ولد في بني يسقن، وعمل في التجارة، ثم أنشأ مع رفاقه عام ١٣٣٧هـ مطبعة عربية في مدينة الجزائر لطبع كتب التراث، وأصدر عام ١٩٢٠م جريدة الصديق، ثم أنشأ مدرسة قرآنية في ورجلان، وشارك بشكل كبير في فتح أول مدرسة نظامية في الجزائر وهي مدرسة الجمعية الصديقية عام ١٩١٣م[٤٢].

(ب)- الشيخ عبد القادر المجاوي: (١٨٤٨ - ١٩١٣م) أغنى هذا الرجل بفكره الثاقب الذي كان أبلغ من السيف في نحور الأعداء، عمل بالتدريس وخرج أصناف العلماء والقضاة والمدرسين، ومن آثاره (إرشاد المتعلمين) و(المرصاد في علم الاقتصاد) وله مجموعة مقالات في التربية والاجتماع بجريدة (كوكب أفريقيا) يتمتع بشخصية عربية وطنية فذّة.

ويذكر أن فرنسا لقلقها من نهضة الجزائر ورواد هذه النهضة عمدت عام ١٩١٣م بغدرها إلى ثلاثة عشر عالماً من أفذاذ الجزائر، فدست لهم السم فماتوا جميعاً ومنهم الشيخ عبد القادر المجاوي [٤٣]. وهذا ديدن العلماء العقبات الكبيرة في طريق الاستعمار، والمشاعل المضيئة في دروب استقلال الشعوب وتحررها.

(ج) - محمد علي السنوسي: (١٧٨٧م - ١٨٥٩م)

من ألمع أعلام الإسلام في تاريخ الجزائر الحديث وتاريخ المغرب العربي قاطبة بل وتاريخ المشرق الإسلامي عامةً، ويرتبط اسم محمد بن علي السنوسي بالنشاط الديني والسياسي والثقافي والاجتماعي، وهو يمثل كل هذه المجالات مؤسساً وناشطاً، ودراسة

شخصية محمد بن علي السنوسي تكفي لتصور انبثاق حركة الحياة الفكرية والإصلاح الشامل بالجزائر والمجتمع الإسلامي في القرن التاسع عشر الميلادي وهو من بُناة النهضة وأحد مؤسسي أركانها في القرن التاسع عشر(٤٤). هذا التاريخ هو التاريخ الذي تصنعه الشعوب بُرقيٍّ علمها وسعة معرفتها ورفضها للذل والهوان وتصميمها على التحرر والاستقلال.

الحقيقة كل هذه الجهود والأدوار تراكمت فأنجزت للجزائر الخلاص من الاستعمار والتحرر من نير الاحتلال وذلك كُرِّس عام ١٩٦٢ بعد جهادٍ مضنٍ في شتى مجالات الحياة دام قرابة ١٣٢ عاماً.

الخاتمة:

ظهر لنا في مرحلة جمع معلومات البحث أن العثمانيين ضربوا جداراً يكاد أن يكون عازلاً على الفكر والتعليم في الأقطار العربية أثناء خضوعها لهم قرابة الأربعة قرون مما أدى إلى تراكم ظلمات أدت إلى تراجع نهضة العرب السالفة وانزوائها، ثم جاء الاحتلال الأوروبي بدوافع الطمع والهيمنة مستغلاً ضعف الدول العثمانية ليثخن الجراح في أمة العرب، لكن الملاحظ أن الهجمات زادت أمة العرب قوةً ومراساً وتجربة، فشقت الأمة طريقها تصارع وتعالج الأحداث وهي تبحث لنفسها عن مخارج من أنفاق الاحتلال والاستعمار المظلمة، فاشترك الشعب والنخب في صناعة النهضة على المستوى الفكري والوطني التحرري، وتراكمت جهود العلماء والمجاهدين لتصنع حركة فكرية رائدة لم تأتِ مصادفةً بل نتيجةً لمؤثرات خارجية وداخلية، وانعكاساً للشعور القومي الذي تولد عند العرب نتيجة لسياسة القمع والبطش والتنكيل، ووجد البحث أن للمفكرين والمصلحين والمشايخ أكبر الدور وأعظم الأثر في لم شمل الشعب وبعث تطلعاته نحو مستقبل طموح وحياة واعدة، وأن النضال الوطني الجزائري حليفه النصر والمواصلة والصبر وأنه جاء على شكل حلقات متواصلة لا تعرف

الانقطاع حتى التحرير. وقدم ثمنا للتحرير قرابة مليون ونصف شهيد. ويعتبر مثل هذا الصراع نادراً، خاصة وأن فرنسا عمدت في الجزائر ليس إلى تجريد الإنسان العربي من أرضه، وإنما بذلت جهودها للقضاء على ثقافته الوطنية وشخصيته الإسلامية عبر إفساد العقول وإبقائها متخلفة، واعتبار الجنس العربي جنساً حقيراً لا قيمة له، لدرجة أنهم سنّوا القوانين لتتحول لغة الشعب الجزائري – وهي اللغة العربية – إلى لغة أجنبية في الجزائر وتصبح الفرنسية هي الأم. فكان لزاماً على الطفل الجزائري أن يتعلم الفرنسية كلغة قومية تمهيداً لجيلٍ يتنكر لعروبته وإسلامه.

وكلنا يعلم أن السلاح الفكري هو أمضى وأبلغ وأخطر الأسلحة، فكان لابد من سلاحٍ فكري عربي يدمر هذا السلاح الفكري الاستعماري العنصري.

من هنا يتبين لنا مدى ثقل المعركة وسعة المسؤولية وجدية الواجب الملقى على عاتق الشعب الجزائري ولهذا طالت المعاناة تحت نير الاحتلال – ١٣٢ عاماً – انتهت باندحار الاستعمار وانتصار إرادة الشعب العربي.

أخيراً أدعو كبار المؤرخين العرب إلى التركيز على الحركات الفكرية والمشاريع النهضوية والمقاومة الوطنية، فالمعركة لا زالت مستمرة وأقوى الخنادق لمقاومتها هي النهضة والفكر والعلم والمرتكز الوطني والوعي القومي والترابط العقيدي....

الهوامش

١- ليلى الصباغ، **تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، دار الكتاب، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م ص ٢٥٥ - ٢٥٦

٢- المرجع السابق نفسه ص ٢٥٦.

٣- عبد الرحمن محمد الجيلاني، **تاريخ الجزائر العام**، الجزء الثالث، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٩٨٣م، ص ٢٨٦

٤- راغب العلي، **طليعة الصياح**، محمود عامر، **دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، جامعة دمشق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م، ص ٤٩٩

٥- عبد القادر جفلول، **تاريخ الجزائر الحديث دراسة سوسيولوجية**، ترجمة: فيصل عباس مراجعة: خليل أحمد خليل، دار الحداثة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م، ص ٧

٦- عبد الرحمن الجيلاني، **تاريخ الجزائر العام**، الجزء الثالث، المصدر نفسه، ص ٢٨٦ - ٢٨٧

٧- نور الدين حاطوم، **يقظة القومية العربية**، معهد البحوث والدراسات العربية، المطبعة الفنية الحديثة القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٤٥

٨- ليلى الصباغ، **تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، مرجع سابق، ص ٢٦٠ - ٢٦١

٩- المرجع السابق نفسه ص ٢٦١ .

١٠- المرجع السابق نفسه ص ٢٦٢ .

١١- محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، الجزء الأول، الجزائر، ص ٣٣ - ٣٤

١٢- ذوقان قرقوط، **تاريخ العالم الثالث الحديث والمعاصر**، جامعة دمشق، المطبعة التعاونية، ١٩٨٢، ص ١٨٧

١٣- إسماعيل أحمد ياغي، **تاريخ العالم العربي المعاصر**، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، عام ٢٠٠٠م، ص ٣٩١

١٤- المرجع السابق نفسه، ص ٣٩٢

١٥- مفنية الأزرق، **نشوء الطبقات في الجزائر**، دراسة في الاستعمار والتغيير الاجتماعي السياسي، ترجمة سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الطبعة العربية الأولى ايلول١٩٨٠ ، ص ٥٢

١٦- عبد المالك خلف التميمي، **الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي**. دراسة مقارنة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مطابع الرسالة، ١٩٨٣ ص ١٩ – ٢٠ – ٢٥

١٧- عبد الرحمن محمد الجيلاني، **تاريخ الجزائر العام**، **الجزء الرابع**، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٩٨٣، ص ٢٨٨

١٨- زهير عبد الجبار الدوري، **الفكر والسياسة لدى الجمعيات والمنتديات والأحزاب العربية حتى نهاية الحرب الأولى**، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص ٣٢

١٩- الموسوعة الصحفية العربية، **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم**، الجزء الرابع، تونس، ١٩٩٥م، ص ٦٩

٢٠- محمد خير فارس، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، جامعة دمشق، المطبعة الجديدة، دمشق ١٩٨٢م، ص ٤٤٥

٢١- عبد الكريم محمود غرابية، **دراسات في تاريخ أفريقيا العربية ١٩١٨ – ١٩٥٨م**، جامعة دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م، ص ١٦٥

٢٢- نور الدين حاطوم، **محاضرات عن حركة القومية العربية**، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٩١

٢٣- راغب العلي، **طليعة الصياح**، محمود عامر، **دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، مرجع سابق، ص ٥٣

٢٤- علي حسون، **تاريخ الدولة العثمانية**، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢م ص ١٧٢ – ١٧٣

٢٥- رزق الله منقريوس العترفى، **تاريخ دول الإسلام**، الدار العالمية، مطبعة الهلال بالفجالة، مصر، ١٩٠٨م، ص

٢٦- محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، الجزء الأول والثاني، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٦٤، ص ٢٩٦ – ٢٩٧

٢٧- المصدر السابق نفسه، ص ١٩٢ – ١٩٤

٢٨- صلاح العقاد، **المغرب العربي**. الجزائر – تونس – المغرب الأقصى. دراسات في تاريخه الحديث ومشاكله المعاصرة، مكتبة الانكلومصرية، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٦٢م، ص ١٢٠ – ١٢٢

٢٩- محمد خير فارس، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، مرجع سابق، ص ٤٣٦ – ٤٣٧

٣٠- عبد القادر جفلول، **تاريخ الجزائر الحديث**، مرجع سابق، ص ١٠٩

٣١- محمد خير فارس، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، مرجع سابق، ص ٤٤٣ – ٤٤٤

٣٢- الموسوعة الصحفية العربية، المرجع السابق، ص ٦٩

٣٣- المرجع السابق نفسه.

٣٤- المرجع السابق نفسه، ص ٧١ – ٧٦

٣٥- عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص ١٧٨

٣٦- المرجع السابق نفسه، ص ١٢٣.

٣٧- المرجع السابق نفسه، ص ٢٨ – ٢٩.

٣٨- صلاح العقاد، **المغرب العربي**، مرجع سابق، ص ٣١٨

٣٩- عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، ص بعد ٢٤٤

٤٠- الموسوعة الصحفية، المرجع نفسه، ص ٧٠

٤١- المرجع السابق نفسه، ص ٧٤ – ٧٧ – ٧٨

٤٢- عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، المرجع نفسه، ص ٤٤

٤٣- محمد علي دبوز نهضة الجزائر الحديثة وثوراتها المباركة، المصدر، ص٨٢

٤٤- عبد الرحمن الجيلاني، **تاريخ الجزائر العام**، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص٢٦٨

مصادر البحث ومراجعه

١- إسماعيل أحمد ياغي، تاريخ العالم العربي المعاصر، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٢- ذوقان قرقوط، تاريخ العالم الثالث الحديث والمعاصر، جامعة دمشق، المطبعة التعاونية، ١٩٨٢م.

٣- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، جامعة دمشق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.

٤- رزق الله منقريوس الصرفى، تاريخ دول الإسلام، العالمية، مطبعة الهلال بالفجالة، مصر، ١٩٠٨م.

٥- زهير عبد الجبار الدوري، الفكر والسياسة لدى الجمعيات والمنتديات والأحزاب العربية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٦- صلاح العقاد، المغرب العربي. الجزائر - تونس - المغرب الأقصى. دراسات في تاريخه الحديث ومشاكله المعاصرة، مكتبة الانكلو مصرية، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٦٢م.

٧- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

٨- عبد الحمن محمد الجيلاني، تاريخ الجزائر العام، الجزء لثالث، والجزء الرابع دار الثقافة، بيروت - لبنان، الطبعة السادسة، ١٩٨٣م.

٩- عبد القادر جفلول، تاريخ الجزائر الحديث دراسة سوسيولوجية، ترجم: فيصل عباس، مراجعة: خليل أحمد خليل، دار الحداثة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

١٠- عبد الكريم محمود غرابية، دراسات في تاريخ أفريقيا العربية ١٩١٨ – ١٩٥٨م، جامعة دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م.

١١- عبد المالك خلف التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي دراسة مقارنة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مطابع الرسالة، ١٩٨٣.

١٢- علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢م.

١٣- ليلى الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار الكتاب، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.

١٤- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر الجزائري الأول والثاني، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م.

١٥- محمد خير فارس، تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، جامعة دمشق، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٢م.

١٦- محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزء الأول. الجزائر.

١٧- مغنية الأزرق، نشوء الطبقات في الجزائر - دراسة في الاستعمار والتغيير الاجتماعي السياسي، ترجمة سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة العربية الأولى، أيلول ١٩٨٠م.

١٨- الموسوعة الصحفية العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجزء الرابع، تونس، ١٩٩٥م.

١٩- نور الدين حاطوم، محاضرات عن حركة القومية العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٧م.

٢٠- نور الدين حاطوم، يقظة القومية العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨م.

انتفاضات لواء حوران

١٨٣٣ – ١٩٢٠م

الدكتور أحمد خضر

قسم التاريخ

جامعة دمشق

مقدمة:

يعد لواء حوران الجزء الجنوبي من سورية وبوابتها إلى الجزيرة العربية وصولاً إلى الحرمين الشريفين، وقد برزت أهميته لدى العثمانيين الذين أهملوه لسنوات خاصة في عهد إبراهيم باشا الذي تمركز فيه، وأراد أن يقيم دولة خاصة به في بلاد الشام، غير أن إصلاحاته الإدارية والتعليمية انقلبت عبئاً ثقيلاً عليه حيث نجحت بريطانية وفرنسا في تحريض سكانه ضد إصلاحاته التي انتهت بعودته إلى مصر وعودة لواء حوران إلى إدارة العثمانيين. لم يعمد العثمانيون إلى تطوير لواء حوران الذي بانتفاضاته أُعيدت سورية إلى الإدارة العثمانية، وظلت الدولة العثمانية كعادتها متجاهلة لهذا اللواء، ليعود إلى واجهة الأحداث مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨م وانطلاق الثورة العربية الكبرى ١٩١٦م التي قادها الشريف حسين ابن علي. إن البحث يسعى لقراءة لواء حوران كلواء فعال سياسياً وإدارياً وإبراز دوره في طرد العثمانيين وإسهاماته في الثورة العربية الكبرى، وقيامه بالدور النضالي الوطني السياسي أو المسلح ضد الاستعمار الفرنسي.

إن اضطرابات لواء حوران قبيل الحرب الأولى شكل عاملاً أساسياً في طرد العثمانيين ونجاح الثورة العربية الكبرى ولهذا فإن البحث يسعى لإظهار هذه الدور الذي أداه أهله.

أولاً – أطماع محمد علي في بلاد الشام:

يعود تاريخ محمد علي باشا في مصر إلى عام ١٨٠١م حيث جاء مع الحملة العثمانية لطرد الحملة الفرنسية من مصر التي قدمته إليها سنة ١٧٩٨م، وفي عام ١٨٠٥م أصبح والياً عثمانياً عليها، وقد قدم خدمات جمة للسلطان العثماني محمود الثاني، أهمها القضاء على الدولة السعودية الأولى عام ١٨١٨م ومحاولاته مساعدة السلطان في القضاء على الثورة في اليونان، لكنه لم يفلح في ذلك حيث هزمت قواتهما في معركة نفارين ١٨٢٧م.

لكن السلطان العثماني كافأه بولاية السودان، التي مد سيطرته عليها عام ١٨٢٠م وكذلك جزيرة كريت مع ولاية نجد، بينما كانت أطماع محمد علي تمتد إلى أكثر من ذلك، فطمع بولاية الشام لأسباب كثيرة.

لقد أرسل محمد علي جيشه بقيادة ابنه إبراهيم، وبمساعدة الأمير بشير الشهابي، استطاع أن يبسط سيطرته على جميع مناطق بلاد الشام، بل تعداها إلى التوغل في عمق الأراضي التركية، ولم يتوقف إلا بعد تدخل الدول الأوروبية التي فرضت معاهدة كوتاهية على السلطان العثماني من جهة وإبراهيم باشا من جهة أخرى، ذلك عام ١٨٣٣م حيث منح محمد علي بموجبها ولاية سورية وإقليم (أضنه) إضافة إلى الاعتراف باستقلاله عن الدولة العثمانية في مصر، وكان الناس في كل مكان يستقبلون إبراهيم باشا ووحدات جيوشه استقبال الفاتحين المحررين، فخضعت لهم معظم المدن بطيب خاطر إلا القليل منها، وكان أملهم من ذلك أن يخلصهم من الحكم العثماني الجائر. عندها بدأ إبراهيم باشا يقيم الدواوين والأنظمة والمجالس وذلك على طريقة

الحكم القائم في مصر المتطبع بطابع أنظمة الحكم الأوروبية[١]، هذا بالإضافة إلى إضعاف القوى المحلية لحساب الحكم المركزي الجديد. ولكن للأسف لم تمض إلا فترة قصيرة حتى اتضحت بوادر الأطماع الشخصية الكامنة وراء احتلال البلاد وغزوها، فذهبت أحلام الناس بالخلاص من الاستبداد العثماني وقيام دولة عربية موحدة قوية أدراج الرياح. ففرض إبراهيم باشا الضرائب الخيالية على السكان في سورية، وفرض التجنيد الإجباري وأمر بنزع السلاح من السكان، مما أثار الشعب ضده، فظهر التمرد والعصيان وتصاعدت حركات الاحتجاج حتى تفجرت الثورة التي عمت جميع مناطق بلاد الشام عامة وفي بلاد فلسطين والساحل السوري وسهل حوران وجبله بشكل خاص، ولهذا يمكن القول إن هذه الثورات كانت سبباً في إضعاف سلطة إبراهيم باشا والسلطة العثمانية من بعده حتى انهارت أخيراً[٢].

ثانياً – حركات المقاومة في اللواء:

أ- انتفاضة الفلاحين:

اختلف الباحثون في أسباب قيام هذه الحركات الشعبية التي عمت جميع مناطق الريف في الدولة العثمانية.

في البداية لابد من التذكير بأن الدولة العثمانية كانت دولة عسكرية إقطاعية توسعت بسبب ضعف جيرانها، وبما أن الفلاح هو أساس النظام الإقطاعي فقد أدى الفلاحون دوراً بارزاً في تاريخ هذه الدولة لاسيما بعد ضعفها وإهمال الدولة لهم.

إن هذه الحركات والانتفاضات أسهمت في سقوط الدولة العثمانية رغم محاولة الطبقة الحاكمة فيها تجنب هذا السقوط عن طريق إجراء إصلاحات[٣]، لكنها مع الأسف كانت جزئية. صحيح أنها أخرت السقوط لكنها لم تمنعه.

كان ظهور هذه الانتفاضات سبباً مباشراً في نشوء الحركة الوطنية في معظم الولايات العربية. وكان الفلاحون وقود هذه الثورات إضافة إلى عدة أسباب أبرزها :

١-**أسباب اجتماعية واقتصادية:** إن إفقار الفلاح وإهماله هي السمة الدائمة للنظام الإقطاعي، لذا فقد انتشر الفقر والجهل وساءت حالته الاقتصادية والصحية مما أجبر على الخروج ضد هذا النظام.

٢-**أسباب دينية وفكرية:** وتتمثل في خروج العامة ضد السلطة التي سمحت بدخول البعثات التبشيرية التي راحت تتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية مما زاد في ضعفها وترهلها الذي انعكس على ولاياتها.

٣-**أسباب سياسية:** إن ضعف السلطة الإقطاعية الحاكمة في الدولة، أدى إلى قيام انتفاضات الفلاحين التي استنزفت قدرات الدولة العثمانية، فكانت أحد الأسباب في انهيارها. حيث ظهرت أول بدايات هذه الانتفاضات في جبل عامل في لبنان ضد تسلط الوالي العثماني هناك أحمد باشا الجزار، ثم انتقلت إلى معظم مناطق الريف. لكن أشد هذه التمردات كانت عام ١٨٠٦م و١٨١١م و١٨١٥م وأشهرها تلك التي قامت ضد إبراهيم باشا [٤].

ب-ثورة لواء حوران ضد الحكم المصري:

سيطر إبراهيم باشا على أرض حوران عامة والجبل بشكل خاص وحاول استمالة الأهالي فقرر إعفاءهم من الكثير من الضرائب، كذلك إعفاءهم من الجندية، وامتد هذا العفو حتى عام ١٨٣٧م حيث تم إلغاؤه، مما أغضب السكان، فحضر زعماء الجبل إلى دمشق طالبين تمديده لأن أسبابه مازالت قائمة ومشروعة، لكن الحكومة رفضت الطلب، وقامت بتوجيه الإهانات للزعماء، فأرغموا على القبول، وطلبوا أن ترافقهم من دمشق قوات من الجيش بذريعة سوق الشباب إلى الخدمة

الإلزامية حيث تم استقبالهم بحفاوة، وفي أول ليلة، تم قتلهم جميعاً، ولم ينج منهم إلا قائد الفصيلة الذي هرب وأبلغ دمشق بما جرى (٥).

أما في سهل حوران فقد تم تشكيل قوة عسكرية من فلاحي حوران ضد سياسة إبراهيم باشا ضمت هذه القوة فرقة من المشاة وأخرى من الفرسان، وجرت عدة معارك بينها وبين الجيش المصري منها المعركة التي وقعت غرب الشيخ مسكين قرب وادي الهرير. حيث اجتمع شيوخ حوران في بلدة أم ولد، وتم تشكيل قوة عسكرية للوقوف في وجه إبراهيم باشا وذلك في ٢٣ من شهر حزيران عام ١٨٣٩م وتكونت القوة على الشكل التالي(٦):

- كتيبة الفرسان بقيادة عبد الرحمن الشبلاق – وكتيبة المشاة بقيادة الشيخ مزيد الأعرج.
- وفرقة العشائر الذين يركبون الإبل بقيادة الشيخ عبد العزيز المعجل، وانضم إليها بدو حوران من ولد علي كافة، أما القيادة العامة فكانت للشيخ محمود الرفاعي، وكان الشيخ محمود عثمان البلخي معاوناً له، كما كانت بصرى الحرير مقراً لهذه القوات التي انتصرت على الجيش المصري غرب الشيخ مسكين قرب ماء الفقيع، وكذلك في منطقة قيراطة، وآخرها كان في ٢٤ من شهر أيلول لعام ١٨٣٩م في منطقة الحراك القريبة من درعا. وتكررت محاولات إبراهيم باشا إخضاع هذه المنطقة، لكنه لم يفلح. وانتهى الأمر بعقد صلح وإصدار عفو عام عن الجميع، لكن هذه الاحتجاجات سرعان ما عادت للظهور ثانية في معظم مناطق سورية ولبنان رداً على سياسته الجائرة فكانت نتيجتها إجلاء الجيش المصري عن بلاد الشام مرغماً نظراً لظروف دولية أحاطت به وذلك سنة ١٨٤٠م(٧).

جـ- الانتفاضات ضد السلطة العثمانية:

عادت ولاية سورية إلى السيطرة العثمانية التي وجدت نفسها أمام معطيات جديدة وشاملة حيث ازداد نفوذ القوى المحلية التي منعت أجهزة الدولة من القيام بدورها، فسلكت سياسة إبراهيم باشا نفسها من قبل حيث حاولت نزع السلاح وتجنيد الأهالي خاصة بعد نجاحها في ذلك في المدن الكبيرة، لكنها فشلت في لواء حوران.

فلجأت إلى وساطة سعيد جنبلاط الذي نجح بإقناع الأهالي، غير أن الدولة العثمانية كان لديها قناعة بعدم جدوى ذلك إلا عن طريق القوة، فأرسلت حملة عسكرية عام ١٢٦٩ هـ/١٨٥٢م انتصر عليها الأهالي قرب إزرع وغنموا الكثير من الأسلحة والعتاد(٨).

عندها لجأت الدولة إلى طريقة جديدة لمحاولة بسط سيطرتها على حوران عن طريق زرع الفتنة الطائفية بين السكان، خاصة بعد فرار أعداد كبيرة من سكان لبنان إلى حوران بعد قيام الحرب الأهلية هناك، فتدخلوا بحجة حماية الأقليات المسيحية ونجحوا أخيراً في إثارة نزاع مسلح بين السكان.

وقد حدث ذلك عام ١٢٩٦ هجرية ١٨٧٩م بعد خلاف نشب بين قريتي الدويرة وبصرى الحرير بسبب احتماء بدوي من الجوف مع عروسه التي خطفها من درعا عند الشيخ ياسين الحريري شيخ بصرى الحرير الذي فكر بإعادة الفتاة إلى أهلها أو تزويجها لشخص آخر غير عريسها عندما وجدها مترددة، وذلك استجابة لأهلها، لكن البدوي التجأ إلى قرية الدويرة واستجار بشيخها حمود نصر الذي آزره ووقف بجانبه، وهذا ما يعرف عند العوام بعرس فهيدة نسبة لاسم تلك الفتاة(٩). وتطور الخلاف إلى صراع ووقع نتيجته عدد من الضحايا من الفريقين، فتدخلت الدولة بحجة الفصل بينهما ولتحقيق مصالحها في بسط السيطرة على المنطقة. لكن الحسم العسكري الذي لجأت إليه الدولة العثمانية كان فاشلاً فقد تجاوز أهل حوران خلافاتهم، ولاقوا

الحملة العثمانية مجتمعين وكبدوها خسائر فادحة بينما وقع أكثر من ٦٠٠ قتيل من أهل حوران. لكن الفرصة الذهبية للدولة العثمانية جاءتها سنة ١٣٠٧ هـ - ١٨٩٠م. بعد خلاف حاد نشب بين الفلاحين من أهل الجبل، ومشايخهم من آل الأطرش الذي أدى إلى ترحيل آل الأطرش، وطردهم من الجبل، فاستنجد زعماء آل الأطرش خاصة إبراهيم ومحمد وشبلي الأطرش بالإدارة العثمانية في دمشق[١٠]. وهكذا تحققت ذريعة التدخل في الشأن الداخلي في لواء حوران، حيث وجه ممدوح باشا إنذاراً للفلاحين في الجبل تضمن عدة أمور أهمها: وضرورة تسليم الفلاحين ثلاثة آلاف بندقية، وفرض الجندية، ودفع الغرامات وإحصاء السكان ومسح الأراضي.

لكن هذا الانتصار الذي حققه الفلاحون على المشايخ ولّد عند الفلاحين شعوراً كبيراً في حب مواجهة الدولة التي وقفت بجانب المشايخ ضدهم. عندها تداعى الفلاحون للاجتماع في قرية مردم في الجبل لدراسة الأوضاع، فقرروا رفض إنذار الحكومة والاستعداد للمواجهة خاصة بعد تحالف كان قد عقد بين سكان الجبل وسكان سهل حوران للوقوف سوية أمام الجيش العثماني، وإفشال ما خططوا له من إجراءات يريدون تطبيقها مثل إحصاء للسكان، ومسح للأراضي ونزع السلاح، وفرض الجندية الإجبارية.

وهكذا باءت محاولات الدولة في زرع الفتنة بين السكان بالفشل حيث كان لديها يقين بعدم قدرتها على مواجهة سكان لواء حوران منذ زمن إبراهيم باشا [١١].

لكن ممدوح باشا أراد رغم كل هذه المعطيات إرسال جيش عرمرم ودخل الجبل بعد وقوع المئات من القتلى من الطرفين، ثم فُرضت الأحكام العرفية وتمت ملاحقة الثوار في قراهم، ونُفي عدد كبير من الزعماء مع عائلاتهم إلى بلاد الأناضول وغيرها، وذلك سنة ١٨٩٥م. ولكن هذه السيطرة لم تستمر طويلاً فسرعان ما ظهرت الانتفاضة في المناطق الجنوبية من الجبل الذي تزامن مع زيادة الوعي لدى العامة

الذين شكلوا مجالس مناهضة لموقف كبار المشايخ الذين عادوا إلى تقوية نفوذهم بعد تزايد الدعم العسكري في الجبل لهم [١٢].

ورغم زيادة الوعي العام للعامة فقد استطاع العثمانيون الانتصار على المنتفضين والثوار، ودخلوا السويداء، وفرضوا الأمن ثم أجبروا الزعماء على تقديم الطاعة، واعتقلوا أكثر من ثلاثمئة رجل من بينهم ثلاثة وأربعون شيخاً وتم نفيهم إلى بلاد الأناضول وطرابلس الغرب، من بينهم يحيى الأطرش قائد طابور إزرع وهو شقيق شبلي الأطرش[١٣].

لكن الثورة سرعان ما عادت للاشتعال في سنة ١٨٩٦م عندما كانت الدولة العثمانية منشغلة بإخماد ثورة اليونان. فتحصن الثوار في وعر اللجاة. عندها فضلت الدولة الحل السلمي، حيث كلفت الأمير أمين أرسلان بمفاوضة الثوار الذين قدموا له شروطهم، فوافقت على معظمها لاسيما إعادة المنفيين، وإطلاق سراح المسجونين.

وهكذا يتضح أن الصراع تفاقم بين سكان لواء حوران بشكل عام وجبله بشكل خاص مع الدولة العثمانية سببه إضافة إلى أسباب اقتصادية بحتة، إذ أن الدولة العثمانية أرادت أن تدخلهم في الطاعة وتفرض عليهم الأحكام من أجل أخذ رسوم الأغنام وتسجيل الأملاك، وإحصاء النفوس، وأخذ الأعشار [١٤].

د- وصول الاتحاديين إلى السلطة:

لقد تأثر جميع رعايا الدولة العثمانية بأفكار الثورة الفرنسية التي حققت حكماً ديمقراطياً في فرنسا، وأتت بأفكار قومية وعلمانية، بدلاً من حكم الفرد. كما تأثروا بالحركة القومية الإيطالية فأسس بعض شباب الترك جمعية سرية كانت على نمط جمعية إيطاليا الفتاة، هدف هذه الجمعية تعريف الشعب بحقوقه السياسية وحصوله عليها، حيث ظهرت باسم حزب تركيا الفتاة في أوروبا عرفت بين الأوساط السياسية باسم الاتحاد العثماني، ثم ما لبثت أن ظهرت باسم الاتحاد والترقي مناهضة للسلطان

عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م) [١٥]. حيث عملت كل ما بوسعها على إرغام السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور في ٢٤ تموز ١٩٠٨م، بعدما علقه أو ألغى العمل به منذ عام ١٨٧٧م[١٦] .

لقد ظهرت القومية الطورانية بديلة عن الدين الإسلامي الرسمي في الدولة حتى قال أحدهم نحن الأتراك كعبتنا طوران [١٧].

كذلك فقد تغنوا بمدائح جنكيز خان وأعجبوا بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم. لكن المشكلة الحقيقية ليست هنا رغم ما عانته الشعوب الواقعة تحت السيطرة العثمانية من هذا التعصب بل إن اليهود والماسونية العالمية امتطوا هذه الجمعية، وسخروها لخدمتهم وتحقيق آمالهم وأطماعهم، خاصة بعد أن رفض السلطان عبد الحميد طلب اليهود مرتين، ولم يلب لهم طلباً، لاسيما منحهم فلسطين كوطن قومي لليهود.

لم تقتصر أعمال الصهيونية والماسونية العالمية على الانقلاب الدستوري لعام ١٩٠٨م، بل تعاونتا مع جمعية الاتحاد والترقي لتحقيق مكاسب أخرى، وعليه كان لابد من التخلص من السلطان عبد الحميد الثاني نهائياً، ولذلك دبرت أحداث ٣١ /٤/ ١٩٠٩ م، في استانبول ترتب على أثرها اضطراب كبير أدى على عزل السلطان عبد الحميد من العرش سنة ١٩٠٩م[١٨].

ثم أصدروا في ٢٧ نيسان فتوى دينية تنص على خلع السلطان، هذا وقد عدّ اليهود والماسونيون هذا اليوم عيداً لهم، وابتهجوا به وساروا في مظاهرة كبيرة في مدينة سالونيك، وقد افتخر الاتحاديون بأنهم ماسونيون [١٩].

بعد خلع السلطان عبد الحميد ١٩٠٩م تولى السلطة والخلافة أخوه محمد رشاد غير أن السلطة الحقيقية كانت بيد الاتحاديين[٢٠]، وأصبحت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها قومية في عصبيتها بدلاً من رابطتها الإسلامية، التي كانت عليها

قبل هذا التغيير، ثم فرضت سياسة التتريك، وذلك بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية الوحيدة، وان كانت اللغة العربية تقف إلى جانبها، فتأججت حركة الدعوة إلى القومية العربية في مواجهة حركة التتريك، فقام العرب بتأسيس حزب اللامركزية الذي يطالب بالاستقلال الذاتي لجميع الولايات غير التركية، ثم أسسوا جمعيات سرية منها القحطانية والجمعية الإصلاحية، لكن أهمها كانت الجمعية العربية الفتاة، وذلك على نهج جمعية تركيا الفتاة. وحاولت هذه الجمعيات الاستعانة بالغرب خاصة فرنسا وبريطانيا حيث حظيت بمساعدة فرنسا في عقد مؤتمر باريس عام ١٩١٣م الذي أعلن برنامج المقاومة العربية ضد الدولة العثمانية [٢١].

لقد تم توحيد معظم الجهود لتكوين جبهة موحدة للعمل على استقلال البلدان العربية من الحكم التركي بعد ما ظهرت سياسة الاتحاديين للعلن في اضطهاد باقي الأمم الواقعة تحت السيطرة العثمانية.

لكن بعض أقطاب حركة الاتحاد والترقي اكتشفوا فيما بعد أنهم وقعوا تحت تأثير الماسونية والصهيونية. فهذا أنور باشا الذي أدى دوراً مهماً في انقلاب عام ١٩٠٨م يقول في حديث له مع جمال باشا أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي: نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد، فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن قدمنا جهودنا للصهاينة، فهذا ذنبنا الحقيقي [٢٢].

ومهما يكن من أمر فقد عُزل السلطان عبد الحميد، ومهما تكن صفاته سواء أكانت حسنة أم غير ذلك فقد تولى الحكم الفعلي الاتحاديون الذين رفعوا شعار الحرية والإخاء والمساواة، علماً بأن العرب أخلصوا لهذا العهد أملاً بإنصافهم ليسهموا في خدمة الدولة وحكمها فيكون لهم من الحقوق ما للأتراك وعليهم من الواجبات ما عليهم لاسيما [٢٣] وقد أينعت بذور الوعي لديهم ونشأ ما سمي في حينه باليقظة العربية التي تفتحت بفضل البعث الأدبي والقومي.

بدأ الاتحاديون بالانتخابات لمجلس المبعوثين، وكان للولايات العربية الحق في مائة وأربعين مقعداً لأنهم يشكلون نصف الدولة، لكن الاتحاديين كشفوا عن وجههم الحقيقي تجاه القوميات الأخرى حيث لم يخصص للعرب سوى خمسين مقعداً. وقد مثل لواء حوران سعد الدين المقداد حيث كان لواء حوران يضم في ذلك الوقت حوران الحالية والجولان وجبل العرب واللجاة وعجلون. وكان المقداد من أشجع النواب وأكثرهم حماساً بالإضافة إلى عبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي، وقد ألقى المقداد الكثير من الخطب مدافعاً عن القضية العربية تجاه حملات الصحف التركية المسعورة.

ثم ظهر بهتان دعاوى الإصلاح التي نادى بها الاتحاديون في ممارستهم اليومية لرجال الإدارة في جميع الولايات، حتى أن حكومة قضاء عجلون التابع للواء حوران طردت تلاميذ المكتب الرشدي في إربد في مبنى الدراسة، لتسّكن بها جنودها رغم أن السكان كانوا يدفعون قيمة بناء المدارس من جيوبهم(٢٤).

كان سكان لواء حوارن يتلمسون الطريق الصحيح للإصلاح، وللخلاص مما هم فيه من أوضاع مضطربة بينما انحصرت رؤية الدولة، وهدفها في مصلحتها الخاصة، فالإصلاح في نظرها هو الإجراءات التي تؤمن ديمومة دفع الضرائب، ومنع قيام الانتفاضات على حكمها. فالوالي لا يفكر في بناء المدارس وتأمين الخدمات الضرورية للسكان، فوالي سوريا مثلاً راح يبني المخافر خاصة في مناطق ايب وحامر وخان الزبيرة في اللجاة لردع الثوار على حد قوله(٢٥).

الحملة العثمانية على جبل حوران:

وأهم أسبابها:

١- عدم قدرة الدولة العثمانية على فرض سيطرتها المباشرة على الجبل منذ خروج محمد علي باشا ١٨٤٠ م.

٢- عجز الدولة العثمانية عن فرض عزلة كاملة على الجبل بسبب علاقات السكان سواء داخل لواء حوران أم علاقات أهل حوران مع باقي الألوية التابعة لدمشق.

٣- انتشار جمعيات النهضة العربية التي رافقها نمو للروح القومية عند الناس، فتحول الجبل إلى ملجأ يمر عبره كل الأحرار العرب الفارين من بطش الدولة وطغيانها.

٤- ظهور فساد الجهاز الإداري العثماني – خاصة بعد تصاعد الضرائب وفرض التجنيد ومحاولة نزع السلاح دون الاهتمام بالوضع العام المتردي في البلاد بعدما حاول مندوبو العرب في المجالس التركية الإشارة إلى ذلك خاصة شكري العسلي.

كانت الدولة العثمانية ترى هذه الأسباب مسوغاً للهجوم على الجبل وإخضاعه للسلطة العثمانية المباشرة.

وقد وجد العثمانيون ذريعة لذلك حين اشتكى أهل الجبل للدولة على القبائل البدوية التي تغير على الجبل وتسلبهم أموالهم ومواشيهم، فقررت الدولة إرسال أربعة طوابير إلى حوران، لتقيم هناك مبدئياً في حين أن الحملة ستتألف من خمسة وثلاثين طابوراً أي ما يزيد عن ضعفي سكان أهل الجبل.

هنا دعا أهل حوران للاجتماع، ومثَّل السهل فيه الشيخ سليم الصالح الزعبي شيخ قرية خربة غزالة مع شيوخ الجبل في بلدة السجن قرب السويداء اليوم، واتفق الجميع على الوقوف صفاً واحداً ضد القوة العثمانية.

وقد بدأت الحملة زحفها في ٢١ رمضان ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م، وقرر الأهالي عدم مجابهتها لكن سامي باشا غدر بهم ودخل قلعة السويداء وركز مدفعيته فوقها، ثم

أعاد تنظيم جيشه فألقى القبض على الشيخ يحيى الأطرش، وأرسله إلى دمشق ثم أنذر الأهالي بتسليم سلاحهم فجمعوا ٦٠٠ بندقية وسلموها له. عندها شكل لجانا لإحصاء السكان لفرض الجندية على شبابها، وكان معظمهم ممن شكلوا جيشاً قام باستخدام الكر والفر أي حرب العصابات لعدم وجود التكافؤ بين الطرفين.

وقد وقعت عدة معارك بينهما وأهم هذه المعارك: معركة القنوات، مفعلة، مردك، شهبا ومعركة الكفر وغيرها، لكنها كانت محسومة النتائج لصالح الأتراك لعدم وجود القدرة الكافية عند الثوار من سلاح متقدم ومؤن وعتاد، ورغم ذلك فقد أوقع الثوار خسائر فادحة في صفوف الجيش التركي وغنموا منه الكثير، وفر معظمهم إلى وعرة اللجاة والصفا حيث تحصنوا فيها وهكذا بقيت بؤر التوتر ثائرة ضدهم لأكثر من عامين، فكان الجيش التركي يحرق بيت كل من لم يعثر عليه وينكل بأهله، وقد استشهد عدد من زعماء الثورة وعلى رأسهم سليم الأطرش ومسعود سليم الصفدي وغيرهم الكثير.

أخذ الأتراك بملاحقة الثوار في داخل اللجاة والصفا، إلا أن الثورة امتدت إلى مناطق أخرى فأصدروا عفواً عن جميع الموقوفين في دمشق خوفاً من تزايد الخلل داخل الصف العثماني، وعملوا على استرضاء سكان الجبل خاصة بعد أن سلكوا طرقاً جديدة في إذلال أب وأخ كل من هو في سن الجندية إن لم يعثروا عليه بل راحوا يسوقونهم إلى ساحات القتال[٢٦].

حتى أنه قد بلغ عدد من ألقي القبض عليه ٦٠٠٠ شاب، لكن الثورة سرعان ما اشتعلت في الكرك، فانتقلت القوات التركية إلى هناك لقمعها خشية انتقال الثورة إلى أماكن أخرى، حتى عم الاستياء الشعبي العام من الإجراءات العثمانية المتبعة في كامل لواء حوران.

وفي عام ١٩١٤ م بدأت الحرب العالمية الأولى بين أقطاب العالم آنذاك حيث كانت دول المحور تتزعمها ألمانيا بينما كانت دول الحلفاء تتزعمها كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا. ثم انضمت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا، وهنا تحتم على العرب أن يكونوا بجانب الدولة العثمانية لوجود الرابطة الدينية بين الشعوب العربية والعثمانيين.

قامت الدولة العثمانية بسوق أعداد كبيرة من شباب الدول العربية الواقعة تحت السيطرة العثمانية للمشاركة بالحرب، ولم تقف الدولة العثمانية عند هذا الحد بل راحت تصادر محاصيلهم خاصة في حوران لإطعام الجنود في ساحات القتال، وذلك ما يعرف بالميرة. فعانت البلاد العربية الويلات بسبب نقص المواد الغذائية من جراء نهب العثمانيين للمحاصيل، أو جلب الشباب العرب لساحات الحرب، فنقصت اليد العاملة وتركت الأراضي بوراً، أما من جانب العرب، فقد انقسموا بين مؤيد ومعارض لأعمال العثمانيين.

وجد المثقفون العرب الفرصة سانحة لإعلان الثورة ضد العثمانيين خاصة بعد اجتماع العرب في مؤتمر باريس عام ١٩١٣ م، وبدأ التشاور من أجل الثورة واستقر الرأي على تولية الحسين شريف مكة قائداً لها حيث بعث ابنه إلى دمشق ليتأكد من الأمر. عندها حاول العثمانيون التقرب من العرب للوقوف بجانبهم في الحرب مقابل منحهم الاستقلال بعد النصر[٢٧].

وامتدت الحرب أربع سنوات من ١٩١٤- ١٩١٨ م كانت المرحلة الأولى فيها نصراً مؤزراً لدول المحور، واستمر هذا النصر أكثر من سنتين، ثم انقلبت الموازين فأصبح النصر هزيمة، ثم لاحت بالأفق بوادر نصر الحلفاء. عندها كثرت مؤامراتهم واجتماعاتهم السرية لاقتسام إرث الرجل المريض خاصة البلاد العربية الأسيوية، لأن باقي البلدان كانت قد وقعت تحت السيطرة سابقاً[٢٨] . فكانت معاهدة سايكس بيكو

١٩١٦ م حيث تم بموجبها اقتسام بلاد الشام والعراق بين كل من بريطانيا وفرنسا. وكذلك ظهر وعد بلفور عام ١٩١٧م الذي منح اليهود حقاً في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين. وهكذا نرى أن مخططاتهم وصلت إلى مرحلة التنفيذ بعدما فشلوا مرات عديدة زمن السلطنة العثمانية القوية(٢٩).

- وصول الثورة إلى حوران:

وفي ١٦ أيلول سبتمبر ١٩١٨ م وصلت الثورة إلى حوران، وكان أول عمل لها أن خربت مخفر تل عرار الذي يقع على بعد ٨ كم شمال درعا، وكذلك خربت السكة الحديدية الواصلة إلى درعا لعزلها عن الخارج ومنع وصول الإمدادات العثمانية إلى الحاميات الموجودة في المخافر والمناطق. لكنها فشلت في تخريب جسر السكة الحديدية الكائن قرب تل شهاب. عندها توجهت الحملة إلى درعا قاصدة محطة نصيب لعرقلة وصول التموين والإمداد وقطع خط رجعة الجيش العثماني المرابط في جبهة السلط في الأردن حيث دمرتها الحملة(٣٠).

وفي صباح ٢١ سبتمبر قامت الحملة بمهاجمة محطة خربة غزالة، فدمرتها كما دمرت جسراً كبيراً بقربها، ونسفت السكة الحديدية بينها وبين درعا. ثم سيرت الهجانة إلى المزيريب لتعطيل سكة الحديد بين درعا وحيفا، فبلغت الحملة قرية طفس بعد الغروب، فكمنت وراءها واستدعت طلال حريذين شيخ قرية طفس، وكان من أخلص الشيوخ للقضية العربية، فاتفق مع قائدها على أن يأتيه بقائد محطة المزيريب التركي، وكان أرمينياً فسلمها لهم. وجاء هذا بملابس بدوية، فتم الاتفاق على أن يجمع ضباطه وقواته كمن يريد أن يصدر إليهم الأوامر، فتباغت القوة المحطة وتأسر الحامية. وبينما كان هؤلاء ينوون تنفيذ خطته وصل من حيفا قطار يحمل فوجاً تركياً ومدافع. وتوقف في المزيريب عندها تريث الثوار في هجومهم انتظاراً لفرصة أخرى سانحة، ولما

اقترب الثوار في اليوم الثاني ضربتهم المدافع التركية، فقصدوا محطة صغيرة بين المزيريب ودرعا ودمروها(٣١).

وفي ٢٤ أيلول علمت قيادة الحملة أن الهجوم البريطاني الكبير على جبهة فلسطين قد نجح وتمزق الجيش التركي، وأخذت كل قواته بالتراجع، فأسرعت الحملة لقطع خط رجعتهم، وأسرت ما عثرت عليه من القوات المتراجعة من عمان، ثم تركت قوة في نصيب لمنع إصلاح خط السكة الحديدية. فقررت قيادة الحملة قطع خط رجعة القوات الأساسية التركية المتراجعة عن طريق سكة حديد حيفا، فاتجهت نحو الشمال، فوصلت في صباح ٢٧ أيلول إلى الشيخ سعد، واجتمعت بالقوة البدوية التي تجمعت حول نوري بن الشعلان وعودة أبو تايه، وكان يرأسها الشريف ناصر، وبينما كانت الحملة هناك سمعت أنباء استغاثة من قرية طفس تطلب نجدة الحملة لتصد عنهم اعتداء الأتراك الذين مروا بقريتهم متراجعين نحو دمشق. حيث كانت هذه القوة كبيرة، ولديها قيادة منظمة تحت رقابة فنية ألمانية وهي تسير بطريق طفس نوى باتجاه دمشق(٣٢).

أما الحملة فقد روى أحد جنودها فقال: كنا نجهل إمكانيات هذه القوة بالإضافة للتعب الذي حل بنا والسفر المتواصل والحروب المستمرة جعلتهم يقابلون نداء الاستغاثة بعدم الحماس، بل إن النوري بن شعلان ندد بالحوارنة لعدم قيامهم بواجبهم أمام طلال حريذين قائلاً: «إن على مشايخ حوران أن يدافعوا عن أموالهم وأعراضهم وأن يعملوا مثلما نعمل نحن»، عندها ارتد طلال عائداً إلى قريته مع بعض المتطوعين البدو الذين رافقوه لمقاومة المعتدين بكل حمية وشجاعة حتى سقط شهيداً في ساحة الشرف.

وهذا لورنس العرب المرافق للحملة يعرض قصة استشهاده في كتابه أعمدة الحكمة السبعة قائلاً: «وما كدنا نطل على القرية حتى تأكدت لنا صحة ذلك من رؤية

النيران والحرائق، ومن سماع الطلقات بين الفينة والأخرى. وما هي إلا لحظات حتى بدأت تتجه نحونا جماعات بائسة من الشيوخ والنساء والأطفال لتروي لنا الكثير عن فظائع المجتاحين الذين أحرقوا القرية وفتكوا بكل حي تمكنوا منه. ومن مكان عال شاهدنا العدو يتجمع خلف البيوت ويتجه نحو قرية الشيخ مسكين فما إن أصبح خارج القرية حتى فتحنا عليه نيران مدفعيتنا، وكان طلال ثائراً يرغي ويزبد لما فعله أولئك الأوباش في أبناء قريته، وبسرعة فائقة أمطرنا العدو وابلاً من الرصاص والقنابل وشتتنا شمله، ثم ساد المكان جو من السكون الرهيب تقدمنا بحذر فيما كان الدخان يتصاعد من القرية وبين الأعشاب وقعت أنظارنا على ما تقشعر له الأبدان»(٣٣) هو: قتلى وجرحى من نساء ورجال وشيوخ وأطفال، خراب ودمار، أهوال وفظائع مما أجبر قسماً كبيراً من الحملة أن يسرع لتخليص أهل القرية من القتل والتمثيل وصبت نيران مدافعها الرشاشة على المعتدين الذين هالتهم هذه المفاجأة، فأسرعوا وغيروا طريقهم نحو درعا ثم الشيخ مسكين إلى دمشق، ثم علمت الحملة أن القوة البريطانية تتجه نحو درعا فقصدناها حتى قال أحمد قدري أحد قادة الحملة: « كنت أول من دخلها برفقة لورانس»(٣٤).

وبعد الهزائم المتكررة التي مني بها الجيش التركي في سورية الجنوبية والأردن واصل تراجعه شمالاً إلى بلاد حوران، والشام باتجاه حمص ماراً ببلدة رياق حيث توجد أكبر محطات سكة الحديد المؤدية إلى حلب.

وفي ٢٧ أيلول ١٩١٨ م أعلن جمال باشا الملقب بالصغير قائد الجيش العثماني إلى وجهاء دمشق ورئيس بلديتها انسحاب الدولة العثمانية جيشاً وحكومة عن سورية، فسافر وكان آخر عسكري تركي غادر دمشق أما آخر جندي انسحب من سورية فكان ١٢ تشرين ثاني ١٩١٨ م. وفي ٢٧ أيلول ١٩١٨م اجتمع في بهو المجلس البلدي في ساحة المرجة في دمشق فريق من الوجهاء والمفكرين الدمشقيين(٣٥)، وقرروا إقامة حكومة مؤقتة تحول دون الفوضى ريثما تصل الجيوش المظفرة، وتم اختيار الأمير

سعيد الجزائري رئيساً لها، ثم أقسم قسم الولاء وبعدها أنزل العلم العثماني ورفع العلم العربي[٣٦].

أما الحملة التي تابعت سيرها من درعا فقد وصلت إلى دمشق بتاريخ ٣٠ أيلول وكانت بقيادة نوري السعيد وجميل مدفعي وأحمد قدري وجودت الأيوبي... وغيرهم بينما انضمت إليها القبائل البدوية بقيادة نوري الشعلان وكذلك وصلت القوات المتطوعة من الدروز بقيادة سلطان الأطرش ورحب الأهالي بها. وبعد وصول الحملة باشر الأمير بتأليف حكومة جديدة لأن حكومة سعيد الجزائري لم تدم سوى أيام فقط، حيث أعلن بتاريخ ٥ تشرين الأول عن تشكيل أول حكومة في سورية برئاسة رضا باشا الركابي وكان فيصل بن الحسين هو القائد العام للقوات، وقدم البيان باسم والده الشريف حسين وتضمن إقامة حكومة دستورية عربية مستقلة شاملة بحدودها جميع البلدان السورية [٣٧]. ثم أرسل الأمير فيصل (شكري باشا الأيوبي) ومعه مائة من المقاتلين إلى لبنان لتأليف حكومة تابعة له، وتم ذلك في ١٤ تشرين الأول ثم رفع العلم العربي الجديد، وأقسم المجلس يمين الولاء للحكومة العربية بدمشق [٣٨].

صحيح أن جماهير الشعب قد استقبلت قيام الحكومة العربية في دمشق بالترحاب والتأييد حتى تطلع العراقيون إلى تأسيس إدارة عربية في بغداد للانضمام إلى الحكومة مستقبلاً[٣٩]، لكن الحلفاء استنكروا قيام الحكومة، ورفضوا قراراتها وإجراءاتها، لأنها تعيق تنفيذ مخططاتهم الاستعمارية. عندها قام الجنرال اللنبي بزيارة الأمير فيصل في دمشق وأعلن غضبه لقيام حكومة عربية فيها، وأنه لا يزال مسؤولاً عن المنطقة ما دامت الحرب مستمرة، وأبلغه بأنه لا يحق له تعيين الحكام العسكريين؛ لأن هذا من اختصاص القائد العام لجيوش الحلفاء لذا قاموا بإنزال العلم العربي في بيروت.

-الأمير فيصل ومؤتمر الصلح:

توقفت الحرب العالمية في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨م بعد إعلان الهدنة بين كل من ألمانيا والحلفاء. ثم عقد مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٩م، وتنافس الحلفاء في اقتسام غنائم المستعمرات دول المحور المهزومة خاصة ألمانيا، والدولة العثمانية، وخفت صوت الدول المطالبة بالحرية والاستقلال، وحق تقرير المصير، وذلك بسبب سيطرة الدول المنتصرة على المؤتمر وقراراته. وتلاشت تلك الأصوات، والآمال التي بنيت على مبادئ الرئيس الأمريكي (ولسن) الأربعة عشر حيث أكد في المبدأ الثاني عشر منها على حق الشعوب في تقرير مصيرها[٤٠].

ثم أقر مؤتمر الصلح جميع المعاهدات مع الدول المهزومة منها (مودرس) مع تركيا، بعدما أقرت بهزيمتها وذلك في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨م. حاول الأمير فيصل حضور مؤتمر الصلح كواحد من الحلفاء المنتصرين، ومحاولاً إسماع صوت العرب للعالم مطالباً بحريتهم واستقلالهم، لكن فرنسا منعته من الحضور، ولم يحضره إلا بعد وساطة بريطانيا، فسمح له كممثل عن الحجاز فقط لا عن العرب، بل وكيلاً عن أبيه الشريف حسين، ثم ألقى خطاباً تحدث فيه عن دور العرب في محاربة العثمانيين وتضحياتهم لتحقيق النصر، وطالب باستقلال العرب في آسيا، وندد باتفاقية سايكس- بيكو وأشار إلى مبادئ (ولسن) في تقرير المصير، واقترح إرسال لجنة تزور البلاد لتقف على رغبات الشعب، لكن المؤتمرين لم يأخذوا ذلك بعين الاعتبار وقرروا ما يلي:

١- فصل البلاد العربية في آسيا عن تركيا.

٢- اختيار إحدى الدول الحليفة لتقوم بالوصاية أو الانتداب على البلاد العربية بحجة أن أهلها غير قادرين على إدارة أنفسهم بأنفسهم.

٣- استفتاء السكان في تقرير مصيرهم، واختيار الدولة المنتدبة عليهم.

٤- إرسال لجنة إلى بلاد الشام لاستفتاء الشعب، والوقوف على رغباته [٤١].

عارضت بريطانيا إرسال اللجنة إلى العراق وفلسطين، كما عارضت فرنسا إرسالها إلى سورية ولبنان، لذلك لم تشاركا فيها، واقتصرت المشاركة فيها على الوفد الأمريكي المؤلف من رجلين وعرفت فيما بعد باسمهما (لجنة كينغ – كراين).

وبعد عودة فيصل من المؤتمر وجد الشعب في قلق من مواقف تلك الدول، ثم أكد لهم أن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى، ثم وجه أنظار الشعب إلى مهمة اللجنة القادمة واستقر الرأي على إجراء انتخابات تهدف إلى تشكيل وفود تقف على الرغبات الحقيقية للسكان لتقديمها إلى تلك اللجنة حتى انعقد المؤتمر في دمشق ٧ حزيران ١٩١٩م وقرر :

- إعلان استقلال سورية الطبيعية.
- رفض جميع الاتفاقيات والمعاهدات الرامية إلى الاحتلال أو التقسيم.
- رفض الوصاية أو الانتداب المقترحة لإدارة البلدان العربية.
- رفض المعونة الفرنسية وقبولها من أمريكا أو بريطانيا [٤٢].

لقد عملت الدول الاستعمارية التي كانت تسيطر على عصبة الأمم جاهدة أن توفق بين أمرين وهما:

أ- مبدأ تقرير المصير الذي نادى به الرئيس الأمريكي ويلسون بعد نهاية الحرب العالمية الأولى في أثناء مؤتمر الصلح في باريس.

ب- الأطماع الاستعمارية التي كانت تطمح إليها تلك القوى، التي ظهرت بصيغة نظامية قانونية عندما أعلنت أن الأقطار الواقعة تحت السيطرة العثمانية ضعيفة، ولا تستطيع أن تدير حكم نفسها بنفسها، لذا تعين على تلك الدول تعيين إحدى الدول المتقدمة لتشرف على إدارتها مؤقتاً حتى تصبح متقدمة.

أما عن تعيين هذه الدول بعينها فلم تتوزع بينهم إلا في مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ م حيث سنحت الفرصة لدول أعضاء مجلس عصبة الأمم الدائم بعد انسحاب الولايات المتحدة منها، وهكذا فتح المجال أمام بريطانيا وفرنسا لكي تنفذا سياستهما التوسعية خاصة في الشرق العربي، وخصت فرنسا بالانتداب على سوريا ولبنان، حيث كانت قواتها ترابط في الساحل من رأس الناقورة حتى كيليكيا في شمال الاسكندرونة، بينما أقام فيصل حكومة عربية في دمشق تسيطر على سوريا باستثناء الساحل(٤٣).

أما بريطانيا التي كانت قد قطعت للعرب عهداً أن تؤلف لهم حكومة عربية، فقد سحبت جيشها إلى شرق الأردن وفلسطين وعينت السير هربرت صموئيل. وهو صهيوني انجليزي، بينما عينت فرنسا الجنرال غورو مفوضاً سامياً على سوريا ولبنان الذي كان يعمل مستقلاً باسم دولته متخلياً عن قيادة اللورد اللنبي للجبهة(٤٤).

لقد تفاجأ العرب أمام هذه المؤامرات ضدهم، فطالما صبروا انتظاراً منهم جلاء العثمانيين عن بلادهم وبعدها جاءت المفاجأة الكبرى بعد محاولة الفرنسيين توسيع مناطق نفوذهم بدلاً من الجلاء عنها (٤٥).

إن عملية إبدال الجيوش البريطانية بأخرى فرنسية نبهت العرب إلى مخططاتهم بشكل عام وإلى تنفيذ وتطبيق سايكس- بيكو بشكل خاص، فما كان من الحكومة العربية إلا أن قدمت احتجاجاً على موضوع الاستبدال هذا، وأبلغتهما بأنها ترفض دخول القوات الفرنسية إلى المنطقة الشرقية حتى ولو كلفها ذلك الدخول في حرب مع هذه الدول.

حيال هذه القناعة كان يتحتم على الحكومة الاهتمام بالجيش، وإعادة تنظيمه وتسليحه، لكنها فرضت التجنيد الإجباري، بينما كان فيصل يفاوض كليمانصو رئيس

وزراء فرنسا هناك في باريس الذي أراد أن يفرض عليه معاهدة تنظيم علاقة البلدين، لكن الأمير فيصل رفض التوقيع إلا بعد أخذ رأي حكومة بلده ورأي شعبه.

وعندما عاد فيصل إلى دمشق، واستطلع آراء الشعب المخالف اتجاه ذلك ترك الفكرة وانحاز لرأي الشعب الذي راح يحاول جاهداً إعلان استقلال سورية دون النظر لجميع معطيات الدولة بما فيها مؤتمر الصلح آنذاك[٤٦].

لكن الأمر الواقع لم يكن مناسباً خاصة، وأن الجيش العربي مازال جزءاً من جيوش الحلفاء بقيادة الجنرال اللنبي الذي كان يعد الجيش العربي جيشاً محتلاً كغيره من الجيوش البريطانية أو الفرنسية وغيرها. لذا كان على العرب القيام بخطوة جريئة لإعلان استقلال البلاد، لكن كيف يتم ذلك والقيادة الأجنبية لا تسمح بذلك حتى يتسنى لها أن تحقق أهدافها، فكانت القيادة العسكرية الأجنبية تضع العقبات أمام أي تنظيم يوحي بتشكيل دولة مستقلة، ويسارع اللنبي أمام كل ذلك ويذكرهم بأن البلاد تحت القيادة العسكرية. ولهذا دفعت جميع التصرفات المريبة من المحتل بأعضاء المؤتمر السوري المنتخب سابقاً إلى اجتماع المؤتمر السوري العام في ٨ آذار ١٩٢٠ م والذي قرر ما يلي:

- إعلان استقلال سورية الطبيعية.
- رفض جميع التسويات والمعاهدات الاستعمارية بما فيها وعد بلفور.
- إعلان اللامركزية.
- إعلان استقلال لبنان الذاتي وكذلك العراق [٤٧].

بقي أن نشير إلى أن هذا الاستقلال كان يعني استقلال سورية الطبيعية، وبالتالي الطلب من الجيوش الأجنبية المحتلة الانسحاب حتى من لبنان وفلسطين، وكذلك طالب

بيان الاستقلال هذا باستقلال العراق ولو أن قضية العراق لم يتم التداول بها تماشياً مع حيثيات الواقع الذي يفرض نفسه في سورية.

إن إعلان الاستقلال لاقى ترحيباً واسعاً في أوساط العرب، بينما عبر الغرب عن رفضه وغضبه بل عدّه نوعاً من التمرد على القيادة الموجودة حالياً، ولم يعترف به، – بل قالوا إن فيصلاً أمير هاشمي وقائد القوات الشمالية، وأرسلوا له دعوة إلى باريس ليعرض قضية العرب على مؤتمر الصلح.

وبينما كان الغرب قد اتفق على التقسيم والتنفيذ فقد راحت فرنسا تفتعل الأزمات لتحويل العلاقات العربية الفرنسية، وتصعيد لهجتها معها، فهاجمت الصحف الشريف حسين حتى السب والشتم ومنعت اقتران فيصل بكلمة ملك، ثم أسسوا بنكاً في سوريا ولبنان، ثم أصدروا نقداً جديداً لسوريا وعدوّه النقد الرسمي وحملوا الناس على التعامل به بالقوة، مما سمح لفرنسا بسرقة ذهب البلاد الذي كان نقداً يتعامل الناس به قبل ذلك.

مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ (٤٨)

كل هذه الحوادث بالإضافة للظروف الدولية آنذاك أجبرت الدول الاستعمارية على صيغة جديدة لتنفيذ ما تم الاتفاق عليه، وقد ظهر ذلك في مؤتمر سان ريمو الذي كان رداً على جميع قرارات المؤتمر السوري العام، وكان من أهم قراراته:

- سورية ولبنان دولتان منفصلتان توضعان تحت الانتداب الفرنسي.
- إعلان الانتداب البريطاني على العراق.
- إعلان الانتداب البريطاني على فلسطين والأردن وتنفيذ وعد بلفور.

هاج الشعب، وماج بعد وصول أخبار مؤتمر سان ريمو، وقراراته بشأن بلادهم، ثم انطلقت المظاهرات الشعبية احتجاجاً على ذلك، وطالبوا الحكومة بإجراءات وقائية

للمحافظة على استقلال بلادهم، فاستقالت الوزارة، وشكلت أخرى برئاسة هاشم الأتاسي كان فيها عبد الرحمن الشهبندر وزيراً للخارجية ويوسف العظمة وزيراً للدفاع رداً على ما تقوم به الدول الاستعمارية. بينما راحت فرنسا تجهز جيشها للهجوم على البلاد أما بريطانيا، فكانت دائماً تدعو الملك فيصل للحضور إلى أوربا لتسوية هذه المواضيع– وقد أرسل الملك فيصل (نوري السعيد) إلى الجنرال غورو لتهيئة الجو لسفر الملك فيصل فامتنع عن طلبه، وقال: «لا نسمح له بالمغادرة حتى يلبي مطالبنا التي ستصله على شكل إنذار»، وراح يحشد قواته لعمل ما، بينما استعد الشعب للتضحية في سبيل وطنه. وفي ١١ تموز وصلت مطالب غورو على شكل إنذار للشعب السوري والتي تلخصت بما يلي:

- وضع سكة حديدية رياق حلب – تحت تصرف الجيش الفرنسي.
- قبول الانتداب الفرنسي دون قيد أو شرط.
- إلغاء التجنيد الإجباري وتسريح الجيش.
- معاقبة الثوار لمقاومتهم الاحتلال الفرنسي وتأديبهم [٤٩].

وحدد غورو أربعة أيام لقبول الحكومة هذه الشروط، وتوسطت بريطانيا محاولة إقناعه بذلك، والمشكلة الكبرى كانت في داخل الحكومة بين مؤيد لقبول هذه الشروط لقناعته بعدم قدرة الجيش العربي على ملاقاة الجيش الفرنسي، وبين معارض لقبولها من مبدأ أن يقدم الشعب ما عليه من تضحيات، ورفضاً منه للسياسة الفرنسية اتجاه البلد دون النظر للنتائج. وأخيراً تم الاتفاق على قبول الشروط، وذلك في يوم ٢٠ تموز وشرعت الحكومة بتطبيقه، فسرحت الجيش مما زاد في هياج الشعب اتجاه الملك والحكومة. لكن المفاجأة الكبرى كانت في صباح اليوم التالي حيث بدأ غورو بهجومه على العاصمة دمشق بحجة تأخر الرد، عندها كان محتماً على الوزارة أن تقوم بواجبها، فبدأ يوسف العظمة يلمّ شتات جيشه وفي يوم ٢٤ تموز تحرك الجيش

الفرنسي نحو ميسلون، حيث جرت هناك معركة غير متكافئة كان نتيجتها استشهاد يوسف العظمة، ومعظم جيشه، ثم دخلت الجيوش الفرنسية نحو دمشق (٥٠).

وعندما اقترب الجيش الفرنسي من دمشق غادرت الحكومة دمشق جنوباً بالقطار نحو الكسوة ما عدا وزير الداخلية علاء الدين الدروبي، حيث دلت الحوادث على وجود تفاهم خفي بينه وبين الفرنسيين (٥١).

قام الفرنسيون بتشكيل حكومة جديدة برئاسة علاء الدين الدروبي. أصدرت هذه الوزارة بياناً تحمل الملك فيصلاً مسؤولية كل ما حصل، مما أرغم فيصلاً على العودة محتجاً على ذلك، فأرسلوا له كتاباً يأمره بمغادرة البلاد، مما زاد في غضبه على أنه الملك الشرعي للبلاد. لكنه تحت ضغط الاحتلال سافر مع حاشيته إلى درعا، حيث قرر فيها نقل الوزارة إلى الكسوة وعودته هو إليها. أما من كان معه فقد بقي في درعا، حيث نصب الخيام بجانب القطار، لتكون مقراً لهم وهنا تردد الملك في الذهاب من درعا غرباً عبر السكة الحديدية للوصول إلى حيفا، ومنها إلى أوروبا ليجري اتصالاته مع رجالها أو جنوباً ليبقى متصلاً بشعبه الذي بايعه ملكاً.

واستقبل زعماء حوران الذين كانوا ينتظرون منه قراراً أو موقفاً، لكن الرد جاء مستعجلاً من الفرنسيين، ولم يمهلوه طويلاً مخافة قيام ثورة من قبل عشائر حوران ضد الاحتلال، فسارعت بالإيعاز إلى رئيس الوزراء الجديد تبلغه بضرورة اعتماد القوة إزاء ذلك قامت الطائرات الفرنسية بالتحليق فوق درعا، وقرى حوران كافة، ملقية منشورات تدعوهم لإخراج فيصل من بلادهم. وفعلاً فقد توجه فيصل نحو حيفا، حيث ترك حكماً استمر فيه حوالي سنتين، مما أفرح البريطانيين الذين كانوا يخشون عودته إلى معان والجزيرة لمتابعة نضاله ضدهم، ولم تمض سوى أقل من سنة حتى رشحته ليكون ملكاً على العراق(٥٢).

وأخيراً وبنظرة فاحصة لما سبق نجد أن العرب رغم شوقهم للحرية، والوحدة والاستقلال كان ساستهم ومفكروهم غير قادرين على إيجاد برنامج عمل متكامل يستطيع أن يقود هذه الدولة التي طالما حلموا بها وذلك لأسباب عدة منها:

- قصر النظر لديهم وعدم إلمامهم بالسياسات العالمية آنذاك.
- تقليد الغرب دون النظر للأسس الأولية التي تقوم عليها هذه الدول.
- لقلة الاحتكاك وانحسار اطلاعهم في مجالات معينة دون أخرى.

فالانقلاب المفاجئ لدى الجميع كان غير مكتملاً وليس جاهزاً بسبب ارتباطهم الطويل بالدولة العثمانية، فالفوضى التي تعقب كل تغيير تبدأ بالانحسار والذبول بعد استقرار الأمور ومع أن الفوضى بدأت بسيطة، لكنها كانت تتفاقم وتكبر كل يوم حتى أدت إلى انهيارها واستبدال السلطة العثمانية بالاحتلال الفرنسي[٥٣].

لكن هذه المسؤولية، لا تقع على عاتقهم وحدهم فالدول الاستعمارية هي التي غرّرت بهم، واستطاعت أن تضعهم في صفها بغية القضاء على السلطة العثمانية تحت شعار استقلالهم. لكن الحقيقة كانت عكس ذلك، فقد كانت بريطانيا تقدم لهم كل ما يريدون من أسلحة، وعتاد كل ذلك كان أيام الحرب العالمية. وبعد إعلان انتصارها بدأت تنقص وتقلل في هذه المساعدات خشية منها أن تقف هذه المساعدات حاجزاً أمام أطماعها في استعمارها للمنطقة وبسط السيطرة عليها، حتى ظهرت الأطماع الفرنسية أمامها مما أجبرها على أن يتنازل كل طرف للآخر في سبيل إيجاد الحلول الواقعية.

ولا ننسى موقع هاتين الدولتين بعد انتصارهما في الحرب العالمية الأولى فقد ظهرتا كأكبر قوة في العالم آنذاك بالإضافة لوجود بعض العناصر التي غلبت مصالحها على مصالح الأمة، فانخرطت بالرسائل والخيانة مما أفشل العرب في تحقيق أهداف ثورتهم.

سياسة فرنسا الاستعمارية:

بعد معركة ميسلون دخل الجيش الفرنسي إلى دمشق، وذلك بتاريخ ٢٥ تموز ١٩٢٠ م وأول عمل قام به الجنرال غورو قائد القوات الفرنسية، توجه إلى قبر صلاح الدين الذي هزم الفرنجة في حطين عام ١١٨٩ م وقف أمامه شاهراً سيفه وقال - بلغة التهكم والغرور:- «ها قد عدنا يا صلاح الدين فانهض لترانا ولقد ظفرنا باحتلال سورية»(٥٤).

من هذه البداية تتبين أهداف فرنسا من هذا الاحتلال بينما كان الفرنسيون وأبواقهم يتشدوق بنقل الحضارة الغربية للعرب، وتعليمهم أصول الحكم الديمقراطي الحديث، فهذه هي الحقيقة التي تعبر عن حقدهم اتجاه الأمم الأخرى(٥٥).

إن تاريخ فرنسا الاستعماري لا يختلف كثيراً في سياستها عن باقي المستعمرين، فقد لاحظ العالم كيف كانت سياستها في الجزائر منذ عام ١٨٣٠ م، حيث استخدمت جميع الأساليب والطرق المروعة في سبيل فرض هيمنتها، وبسط سيطرتها على المناطق التي تعلن احتلالها - فاستخدمت شعار (فرق تسد) والأرض المحروقة، والتنكيل بالأهالي والعقاب الجماعي لجميع من لا يظهر موالاته لهم، وكذلك فعلت في سورية بعد دخولها إليها وأهم ما قامت به:

١- تسليم كبار المدنيين ليحاكموا أمام المحاكم العسكرية العرفية.

٢- فصل لبنان عن سورية الأم وإعلانه دولة مستقلة.

٣-تقسيم سورية إلى خمس دويلات مستقلة بهدف تقطيع أوصالها، وإثارة النزاعات الطائفية والإقليمية(٥٦). كل ذلك لضرب وحدة البلاد التي كانت سبباً في قوتها، كما وشجع الفرنسيون على الانفصال. هذه الدويلات هي: دولة حلب، دولة

دمشق، دولة اللاذقية، دولة جبل العرب ودولة لواء اسكندرون التي ألحقت بدولة حلب مع تمتعها بإدارة خاصة.

٤-حكمت سورية بموظفين جدد معظمهم فرنسيون مع قلة قليلة ممن اختارت الإذعان لهذا الاحتلال واللحاق بركبه.

٥-أما عن الإرهاب وسياسة القمع، وملاحقة الأحرار فهذه ليست جديدة على كل مستعمر.

٦-إضعاف اللغة العربية، وفرض اللغة الفرنسية في التعليم، كما عمدت إلى تشويه التاريخ العربي.

٧-السيطرة على الأراضي، ونزعها من يد أصحابها لا بل شجعت الإقطاع، ثم فرضت الضرائب الجائرة العالية على السكان الفقراء [٥٧].

٨-على الحكومة السورية أن تدفع ١٠ مليون فرنك غرامة حربية باسم التعويض ومن خلال كل ذلك بسطوا سيطرتهم على الاقتصاد في الوطن بكامله [٥٨].

وقد قامت الوزارة بتنفيذ هذه المطالب الاستعمارية بتمامها، ثم أصدر المجلس الحربي الفرنسي الأعلى بتاريخ ٩ آب حكماً بالإعدام ضم جميع أحرار البلد، وكل من حاول الوقوف ضدهم مثل : كامل قصاب، أحمد مريود، الأمير محمود الفاعور، صبحي بركات، عادل أرسلان، رشيد طليع، أحمد قدري، شكري القوتلي، رياض الصلح، خير الدين الزركلي، أدهم خنجر وغيرهم كثير وبعد الحكم بالإعدام قاموا بمصادرة أراضيهم، وجميع أملاكهم، وحكموا على فئة أخرى من الأحرار بالنفي إلى خارج البلاد، ثم قبض الفرنسيون على بعض الضباط في الجيش الفيصلي، فتم نفيهم إلى جزيرة أرواد وأما من بقي من الأحرار، فقد توارى عن الأنظار مخافة التنكيل بهم.

الثورات الوطنية وحركات المقاومة:

صحيح أن القوات الفرنسية دخلت دمشق بعد ميسلون عام ١٩٢٠ م غير أن القوات الفرنسية كانت موجودة في الساحل منذ نهاية الحرب العالمية الأولى أي منذ عام ١٩١٨م، هذا وإن قيادة بلادنا كانت تقوم على زعامات عشائرية، لذا وجدنا جميع الحكام يحاولون خطب ودهم وكسب رضاهم، لأنهم بذلك يستطيعون السيطرة على العامة من خلال هؤلاء.

إن البداية لم تكن جزافاً، فالصراع العشائري المتأصل في نفوس هؤلاء لا تزيله قوةً، ولا تغيره معركة، ولم نجد أن هذه العصبية قد ذابت من نفوس العرب إلا زمن الإسلام الأول ثم عادت هذه العصبية بأشكال مختلفة، فظهرت بأثواب متعددة، وألوان متغيرة. كان أثرها السلبي واضحاً على كل شيء حيث كانت البداية من منطقة القصير عندما استطاع الأهالي بقيادة صبحي بركات أن يسيطروا على الحامية العثمانية في المنطقة(٥٩)، وألف الأهالي تنظيماً يشبه الحكومة وذلك للسيطرة على الأمور في ظل عدم وجود حكم يستطيع السيطرة على الأمور. إن هذا العمل دعا بعض الزعامات القديمة من سكان أنطاكية وحارم وغيرها... وبعض الإقطاعيين الذين ارتبطت مصالحهم بوجود الغريب المحتل في البلاد فقد ألف هؤلاء وفدا سار باتجاه ميناء الاسكندرونة حيث يتمركز الجيش الفرنسي الذي سيطر على الساحل منذ انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، فرحب الفرنسي بهم وشكرهم على إخلاصهم له على هذا العمل الذي سيكون بابا لتنفيذ مخططاتهم الاستعمارية(٦٠).

محاولة فرنسا السيطرة على حوران:

بعد توطيد فرنسا حكمها في دمشق بدأت بمد سيطرتها على المناطق الأخرى، فقد أرسلت سرية عسكرية صغيرة مؤلفة من عشرين جندياً سنغالياً لاستطلاع أمر

حوران، ومحاولة ربطها بالعاصمة الواقعة تحت السيطرة لكن الحوارنة، واجهوا هذه القوة العسكرية، وأجبروها على العودة.

اعتبرت فرنسا ذلك تحدياً لها، وأرادت البطش بأهل حوران وزعمائها، لكن رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي كان رأيه مخالفاً، فقد رأى أن يقوم مع وفد يمثل الحكومة بطمأنة نفوسهم، وتهدئة خواطرهم معللاً وجود الاحتلال بهذه الظروف التي تمر بها البلاد وحاول علاء الدين الدروبي أن يخبر متصرف حوران وكان أبا الخير الجندي الذي استطلع الأمر، ثم رد ببرقية يعلمه فيها بأن أهل حوران في هياج تام، ومقترحا عليه تأجيل الزيارة ريثما تهدأ النفوس وتستقر الحال - لكن أبا الخير الجندي أرسل برقية ثانية بخصوص تأجيل الزيارة خاصة عندما علم بإصرار الحكومة على الزيارة، وقد وصلت البرقية الثانية متأخرة بعد خروج الوفد وركوبهم في القطار.

حادثة خربة غزالة عام ١٩٢٠م:

كان أعضاء الوفد: علاء الدين الدروبي رئيس الوزراء، عطا الأيوبي وزير الداخلية، والشيخ عبد الجليل الدرة، والشيخ عبد القادر الخطيب، وأحمد بك الخاني مرافق رئيس الدولة، ومنير بدر خان.

إن الفوضى من أحسن الأجواء التي تسري بها الدعايات الكاذبة، وتكثر فيها الوشايات كذلك - لذا نقول : إن خبراً وصل الحوارنة مفاده: أن رجال الحكومة سيصلون إلى حوران محملين بالذهب الذي سيقومون بتوزيعه على زعماء العشائر لاسترضائهم، وجعلهم في صف الاحتلال فيقنعون العامة به - مما زاد في ثورة الشباب اتجاه الحكومة، وعملاء فرنسا بشكل عام. فهم منذ أمد قريب قدموا الغالي والنفيس لإنجاح الثورة العربية الكبرى بغية طرد العثمانيين، ونيل البلاد استقلالها، لكن الأمر منذ ذلك الزمن لم يستقر لهم بسبب الفتن التي كان ينشرها المستعمر الجديد.

ما إن وصل القطار إلى محطة خربة غزالة حتى كان الثوار قد اجتمعوا أمامه، ثم بدأ إطلاق الرصاص بمجرد نزول الوفد منه فكان الدروبي أول من قتل، وكذلك عبد الرحمن باشا اليوسف رئيس مجلس الشورى. أما من بقي من الوفد، وخاصة عطا الأيوبي وزير الداخلية – فقد كان في محطة خربة غزالة عدد كبير من تجار دمشق فيها، فما كان منهم إلا أن أحاطوهم، ثم أبعدوهم عن المحطة بل أخفوهم في المنازل، ولم يعثر عليهم الثوار، وظل الجميع مختبئين حتى المساء، فخرجوا إلى نهر الشريعة حيث سافروا عبر القطار إلى حيفا، ومنها إلى بيروت، ثم عادوا إلى دمشق. أما عن الثوار الذين فتشوا عن الذهب في عربات القطار، فلم يجدوا شيئاً...

بعد ذلك ما كان من الحكومة إلا أن تعمل كما يعمل أي مستعمر – بغية التنكيل، وإنزال شتى أنواع العذاب بالأهالي، وكذلك العقوبات الجماعية. وفعلاً فقد جمعت شيوخ حوران، وبدأت بالأفعال المضادة فقيمت المنهوبات الموجودة في القطار، ثم وزعتها على شيوخ حوران ليجمعوها، ثم يدفعوها للحكومة أما عن القتلى، فقد فرضت مبلغ عشرة آلاف ليرة ذهبية دية كل قتيل – ثم ألقي القبض على بعض الرجال، ثم أرسلوا إلى التحقيق فأدانتهم الحكومة بالقتل وتم تنفيذ حكم الإعدام بهم وهم: عوض صلاح الدين المصري، وحسين الحاج يوسف عيسى، وزعل اليوسف، وكانوا بريئين من كل ذلك، أما الجاني الحقيقي، والمسبب الرئيسي لهذه المذبحة وهو أحد زعماء حوران، وقد لقي وجه ربه – فقد نجا من القصاص والعقاب لأن مصلحة الفرنسيين قضت بالاستفادة من زعامته المزيفة بتثبيت أقدامهم في تلك المنطقة، فمشى في ركابهم طيلة حياته دون النظر إلى ما تقتضيه مصلحة الوطن[٦١].

ثم قامت فرنسا بعزل متصرف اللواء أبي الخير الجندي، ومعه زكي الحلبي قائد درك حوران، وحملته مسؤولية كل ما حدث وتناست البرقيتين اللتين نبهتا رئيس الوزارة لمثل ذلك، ثم قام الجنرال غوابيه بإرسال إنذار شديد اللهجة للحوارنة نشر في جريدة العاصمة بتاريخ ٢ أيلول ١٩٢٠م.

الهوامش

(١) نايف فارس جربوع، **دراسات في الثورة العالميــة وتــاريخ جبــل العــرب**، ١٩٩١م، دار العلم دمشق ط١، ص ١٤٧.

(٢) أبو الفخر، فندي، **تاريخ لواء حوران الاجتماعي**، دمشق ١٩٩٩م، ص ٢٤٠.

(٣) رضا نور، **عثمانلي تاريخي**، استانبول ١٩٢٤ ج٥ ص٣٧٨

(٤) حنا، عبد الله، **القضية الزراعية والحركات الفلاحيــة فــي ســوريا ولبنــان** (١٨٢٠-١٩٢٠م) القسم الأول، بيروت ١٩٧٥م دار الفارابي ص ١٥٩

(٥) جربوع، نايف فارس، **دراسات في الثورة العالمية وتاريخ جبل العــرب**، دار العلم دمشق، ط١٩٩١م.، ص ١٥٢.

(٦) وديع بشور ، **سورية صنع دولة وولادة أمة** ، دمشق ١٩٩٦م ، ص٢٠٨.

(7) Witteck, paul,the rise of the ottoman, empire,London,1938,p 130

(٨) أبو الفخر، مرجع سابق ، ص ٢٤٣.

(٩) أبو الفخر، مرجع سابق، ص ٢٥٦ والعطار، نادر، **تاريخ سورية في العصور الحديثة**، دمشق ١٩٦٢م ص ٣٢٦. جريدة المقتبس العدد ٥٤٤.

(١٠) أبو الفخر، المرجع السابق نفسه ص ٢٦٣.

(١١) أبو افخر، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

وجريدة المقتبس، العدد ٦٤٦ (ت ١٣-٨-١٩١٠)

(12) Arnold,sir,t.the caliphate,oxford, 1924.p.159.

(١٣) حنا، عبد الله ،مرجع سابق، ص ١٨٢.

(١٤) حنا، عبد الله ، مرجع سابق. ص ١٨٢.

(١٥) داغر، أسعد ، **ثرة العرب الكبرى**، مصر ١٣٣٥ هـ ١٩١٦م، ص٥٤.

(١٦) الصلابي، محمد علي، **الدولة العثمانيــة**، دمــشق، دار ابــن كثيــر ٢٠٠٦م، ص٥٠٤.

(١٧) احمد نوري النعيمي، **اليهود والدولة العثمانية**، مؤسسة الرسالة، عمان ١٩٩٧، ط١ ص٢٨١.

(١٨) يلماز اوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، استانبول ١٩٩٠ م.ج٢، ص ٢٠٧

(١٩) الصلابي، محمد علي، مرجع سابق، ص ٥٠٩-٥١٠.

(٢٠) لقد وضع السلطان عبد الحميد أخاه محمد رشاد في الغرفة الفولاذية ٢٩ سنة.

(٢١) سعيد، أمين، **الثورة العربية الكبرى**، القاهرة، مكتبة مدبولي (د.ت) مجلد ١، ص ٢٢.

(٢٢) الصلابي، مرجع سابق ص ٥١٣ – النعيمي، مرجع سابق ص ٢٢٨.

(٢٣) سعيد ،أمين ، **الثورة العربية الكبرى**، مكتبة مدبولي القاهرة، المجلد الأول بدون تاريخ، ص ٢٣-٢٤.

(٢٤) جريدة المقتبس ١٩١١/١٢/٢٤ العدد ١٨٣ – وأبو الفخر، مرجع سابق ، ص٢٧٤.

(٢٥) أبو الفخر، مرجع سابق نفسه ٢٧٥.

(٢٦) أبو الفخر، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

وجريدة المقتبس، مرجع سابق العدد ٥٢١-١٠-١١-١٩١٠م.

(٢٧) بشور، مرجع سابق، ص ٢٤٣. لزيادة الاطلاع على أسرار مفاوضات الحسين، انظر، أرشيف وزارة الخارجية التركية، ٦١٣

(٢٨) قدري، أحمد، ، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى** ، منشورات وزارة الثقافة السورية، ط٢ ، ١٩٩٢م ، ص ٣٤و٣٥ .

(29) Mahmut cem, Tavihi Hauran, istonbul 1948.s.198

(٣٠) قدري، المرجع السابق نفسه، ص ٧٢.

(٣١) سعيد، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

(32) yasar Akdemir – suriye durumu – Ankara 1960- p150

(33) Arnold Josseph Toynbee – suriye and turkey a study in the contrast of civilizations- howard fertig 1970 – p265

(٣٤) قدري، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٣٥) جمال باشا الصغير، **كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد العرب**، ترجمة، فؤاد الميداني، بيروت ١٩٣٢، ص١٤٩.

(٣٦) الحكيم، يوسف، **سورية والعهد الفيصلي**، بيروت ١٩٦٦م، المطبعة الكاثوليكية ص١٥.

(٣٧) سليمان المدني، **هؤلاء حكموا سورية**، دمشق ١٩٩٦م ، دار النوار ص ٢٠.

(٣٨) التونسي، وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي، الجزء الأول، دار البعث ١٩٧٢

(٣٩) عبد الرحمن الكيالي، **المراحل**، مصدر سابق، ص ١٦.

(٤٠) راجح محمود العفص، **تداعيات مؤتمر الصلح**، بغداد ١٩٥٧م، ص٧٨.

(٤١) أمين سعيد، مرجع سابق، ص ٧٨

(٤٢) غانم، مرجع سابق، ص ١٥٧

(٤٣) يوسف نعيسة، **محاضرات في التاريخ العربي المعاصر**، مطبعة الداوودي – دمشق ١٩٨٩م، ص٩٢.

(٤٤) محمد كرد علي، **خطط الشام**، دمشق ١٩٨٣، ج٣ ، ص١٦٢.

(٤٥) الحوراني، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٤٦) سعد جمعة، **المؤامرة ومعركة المصير**، بيروت ١٩٩٥م ص ١٤٧.

(٤٧) نزار الكيالي، **دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر ١٩٢٠-١٩٥٠**، دمشق ١٩٩٧م ص ٣٤

(٤٨) تفيد معظم المصادر والوثائق أن عقد مؤتمر سان ريمو لعبة انجليزي لانتزاع كركون والموصل من فرنسا بحسب اتفاقية سايكس بيكو.

(٤٩) جريدة الأيام، **الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب**، العدد ١٥٦ لسنة ١٩٢٠ . ص٧

(٥٠) نزار الكيالي، **تاريخ سورية السياسي**، ص ٤٣

(٥١) الحصري، ساطع، **يوم ميسلون**، منشورات وزارة الثقافة السورية ٢٠٠٤ م، ص ١٥١.

(٥٢) جورج حنا، **من الاحتلال إلى الاستقلال**، بيروت ١٩٤٦م ص ٧٨

(٥٣) الحكيم، **رؤية حول واقع العرب**، محاضرة ألقاها في ٢٧ آب ١٩٣٥م.

(٥٤) أفادت المصادر أن نور السعيد سلّم غورو مفتاح دمشق، وأن الشيخ محمود أبو الشامات هو الذي قاد فرس غورو إلى قبر صلاح الدين.

(٥٥) غانم، مرجع سابق، ص ١٦٠. ١٦٢

(٥٦) الكيالي، مرجع سابق، ص ٤٠

(٥٧) جريدة الدفاع عدد ٣٥ بتاريخ ١٦ شباط ١٩٢٠م

(٥٨) لزيادة الاطلاع انظر غانم، **الملاحق** وبخاصة رقم ٥
وأمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ج٣ فتنة حوران ص ٢٤

(٥٩) أفادت الوثائق أن صبحي بركات كان عميلاً فرنسيا، وثائق الخارجية التركية رقم ١٣٦ و ٢٥٨ ملف ١ و ملف٢.

(٦٠) مذكرات مصطفى كمال أتاتورك، أنقرة ١٩٣٥، ص١٣٧.

(٦١) أدهم الجندي، **تاريخ الثورات السورية ضد الفرنسيين**، مطبعة الاتحاد دمشق – ١٩٦٠م، ص ١٧٨.

الحزب الشيوعي الجزائري ودوره في النضال السياسي منذ البدايات حتى اندلاع الثورة الجزائرية الكبرى ١٩٥٤

الدكتور أعقيل نمير
قسم التاريخ
جامعة دمشق

مخطط البحث

مقدمة: تتضمن الحديث عن الحركة الشيوعية بشكل عام ودور الحزب الشيوعي الفرنسي في تأسيس فيدرالية الجزائر.

المتن:

١- العلاقة بين الحزب الشيوعي الفرنسي والحركة الوطنية الجزائرية ١٩٢٤-١٩٣٥:

أ- تطور العلاقة بين الحركة الشيوعية الفرنسية والحركة الوطنية بين ١٩٢٤-١٩٢٦

ب- الحركة الشيوعية الفرنسية ونجم شمال إفريقيا بين ١٩٢٦-١٩٣٠

٢- العلاقة بين الحزب الشيوعي الجزائري وتيارات الحركة الوطنية الجزائرية بين ١٩٣٥-١٩٤٥

٣- العلاقة بين الحزب الشيوعي الجزائري وتيارات الحركة الوطنية الجزائرية بين ١٩٤٥-١٩٥٤

خاتمة: تتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث

مقدمة:

بدأ الفكر الماركسي الشيوعي في العالم يتبلور مع قيام الثورة البلشفية التي أطاحت بنظام الحكم القيصري في روسيا عام ١٩١٧، ولم يعرف الجزائريون – كغيرهم من الشعوب– هذه الأفكار الشيوعية إلا في مرحلة لاحقة وذلك بتأثير من أنصار ومبشري الحزب الشيوعي (Le Parti communiste) الذي تأسس في فرنسا، وبدأ يؤثر على العمال والجنود المغاربة ومنهم الجزائريون الذين أجبرتهم سلطات الاحتلال الفرنسي في بلدانهم على الذهاب قسراً إلى فرنسا للعمل في مصانعها أو للحرب مع قواتها ضد أعدائها. وقد استمر غياب الشيوعية وأفكارها عن الجزائريين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وذلك بسبب صعوبة انتشار هذه الأفكار في المجتمعات ذات الطابع الإقطاعي حيث كانت تشكل الجزائر نموذجاً لها. وقد تأثر الجزائريون بالأفكار الماركسية الشيوعية بفضل انتسابهم للنقابات العمالية التابعة للتيارات اليسارية الفرنسية. وهنا يتبادر إلى ذهننا السؤال التالي: كيف يمكن للفكر الماركسي الشيوعي أن يتبلور ويعكس مدى خطورة قضية الجزائر التي ظهرت على مسرح السياسة العالمي؟ في الوقت الذي لم تتناول فيها الأدبيات الشيوعية في روسيا – مهد الثورة البلشفية وخاصة في سنواتها الأولى–أي ذكر سواء بصورة مباشرة أم غير مباشرة للجزائر خاصة أو للشمال الأفريقي بشكل عام. فهذا الإهمال يعكس أمرين هامين هما: **الأول**– احتلال قضية الجزائر دوراً هامشياً في أدبيات وأفكار الماركسية وأنصارها، **والثاني**– تأثير ونجاح الدعاية الفرنسية المعادية للحركة الوطنية الجزائرية وخاصة في سنوات مخاضها الأولى في العشرينات من القرن العشرين [١].

وكانت الجزائر– في السنوات التي تزعَّم فيها لينين الثورة والدولة السوفياتية بين عامي ١٩١٧-١٩٢٤– في كتابات الأدباء والمؤرخين الفرنسيين مثالاً للمستعمرة الهادئة في وسط المغرب العربي المضطرب. أما من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية فقد كانت تمثل نموذجاً لأحد المجتمعات الإقطاعية القديمة بسبب سيطرة

المستوطنين الأوربيين في الجزائر على الثروة والسلطة مع العلم أنهم لم يشكلوا أكثر من ١٠% من سكان الجزائر الأصليين (٢).

وقبل عام ١٩٢٦ الذي يمثل تاريخ ظهور أول الأحزاب السياسية في الجزائر، لم تكن لأي من النخب السياسية الجزائرية أية ارتباطات بالتيارات والأحزاب اليسارية سواء في الجزائر أم في فرنسا. وكانت أول نواة لتمثيل سياسي منظم للشيوعيين الجزائريين في الوفد الذي شارك في المؤتمر الذي عقده الحزب الشيوعي الفرنسي (Le Parti communiste Français) في مدينة تور الفرنسية عام ١٩٢٠، والذي دعيت إليه جميع النخب الشيوعية الموجودة في جميع المستعمرات المحتلة من قبل فرنسا، وتزعم الوفد الجزائري شارل أندريه جوليان * (Charles André Julien) الذي عرض تقريراً عاماً شرح فيه جميع الأوضاع التي تعيشها الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي. وكان الوفد مؤلفاً بغالبية أعضائه من فرنسيي الجزائر، وقام جوليان بعد عودته للجزائر بتطبيق توصيات الحزب الشيوعي الفرنسي القاضية بضرورة تأسيس فروع شيوعية في المستعمرات والتي عرفت فيما بعد بالفيدراليات الشيوعية (٣).

في الحقيقة، كان الحزب الشيوعي الفرنسي من أكثر الأحزاب الفرنسية تقرباً وتفهماً للمسألة الجزائرية الناجمة عن الاحتلال الفرنسي، وكان الحاج علي عبد القادر- إحدى الشخصيات الهامة في الحزب الشيوعي الفرنسي- هو الذي تبنى فكرة إنشاء حزب نجم شمال إفريقيا في ٥ حزيران عام ١٩٢٦ بباريس. وقد أيد الشيوعيون الفرنسيون منذ البداية فكرة استقلال الجزائر وتونس ومحاربة الامبريالية وذلك بهدف استقطاب اليساريين في كل من الجزائر وتونس وتشجيعهم على الانضمام للحزب الشيوعي الفرنسي (٤). وكانت المجموعة الشيوعية الأولى في الجزائر فوضوية وقليلة العدد حيث كان يبلغ عدد أعضائها ١٥٠ عضواً فقط. كما كانت تفتقد إلى التنظيم والتنسيق، وعندما دعت الأممية الشيوعية الثالثة (الكومنترن) في ٢٠ أيار عام ١٩٢٢ – في أول نداء لها حول القضايا التي تخص دول شمال إفريقيا المحتلة من قبل الاستعمار

الفرنسي – إلى تحرير الجزائر وتونس، كانت المجموعة الشيوعية الجزائرية أبعد ما تكون عن تلك الدعوة (٥).

١- العلاقة بين الحزب الشيوعي الفرنسي والحركة الوطنية الجزائرية بين ١٩٢٤-١٩٣٥

ظهر في عام ١٩٢٤ تحول كبير في السياسة التي يتبناها اليسار الفرنسي في الجزائر، تمثل ذلك في قيام الحزب بنشاط كثيف ومركّز أعطى ثماره في النجاح في تشكيل الفيدرالية الشيوعية الجزائرية التي عملت على تأسيس صحيفة ناطقة باسمها أطلق عليها اسم "النضال الاجتماعي" (La lutte sociale). وهنا لابد لنا من **طرح السؤال التالي** فيما يخص الخلفيات التي تكمن وراء تحول اليسار الفرنسي المفاجئ: **فلماذا جرى هذا التحول السريع في نشاط الحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر على الرغم من مواقفه السلبية**– ومن وراءه الشيوعيون الجزائريون – التي كان يعبّر عنها في أكثر من مناسبة وخاصة فيما يخص القضية الجزائرية؟ يبدو لنا أن هذا التحول– كما ذكرنا سابقاً – كان محاولة من الحزب لاستقطاب الجزائريين في صفوفه وبالتالي ليثبت وجوده على الساحة السياسية العالمية في مواجهة الأحزاب الفرنسية الأخرى على المسرح السياسي الفرنسي. فمن هنا لم تكن السياسة التي استخدمها الحزب الشيوعي الفرنسي والتي تكمن في تجنيد العناصر الجزائرية، وتأسيس فيدرالية الجزائر تهدف إلى ترقية الفروع الشيوعية لكي تصل إلى مستوى الأحزاب اليسارية في أوربا، ولكن هدف الحزب الشيوعي الفرنسي من وراء كل ذلك إلى تحقيق مبدأ الهيمنة والتسلط التي كان يخطط لها وبالتالي إلى الوصول إلى احتواء جميع التنظيمات الشيوعية في المستعمرات الفرنسية وجعلها تدور في فلكه. فالأهداف التي توختها إستراتيجية الكومنترن في مواجهة الاستعمار الفرنسي في أقطار المغرب العربي، تجلّت في خطواتها الأولى في تأسيس تنظيم لا طبقي في فرنسا ذاتها للسماح

للمغاربة بالانتساب إليه [٦]، مع عدم السماح لأية قيادة بورجوازية من الانفراد به وذلك لمنع تكرار تجربة الحزب الدستوري التونسي[٧].

لكن هناك من المؤرخين الجزائريين من عزا هذا التحول المفاجئ في سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي، والاهتمام بالأوضاع التي تجري في الجزائر في عام ١٩٢٤ **إلى الأسباب التالية:**

١- زيارة الرئيس الفرنسي إلى الجزائر في آذار عام ١٩٢٢، والتي كانت وراء جذب اهتمام الكومنترن إلى المسألة الجزائرية.

٢- تعرض الحزب الشيوعي الفرنسي إلى العديد من الضغوطات من جانب الكومنترن دفعته للقيام بجملة من النشاطات في الجزائر بهدف إبعاد الشبهات والاتهامات التي وجهها له الشيوعيين المغاربة وكذلك الانتقادات التي وجهت له من الروس [٨].

أ- تطور العلاقة بين الحركة الشيوعية الفرنسية والحركة الوطنية الجزائرية بين عامي ١٩٢٤ -١٩٢٦

في الحقيقة، تراجع اهتمام الكومنترن بقضية الشعب الجزائري وذلك بعد تأسيس فيدرالية الحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر، بالمقابل، لم تستطع فيدرالية الجزائر الإسهام في تطوير حركتها وتوسيع دائرة نشاطها، كما فشلت في جذب القوى التي كانت تمتلك حضوراً سياسياً وثقافياً في الساحة الجزائرية في العشرينيات من القرن العشرين مثل: جماعة النخبة محمد صلاح بن جلول وفرحات عباس، وكذلك جماعة العلماء المسلمين الجزائريين بزعامة عبد الحميد بن باديس وأيضاً جماعة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ، وكانت الفيدرالية الشيوعية الجزائرية منغلقة على نفسها، **ويعود ذلك لسببين هما:**

١- فشلها في الانتشار والتوسع بين جماهير الشعب الجزائري.

٢- عدم إقبال الجزائريين - إلا بنسبة ضئيلة - على الانتساب إلى هذه الفيدرالية سواء أكان على الأرض الجزائرية أم في فرنسا(٩). بالإضافة إلى هذه الأسباب، شكل الواقع الجزائري، والنظام السياسي الفرنسي في العقد الثالث من القرن العشرين أهم العقبات التي وقفت في وجه النشاط السياسي الشيوعي في الجزائر لا بل حكمت عليه بالشلل.

فالشارع السياسي الفرنسي كان تحت سيطرة المستوطنين الأوروبيين في الجزائر الذين وجدوا فيه ورقة رابحة لمحاربة الشيوعية العالمية بما فيها الفرنسية، والحد بالتالي من نشاط الحركة الوطنية الجزائرية التي تتخذ من هذا النشاط ومبادئه في الحرية والاستقلال دافعاً تعتمد عليه، الأمر الذي أدى بالتالي إلى تراجع نشاط الحركة الشيوعية الجزائرية وبشكل خاص في السنوات التي تلت الحرب الكونية الأولى بين ١٩٢٠-١٩٢٦، وعلى الرغم من ذلك، كانت مواقف الشيوعيين واضحة من بعض الثورات المطالبة بالاستقلال والتحرر من سيطرة الاستعمار. فقد دعم الحزب الشيوعي الفرنسي- على سبيل المثال وليس بعيداً عن الجزائر- الحرب التي قادها الأمير عبد الكريم الخطابي في ثورة الريف المغربية ضد الاستعمار الإسباني، كما دعا إلى العمل على تنسيق كفاح الطبقة العاملة الفرنسية (البروليتاريا) مع أهالي المستعمرات ضد المضطهدين الإمبرياليين، وساند الحزب أيضاً الحركة الوطنية التي تقودها البرجوازية المحلية، وكان يرى أن الحل الوحيد للمسألة الجزائرية هو في إلغاء إدارة المندوبين الماليين وتأسيس برلمان جزائري منتخب بالتصويت العام والعلني من قبل جميع السكان في الجزائر الذين يحق لهم التصويت ممن بلغوا سن الثامنة عشر(١٠). هنا نلاحظ تطوراً ملحوظاً في مواقف الحزب الشيوعي الفرنسي حيث أصبح الأمير خالد *-بعد نفيه- من قبل السلطات الفرنسية موضع تكريم كزعيم ثوري(١١). في الوقت الذي أهمل فيه الشيوعيون في الجزائر - والذين كانوا في

أغلبيتهم الساحقة من المستوطنين الأوروبيين- الفرصة لتأسيس تيار شيوعي جزائري فاعل في الجزائر وذلك في منتصف العشرينات من القرن العشرين، فقد استمر تأثير ووجود الحزب الشيوعي الفرنسي وبشكل جيد وكبير في أوساط العمال المغاربة في فرنسا وخاصة في العاصمة باريس، وتجلى ذلك بأوضح صوره عندما تأسس حزب نجم شمال إفريقيا * في حزيران عام ١٩٢٦ وذلك في أجواء تسيطر عليها الحركة الشيوعية الفرنسية وغيرها من التنظيمات السياسية الفرنسية [١٢].

ب- الحركة الشيوعية الفرنسية ونجم شمال إفريقيا

(L' étoile du Nord Africain) بين عامي ١٩٢٦-١٩٣٠

تشكل تجربة حزب نجم شمال إفريقيا مع الحركة الشيوعية أهم فصول العلاقة بين الحركة الوطنية الجزائرية والحركة الشيوعية، ولا يعود ذلك لمسألة السبق التاريخي فحسب وإنما لارتباط تلك العلاقة بالتجربة الوطنية في مرحلة التأسيس بين عامي ١٩٢٦-١٩٢٨، فميلاد حزب نجم شمال إفريقيا كان من رحم الحزب الشيوعي الفرنسي وذلك على يد وبتأثير من الحاج علي عبد القادر *- حيث تقرر في آذار عام ١٩٢٦ تأسيس حزب عظيم يضم قادة- عضو اللجنة الإدارية المركزية في الحزب الشيوعي الفرنسي وذلك من أجل الدفاع عن المصالح المادية والمعنوية والاجتماعية لمهجري شمال إفريقيا الذين يعشون في فرنسا [١٣]، وانطلاقاً من هذه الفكرة تأسس حزب نجم شمال إفريقيا في ١٥ حزيران عام ١٩٢٦ في باريس ، وكان رئيس الحزب الشاذلي خير الله من تونس ولكن من الناحية العملية كان الحاج علي عبد القادر هو الرئيس الحقيقي للحزب ومصالي الحاج الأمين العام، وشبيلة الجيلالي أمين المالية، وعندما قامت فرنسا بطرد الشاذلي خير الله من فرنسا في ٢٧ كانون الأول عام ١٩٢٦ أصبح الحزب جزائرياً وليس مغربياً. وبسبب انشغال الحاج علي عبد القادر رئيس الحزب بتجارته قرر التخلي عن قيادة الحزب لمصالي الحاج في

شهر حزيران عام ١٩٢٦[١٤]. وظهر تطور ملحوظ على مواقف الحزب الشيوعي الفرنسي الذي أخذ يعمل ضد الإدارة الاستعمارية الفرنسية حيث بين موقفه بوضوح وأعلن عن دعمه لحزب نجم شمال إفريقيا وأخذ يطالب باستقلال الجزائر، ولكن هذا التغير في موقف الحزب الشيوعي الفرنسي سيؤدي إلى سحب عدد هام من أنصار هذا الحزب من المستوطنين الأوروبيين القاطنين في الجزائر والذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى في صفوف هذا الحزب، وهذا سيدفع الحزب الشيوعي الجزائري في المستقبل إلى أن يوسع قاعدته باتجاه الجزائريين ليتخذ منها قاعدة قوية وصلبة في نضاله السياسي [١٥].

وأخذ الشيوعيون الجزائريون يطالبون في هذه الفترة بالاستقلال الكامل للجزائر والمستعمرات الأخرى وجميع الأقاليم الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية أو حمايتها، وطالبوا أيضاً بأنه من حق الشعوب الخاضعة لفرنسا أن تطالب بتقرير مصيرها بنفسها، وطالبوا بمجموعة من الإجراءات المستعجلة التي ينبغي على الإدارة الاستعمارية الفرنسية أن تطبقها في الجزائر والتي نوجزها في النقاط التالية:

١- سحب جميع جيوش الاحتلال الفرنسي والموظفين المدنيين من الجزائر.

٢- العمل على تنظيم جمعية وطنية منتخبة بالاقتراع العام والمطالبة بإدارة مستقلة وجيش وطني.

٣- إلغاء القوانين الاستثنائية أو ما تعرف بقوانين الأهالي.

٤- منح القانون النقابي الكامل للأهالي.

٥- حرية الصحافة وتأسيس الجمعيات.

٦- تطبيق مشروع قانون ثمانية ساعات عمل وكل القوانين الخاصة بالعمل والتأمينات الاجتماعية في الجزائر.

٧- المساواة بالخدمة العسكرية بين الأهالي والفرنسيين.

٨- المساواة بين العمال الفرنسيين والجزائريين في الحقوق والواجبات[١٦].

نلاحظ هنا أن الشيوعيين في الجزائر اقتربوا بشكل واضح من مطالب الأحزاب الجزائرية الأخرى التي سبقتهم في هذه المطالب وبشكل خاص حزب نجم شمال إفريقيا الذي طالب بتحرر كامل من الاستعمار الفرنسي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وبالتالي خروج قوات الاحتلال الفرنسي من الأراضي الجزائرية.

على أية حال فقد بدأ انقلاب العناصر الوطنية داخل حزب نجم شمال إفريقيا في الخامس من شباط عام ١٩٢٨ وذلك بباريس. وكان هذا التحول هو نتيجة لنجاح مصالي الحاج وبانون أوكلي ورفاقهما في تبني نهج وطني مستقل في مواجهة العناصر الشيوعية داخل حزبهم لوضع التنظيم كأداة في خدمة اليسار الفرنسي الذي كان يسعى إلى احتواء الجزائريين عن طريق فرض الوصاية على نجم شمال إفريقيا وجعله يدور في فلكه وينفذ سياسته [١٧].

وهناك من يرى أن التحول داخل حزب نجم شمال إفريقيا واتخاذ سياسة مغايرة للحزب الشيوعي الفرنسي قد بدأ بعد سنة من إعلان برنامجه الوطني وذلك في مؤتمر بروكسل عام ١٩٢٧، وهذا ما دفع بمنظمة الكومنترن بأن توصي بالحذر من مصالي الحاج وبالعمل ضد مشاريعه الوطنية الجزائرية [١٨]. وكانت تجربة الحزب الشيوعي الفرنسي بالنتيجة مع حزب نجم شمال إفريقيا في الفترة الممتدة بين عامي ١٩٢٦-١٩٣٠ بمثابة الفرصة الضائعة الثانية فيما يخص مشروع الكومنترن الذي كان يهدف إلى احتواء الحركات الوطنية في شمال إفريقيا، وذلك بعد الفشل الذريع للفيدرالية الشيوعية الجزائرية في التحول إلى تيار سياسي فاعل في الجزائر وذلك في منتصف العشرينات. وعلى الرغم من ذلك رأى الشيوعيون في الجزائر في عام ١٩٣٠ – الذي يصادف الاحتفالية المئوية الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر – تظاهرة إمبريالية،

ونشروا عدداً من المناشير يدينون فيها مائة سنة من الاستعباد والظلم والهيمنة تحت نير الاستعمار الفرنسي، كما نشروا الشعارات التالية: استقلال الجزائر، جلاء الإمبريالية عن البلد، وتأسيس جمعية وطنية شعبية، وقد جلبت لهم هذه الشعارات صاعقة من قمع البوليس الفرنسي لهم، الأمر الذي أثار دهشة بعض المناضلين من المستوطنين الأوربيين في صفوف الحزب الشيوعي الجزائري، وبنفس الوقت رفض الشيوعيون الجزائريون السياسة الاندماجية المقترحة من قبل فيوليت والاشتراكيين والإقطاعيين والبرجوازيين وفي عام ١٩٣٠ عقد مؤتمر سري للعمال العرب في الجزائر ضم ٧٥ ممثلاً منهم ٦٩ جزائرياً وهذا ما أزعج الإدارة الفرنسية من التعاون الذي حصل بين الحزب الشيوعي والحركة الوطنية(١٩).

٢-العلاقة بين الحزب الشيوعي الجزائري (Le Parti communiste Algérien) وتيارات الحركة الوطنية الجزائرية بين١٩٣٥-١٩٤٥

اتخذ الحزب الشيوعي الفرنسي قراراً تاريخياً- في مؤتمره الذي عقده في عام ١٩٣٥ في مدينة فيللوربان (Villeurbanne) الواقعة في الضاحية الجنوبية لمدينة ليون الفرنسية وذلك برئاسة زعيم الحزب موريس توريز (Maurice Thorez)-بالنسبة للفروع الشيوعية في الجزائر، فمن جهة تمت ترقية العناصر الجزائرية مثل: عمار أوزقان وبن علي بوخرط إلى مواقع قيادية هامة في الحزب، ومن جهة ثانية سمح المؤتمر بتحويل الفيدرالية الشيوعية الجزائرية إلى حزب بهدف تشجيع الجزائريين على الانخراط في صفوفه. فباتخاذ هذا القرار تمت ولادة الحزب الشيوعي الجزائري عام ١٩٣٥ المستقل نظرياً عن الحزب الشيوعي الفرنسي(٢٠)، وتم تحويل الشخصيات الهامة - التي ذكرناها سابقاً- مثل: عمار أوزقان وبن علي بوخرط إلى الحزب الشيوعي الجزائري، وتم إعطاؤهم مسؤليات جديدة، ولكن مشكلة الحزب الشيوعي الجزائري أنه كان ينادي بقيام ثورة من الفلاحين ضد الإمبريالية والإقطاع ولا يتطرق

إلى الموضوع الجوهري مثل بقية الأحزاب الوطنية الجزائرية الأخرى، والتي تتمحور حول تحرير الجماهير من الهيمنة الفرنسية، ولهذا بقي بعيداً ومعزولاً عن الجماهير الجزائرية ولا يحظى بتأييدها في برامجه السياسة التي كان يطرحها فيما يتعلق بالمسالة الجزائرية. ومنذ ٢٦ حزيران من عام ١٩٣٤ تغيرت استراتيجية الحزب الشيوعي الفرنسي وذلك حين تقرر تأسيس الجبهة الشعبية بالتعاون مع الحزب الاشتراكي الفرنسي (Le Parti Social français)، مما أدى بالنتيجة إلى تغيير موقف الحزب الشيوعي الجزائري حيث أقام بدوره تحالفاً بينه وبين الحزب الاشتراكي في الجزائر، الأمر الذي دفع مصالي الحاج إلى الاستياء من هذا التحالف بين الشيوعيين والاشتراكيين لأنهما لم يتعرضا ببرامجهما السياسية إلى تحرير شمال إفريقيا من النفوذ الاستعماري الفرنسي، وفي الوقت نفسه تضايق الشيوعيون الجزائريون من الجبهة الشعبية الفرنسية التي جاءت لمحاربة الفاشية وبالتالي وجدت تأييداً لدى المستوطنين الأوربيين فقط(٢١)، وفكر الحزب الشيوعي الجزائري مع وصول الجبهة الشعبية في فرنسا للحكم بصرف انتباهه إلى تعزيز وحدة اليسار وجعل كل المشكلات الأخرى معلقة بها، وكانت مطالب الحزب الشيوعي بعد تأسيسه توصف بأنها جزئية وتتمحور حول ما يلي: إنهاء التدابير الاستعمارية القمعية، المساواة في الأجور بين المستوطنين وسكان البلاد الأصليين، وتوزيع الربح الاستعماري على الموظفين الجزائريين في الإدارة الاستعمارية. فبتبني هذه المطالب ارتقى الشيوعيون الجزائريون كعضو في المؤتمر الإسلامي الأول الذي كان يدعم مشروع بلوم – فيوليت(٢٢)، ويطالب بشكل خاص بربط الجزائر بفرنسا(٢٣).

بدأ الحزب الشيوعي الجزائري يتقرب من بقية الأحزاب الوطنية الجزائرية التي تناضل ضد الاستعمار، وشارك في المؤتمر الإسلامي الأول الذي ضم جميع الأحزاب تقريباً مثل: فيدرالية المنتخبين الجزائريين، وجمعية العلماء المسلمين، والحزب الشيوعي الجزائري (٢٤)، الذي قرر الحزب الشيوعي الفرنسي في كانون الثاني عام

١٩٣٦ أن يحوله من فرع له في الجزائر إلى حزب شيوعي جزائري[٢٥]، أما حزب نجم شمال إفريقيا فقد شارك في الإعداد للمؤتمر الإسلامي الأول في ٦ حزيران ١٩٣٦، وحضرت فروع النجم فقط من الجزائر العاصمة وتلمسان ومستغانم ولكنهم لم يأخذوا الكلام في المؤتمر، وكان حضورهم بسبب خشية مصالي الحاج من حدوث انقسام في حزبه. واكتفى نجم شمال إفريقيا وقيادته ممثلة بمصالي الحاج بإرسال برقية تأييد للمؤتمر وموافقته على المطالب التي تفيد في تحسين أوضاع الشعب الجزائري[٢٦]. وعلى الرغم من ذلك انعقد المؤتمر الإسلامي الأول في ٧ حزيران عام ١٩٣٦ في الجزائر العاصمة وطالب المؤتمرون بإصلاحات سياسية تتمثل بالحصول على الجنسية الفرنسية دون التخلي عن الهوية العربية الإسلامية، وتمثيل الجزائريين في البرلمان الفرنسي، والحرية الدينية، وفصل الدين عن الدولة، وإلغاء القوانين الاستثنائية وحرية الصحافة[٢٧]، وغيرها من المطالب الاقتصادية والاجتماعية التي تحقق العيش الكريم للجزائريين في بلادهم المحتلة من قبل الفرنسيين. بالمقابل فإن التنافس بين الحزبين الشيوعي الجزائري ونجم شمال إفريقيا أخذ يشتد ويقوى، وخاصة عندما بدأ الحزبان يتنافسان في تشجيع وجذب سكان المدن الجزائرية للانتساب إلى صفوفهما، وبلغت حدة الصراع بينهما أوجها في شهر تموز من عام ١٩٣٧. ففي العاشر من تموز علم مصالي الحاج زعيم حزب الشعب بأن الحزب الشيوعي الجزائري وأحزاب الجبهة الشعبية الفرنسية سيشاركون في احتفالات ذكرى الثورة الفرنسية التي قامت في ١٤ تموز ١٧٨٩، وعلى الفور قرر مصالي الحاج تنظيم مظاهرة جزائرية مضادة من أنصاره بقيادة حزب الشعب، واستطاع خلال مدة قصيرة أن يصنع علماً- خاطته زوجته- للجزائر، وأن يجند ثلاث مائة ألف مناضل للمشاركة في احتفالات ١٤ تموز عام ١٩٣٧، وسار موكب أنصار مصالي بصفة طبيعية، ولكنهم رددوا نشيد حزبهم "فداء الجزائر" ، كما حملوا شعارات ولافتات كتب عليها: برلمان جزائري، احترموا الإسلام، الأرض للفلاحين، احترموا العرب ...[٢٨].

إثر هذه التظاهرة التي قام بها أنصار مصالي الحاج بتوجيه منه حُلَّ حزب الشعب من قبل حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية، بالمقابل بقي الحزب الشيوعي الجزائري الحليف القوي والموضوعي لهذه الحكومة وذلك بسبب تحالفه مع الحزب الشيوعي الفرنسي، وعلى الرغم من استقلال الحزب الشيوعي الجزائري - كما بينا سابقاً- عن الحزب الشيوعي الفرنسي إلا أنه احتفظ بعلاقاته الحميمة مع الأخير، وظلت هذه العلاقات قوية وخاصة أثناء الحرب الكونية الثانية، ثم جاءت زيارة موريس طوريز زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي في عام ١٩٣٩ التي ساهمت في توجيه سياسة الحزب الشيوعي الجزائري بشكل أوضح باتجاه الميول الاندماجية[٢٩]، وعندما اندلعت الحرب الكونية الثانية في الأول من أيلول عام ١٩٣٩، وقام الاتحاد السوفياتي بغزو فلندا استقال الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري قدور بالقائم [٣٠] من منصبه احتجاجاً على قيام الحزب الشيوعي السوفياتي باستعمال الأسلوب النازي في غزو دولة أخرى ذات سيادة [٣١]. وأثناء هذه الحرب تعرض أعضاء الحزب الشيوعي الجزائري - كغيرهم من أعضاء الأحزاب الوطنية الأخرى - للتعذيب والاعتقال، وتابعت الشيوعية الإسبانية توجيه سياسة الحزب الشيوعي الجزائري. ثم حل محلها مناضلو وقادة الحزب الشيوعي الفرنسي، وبقيت هذه السياسة مستمرة حتى عام١٩٤٦، وستؤثر بوضوح في سياسة الحزب في الفترة التي تلت الحرب مباشرة[٣٢].

وعندما نزلت قوات الحلفاء في الجزائر في ٨ تشرين الثاني عام ١٩٤٢ أعلن قادة الحزب الشيوعي الجزائري أنهم سيعملون من أجل تكوين اتحاد عام بين الشعبين الجزائري والفرنسي، وذلك من أجل محاربة الفاشية وبناء جزائر حرة، ولتحقيق ذلك بذلوا مساعٍ كبيرة لإقامة التحالفات مع التيارات السياسية الجزائرية الأخرى المناضلة للتحرر من الاستعمار الفرنسي وشروره[٣٣]. وعندما حرر فرحات عباس بيان الشعب الجزائري (Le manifeste du peuple Algérien) في ١٠ شباط عام ١٩٤٣ وضع نصب عينيه ضرورة

تحقيق الإجماع الوطني الجزائري لمواجهة الاستعمار الفرنسي، واستطاع البيان أن يمزج بين أفكار مصالي الحاج الثورية ونظرة العلماء المسلمين الإصلاحية والتي يلتقي معهم عباس فيها، وحضرت اجتماع هذا البيان جميع التيارات السياسية الجزائرية ماعدا الشيوعيين الجزائريين الذين رفضوا البيان وبقوا متمسكين بفكرة الاندماج الكامل مع فرنسا، متذرعين بأن هذا البيان يعبر عن طموحات البرجوازية العربية البربرية(٣٤)، إضافة إلى ذلك رفضوا الاشتراك في بيان" حركة أصدقاء البيان والحرية" (Les Amis du manifeste et de la Liberté) التي تأسست في ١٤ آذار عام ١٩٤٤ والتي ضمت جميع الأحزاب الجزائرية(٣٥)، والتي جاء تأسيسها كردة فعل على الردود السلبية التي تلقاها دعاة البيان الجزائري من قيادة جيوش الحلفاء وكبار الساسة والعسكريين الفرنسيين في الجزائر بين أعوام ١٩٤٢-١٩٤٣(٣٦). وكان تشكيل حركة أصدقاء البيان والحرية أيضاً بمثابة الرد الوطني الرافض للبنود الستة التي جاءت فيها أمرية ٧ آذار عام ١٩٤٤، والتي حاول من خلالها الجنرال ديغول إعادة نسخ مشروع بلوم-فيوليت في طبعة جديدة ومقايضة حصول الجزائريين على بعض المكاسب السياسية بالمشاركة الرابعة في الحرب العالمية الثانية إلى جانب فرنسا، بالمقابل. ابتعد الشيوعيون عن الأحزاب الوطنية الجزائرية وأسسوا تحالفاً مضاداً لحركة أصدقاء البيان والحرية أطلقوا عليه اسم "أصدقاء الديمقراطية" (Les Amis de la démocratie)، ويعتبر هذا الابتعاد عن الأحزاب الوطنية أمراً طبيعياً لأن قادة الحزب الشيوعي الجزائري فرنسيون ماركسيون لا يقبلون أن تكون الجزائر دولة مستقلة (٣٧).

٣- العلاقة بين الحزب الشيوعي الجزائري وتيارات الحركة الوطنية الجزائرية بين ١٩٤٥-١٩٥٤

انتهت الحرب العالمية الثانية – في الأيام الأولى من شهر أيار – في أجواء احتفالية في كل من أوروبا وأمريكا. وكذلك شاركت الجزائر في هذه الاحتفالات التي انتصر فيها الحلفاء على النازية والفاشية، ولكن نتائج هذه المشاركة لم تكن جيدة، فقد تحولت المظاهرات التي سمحت بها السلطات الفرنسية للجزائريين إلى كارثة تحولت خلال أيام قليلة إلى مجازر ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الجزائريين، وبالإضافة إلى هذه المجازر أحكمت الإدارة الاستعمارية الفرنسية الخناق على الأحزاب الوطنية الجزائرية وسجنت وهجرت ونفت أعضائها [٣٨]. فتعرضت حركة أصحاب البيان والحرية إلى الحل والاعتقال وبقي قادتها مشتتين داخل البلاد وخارجها، كما تم اعتقال زعيمها فرحات عباس وشيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومصالي الحاج. ولكن لم يقف الشيوعيون الجزائريون في هذه المحنة إلى جانب الشعب الجزائري على الرغم من أنه كان بين الضحايا عددٌ كبيرٌ منهم[٣٩]. وكان الجزائريون ينتظرون من الشيوعيين الجزائريين اتخاذ مواقف ملموسة تدعمهم على المستوى العملي في مواجهة الاستعمار، كما كانوا ينتظرون أيضاً منهم تحقيق استقلالهم عن الحزب الشيوعي الفرنسي، ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل، ووصف الحزب الشيوعي الجزائري أحداث أيار بأنها نشاط لعناصر فاشية والأخطر من ذلك وصف الحزب الشيوعي لأحداث أيار، فقد جاء في "جريدة الحرية" في ٢٤ أيار عام ١٩٤٥ في الرد على الاتهامات التي وجهها المستوطنون الأوربيون للشيوعيين بالمشاركة **بالأحداث ما يلي:** "**... كيف يمكن الظن بأن الشيوعيين يتعاونون مع الوطنيين المزيفين لحزب الشعب الجزائري الذين نددنا بهم باعتبارهم جواسيس للحكومة العامة ويخدمون الفاشية؟** وعلى صفحات نفس الجريدة صرح أحد قادة الحزب الشيوعي ليون فيكس قائلاً: "**.. يجب معاقبة مدبرو الاضطرابات بدون رحمة، وإنني أفضل الظلم والقمع على**

الفوضى، وإن مدبري الأحداث من أتباع حزب الشعب ليسوا سوى أدوات إجرامية للخيانة العظمى[٤٠]"، فقد كان موقف الحزب الشيوعي الجزائري من أحداث أيار سلبياً للغاية، وشكل مآخذ على مسار الحزب السياسي منذ نشأته عام ١٩٣٥ وحتى قيامه بحل نفسه عام ١٩٥٦، فعلى الرغم من بشاعة الجريمة التي ارتكبتها فرنسا بحق أبناء الشعب الجزائري فإنها لم تستطع أن تحرك مشاعر الوطنية في أعماق الشيوعيين. وجاءت هذه السلبية في الموقف الذي اتخذه من حزب الشعب، وكذلك في البيانات والتصريحات التي صدرت عن الحزب الشيوعي الجزائري ومحافل الغزاة، والتي كانت تهدف إلى تبرئة الإدارة الاستعمارية الفرنسية ومن ورائها الجيش الفرنسي والمستوطنين الأوربيين من هذه المجازر وإلصاقها بتيار الاستقلال (حزب الشعب الجزائري) واتهامهم له بالرجعية والعمالة للفاشية، وكان موقف الحزب الشيوعي الجزائري من مجازر عام ١٩٤٥ – في الحقيقة- معبراً بشكل جيد عن مدى ابتعاد الشيوعيين عن الواقع الجزائري، وعن مدى تحول الحزب إلى وسيلة وأداة طيعة في خدمة الإدارة الاستعمارية الفرنسية وتنفيذ أهدافها وسياستها، وكان لهذه السياسة الغريبة انعكاسٌ مباشرٌ لابتعاد الحزب عن البيئة الوطنية الجزائرية، كما كانت مانعاً كبيراً لتأصله وترسخه فيها[٤١]. بالمقابل، استمرت علاقة الولاء والارتباط التي كانت تجمعه بالحزب الشيوعي الفرنسي الذي كانت صحيفته Le Humanite (الإنسانية) تحمل في طياتها توجيهات أمين الحزب موريس توريز للشيوعيين الجزائريين، فقد أشارت صحيفة (الإنسانية) – الناطقة باسم الحزب الشيوعي الفرنسي – بمناسبة مجازر أيار ١٩٤٥ إلى أن حزب الشعب الجزائري هو المسؤول عنها، وأنه مجرد عميل للألمان والفاشيين وبقايا نظام حكومة فيشي، ولهذا نصحت الصحيفة بضرورة تسليط العقاب على القتلة الذين وصفتهم بالهتلريين وذلك إشارة إلى الزعماء الوطنيين الجزائريين[٤٢].

سعى قادة الحزب الشيوعي الجزائري بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى إدخال عدد من الجزائريين إلى صفوف حزبهم مثل: الصادق هجريس، مبروك بلحوسين، بو علام خالفة، عمر أو صديق، وبدأ الحزب يطبع نشرة دورية صادرة باسمه أطلق عليها اسم "الجزائر الجديدة"، كما نجح الحزب أيضاً في زيادة عدد أنصاره من ٩٠٠٠ عضواً عام ١٩٤٥ إلى ١٥٠٠٠ عضواً في عام ١٩٤٧، ولكن نزل هذا العدد إلى ١٢٠٠٠ عام ١٩٥٢ حيث انسحب عدد كبير من المستوطنين الأوربيين من صفوف هذا الحزب. بالمقابل ارتفع عدد الجزائريين سكان البلاد الأصليين في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري[٤٣]، وعلى الرغم من هذه النجاحات النسبية فإن قادة الحزب الشيوعي الجزائري لم ينجحوا في تحقيق أملهم في الحصول على تأييد شعبي جزائري كبير وخاصة بعد توجيههم الاتهام لحزب الشعب الجزائري بأنه المسؤول عن تفجير أحداث أيار ١٩٤٥ والتي ارتكبت قوات الاحتلال الفرنسي بسببها مجازر بشعة بحق الشعب الجزائري، واعتبروا حزب الشعب عبارة عن جماعة من المشاغبين والمؤيدين للفاشية الدولية. وكرد فعل على" حركة أصدقاء البيان والحرية" (Les Amis du manifeste et de la Liberté) التي تأسست في ١٤ آذار عام ١٩٤٤ والتي ضمت جميع التيارات السياسية برئاسة فرحات عباس ماعدا الحزب الشيوعي الجزائري، قام الأخير بتأسيس حركة منافسة أطلق عليها اسم "أصدقاء الديمقراطية" (Les Amis de la Démocratie) ولكن لم تكن لها أهمية حقيقة تذكر في تاريخ النضال السياسي الجزائري، وفي ٢١ تموز عام ١٩٤٦ أطلق الحزب الشيوعي الجزائري نداءً من أجل تأسيس جبهة وطنية ديمقراطية جزائرية ولكن لم يكتب لها النجاح. ثم اشتدت المنافسة وروح العداء بين الحزب الشيوعي الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية (Le mouvement pour le triomphe des libertés démocratiques)، وذلك في فترة زعامة السيد العربي بوهالي للحزب الشيوعي، والذي لم يتردد في وصف حزبه بأنه الحزب الجزائري الوحيد الأصيل[٤٤]. هنا ازدادت الاختلافات بين مصالي

الحاج وقيادة الحزب الشيوعي الجزائري، ولم تستطع الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها – التي تأسست في ٥ آب عام ١٩٥١، وجمعت الحزب الديمقراطي للبيان الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية والعلماء والحزب الشيوعي الجزائري – أن تضع حداً لهذه الخلافات بين مصالي الحاج وقادة الحزب الشيوعي الأمر الذي أدى بالتالي إلى إلغاء انتخابات ١٧ حزيران عام ١٩٥١.

وفي الأول من تشرين الثاني عام ١٩٥١ أطلق الحزب الشيوعي الجزائري نداءً من أجل تأسيس جبهة وطنية ديمقراطية جزائرية، ولكن بقي هذا النداء أفلاطونياً وخاصة أن حزب انتصار الحريات الديمقراطية دعا إلى انتخابات الجمعية الجزائرية على عكس الحزب الشيوعي الجزائري الذي دعا إلى عدم المشاركة في هذه الانتخابات(٤٥)، وازدادت العلاقات سوءاً بين الشيوعيين الجزائريين وبقية الأحزاب الوطنية الجزائرية، بالمقابل لم يقبل الحزب الشيوعي الجزائري فكرة انفصال الجزائر نهائياً عن فرنسا، اختلف بهذه النقطة كغيرها من النقاط عن مبادئ الأحزاب الوطنية الأخرى، وطالب الشيوعيون الجزائريون في عام ١٩٥٢ بتأسيس برلمان جزائري لكنهم ظلوا مصممين على فكرة تمثيل الشعب الجزائري في البرلمان الفرنسي، كما اتهموا بارتباطهم بالشيوعية العالمية وتلقيهم الأوامر منها ولم يكن لهم استقلالية في اتخاذ القرار، ولهذه الأسباب مجتمعة كان من الصعب قبول الحزب الشيوعي الجزائري في صفوف الأحزاب الوطنية الجزائرية الأخرى التي تحالفت وانصهرت في جبهة التحرير الوطني الجزائري في الفترة بين ١٩٥٢– ١٩٥٤(٤٦)، وفي المؤتمر السادس للحزب الشيوعي الذي انعقد في شباط عام ١٩٥٢ وحضره ١٤٢ مندوباً من الجزائريين و١٠٤ مندوباً من المستوطنين الأوروبيين تشكلت اللجنة المركزية للحزب من ٣٠ عضواً جزائرياً مقابل ١٧ عضواً من المستوطنين (٤٧).

وكانت المشاكل الحقيقية التي كان يعاني منها الحزب الشيوعي الجزائري هي عدم اعتباره من قبل الشعب الجزائري حزباً جزائرياً بالمعنى الحرفي للكلمة، ولهذا لم

يتمكن من حشد الجماهير ونيل ثقتها، ثم ذهب الحزب إلى أبعد من ذلك حيث اتهم أعضاء جيش وجبهة التحرير الوطني الجزائري في ١٤ تشرين الثاني عام ١٩٥٤ – أي بعد اندلاع الثورة الجزائرية بأسبوعين-بأنهم لا يثقون بالجماهير ولهذا السبب لجؤوا إلى العمل العسكري [٤٨]. بالإضافة إلى ذلك عمل الشيوعيون الجزائريون على المحافظة على مصالحهم مع فرنسا، وكانوا ضد استخدام العنف وحمل السلاح لإجبار فرنسا على الاعتراف بحقوق الجزائريين، لهذا كانت مشاركتهم في الانتخابات المزورة من قبل الإدارة الاستعمارية والتزامهم بالأسلوب الديمقراطي جعلهم يفقدون المصداقية بين صفوف الشعب الجزائري [٤٩]. وبعد انحلال الحزب في ٣ أيلول عام ١٩٥٥ لم ينضم إلى جبهة التحرير ولكنه عاد للعمل السري بعد أن نظم مقاومته [٥٠]. وشكل قادة الحزب الشيوعي منظمة خاصة أطلقوا عليها اسم "المحاربون للحرية" وتتكون هذه المنظمة من بشير حاج علي، الصادق هجريس الذي انضم إلى صفوف الحزب عام ١٩٥٠، والذي لعب دوراً مشرفاً في انضمام الحزب لجبهة التحرير الوطني، فروج (المسؤول عن ناحية الجزائر)، بو علام خالفة (مسؤول عن ناحية قسنطينة)، أما المستوطنون الأوروبيون فهم كامي لا ريبير، جاك سالور ووليم سبورطيس. ولكن الجيش الفرنسي كشف أمر هذه المنظمة في ٥ حزيران عام ١٩٥٦ وقضى على معظم أفرادها، وفي تموز ١٩٥٦ تفاوض هجريس مع عبان رمضان أحد قادة جبهة التحرير الوطني البارزين من أجل انضمام باقي الشيوعيين في صفوف جيش التحرير الوطني وتم ذلك في الولاية الرابعة التي تزعمها عمر أو صديق[٥١].

الخاتمة:

من هذا العرض الذي تناولنا به أحد التيارات السياسية التي ظهرت على ساحة النضال السياسي الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي **نخلص إلى النتائج التالية:**

١- لم يشكل الحزب الشيوعي الجزائري في يوم من الأيام قوة معتبرة على الساحة السياسية الجزائرية، كما لم يؤثر في مجرى الأمور سواء قبل اندلاع الثورة الجزائرية أم بعد اندلاعها.

٢- لم يستطع الشيوعيون الجزائريون - بالرغم من علاقتهم المبكرة بالحركة الشيوعية العالمية وبالحزب الفرنسي- تحويل حركتهم إلى تيار فاعل في النضال السياسي الجزائري في العشرينات من القرن العشرين.

٣- لم يستطع الشيوعيون الجزائريون أن يتحرروا من الفكر الشيوعي الفرنسي وهيمنته عليهم حتى بعد تأسيس فيدراليتهم الخاصة بهم في الجزائر عام ١٩٢٤ والتي تعتبر فرعاً للحزب الشيوعي الفرنسي.

٤- شكلت سيطرة المستوطنين الأوربيين في صفوف الحزب الشيوعي الجزائري وكذلك سيطرة الأفكار الشيوعية العالمية - التي كانت تتمحور حول صراع الطبقات والسعي لبناء عالم إمبراطورية الطبقة العاملة (البروليتاريا)، عائقاً أمام الحزب للمطالبة بالاستقلال وتبني فكرة التحرر عن طريق الثورة في وجه الاستعمار وذلك بالتحالف مع القوى الوطنية الجزائرية الأخرى.

٥- بقي الحزب الشيوعي الجزائري عاجزاً عن تحليل الوضعية الاستعمارية من منظور مشترك مع التيارات الوطنية الأخرى، وظل يتلقى الأوامر والتوجيهات التي تأتيه من الحزب الشيوعي الفرنسي.

٦- أسس الحزب الشيوعي الفرنسي منظمات واتحادات معارضة للمنظمات التي أسستها الأحزاب الوطنية وتوحدت بها، وذلك ليثبت وجوده على الساحة السياسية الجزائرية ولكنه لم يجنِ من ذلك أية فائدة تذكر.

٧- استمر الحزب الشيوعي الجزائري حتى اندلاع الثورة الجزائرية الكبرى في الأول من تشرين الثاني عام ١٩٥٤ في خلافه واختلافه مع جميع الأحزاب السياسية الفاعلة على الساحة الجزائرية، وكان قادته وخاصة السيد العربي بو هالي الذي تولى منصب الأمين العام للحزب بين ١٩٤٧-١٩٦٢ يتنافسون مع قادة الأحزاب الوطنية الأخرى وخاصة حزب الشعب – حركة انتصار الحريات الديمقراطية، ولكن صراعهم لم يأتِ بأية نتيجة، بل على العكس جعلهم هذا الصراع أكثر بعداً عن الجماهير ونالوا كراهيتها.

٨- بقي الحزب الشيوعي الجزائري منذ تأسيسه عام ١٩٣٦ حتى قيام الثورة الجزائرية بعيداً عن الجماهير ولم ينتسب إلى صفوفه إلا عددٌ قليلٌ هم في غالبيتهم من المستوطنين الأوروبيين.

٩- على الرغم من انضمام الحزب الشيوعي الجزائري إلى صفوف جبهة وجيش التحرير الوطني ولكن ظل الحذر موجوداً من زعماء الجبهة تجاه الشيوعيين الذين انضموا إلى صفوفهم.

الهوامش

1- Carnet, Jaques: L,association des réformiste d,Algérie ,in Afrique- Asie, n° 43, Paris 1958, p.38.

٢- منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠-١٩٥٤، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية ، بدون تاريخ،ص٢٧٥.

* شارل أندريه جوليان: هو أحد الفرنسيين المستوطنين في الجزائر بعد احتلالها، كان أحد أعضاء فرع الجزائر التابع للحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر، وأصبح بعد ذلك عضوا في الحزب الشيوعي الجزائري عندما انفصل عن الحزب الشيوعي الفرنسي، وكان يعمل في التأريخ وألف عدة كتب عن شمال إفريقيا في جميع فترات تاريخها بما فيها فترة الاحتلال الفرنسي

٣- أبو القاسم، سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٠٠-١٩٣٠**، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٣، ص ٣٤٤-٣٤٦.

٤- بوحوش، عمار: **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢**، الطبعة الأولى ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ١٩٩٧، ص ٢٨٠.

٥- **منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية ......**، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

٦- حربي، **محمدك الثورة الجزائرية** ، سنوات المخاض، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر ١٩٩٤، ص ١١١.

7- Glories, Jean : Quelques observations sur la révolution algérienne
Et la communisme , in Afrique- Asie, n° 41, Paris 1958, p.17.

٨- أبو القاسم: مرجع سابق، ص ٣٤٢-٣٤٤.

9- Glories : op.cit., P. 32.

١٠- قداش محفوظ: **جزائر الجزائريين،تاريخ الجزائر ١٨٣٠-١٩٥٤**، ترجمة محمد المعراجي، منشورات A. N.E.P، بدون تاريخ، ص ٢٨٨.

* الأمير خالد: هو خالد الهاشمي بن عبد القادر الجزائري، ولد في دمشق في شهر شباط عام ١٨٧٥، تلقى تعليمه الابتدائي في مسقط رأسه دمشق، انتقل مع أسرته إلى باريس ودرس المرحلة الثانوية في لويس الأكبر، وبعد عودة عائلته إلى الجزائر عام ١٨٩٢ انتسب إلى الكلية الحربية الفرنسية المعروفة باسم سان سير، وعاد إلى الجزائر عام ١٨٩٥، وأصبح ضابطاً في الجيش الفرنسي، شارك بعدة حروب لفرنسا، كما شارك في الحرب الكونية الأولى، وأعفي من الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي عام ١٩١٥، لمع نجمه في العمل السياسي في عام ١٩١٩وقفد انتسب إلى حركة الشبان الجزائريين أو حركة النخبة الجزائرية التي انقسمت على نفسها في نفس العام، حيث أسس الأمير الحزب الإصلاحي وخاض انتخابات عام ١٩١٩ البلدية ونجح حزبه ممثلاً للجزائريين، كما نجحت قائمة حزبه في الانتخابات الخاصة بالمجالس المالية عام ١٩٢٠، وأثار بذلك حسد المستوطنين الأوروبيين فتحالفوا ضده، مما دفع الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى نفيه عام ١٩٢٣ فذهب إلى فرنسا واصطدام بالمواقف الاستعمارية كذلك لدى اليساريين الفرنسيين فرحل إلى مصر ثم إلى دمشق التي اتخذها أخيراً دار هجرة وبقي فيها حتى وافته المنية عام ١٩٣٦ ودفن فيها (لمزيد من المعلومات انظر محفوض قداش، الأمير خالد وثائق وشهادات لدراسة الحركة الوطنية الجزائرية، الطبعة الأولى، ديوان المطبوعات الجزائرية ، الجزائر عام ١٩٨٧).

١١- الشيخ، سليمان: **الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين**، ترجمة حافظ الجمالي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٨، ص٧١.

* حزب نجم شمال إفريقيا: هو حزب جزائري أسسه الحاج علي عبد القادر عام ١٩٢٦ وأصبح رئيسه وقد ضم في عضويته عدداً من سكان شمال إفريقيا القاطنين في باريس ولكن غالبيتهم كانت من الجزائريين ، في عام ١٩٢٨ تنازل المؤسس عن رئاسة الحزب لمصالي الحاج وذلك بسبب انشغاله بالتجارة، وكانت مطالب مصالي الحاج في التحرر الكامل من الاستعمار الفرنسي قد دفعت الأخير إلى حل الحزب ونفي وسجن أعضاءه وذلك عام ١٩٢٩.

oual, n° 2 , ،12- Harbi, Mohamad: Les nationalistes Algériens et le Maghreb, in S Paris 1954, P.13.

* الحاج علي عبد القادر: من مواليد دوار السعادة (لم يذكر المؤرخون تاريخ ولادته) بالقرب من مدينة غليزان في الجزائر، كان متوسط الثقافة باللغتين العربية والفرنسية، هاجر إلى فرنسا وعمل في التجارة وحصل على الجنسية الفرنسية بموجب مرسوم ٢٢ أيار عام ١٩١٠ ، انتسب إلى الحزب الشيوعي الفرنسي وتدرج في المراتب حتى أصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب ورئيساً لإحدى خلايا وذلك في الفترة بين عامي ١٩٢٤-١٩٢٥، وكان المؤسس الحقيقي لحزب نجم شمال إفريقيا عام ١٩٢٦ ورئيساً له ، ونظراً لانشغال الحاج علي بالتجارة فقد تنازل عن رئاسة الحزب لمصالي الحاج عام ١٩٢٨، وانقطعت أخبار الحاج علي بعد تركه النجم ولا نعرف تاريخ وفاته الدقيق (لمزيد من المعلومات انظر منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية).

Afrique du Nord en marche, Paris 1973, p. 106.،13- Julien, Charles André : L

Algérie contemporaine Paris 1964, p. ،14- Ageron, Charles Robert: Histoire de l 350.

١٥- الشيخ: مرجع سابق، ص ٧١.

١٦- قداش: مرجع سابق، ص٣٠١.

١٧- قداش: المرجع نفسه، ص ٢٩٤.

١٨- منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية .....، مرجع سابق، ص ٢٨٣.

١٩- قداش : مرجع سابق، ص ٢٨٨-٢٨٩.

20 -Ageron : op. Cit., P. 352.

٢١- بوحوش : مرجع سابق، ص ٢٨١-٢٨٢.

٢٢- مشروع بلوم – فيوليت هو فكرة رئيس الحكومة الفرنسية ليون بلوم وموريس فيوليت وزير الدولة، وكان يقوم على السماح للجزائريين في الحصول على حقوق الجنسية الفرنسية (المواطنة) بدون التخلي عن هويتهم العربية الإسلامية، ولكن معارضة النواب الفرنسيين وممثلي المستوطنين الأوربيين في الجزائر، وكذلك موقف زعماء حزب الشعب الجزائري أفشل هذا المشروع الذي قبلته فيدرالية المنتخبين الجزائريين بزعامة فرحات عباس ومحمد صالح بن جلول .

٢٣- الشيخ: مرجع سابق،ص٧٢-٧٣.

٢٤- بوحوش: مرجع سابق، ص٨٢.

٢٥- تم في مؤتمر تور الفرنسية وبحضور الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي موريس طوريز فصل فيدرالية الجزائر الشيوعية التابعة للحزب الشيوعي الفرنسي وتشكيل الحزب الشيوعي الجزائري، ولكن التشكيل النهائي كان في كانون الثاني عام ١٩٣٦، وعقد الحزب مؤتمره التأسيسي الأول في ١٧-١٨ تشرين الثاني عام ١٩٣٦ (انظر سليمان الشيخ، مرجع سابق، ص٧٢-٧٣).

26- Stora, Benjamin : Messali Hadj :1889-1974 , Sycamore, Paris sans date, p. 127.

٢٧- قنانش، محمد،قداش،محفوظ: حزب الشعب الجزائري ، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية ، ١٩٨٥، ص ٦٠

٢٨- عبد القادر، حميد: **فرحات عباس رجل الجمهورية**،دار المعرفة الجزائر ، بدون تاريخ ، ص ٧٩.

٢٩- الشيخ : مرجع سابق، ص ٧٤.

٣٠- كان أمناء الحزب الشيوعي الجزائري منذ تأسيسه على النحو التالي: علي بو كرت عام ١٩٣٦، قدور بالقائم أصبح أميناً عام ١٩٣٨، عمار أوزيغان عام ١٩٤٥، السيد العربي بو هالة ١٩٤٧ وبقي حتى عام ١٩٦٢ (انظر سليمان الشيخ ، مرجع سابق، ص ٧٣).

٣١- بوحوش: مرجع سابقة ص ٢٨٤.

٣٢- الشيخ: مرجع سابق، ص ٧٤.

٣٣- بوحوش: مرجع سابقة ص ٢٨٤.

٣٤- عبد الحميد: مرجع سابق، ص ٩٤.

٣٥- مثل النواب الدكتور تامزالي وابن جلول وفرحات عباس والدكتور اسعدون، ومثل جمعية العلماء الشيخ العربي التبسي وخير الدين وتوفيق المدني، ومثل حزب الشعب الأمين دباغين وحسين عسلية بينما مثل الطلبة محمد الهادي جمام، لمزيد من المعلومات انظر: **فرحات عباسة ليل الاستعمار**، ترجمة أبو بكر رحال، المحمدية المغرب، بدون تاريخ).

36- Stora : Op. cit.,p. 189.

٣٧- بوحوش: مرجع سابق، ص ٢٨٤.

٣٨- منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية : مرجع سابق، ص ٢٩١-٢٩٢.

٣٩- قداش، محفوظ: **وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية**، د. م.ج، الجزائر ١٩٨٧، ص ٢٣٤.

40- Glories: Op. cit., p. 20.

٤١- **منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائري ...** ، مرجع سابق، ص ٢٩٣.

٤٢- سعيدوني، ناصر الدين: **الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الإسلامي من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية**، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠١، ص١٣٥.

43- Ageron: Op. cit., p. 599.

٤٤- عبد الحميد، جبار: **المسألة الوطنية والكولونيالية والحركة الشيوعية ١٩٣٥-١٩٦٥**، أطروحة دكتوراه دولة في العلوم السياسية، جامعة غرونوبل ١٩٧٥، ص٢٣٦.

٤٥- الشيخ : مرجع سابق، ص ٤٧٣-٤٧٤.

46- Harbi, Mohamed : Le F.L.N Mirage et réalité, Paris, éditions Jeune Afrique, 1980?p. 138.

٤٧- بوحوش: مرجع سابق، ص ٢٨٥.

48- Harbi : Op. cit., p. 138.

٤٩- بوحوش: مرجع سابق ، ص ٢٨٦.

٥٠- الشيخ: مرجع سابق، ص ٤٧.

51- Harbi : Op. cit., p. 138-139.

المراجع

أولاً- المراجع العربية

١- أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية بين ١٩٠٠- ١٩٣٠، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٣.

٢- الشيخ، سليمان: الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين، ترجمة حافظ الجمالي، منشورات الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة السورية ة دمشق ٢٠٠٨.

٣- بوحوش، عمار: التاريخ السياسي للجزائر منذ البداية ولغاية ١٩٦٢،الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٧.

٤- حربي، محمد: الثورة الجزائرية سنوات المخاض المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر ١٩٩٤.

٥- سعيدوني، ناصر الدين: الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠١.

٦- عبد الحميد، جبار: المسألة الوطنية والكولونيالية والحركة الشيوعية ١٩٣٥- ١٩٦٥، أطروحة دكتوراه دولة في العلوم السياسية، جامعة غرونوبل ١٩٧٥.

٧- عبد القادر، حميد: فرحات عباس رجل الجمهورية، دار المعرفة الجزائر بدون تاريخ .

٨- قداش، محفوظ : جزائر الجزائريين تاريخ الجزائر ١٨٣٠-١٩٥٤، ترجمة محمد المعراجي، الجزائر بدون تاريخ.

٩- قداش،محفوظ : وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية ، الجزائر ١٩٨٧.

١٠- قنانش، محمد، قداش، محفوظ: حزب الشعب الجزائري، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٨٥.

١١- منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠-١٩٥٤، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، الجزائر، بدون تاريخ.

ثانياً : المراجع الأجنبية (Les sources étrangère)

1- Ageron, Charles Robert : Histoire de l،Algérie contemporaine, Paris P.U.F, 1979.

2- Carnet, Jaques : L،Association des réformistes d،Algérie , in Afrique- Asie n° 43, Paris 1958.

3- Glories, Jean: Quelques observations sur la révolution algérienne et le communisme , in Afrique- Asie, n° 4&, Paris 1958.

4- Harbi, Mohamad : Les nationalistes algériens et le Maghreb, in s،oual, n°2 , Paris 1954.

5- Harbi, Mohamad : Le F.L.N, Mirage et Réalité , éditions Jeune Afrique, Paris 1980/

6- Julien, Charles André: L،Afrique du Nord en marche, Paris 1973.

7- Stora, Benjamin : Messali Hadj : 1889-1974, Paris, Sycarmore, sans date.

موقف المسيحيين العرب من الإصلاحات والتنظيمات العثمانية ١٨٣٩-١٨٧٦م

الأستاذ الدكتور محمود عامر

جامعة دمشق

عُدّ فتح القسطنيطينية سنة ١٤٥٣م على يد السلطان محمد الفاتح ١٤٥١-١٤٨١م، أول خطوة وحدوية ما بين الإسلام والمسيحية، حيث جمع في شخصه صفتي (الجهاد والخانية)[١]، علماً بأن مملكة الروم الشرقية لم يتبقَ منها سوى مدينة القسطنطينية وضواحيها[٢].

لم يعمد السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية على إجبار المسيحيين على اعتناق الإسلام بحسب ما روجت المصادر والمراجع الأوروبية، بل على العكس من ذلك، فلقد أعلن السماح لجميع سكان المدينة وضواحيها، كما سمح لها بإقامة شعائرهم الدينية، وأعطاهم نصف كنائسهم، والنصف الثاني حوّله إلى مساجد وجوامع، وحرص بشدة على حماية أملاك المسيحيين، كما شجعهم على تشكيل مجلس من كبار موظفي

الكنيسة لرعاية أملاك المسيحيين، وأجاز لهم الإشراف على رعاياهم في المناطق كافة، وفرض الجزية عليهم بناء على رغبة قساوستهم كبديل عن الخدمة الإلزامية(٣).

تواترت الروايات بشأن تعامل الدولة العثمانية مع المسيحيين عامة ومسيحيي البلاد العربية خاصة، ويخطئ من يعتقد أو يتصور أن الدولة العثمانية تعاملت مع المسيحيين بغير الاحترام، وإذا كان اعتقاد البعض مبني على فكرة جمع الشبان المسيحيين وتجنيدهم في قواتها العسكرية، فهذه فكرة خاطئة تماماً، لأن الشبان المسيحيين الذين جمعوا لم يكلفوا بأعمال سخرة، وإنما تولوا شؤون الدولة، ومع مرور الزمن كونوا الدولة العثمانية، وكانوا كبار قادتها، لأن أرطغرل بك عندما دخل الأناضول دخلها بنصف قبيلته المكونة من (٥٠٠) خمسمائة خيمة أفرزت ٤٤٠فارساً ولم تكن أفراد القبيلة كلها يزيد عن ٥٠٠ شخص ما بين مقاتل وشيخ وامرأة وطفل(٤)، ومع مرور الزمن ذابت تلك الأفراد في بوتقة الدولة المكونة لعناصر ثلاث (بيزنطيين، أفراد القبيلة، وعناصر الانكشارية)، وقد كانت الشبان التي جمعت من المناطق المسيحية (أوروبة الشرقية) الصفة الغالبة لهذه العناصر البشرية المكونة للدولة العثمانية التي مدّت سيطرتها على قارات ثلاث (آسيا، أفريقية، أوروبة) (٥).

إن مراجعة علمية جادة لتاريخ مسيحي الدولة العثمانية عامة ومسيحي البلاد العربية خاصة، يلاحظ أن هؤلاء المسيحيين سواء في الدولة العثمانية وولاياتها العربية منها، لم يكونوا يوماً من الأيام ينظر إليهم من قبل أوروبة الغربية والشرقية على أنهم مسيحيون لهم حقوقهم نفسها، وإنما نُظر إليهم أنهم عرب وعثمانيون، و لم يتداعوا لحماية هؤلاء المسيحيين، إلا كوسيلة للعبور إلى البلاد العربية والتستر بهم لامتصاص خيراتها أولاً وخيرات المسلمين ثانياً، وتاريخ كنيسة روما أو بطريركية الروم شاهد على ذلك(٦) فلم يعرفوا العرش البابوي أن عربي مسيحي فاز به.

لم يعامل المسيحيون في الدولة العثمانية سواء في المركز أو الولايات التابعة لها معاملة سيئة، فلقد أُسُندت لهم مناصب الشؤون الخارجية والترجمة والمراسلات الدولية، وأسند لليهود شؤون المحاسبة والصيرفة، وأسند للمسلمين في كل مكان الفلاحة والحراثة والخدمة الإلزامية(٧).

بالطبع لم تكن هذه المعاملة منّة لا من الدولة العثمانية ولا من القادة المسلمين، فالمسيحيون في البلاد العربية عامة والدولة العثمانية خاصة هم أصحاب أرض حقيقيون توارثوها قبل المسيحية وقبل الإسلام، وطرأ على تلك المناطق التي قطنها المسيحيون تطورات سياسية أحدثت تبدلاً طفيفاً في المعتقد، وربما تكون المناطق التي استولى عليها العثمانيون الأتراك أكثر تبدلاً في المعتقد، أما في البلاد العربية فإن قلة من المسيحيين اعتنقوا الإسلام لأسباب سياسية أو لأسباب ضرائبية، وتعد فترة الخليفة عمر بن عبد العزيز ٩٩هـ -١٠٢هـ أكثر فترة تاريخية اعتنق قسم من المسيحيين الإسلام بسبب سياسته من جهة والتزامه بالنهج الإسلامي الملزم بحماية أصحاب الديانات الأخرى من جهة أخرى(٨). علماً بأن الرسول (ص) قال: « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه» (٩).

أجمعت المصادر والمراجع العلمية على أن المسيحيين عوملوا معاملة حسنة ولاسيما في فترة سيطرة الدولة العثمانية على المناطق التي يقطنها مسيحيون، وكانت العلاقة بين الطرفين ودية(١٠).

أدى دخول بعض الوحدات الصربية والبيزنطية في العمليات العسكرية ضد أعداء الدولة العثمانية دوراً في اعتناق قسم من هؤلاء المسيحيين في الإسلام ليس هرباً من الجزية (كما يشاع) التي لم تكن مرهقة لدرجة التهرب منها إلى الإسلام وإنما بفضل النهج العثماني ومنح العسكريين السباهية تيمارات، إضافة إلى أن الكثير من المحاربين العثمانيين أقدموا على الزواج من نساء أهالي البلاد المفتوحة سواء في

أملاك الدولة البيزنطية سابقاً أو مناطق أوروبة الشرقية، هذا دليل على انسجام مع السكان المحليين(١١).

ومن المميزات التي كونت انسجاماً حقيقياً ما بين العثمانيين والمسيحيين عامة، لجوء العثمانيين إلى اعتماد صيغة سياسية متميزة جعلت من نظامهم السياسي المشتق بعموميته من الإسلام قبولاً لدى المسيحيين، وهذا النظام لا يلغي الولاءات ولا الانتماءات الفرعية للشعوب المكونة للدولة العثمانية(١٢).

أثبتت الإحصاءات التجارية والسجلات أن كبار التجار المسيحيين في مركز الدولة أو في ولاياتها، امتلكوا رصيداً تجارياً كبيراً لدى إدارة الدولة لدرجة، أن بعضهم تدخل في تبديل الولاة وعين وعزل أكثر من أية زعامة إسلامية، وهذا يعني أن الدولة العثمانية بنهجها وقدرتها على الاستيعاب والاحتواء كونت مجتمعاً لا يقوم على التمايز الديني(١٣)، وغدا التمايز الارستقراطي أكثر بروزاً، هذا البروز لم يلغِ الطوائف الدينية، وإنما تجاوز الفقراء والمحتاجين بسهولة ويسر(١٤).

لم يكن السكان من ذوي الأصول التركية المقتصرة على الأراضي البيزنطية على دين واحد، إلا أنهم يتكلمون لغة واحدة، وقد أسهمت اللغة في توحيدهم، ليس ضد المسيحية ولا بدافع الجهاد، وإنما بدافع التفاهم اللغوي والتعايش الذي كون مجتمعاً منسجماً أخلاقياً، علماً بأنهم أجبروا على محاربة الدولة البيزنطية، حيث كانوا يبحثون عن مستقر لقبيلتهم التي طردها المغول من أواسط آسيا في أوائل القرن ١٢ وقد دفع بهم ضغط المغول للوصول إلى الأناضول سنة ١٢٣١م.

لا شك أن العثمانيين تستروا بالجهاد لكسب القوى المحيطة بهم، فضلاً عن ذلك فهم مسلمون غير متشددين، والدليل على ذلك وجود أسماء مسيحية، بحسب ما أفادت السجلات العثمانية للقرن الخامس عشر(١٥).

إن قراءة واعية للأسس التي اعتمدها العثمانيون للتعامل مع رعاياهم من غير المسلمين، تظهر الأطر العثمانية المعتمدة منها.

١) الإطار التاريخي الاجتماعي الذي ينص على أسس ملزمة للمسلمين حيال الأقليات الأخرى.

٢) الإطار الثقافي الديني، المكون من مزيج ثقافي إسلامي شامل للعادات والتقاليد العثمانية، رغم طغيان الروح العسكرية عليه، لكنه رغم ذلك أطر هوية مشتركة للأجناس العثمانية حيث تضمن جانباً تسامحياً مع أصحاب الديانات الأخرى[١٦].

٣) الإطار السياسي- الدولي، حيث أسهم بشكل كبير في تخفيف حدة التوتر القائمة بين العثمانيين، من جهة والكنيستين الغربية والشرقية من جهة أخرى، كما أقرت واعترفت الكنسية الشرقية بالوجود العثماني رغم العداء المستحكم والناتج عن انتزاع العثمانيين للقسطنيطينية[١٧].

٤) إزاء هذا القبول المؤطر من قبل الكنيسة الشرقية، فقد لجأ العثمانيون إلى إتباع خطة اتسمت بالمرونة والحركية مع البلدان المسيحية شرقية كانت أم غربية، وقد أسفر عن هذه المرونة والحركية المتبعة حفاظ الأرثوذكس على هويتهم ،فطوروا لغتهم عبر المؤسسات العثمانية المحلية والإدارية والسياسية[١٨]، وتدافعوا للتغني بأمجادهم، ورددوا شعائرهم الدينية الإغريقية بوضوح في كنائسهم، ولم يلقوا مضايقات رسمية، غير أن هذا لا ينفي وجود تذمر محدود من قبل المسلمين المتشددين[١٩].

٥) نظام الملة، وقد أسسها العثمانيون كمؤسسة إدارية مهمتها تنظيم الملل غير المسلمة وفق انتماءاتها أو توجهاتها وخصوصياتها في التعليم والقضاء والضرائب[٢٠].

٦) يعلق المؤرخون المسيحيون على نظام الملل المتبع في الدولة العثمانية على أنه نظام غير عادل، لأن نظام الدفشرمه اقتصر على الملة الأرثوذكسية من دون بقية الملل، لكنهم تناسوا أن الدولة العثمانية نظرت إلى الكنيسة الأرثوذكسية نظرة وطنية، وإذا تغيرت هذه النظرة فيما بعد، فمرد ذلك تغير موقف الكنيسة الأرثوذكسية حيال الدولة وارتباطها ارتباطاً مباشراً مع روسيا محتمية بها، علماً بأن هذا الاحتماء وذاك الارتباط لا مسوغ له، والدولة العثمانية تصارعت مع الروس دفاعاً عن أراضيها، أما الروس فهاجموا الدولة العثمانية من باب حماية الأقلية الأرثوذكسية، وبتعبير آخر حذت روسيا حذو فرنسا في حماية الأقليات الكاثوليكية في ممالك الدولة العثمانية[٢١].

أما بالنسبة لليهود فإن الفتوحات العثمانية في أوروبة انعكست بصورة إيجابية على أوضاعهم المعيشية، فاستغل اليهود هذه الإيجابية وتدافعوا للعيش في الولايات العثمانية مستغلين الخلافات الدينية ما بين الدولة العثمانية وأوروبة الكاثوليكية[٢٢]، وقد حشر المسيحيون الأرثوذكس أنفسهم في تلك الخلافات وحمّلوا أنفسهم وزراً إضافياً[٢٣].

تفيد القراءات الأولية لوقائع نويس (تسجيل الوقائع) إن تفاقم الخلافات الدينية في الدولة العثمانية تزامن مع فوضى الانكشارية التي تدخلت في الشؤون المدنية كافة[٢٤]، ولم يعثر على ما يؤكد أن المسيحيين بكل أطيافهم مسهم أي أذى من الانكشارية[٢٥]، وتضيف تلك السجلات إن الانكشارية بتدخلها لم تلامس مصالح المسيحيين أو المسلمين، وإنما اكتفت ببث الفوضى التي طالت الجميع اقتصادياً، وانعكست بصورة مباشرة على خزينة الدولة، فاضطرت الدولة إلى خلط العملات الفضية بمعادن بخسة[٢٦].

يذكر قوجي بك في تقريره للصدر الأعظم لسنة ١٧٦١م بتكليف منه بناءً على توجيه من السلطان أحمد الثالث أن المسيحيين ظلت أحياؤهم ومتاجرهم في مأمن، رغم تعرض استانبول وبعض المدن الأخرى إلى فوضى عارمة، ويفيد التقرير أن تعالي أصوات المسيحيين كان بتحريض أوروبي مسبق، وليس بسبب ما تعرضوا له من أذى[٢٧].

أما بالنسبة للمسيحيين العرب، فلم يتعرضوا إلى أذى لا قبل الإصلاحات والتنظيمات ولا بعدها، وإنما آزروا أوروبة في ضرورة استبدال القوانين التي لم تعد مناسبة للقرن التاسع عشر[٢٨].

قد يمثل لبنان مركزية المسيحية في الدولة العثمانية ،ولهذا فقد توحد الموحدون، وقسم من الموارنة ضد إصلاحات إبراهيم باشا، ورفضوا دفع الضرائب والانصياع للانخراط بالعسكرية[٢٩].

أسفر عن تحرك إبراهيم باشا إلى نصبين (منطقة في تركية) واصطدامه مع القوات العثمانية إلى تدخل الدول الأوروبية التي فرضت عليه العودة إلى سورية، ومن ثم دبرت خروجه منها بموجب اتفاقيتي ١٨٤٠-١٨٤١م[٣٠].

ألغت الدولة العثمانية التنظيمات التي أقرها إبراهيم باشا في ولاية سورية، وأعادت التقسيمات السابقة للولايات دمشق وحلب وصيدا، وعهدت بإدارتهم إلى ولاة برتبة وزير[٣].

أما جبل لبنان، فقد حكم مجدداً من قبل الأسرة الشهابية حيث عُينّ بشير الثالث سنة ١٨٤٠م بدلاً من بشير الشهابي بموجب فرمان سلطاني[٣٢].

إذا كانت ولايتي حلب ودمشق قد شهدتا استقراراً أمنياً جيداً، فلأن المسيحيين فيها لم يحتجوا ولم يتعرضوا إلى أذى مباشر لا من سلطة استانبول ولا من ولاة الأمر

فيها، فأما جبل لبنان، كان مضطرباً بصورة دائمة، وفشل بشير الثالث في ضبط الأمور فيه، وتفيد المصادر العثمانية أن فرنسا وبريطانيا تدخلتا بشؤونه وشجعتا الأهالي ضد بعضهم وذلك كحجة مشروعة لتدخلها به[٣٣].

تذرع موحدوا جبل لبنان بممانعة بشير الثالث التعويض للمنفيين منهم أو الذين تضرروا من الحكم المصري ولجوئه إلى اعتقال بعضهم بحجة إعلان العصيان، علماً بأن الموارنة والشهابيين تحالفا سوية مستغلين احتجاجات الموحدين، وتعرضهم لمواجهة منظمة من قبل الأمير بشير الثالث[٣٤]

لم يكن الموارنة يفكرون بالثورة ولا بإعلان الاحتجاجات إلا ان بعض رجال الدين صرحوا أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة أن الموارنة هم القوة البارزة والرئيسة في لبنان، وقد تزعم البطريرك الماروني يوسف حبيشي ١٨٢٣-١٨٤٥م الاحتجاجات وبدأ بإرسال منشورات إلى قرى الموارنة الذين يتعايشون مع الموحدين بضرورة تعيينه وكيلاً يدافع عنهم[٣٥].

تعالت أصوات الموحدين بضرورة عزل الأمير بشير الثالث، وقد أيدت فرنسا الموحدين، وأوعزت إلى الموارنة بضرورة عزله، ولكن البطريرك رفض التوجهات الفرنسية الرامية إلى مطالبة الموارنة بعزل الأمير بشير الثالث.

تجنبت فرنسا زيادة الضغط على البطريرك الماروني يوسف حبيشي، وقدمت له منحة مالية، ليس لإرضائه فقط، وإنما لتقوية الموارنة على الساحة اللبنانية[٣٧].

تجاهل الأمير بشير الثالث صيحات الاحتجاج التي أعلنها الموحدون وتدخل فرنسا العلني في شؤون إمارته، ودعا سنة ١٨٤١م زعماء الموحدين لتدارس الأمر معهم بشأن الضرائب[٣٨].ازدادت الأمور تأزماً، ولاسيما بعد حدوث اشتباك بين الموحدين والموارنة وحوصرت دير القمر، وتمكن الموحدون من تسجيل انتصار جزئي على الموارنة وفك الحصار بعد تدخل والي بيروت والقنصل الإنكليزي

(البريطاني) الذي وجه رسالة إلى والي دمشق نجيب باشا (١٨٤٠-١٨٤١) يعلن تحفظه تجاه السياسة العثمانية في بلاد الشام[٣٩].

وجه والي دمشق رسالة إلى الصدر الأعظم رؤوف باشا، يعلمه بما جاء في كتاب قنصل بريطانيا في بيروت، وحالما وصلت رسالة الوالي إلى الصدر الأعظم رؤوف باشا استدعى السفير البريطاني واحتج على ما جاء على لسان قنصله في بيروت، وقد أنكر السفير علمه بذلك. ومما جاء في رد الصدر الأعظم، هل تريد ملكة بريطانيا أن تقرأ فرمان كلخانه في بيروت بدلاً من استانبول ليطمئن المسيحيون الكاثوليك أيضاً، إن فرماناتنا التنظيمية، تشمل مركز الدولة وولاياتها، ولماذا لم تحتج بريطانيا على التدخل الفرنسي السافر في شؤون ممالكنا، ولماذا تعمد دولتكم لدعم (الدروز) الموحدين، أتريدون وسيلة للتدخل في شؤون ولاياتنا وعموم دولتنا؟، ألا تكفي الإصلاحات وفرمان كلخانه خطي وتعهد جلالة السلطان برعايته لتنفيذه بالدقة المطلوبة[٤٠].

تجاهل السفير البريطاني تصريحات الصدر الأعظم واستئذن بالخروج، فوجهت الحكومة البريطانية كتاباً رسمياً إلى السلطان عبد المجيد الذي عزل رؤوف باشا وعين بدلاً منه عزت محمد باشا صدراً أعظم وذلك في ٢٠ شوال ١٢٥٧هـ/١٨٤١م[٤١].

لم تكن الدولة العثمانية في موقع يسمح لها مقاومة رغبات بريطانيا وفرنسا فلجأت إلى اعتماد الإدارة المركزية في بلاد الشام، في حين أقرت تعيين ضابط عثماني في لبنان كوالٍ جديد وكإجراء سياسي، ريثما تتضح مقومات التنظيمات الإدارية والقانونية التي ينوي السلطان عبد المجيد اتخاذها[٤٢].

إن اعتماد الحكم المباشر في لبنان وإن قبل به الموحدون مبدئياً، إلا أن التدخلات الأوروبية دفعت الموحدين للاحتجاج على تلك السياسة بذريعة أنها جاءت على أنقاض

الأسرة الشهابية النصرانية (المسيحية)، وكذلك رفض الموارنة ذلك، وعبر البطريرك الماروني يوسف حبيشي عن طائفته بالرفض القطعي للإجراءات التي اتخذتها الدولة العثمانية كعقوبة للموارنة[٤٣].

علق أحمد جودت باشا على سياسة الدولة العثمانية في جبل لبنان واستجابة الدولة لرغبة الموحدين والموارنة بإنشاء قائمقامية لكل منهما. إن الدولة العثمانية وتراخي السلطان عبد المجيد أمام رغبة كل فرنسا وبريطانيا جر على بلاده نشوء خرق ديني ومذهبي، لم تكن الدولة العثمانية قد اعتادت على ذلك، فاللبنانيون ليسوا موحدين وموارنة، بل هناك طوائف إسلامية وأخرى مسيحية لم تراعِ الدولة العثمانية ظروفهم، وهل تقيم لكل منهم قائمقامية؟.

وأضاف إن مسيحي الولايات العثمانية منذ القرن السادس عشر لم يحتجوا على سياسة الدولة العثمانية، ولم يلمسوا ظلماً لطائفة فيها، ولكن محاولة الدولة العثمانية تبديل جلدها بمبضع أوروبي، فإن الجلد الذي سترتديه ممزق من أطرافه، وهذا التمزيق هو بداية الخروق التي تواجه دولة تستدعي العدو الغربي لإصلاح حالها[٤٤].

إذا قرئت أحداث لبنان بمعزل عن النظرة الطائفية، لتبين أن الذي أودى بجبل لبنان إلى الهاوية: القائمقاميتين ١٨٤٢م ونظام شكيب أفندي ١٨٤٥م، و إن الدولة العثمانية نفسها أرادت صرف أنظار الدولتين بريطانيا وفرنسا عن عدم تنفيذ بنود فرمان كلخانه خطي حيال الطوائف الدينية المنضوية تحت الراية العثمانية، وإذا كانت النمسا قد قدمت مقترحاً يقضي بتقسيم جبل لبنان إلى منطقتين إداريتين، فهذا لا يعني بأن الطوائف اللبنانية المسيحية وغيرها كانت راضية عن ذلك، لكن زعماء الطائفتين المارونية والموحدية هما اللتان قررتا عن رعاياها (رعيتهما) [٤٥].

لقد كان ساسة الدولة العثمانية آنذاك يتحدثون بعدة ألسنة وبعدة وجوه مرة مؤيدين لرأي الدولة ومرة مؤيدين لفرنسا وأخرى لبريطانيا، لكن المسيحيين والموحدين حتى

زعاماتهم، لم تطالب بالانفصال عن الدولة العثمانية وهذا تأكيد على وحدة الرؤية المسيحية والإسلامية التي مثلها آنذاك الموحدون حيال حاكمية الدولة العثمانية لهم[٤٦].إن انجراف الموارنة باتجاه فرنسا ومجاهرتهم بالعداء للدولة العثمانية، هي التي دفعت الموحدين للاحتجاج أكثر، ليس ضد الدولة العثمانية وإنما احتجاجاً على (المزايا) التي حصل عليها الموارنة بفضل رعاية فرنسا لهم واستجابة الدولة العثمانية لتلك المطالب[٤٨].

لم يحمل شكيب أفندي في سلته السياسية حلاً وافياً للقوى السياسية بل حمل في تصوراته إعادة مركزية الدولة على جبل لبنان رغم اقتراحه إقامة مجلس مختلط يجمع الطوائف الخمس (السنة، الموارنة، الموحدين، الروم االأرثوذكس، الروم الكاثوليك) ومهمة هذا المجلس إدارية وتنسجم مع حركة الإصلاحات، لكنها غير تنظيمية، لتحكم الوالي العثماني بها وبما يصدر عن الصدر الأعظم وعنه[٤٩].

علق مستشار الخارجية العثمانية أسعد أفندي بالقول: إن مسيحي لبنان وسورية، رغم الصراعات الدائرة في بلاد الشام وخاصة جبل لبنان، لم يعلنوا مسيحيتهم كهوية قومية، وإن الشكاوى التي كانت ترد إلى مقام الصدر الأعظم تذكر مصطلح العروبة كقومية والمسيحيين كطائفة، وبناء عليه فقد علق الصدر الأعظم قبرسلي محمد أمين باشا عندما نقل إليه أخبار حرب الستين في لبنان وصداها في ولاية سورية وموقف عبد القادر الجزائري، الحمد لله الحرب الدائرة في ولاية جبل لبنان حرب دينية وبتحريض غربي، وليس قومية، ولو كانت قومية لقسمت جبل لبنان إلى قطع دينية وقومية، فالحرب المذهبية جراحها سطحية أما القومية أو العرقية فهي بغضاء دائمة ودماؤها سوداء، لا عودة لها إلى ما كانت عليه، صحيح أن مقولة الصدر الأعظم قبرسلي دللت على أن الحرب هي مذهبية وليست دينية، ولو أنها حرب قومية لأدرك القراء أن المسيحيين والمسلمين يقاتلون العثماني قتالاً ضارياً، ولهذا بقي العثماني في

بلاد الشام حتى سنة ١٩١٨م حيث أُخرج بقوات عربية بقيادة فيصل بن الحسين وأُخرج العثمانيين من مرج دابق مهزومين كما دخلوا سنة ١٥١٦م منتصرين.

تجاهل الصدر الأعظم تدخل موظفيه في تلك الحرب، وأن قائد القوات العثمانية المرابطة في الجبل وبيروت أيدت بصورة مباشرة الموحدين ليس حباً بهم، وإنما كراهية بفرنسا التي حمل مؤيدوها من المسيحيين شعارات تدعو إلى الانفصال عن العثمانيين، غير أن هذا التيار المتشدد برز بشكل واضح وجلي بعد صدور الدستور سنة ١٨٧٦م قابله بالطرف الإسلامي تيار متشدد يدعو للتمسك بالدولة العثمانية كونها دولة إسلامية.

أما مسيحيو حلب والعراق وسورية وجميعهم التزموا بالموقف العام الذي دعا إليه الأحرار، والتزموا بالجانب القومي، ولم تكن الإصلاحات والتنظيمات العثمانية والفرمانات الإصلاحية تعيق مسيرة حياتهم الاجتماعية ولا العقائدية، وإنما تأثروا كبقية أطياف المجتمع اقتصادياً، وقد تفاوت التأثير الاقتصادي من ولاية إلى أخرى، علماً بأن الضرائب المفروضة من قبل الدولة العثمانية كانت واحدة على المسلمين والمسيحيين بكل أطيافهم، عدا ضريبة البدل العسكري حيث أقرها قانون الفاتح وقوانين السلطان سليمان القانوني التي لا تلزم تلك القوانين المسيحيين بتأدية الخدمة العسكرية(٥١).

لقد تأثر مسيحيو العراق من الضرائب التي فرضت على أهالي العراق كافة، ولم يكن مسيحيو العراق نشيطون تجارياً كما هو الحال في بقية ولايات الدولة العثمانية، هذا الواقع الاقتصادي السيء لمسيحي ولايات العراق ولاسيما بغداد، لم يدفعهم لاتخاذ مواقف متباينة عن بقية سكان العراق، والحال نفسه بالنسبة لمسيحي ولايتي سورية وحلب حيث اعتمدوا على التجارة من جهة وعلى مردود المدارس التي افتتحت من قبل المنظمات الدينية الأوروبية منذ القرن السادس عشر وتحديداً سنة ١٥٣٨م حيث

توافدت تلك المنظمات الدينية بشكل كثيف مستهدفة الفتنة، غير أن التماسك الوطني والقومي لسكان حلب ودمشق، أفشل أهداف تلك الجمعيات، وأرغمت من جراء هذا التماسك القائم على أساس وطني وقومي إلى قبول تدريس أطفال المسلمين في مدارسهم(٥٢).

أثبتت الدراسات والوثائق أن الدولة العثمانية لم تتدخل في المدارس التي افتتحها المسيحيون في (حلب، دمشق، بيروت، صيد، القدس) إلا من حيث مراقبة الكتب وبشكل محدود جداً(٥٣).

١ – موقف المفكرين المسيحيين:

انقسم موقف المفكرين المسيحيين بصورة عامة بين التمسك بأهداف الدولة العثمانية كحفاظ على التعايش السائد في أفراد المجتمع رغم التنوع العرقي والعرفي، وأدركوا أن بقاء الدولة العثمانية قوية يضمن كيانهم الذي يمكّنهم مجتمعين موحدين من خلق نهضة عربية الطابع، لاسيما أن مقومات النهضة بأيديهم وعلى معرفة جيدة بخلقها مسنجمة مع واقعهم الوطني والقومي قبل الواقع الديني المصان رسمياً من قبل القوانين المعمول بها في الدولة العثمانية منذ فتح القسطنطينية وحتى القرن التاسع عشر(٥٤).

إن إدراك مفكرو المسيحيين لواقعهم المعيشي المحصن قانونياً دفعهم للتحالف مع مفكري المسلمين بغية إنشاء تيار يدعو إلى الجامعة الإسلامية ترأسه أديب أسحق(٥٥)، وقد هدفت الجامعة الإسلامية إلى حماية الولايات العربية من الاحتلال الأوروبي، وعدم إقامة تفرقة بين العثمانيين(٥٦).

لقد أجمعت مؤلفات المفكرين من مسحيين ومسلمين على ضرورة التعايش تحت مظلة الوطن واعتماد اللغة العربية اللغة الأم كلغة موحدة لأبناء العروبة بمختلف أطيافهم ومذاهبهم ومعتقداتهم(٥٧).

بعكس فرنسيس فتح الله المراش (١٨٣٦-١٨٧٣) الذي تبنى علانية دعوة أبناء العروبة، للتمرد ضد الدولة العثمانية[٥٨].

لقد أدرك المفكرون العرب (مسيحيون ومسلمون) أن تبدل النظم الإدارية في بلاد الشام، وخاصة جبل لبنان، هي من صنع الدول الأوروبية (بريطانيا - فرنسا - روسيا بروسيا ، النمسا، ايطاليا)، وأن بعض السياسيين الأتراك الطورانيين أيدوا سراً التوجهات الأوروبية ولا سيما بعد صدور الدستور وتجاهل السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦-١٩٠٩) للمشروطية الأولى، وأن هذه الدول الأوروبية الست هي التي ضمنت نظام جبل لبنان، ولم يكن بمقدور مجلس النواب العثماني تعديله[٥٩].

لقد تفرد المفكر شبلي شميل بفكرة أن المسيحيين تحت المظلة العثمانية يعانون ظلماً واضطهاداً كبيرين، ولتمرير دعوته دعا إلى العلمانية لفصل الدين عن الدولة[٦٠]، ووضح في مؤلفه (شكوى وآمال) افتقار الدولة العثمانية إلى العلم والعدل والحرية وأنها دولة متخلفة جداً عن الركب الحضاري، وأنها لن تخرج من جلدها حتى لو أنها أقرت إصلاحات ما لم تمنح الولايات التابعة حرية اختيار نظامها السياسي والإداري[٦٤].

أما نجيب عازوري، فقد أيد النهضة العلمية التي بدأها السلطان عبد الحميد، وحمل الكنائس مسؤولية الفرقة والتشرذم التي تعيشها الطوائف المسيحية، ودعا علانية إلى استبدال الكنائس في مختلف الولايات بكنيسة عربية واحدة، شريطة أن تمارس العبادة والطقوس باللغة العربية[٦٢].

٢- موقف الدولة العثمانية من أحداث جبل لبنان:

قد يبدو لبعض القراء أن الدولة العثمانية لم تسعَ إلى فض النزاع الدائر بين الأطراف المتنازعة في جبل لبنان، والبعض الآخر حملّ الدولة العثمانية مسؤولية الاقتتال الدائر أيضاً، غير أن هذه الرؤية وذاك القصور غير صائبين، لأن الدولة

العثمانية منذ القضاء على الإنكشارية سنة ١٨٢٦م، لم تكن قادرة على اتخاذ أي موقف لأن الدول الأوروبية اعتادت على حرمان الدول التي تقع تحت قبضتها من جيشها أولاً وقوانينها ثانياً، وهذا ما واجهته الدولة العثمانية في العشرينات والأربعينات من القرن التاسع عشر (٦٣). يضاف إلى ذلك فإن أصحاب القرار من مؤيدي الإصلاح لم يخلصوا له، وامتطوا متن الأحداث سعياً إلى زيادة التسيب والفوضى في مرحلة ضياع القانون وفقدان النظام (٦٤).

يذكر جودت في تاريخه: إن عجز الدولة العثمانية عن التدخل في أحداث جبل لبنان ومنع تفاقمها أدى إلى ازدياد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية، التي سعت إلى زيادة نفوذ المسحيين الموارنة لدرجة أنها غدت أشبه بمنظمة تحدد اتجاهات الزعامات المسيحية التي انضوت طواعية تحت نفوذها (٦٥).

وأضاف لقد صَعب على الدولة العثمانية التدخل في شأن جبل لبنان، لأن الأسر الإقطاعية أمثال آل الخازن وآل حبيشي تبنوا رؤية الكنيسة التي غدت تتلقى توجيهاتها الدينية والسياسية من فرنسا (٦٦). وأن البطريرك حبيشي وسع دائرة نفوذه وتفرد بقيادة الطائفة المارونية التي جاهرت بعدائها للدولة العثمانية (٦٧).

أما رضا نور فقرأ أحداث لبنان على نحو أراد فيه الدفاع عن دولته حيث قال: إن ما قام به طانيوس شاهين الذي عده بعض المؤرخين أنه ثائر وطني، أنه إيحاء للدولة العثمانية وساستها التائهة في بحر الإصلاح والتنظيم وأن اللبنانيين قادرون على تصحيح أوضاعهم الداخلية، وهي حجة استغلها هولاء السياسيون العثمانيون لإظهار عجزهم عن التدخل في لبنان من جهة وعدم نقل الفتنة من بلاد الشام عامة ولبنان خاصة إلى مناطق الروميلي واستانبول وبقية المناطق العثمانية الأخرى التي وإن لم تظهر ميلاً واضحاً إلى مسيحي البلاد العربية إلا أنها مهيأة للاحتجاج والتظاهر بحجة المظلومية، وقد وفق الساسة في تبني هذا الاتجاه حيث ظلت الفتنة الدينية المفتعلة وقفاً

على لبنان فقط ولم تفيد التقارير العثمانية لولاتها بأن مسيحي سورية وولاية حلب والعراق لم يبدوا أي احتجاج طائفي (٦٨).

الخلاصة:

إن هذا التجاذب المسيحي العام خلال القرن التاسع عشر، ولدّ مفكرين مسيحيين بعضهم تمسك بعروبته، وعدّها المظلة الوحيدة التي تحمي أبناء العرب وخاصة المسيحيين الذين يضيع تاريخهم بدون العروبة، وقد أسفر عن هذه الدعوة العروبية الإيمان بالإدارة العثمانية التي تحمي الوطن من الأطماع الأوروبية التي تستخدم المشاعر الدينية لدى المسيحيين كوسيلة للسيطرة على وطنهم والضرب بتاريخهم العريق الذي كون مع الإسلام تراثاً حضارياً إطاره قومي ومظلته قومية، رغم الإرهاصات المذهبية التي تخلل هذا التراث، لكنها المذهبية التي تخلل هذا التراغير أن هذه المذهبية المفتعلة ، هي إرهاصات جوفاء لا قيمة لها، ولهذا فإن بعض المفكرين المسيحيين تخوف من هذا الخلل الذي تسبب به بعض رجال الدين، وعملوا على تنميته، ولم يكن المفكرون الإسلاميون أوفر حظاً من حيث لجوء بعض رجال الدين لديهم من تنمية المذهبية حتى ولو بصورة غير واضحة كما لدى المسيحيين، علماً بأن قسماً كبيراً من المفكرين العرب المسلمين تعاطفوا مع الدولة العثمانية ولاسيما خلال الفترة الحميدية ١٨٧٦-١٩٠٩م.

لا شك بأن السلطان عبد الحميد الثاني أظهر تعاطفاً كبيراً وواضحاً مع العرب، والفضل في توجهه يعود إلى أصحاب الطرق الصوفية العرب المسلمين الذين كانوا يحيطون به، أمثال: الشيخ أبو الهدى الرفاعي (الصيادي) رئيس الطريقة الرفاعية، والشيخ محمد ظافر المدني رئيس الطريقة الشاذلية والشيخ محمد سليم رباط رئيس الطريقة النقشبندية، والشيخ محمود أبو الشامات رئيس الطريقة الشاذلية الي...

وكان هؤلاء إضافة إلى علماء ومشايخ عرب مسلمون لسان حاله، وقد جر هؤلاء عليه وعلى دولته نقمة مزدوجة الأهداف(٦٣)، وبالقياس فإن رجال العرب المسيحيين وإن بالغ بعضهم بالتطرف ضد العروبة والإسلام، لكن صيحاتهم لم تكن مسموعة من قبل معظم المفكرين، ولم يؤخذ بها، ولم تتبناها جهة رسمية أسوة بصيحات رجال الدين العرب المسلمين.

يخطئ من يعتقد أو يتصور أن العروبة واجهت تحدياً مباشراً أو غير مباشر من المفكرين، لكن تلك الصيحات الجانبية ضد العروبة فجرت طاقات معظم المفكرين العروبيين، وتلقف الشارع العربي بكل قواه تأييد هؤلاء المفكرين دون النظر إلى عقائدهم الدينية، وتجسد هذا الحراك ببروز حركة تعليمية واسعة، شملت الولايات العربية حتى مناطق الشمال الأفريقي (تونس، ليبيا) هللتا للقوميين العرب، ولانتصارات الجزائريين، ومنازعتهم الاستعمار الفرنسي.

الهوامش والحواشي

١- صفة الجهاد والخانية، تعني في التقاليد الإسلامية العثمانية السّيادة المطلقة له في الشرق الإسلامي وفي الغرب المسيحي على حد سواء، كما لقب إمبراطور روما وسلطان المسلمين للمزيد :

Fuad Köprülü, osmanlI Impartorluě,nun, kuruluşu *قيام الدولة* Ankara 1972.S. 159.

٢- محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٦٠.

٣- لقد تساوى روم استانبول مع بعض المسلمين في انتظار المهدي فروم استانبول يقولون: إن حائط كنيسة أيا صوفيا أنشق وخرج منه البطريرك الذي كان يصلي بالأهالي ساعة سقوط القسطنطينية، وأنه سيعود يوم يخرج الأتراك منها. للمزيد: فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص ١٦٤.

٤- محمود عامر، **الدولة العثمانية تاريخ ووثائق**، دمشق ٢٠٠١، ص ٨ (خارطة الدولة العثمانية) وما بعدها.

٥- يعد مسيحو البلاد العربية أسس المسيحية وجوهرها الرئيس، وأن السيد المسيح عليه السلام ولد وتربى ونشر الديانة على الأرض العربية لدى انتخاب بابا روما أو بطريرك الروم، لم تنتخب شخصية من أصول عربية، علماً بأن شخصيات مذهبية وقوميات متعددة تولت تلك المناصب، وهذا دليل على أن مسيحي البلاد العربية لا يعدون في أنظار الأوروبيين مسيحيين إلا لتحقيق مآرب بلادهم الذاتية، ولا قيمة لمسيحيتهم إلا للاحتماء.

٦- إسماعيل حقي، علمية تشكيلاتي، أنقره ١٩٧٤، ص ١٥٠.

٧- القرآن الكريم، **سورة البقرة**، الآية ٨.

٨- كمال السعيد حبيب، **الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية من بداية العهد النبوي حتى نهاية الدولة العثمانية**، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢٧.

٩- هاملتون جب وهارولد بوون، **المجتمع الإسلامي والغرب**، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١، ج١، الفصل الثاني (الخلافة والسلطنة).

١٠- عبد العزيز الشناوي، **الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها**، القاهرة ١٩٧٨، ج١، ص٤٠.

١١- حبيب، الأقليات السياسية، مرجع سابق، ص ٣٩٧-٣٩٨.

١٢- محمد فؤاد كوبريلي، **قيام الدولة العثمانية**، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٩٣، ص٣٥ وما بعد.

١٣- حكمت ققلجملي، **التاريخ العثماني**، تعريب فاضل لقمان، دمشق ١٩٨٧م، المقدمة ص٥-٩.

١٤- للمزيد راجع سجلات القرن الخامس عشر، أرشيف رئاسة الوزراء استانبول، وقائع نونيس، أي (تسجيل الوقائع) سجلات ١١ و١٣ و١٨.

١٥- حبيب، **الأقليات السياسية**، مرجع سابق، ص ٢٥٩-٢٦٠.

١٦- عبد السلام عبد العزيز فهمي، **فتح القسطنطينية**، القاهرة ١٩٦٩م، ص٧٠.

١٧- حبيب، المرجع السابق، ص٢٥٧-٢٦٣.

١٨- إسماعيل حقي، علمية تشكيلاتي، مرجع سابق ، ص ٢١٣.

١٩- يقوم نظام الملل على تصنيف رعايا الدولة من غير المسلمين على أساس الجنس والقومية أو اللغة وأيضاً على أساس المذهب الديني الذي يدين به هؤلاء الرعايا، ويطلق على كل مذهب ديني اسم (ملة) ولكل ملة رئيس ديني يرعى مسائل أتباعه وله حق الفصل في الأحوال الشخصية لملته، للمزيد: أحمد جودت باشا، **نظام الملة في الدولة العثمانية**، استانبول ١٣٠٧هـ، ص ٧٨.

٢٠- حبيب، **الأقليات السياسية**، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

21- Bernard Leuis, Christians and Jwis in the ottoman Empire, new York 1982. Vol. Lip 128.

٢٢- اتلخان جواد رفعت، **الخطر المحيط بالإسلام**، ترجمة وهبي عز الدين، بغداد ١٩٦٥م، ص ١٣٠

٢٣- وقائع نويس سجل ٢٤، ص ٧٨.

٢٤- أرشيف رئاسة الوزراء، **عينيات دفتري رقم ١٣**، ص ٩.

٢٥- أرشيف رئاسة الوزراء، **مهمة دفتري نمره ١٥٨**، ص ٤٧.

٢٦- مكتبة نور عثمانية، **تقرير رقم ٣٧ لسنة ١٧٦٥م**، ص ٣.

٢٧- المصدر نفسه ص ٤.

٢٨- لويس معلوف، **تاريخ حوادث الشام ولبنان لسنة ١٧٨٢-١٨٤١م**، بيروت ١٩٧٢م، ص ١٠١.

٢٩- اصطدم إبراهيم باشا مع القوات العثمانية في نصبين نزيب في ٢٤ حزيران ١٩٣٩، وألحق هزيمة بالجيش العثماني وأسر ١٢-١٥ ألف جندي عثماني علاوة عن الاستيلاء على مواقع ومخازن عثمانية، وهناك

وثائق تفيد أن فرنسا هي التي شجعته لمهاجمة الدولة العثمانية (بحسب رؤية محمود عامر) للمزيد، جمال محمود حجر، القوى الكبرى في الشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، الإسكندرية ١٩٨٩م، ص ٤٨.

٣٠- أمين مسعود محمود أبو بكر، **ملكية الأراضي في متصرفية القدس ١٢٧٤-١٣٣٦هـ/١٨٥٨-١٩١٨م**، أطروحة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٦م، ص ١٣٢.

٣١- أرشيف رئاسة الوزراء، **فرمان رقم ١٣٨ لسنة ١٨٤٠م.**

٣٢- نقولا زياده، **أبعاد التاريخ اللبناني الحديث**، القاهرة ١٩٧٢م، ص٩٨-٩٩.

٣٣- عبد العزيز نوار، **تطور لبنان السياسي منذ نهاية الحكم المصري حتى حوادث الستين**، في الأزمة اللبنانية، أصولها تطوراتها، أبعادها المختلفة، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٨٣.

٣٤- مجموعة **محررات سياسية**، ج١، ص ٥٠-٥٢.

٣٥- محمد أحمد ترحيني، ال**أسس التاريخية لنظام لبنان الطائفي بيروت ١٩٨١م**، ص ٩-١٠.

٣٦- المرجع نفسه، ص ٢٠-٢١.

٣٧- نوار، **تطور لبنان السياسي**، مرجع سابق، ص ٨٨-٨٩.

٣٨- يوسف خطار أبو شقرا، **الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية** للمزيد (د.م، د.ت) ص ٣٨٠.

٣٩- للمزيد راجع، **وقائع نويس** (تسجيل الوقائع) سجل رقم ٥٨ لسنة ١٢٥٧هـ/١٨٤١م.

40- Basbakan Arşivi, sadraxamlar No. 5. S. 1

٤١- ياسر السامرائي، **الدخل الأوروبي في جبل لبنان**، بغداد ١٩٦٣م، ص ٩٥.

٤٢- نوار، تطور لبنان، مرجع سابق، ص ٩١.

٤٣- أرشيف رئاسة الوزراء، **تصنيف جودت إرادة داخلية رقم ٦٧٥٢.**

٤٤- فيليب حتي، **مختصر تاريخ لبنان**، ترجمة فؤاد جرجس نصار، بيروت ١٢٦٤م، ص ٢٠١٦. ولزيادة الإطلاع على مواقف الموحدين والموارنة، أبو شقرا مرجع سابق، ص ٤٤-٥٢.

٤٥- أحمد جودت باشا، **مطالعة جودت**، أرشف رئاسة الوزراء، وثيقة رقم ٨٧٦٣ إرادة داخلية.

٤٦- شكيب أفندي هو شخصية عثمانية إصلاحية أرسل إلى جبل لبنان لتطبيق مشروعه الإصلاحي لكنه فشل في مهمته

٤٧- حتي، **مختصر تاريخ لبنان**، مصدر سابق، ص ٨٣.

٤٨- مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان من سورية ١٨٤٠م إلى سنة ١٩١٠، تعريف فيليب وفريد الخازن، مجلد ١ لبنان ١٩٨٣م، ص ٢١-٢٢، يمكن مراجعة مكتبة الجامعة اللبنانية للإطلاع عليها وعلى بعض المحررات والوثائق.

٤٩- ترحيني، **الأسس التاريخية**، مرجع سابق، ص ١٠٠-١٠٦.

٥٠- أحمد سرمد باشا، **موقف الدولة العثمانية من الحرب من جبل لبنان،** استانبول ١٢٧٦هـ/١٨٦٠م.

٥١- للمزيد يمكن مراجعة قوانين السلطان محمد الفاتح وسليمان القانوني والدستور العثماني.

٥٢- الأب متري هاجي أثناسيو، **موسوعة بطريركية انطاكية ٨ أجزاء،** دمشق مكتبة نبل، لبنان دار صادر ١٩٩٧م.

٥٣- المصدر السابق نفسه، وأجزاء ٧ و ٨ و ٩:

٥٤- **قوانين السلطان محمد الفاتح،** ترجمة خليل ساحلي أوغلي، مجلة عمان دراسات، المجلد الثالث عشر، العدد الرابع سنة ١٩٨٦م، ص١١١، وأيضاً، **مختارات من القوانين العثمانية،** بيروت ١٩٩٠.

٥٥- لزيادة الاطلاع على نشأة المفكر أديب اسحق، يمكن مراجعة قاموس التراجم لخير الدين الزركلي، بيروت، ١٩٨٠، ج١، ص ٢٨٥.

٥٦- لم يخجل أعضاء الجامعة الإسلامية من مصطلح العثمانيين، وأن المفكر اللبناني سليمان البستاني أهدى مؤلفه (عبرة وذكرى) إلى أبناء الوطن العثماني، للمزيد، جرجي زيدان، **بناة النهضة العربية،** (د.م. د.ت) ص١٨٠ وما بعد.

٥٧- ركز البستاني في كتاباته على الانتماء الوطني والروابط الوطنية، غير أنه نازعته فكرة توحد السوريين (سورية لبنان الأردن وفلسطين) وضرورة تكفلهم بعيداً عن الدولة العثمانية، يمكن مراجعة مؤلفه، **نفير سورية** (د.ت) ص١٠.

٥٨- جرجي زيدان، **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر**، مصر ١٩١١م، ج٢، ص٢٨٥-٢٨٦.

٥٩- بولص سعد، **لبنان والدستور العثماني** (د.م.د.ت) ص ١٧-١٨.

٦٠- مكي حبيب المؤمن وعلي عجبل منهل، **من طلائع يقظة الأمة العربية** (د.م.د.ت) ص١١٠.

٦١- أسعد رزق، شبلي شميل، **كتابات سياسية وإصلاحية**، بيروت ١٩٩١م، ص٩-١٠.

٦٢- نجيب عازوري، **يقظة الأمة العربية**، ترجمة أحمد بوملحم، بيروت، (د.ت) ص١٨٩.

٦٣- لزيادة الإطلاع على أسباب انهيار الدولة العثمانية:

- عبد القديم زلوم، **كيف هدمت الخلافة**، بيروت ١٩٩٠.
- محمود عامر، **اغتيال الدولة العثمانية**، دمشق ٢٠١٤.

٦٤- نوار، تطور لبنان، مرجع سابق، ص ٨٨- ٨٩.

٦٥- محمود صالح سعيد عبدالله، ا**لسياسة العثمانية تجاه متصرفية جبل لبنان ١٨٦١- ١٩١٨م**، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، ٢٠٠٣ ، ص ٣٨ هامش.

٦٦- أحمد جودت باشا، **تاريخ جودت**، استانبول، ١٣٠٩هـ، ج٥، ص ٣٦٨.

٦٧- مسعود ضاهر، **الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧-١٨٦١م**، بيروت، ١٩٨١، ص ٤٣٤.

٦٨- جودت باشا، **تاريخ جودت**، مصدر سابق، ج٥، ص ٣٩٨.

٦٩- رضا نور، عثمانلي تاريخي، استانبول، ١٩٢٤، ج٥، ص ٤١٣.

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم، سورة البقرة

١ – قسم الوثائق :

- أرشيف رئاسة الوزراء، عينيات دفتري، رقم ١٣.
- أرشيف رئاسة الوزراء، مهمة دفتري، نمره ١٥٨.
- أرشيف رئاسة الوزراء، فرمان رقم ١٣٨ لسنة ١٨٤٠م.
- أرشيف رئاسة الوزراء، تصنيف جودت، إرادة داخلية، وثيقة ٦٧٥٢.
- مكتبة نور عثمانية، استانبول، تقرير ٣٧ لسنة ١٧٦٥م.
- وقائع نويس (تسجيل الوقائع) سجلات، ١١ و١٣ و١٨.

٢ – المصادر والمراجع[١].

- البستاني سليمان، نفير سورية (د.م، د.ت).
- أبو بكر أمين مسعود محمود، ملكية الأراضي في متصرفية القدس ١٧٢٤-١٣٣٦هـ/١٨٥٨-١٩١٨م أطروحة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٩٦م.
- اثناسيو، الأب قوي هاجي، موسوعة بطريركية انطاكية، ٨ أجزاء دمشق، مكتبة نبل، لبنان، دار صادر ١٩٩٧م.

– لم يأخذ البحث بترتيب المصادر والمراجع، وإنما التزم بالترتيب الأبجدي.

- ترحيني محمد أحمد، الأسس التاريخية لنظام لبنان الطائفي، بيروت ١٩٨١م.
- حجر جمال محمود، القوى الكبرى في الشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، الإسكندرية ١٩٨٩م.
- حبيب كمال السعيد، الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية من بداية العهد النبوي حتى نهاية الدولة العثمانية، القاهرة ٢٠٠٢م.
- رزق أسعد، شبلي شميل، كتابات سياسية وإصلاحية، بيروت ١٩٩١م.
- الزركلي خير الدين، قاموس الأعلام، بيروت ١٩٨٠م.
- زلوم عبد القديم، كيف هدمت الخلافة، بيروت ١٩٩٠م.
- زيدان جرجي، بناة النهضة العربية (د.م، د.ت).
- زيدان جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مصر ١٩١١م.
- السامرائي ياسر، التدخل الأوروبي في جبل لبنان، بغداد ١٩٦٣م.
- أبو شقرا يوسف خطار، الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية (د.م، د.ت).
- عامر محمود، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق، دمشق ٢٠٠١م.
- عامر محمود، اغتيال الدولة العثمانية، دمشق ٢٠١٤.

- عبد الله محمود صالح سعيد، السياسة العثمانية تجاه متصرفية جبل لبنان ١٨٦١- ١٩١٨، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٣.

- ضاهر مسعود، الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧-١٨٦١م، بيروت، ١٩٨١.

مسعد بولص، لبنان والدستور العثماني (د.م، د.ت).

معلوف لويس، تاريخ حوادث دمشق ولبنان، بيروت ١٩١٢م.

المؤمن مكي حبيب ومنهل علي عجيل، من طلائع اليقظة العربية (د.م، د.ت).

نوار عبد العزيز، تطور لبنان السياسي منذ نهاية الحكم المصري حتى حوادث الستين، القاهرة ١٩٧٨م.

٣ – المصادر والمراجع العثمانية غير المترجمة:

- جودت باشا أحمد، نظام الملة في الدولة العثمانية، استانبول ١٣٠٧هـ.

- جودت باشا أحمد، تاريخ جودت، استانبول ، ١٣٠٩هـ.

- حقي إسماعيل، علمية تشكيلاتي، أنقره ١٩٧٤م.

- رضا نور، عثمانلي تاريخي، استانبول، ١٩٢٤.

- سرمد باشا أحمد، موقف الدولة العثمانية من الحرب في لبنان، استانبول ١٢٧٦هـ/١٨٦٠م.

٤ – المصادر والمراجع المترجمة إلى العربية:

- أتلخان جواد رفعت، الخطر المحيط بالإسلام، ترجمة وهبي عز الدين، بغداد ١٩٦٥م.
- حتي فيليب، مختصر تاريخ لبنان، ترجمة جرجس نصار، بيروت ١٩٦٤م.
- بك المحامي محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ترجمة إحسان حقي، القاهرة ١٩٩٨م.
- جب هاملتون وبودون هارولد، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة، أحمد عزت عبد الكريم، مصر ١٩٧١م.
- عازوري نجيب، يقظة الأمة العربية، ترجمة أحمد بوملحم، بيروت (د.ت).
- ققلجملي حكمت، التاريخ العثماني، تعريب، فاضل لقمان، دمشق.
- كوبريلي محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٩٣م.

٥ – المصادر والمراجع الأجنبية :

- *Başbakanlik Arşivi, sadrazamlar, No. 5.*
- *Bernard lewis, Christians and Jws in the ottoman Enpire, New York, 1982.*
- *Fuad köprülü, osmanLI impartolugunun kurulus, Ankara, 1972.*
- علماً بأنه مترجم إلى اللغة العربية، لكنني آثرت قراءته بالتركية الحديثة لأسباب خاصة بي.